صفحات من تاريخ أفغانستان المعاصر

أسد الإسلام الظافر

أحمد شاه مسعود

تأليف
صالح محمد ريكستاني

ترجمته عن الفارسية وقدمت له
د. عفاف السيد زيدان

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الكتـــــــاب: **أســد الإســلام الظافــر أحــمــد شــاه مسعود**

المــؤلـــــــف: **صالح محمد ريگستانى**

ترجمته عن الفارسية: **د. عفاف السيد زيدان**
وقدمتـــــه لـــــه:

الطبعـــــــــة: الأولـــــى ٢٠٠٦

الناشــــــــر: توزيع مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب
القاهرة ت: ٥٧٥٦٤٢١- ف: ٥٧٥٢٨٥٤

البريد الإلكترونـــى: www. Madboulybooks.com
info@madboulybooks.com

إشراف فنـــــى: أ. محمد أبو زهرة
(المدير الفنى)

إخـــراج فنـــى: أ. حسنى محمد

جـرافيـــــك: م. أحمد فرحات

تنسيق وتنفيـذ: أ. رحاب محروس

رقـم الإيـــداع: ٢٠٠٦/١٤٤٢٣

الطباعة والتجهيزات: مطابع الشرطة: شارع المرور- الدراسة- القاهرة - ت: ٥٩٠٣٠٣٠-٥٩٠٣٥٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

صدق الله العظيم

سورة آل عمران آية (١٦٩)

إهداء

أهدى هذا الكتاب إلى زوجى العالم الجليل فضيلة المرحوم الأستاذ الدكتور سيد عبد التواب عبد الهادى أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر.

فقد كان – رحمة الله عليه – حافظًا للقرآن الكريم، مجيدًا فى فهم معانيه، وقد جعله هذا عالمًا ثبتًا، سديد الرأى، قوى الحجة، ناصع البرهان، صاحب أخلاق رفيعة نبيلة.

وإننى أتضرع إلى المولى جلت قدرته أن ينزله منازل النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا، فهو سبحانه الذى وعد المتقين ولن يخلف وعده

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)) صدق الله العظيم

كذلك أهدى الكتاب إلى أبنائى وأحبتى :

محمد ، ميسرة ، رامين ، أنار.

فسوف يجدون فيه من المبادئ السامية، والتضحية، والفداء، والإيثار والبذل فى سبيل الدين والوطن ما يجعلهم يتمسكون دائمًا بما نشأوا عليه من المثل العليا، والأخلاق الحميدة، والفضائل الكريمة، والشرف الرفيع.

نعم الإله على العباد كثيرة * وأجلهن نجابة الأبناء

أ. د / عفاف السيد زيدان

شكر وتقدير

★يسعدنى أن أتقدم بالشكر الجزيل والتقدير العميق إلي السادة الأساتذة:

- الدكتور عبد الله عبد الله وزير خارجية أفغانستان.
- العلامة الأفغانى الكبير الأستاذ الدكتور عناية الله إبلاغ الأستاذ بجامعة الكويت.
- ونجله الأستاذ كفاية الله بهيئة الأمم المتحدة بكابل.

★ والسادة سفراء أفغانستان :

- سعادة السفير مسعود خليلى سفير أفغانستان فى الهند، ونجل شاعر أفغانستان الكبير خليل الله خليلى.
- سعادة السفير حاجى رشيد الدين محمدى سفير أفغانستان بدبى، وصهر أحمد شاه مسعود.
- سعادة السفير خليل حنانى سفير أفغانستان فى السودان.
- الأستاذة الدبلوماسية مليحة صيقل بسفارة أفغانستان بالكويت.
- الأستاذ الدبلوماسى عبد الرقيب سليم بسفارة أفغانستان بمصر.

وذلك لاهتمامهم جميعًا بى أثناء إقامتى فى أفغانستان لحضور مؤتمر الشهيد البطل أحمد شاه مسعود سبتمبر ٢٠٠٣م فهم جميعًا بذلوا جهدًا كبيرًا لتوفير كل ما يمكن لراحتى فى فترة السفر حتى لا أشعر بأى تعب أو مشقة، وأنا لا أستطيع أن أقدم لهم ما يجب من الشكر والتقدير

والامتنان لأنه كثير وفياض، فليقبلوا جميعًا عذرى وليتقبلوا كلماتى التى أشعر أنها عاجزة إلى جانب ما قدموه من واجب الضيافة، وحسن الاستقبال، وجمال التقديم.

★ **كذلك أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير وصادق الامتنان إلى الأساتذة :**

- **الدكتور عبد الله نـور الله** الأستاذ بجامعة كابل.
- **الدكتور محمد إيــاز** الأستاذ بجامعة كابل.
- **الدكتور عبد الله صديقـى** المذيع بإذاعة جمهورية مصر العربية.
- **الدكتور عبد الرؤوف محمد علي** المذيع بإذاعة جمهورية مصر العربية.
- **الدكتورة فاطمـة ميـر سيـد** الأستـاذة المنتدبة بجامعة الأزهـر.
- **الأستاذ عبـد الحسيب عمـار** طالب الدراسات العليا بجامعة الأزهر.

فـهـؤلاء لا أسـتـطـيع أن أوفـيـهـم حقـهـم مـن آيات الشـكـر والعرفان، فكم من كتب ومجلات وجرائد أفغانية أمدونى بها وجعلوها تحت تصرفى حتى أنهى الكتاب، ومهما أشكرهم فـالشـكـر بـالنسـبـة لـهـم قـلـيـل، فـجزاهم الله عنى خير الجزاء وأحسنه.

★ **وأختم كلمات الشكر بأصدقاء المجاهد البطل الشهيد أحمد شاه مسعود ورفاقه:**

- الأستاذ صالح محمد ريستانى مؤلف هذا الكتاب والملحق العسكرى فى تاجيكستان، وكان ممثلاً لأحمد شاه مسعود فى نفس وظيفته فى موسكو.

-الأستاذ الدبلوماسى الأفغانى سيد صمد
بـــوزارة الخارجيـــة الأفغانية.
-الأستـــاذ سيـد عزيـــــز صفـــو
المذيــع بإذاعـــة جمهوريـــة
مصـر العربية، والذى يدرس
الدكتـوراه بجامعــــات مصـر.

فقد كان لهؤلاء الفضل كل الفضل فى إمدادى بمعلومات عن شخصية أحمد شاه مسعود ساعدت على فهمى لهذه الشخصية العظيمة، ولو أفصل دور كل واحد منهم لتقديم ما يجب من الشكر له فلن أستطيع؛ لأنهم لم يبخلوا بمعلومات عرفوها أو كتب ملكوها فالشكر بالنسبة لهم قليل، فلقد أسرونى بمعروفهم وطوقوا عنقى بشمائلهم، والله وحده هو الذى سوف يجزيهم على ما قدموا؛ لأن الإنسان مهما قدم الشكر فهو عاجز مقصر.

أ.د / عفاف السيد زيدان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

بدأت علاقتي بأفغانستان منذ العشرين من شهر مارس عام ١٩٦٨م، حينما سافرت إليها مبعوثة من جامعة الأزهر بمصر، لدراسة الدكتوراه في الشعر الفارسي في موضوع الشاعر "فرخي سيستاني عصره وبيئته وشعره" وذلك بكلية الآداب جامعة كابل. وكُنت أول مصرية تذهب إلى أفغانستان للدراسة هناك.

وكان ذهابي إلى أفغانستان إبان حكم الملك محمد ظاهر شاه، آخر ملوك أفغانستان (١٩٣٣م - ١٩٧٣م)، وظللت هناك فترة قاربت الأربعة أعوام، وبعد أن أتممت رسالتي ناقشتها وسط جمع من الأساتذة المتخصصين الأفغان، فأشادوا بالجهد الذي بذلته والرسالة التي كتبتها.

ولكنهم لم يمنحوني هناك درجة الدكتوراه، لأن جامعة كابل لم تكن تمنح درجة الدكتوراه في ذلك الوقت، ولكن المناقشة كانت مهمة، لأنهم كتبوا بشأن الرسالة تقريرًا إلى إدارة البعثات المصرية أوضحوا فيه كيفية استفادتي من هذه البعثة وإنجازي للعمل الذي سافرت من أجله.

وأساتذتي من الأفغان الذين أدين بالفضل لهم:

١- المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الحي حبيبي.

٢- الأستاذ الدكتور غلام حسن المجددي عميد كلية الآداب جامعة كابل.

٣- الأستاذ الدكتور مير حسين شاه وكيل كلية الآداب جامعة كابل.

٤- الأستاذ الدكتور غلام صفدر پنجشيرى رئيس قسم اللغة الفارسية وآدابها .

٥- الأستاذ الدكتور غلام سرور همايون أستاذ اللغة الفارسية وآدابها، وهو الذى أشرف على رسالتى هناك .

٦- الأستاذة الدكتورة فاطمة طرزى .

٧- الأستاذ الدكتور نكهت سعيدى .

٨- الأستاذ الدكتور غلام حسين رضوى .

وبعد حضورى إلى القاهرة ناقشت رسالة الدكتوراه فى كلية الآداب بجامعة عين شمس تحت إشراف المرحوم الأستاذ الدكتور عبد النعيم محمد حسنين، رئيس قسم اللغات الشرقية بذات الكلية وعميد كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر، وعضوية الأساتذة والدكاترة : أحمد محمود الساداتى وفؤاد عبد المعطى الصياد وأجازوا الرسالة بمرتبة الشرف الأولى، وحضر المناقشة سفير أفغانستان بالقاهرة وجميع أعضاء السفارة الأفغانية بمصر فى ذلك الوقت، كما حضرها الأستاذ البروفيسور عبد رب الرسول سياف الأفغانى وكان يدرس الماجستير فى جامعة الأزهر فى ذلك الوقت، وهو أحد الرموز البارزة فى الجهاد ضد السوفييت.

وشهدت الأيام بعد ذلك تقلبات كثيرة فى أفغانستان فقد نحى الملك محمد ظاهر شاه عن الملك بعد انقلاب قام به ابن عمه وزوج أخته السردار محمد داود عام١٩٧٣م بمساندة روسيا والشيوعيين فى أفغانستان فألغى الملكية وأعلن نفسه رئيسًا للجمهورية، وظل السردار داود رئيسًا للجمهورية حتى قتل فى يوليو عام ١٩٧٨م، وبعد عام دخلت روسيا إلى أفغانستان بقضها وقضيضها فى السابع والعشرين من شهر ديسمبر عام

١٩٧٩م.

وبغض النظر عن الأهداف التى جعلت روسيا تدخل أفغانستان – لأنها معروفة مشهورة – فإن الحرب العسكرية التى قادها المجاهدون الأفغان ضد الروس حيرت القادة العسكريين، فقد انهار جيش أقوى دولة أمام قوات أفغانية صغيرة وبأقل العدة وأقل العتاد فكيف حدث ذلك ؟

وكيف استطاعت تلك القوات الصغيرة أن تحقق أهدافها بسرعة وتحرز نصرًا مؤزرًا ضد عدو وصفت جيوشه بأنها لم تهزم أبدًا ؟

وانبرت الأقلام تكتب عن عوامل نجاح المجاهدين الأفغان وعن أسباب هزيمة الروس، ولكن مع ذكرهم لهذه العوامل والأسباب أغفلوا ذكر الثمن الباهظ الذى دفعه الأفغان من دمائهم لتحرير بلادهم من الغاصب المعتدى، وحصروا أسباب نصر الأفغان على الروس فى سببين :

السبب الأول :

المساعدات التى انهالت على المجاهدين الأفغان من الشرق والغرب؛ لأن الأفغان فى نظرهم لو وقفوا فى ساحة المعركة بمفردهم ما تحقق النصر لهم.

السبب الثانى :

أن الإمبراطورية السوفيتية شاخت وكبرت، وأخذ نظامها يتداعى منهارًا ولذلك جاء النصر سهلاً ميسورًا بالنسبة للأفغان.

وأصحاب الرأى الأول والثانى غير منصفين فيما ذهبوا إليه لأن المحللين العسكريين الذين شهدوا هذه الحرب أقروا "أن الذين ساعدوا الأفغان فى الحرب كان دورهم نقطة فى بحر فالجهد كله تحمله الأفغان".

ويذكر أحمد شاه مسعود أن "البطل الحقيقى فى هذه الحرب هو الشعب الأفغانى".

أمـــا القـــول عن شيخوخة الإمبراطورية السوفيتية وهرمها فهو قول مرســـل علــــى عواهـــنه؛ لأن هذه الإمبراطورية كانت تملك من الأسلحة والجـــنود المدربيـــن ما يكفى لإبادة عدة دول مثل أفغانستان، ولكن اختفى لديهـــم باعـــث مهم وهو باعث الحماس لتلك الحرب وغموض الهدف من أجلها ولم يأت النصر للأفغان سهلاً كما ظنوا، فلو حسبنا مساحة الأراضى الأفغانـــية وأحجـــار الجـــبال وأخـــاديد الوديان لكان نصيب كل شبر منها عشرات الشهداء الذين سقطوا، ولم يرهبوا الموت رغبة منهم فى الشهادة، وحبًا للدفاع عن أرضهم والذود عن حياضهم، فقد كان الأفغان فى المعارك قادريـــن على إيجاد حلول سريعة لكل المواقف الطارئة التى واجهتهم، وعلى ابـــتكار خطـــط للقتال لم يعرفها أعداؤهم لأنهم يحاربون فوق أرض بلادهم، ولذلك جاء أداؤهم فى الحرب نموذجًا فريدًا يستحق التقدير والإعجاب.

كانـــت الأيـــام قـــد باعدت بينى وبين أفغانستان لانشغال الأفغان بقضية بلادهـــم، وإن كنت قد ظللت على صلة غير منقطعة بالكثير منهم وخاصة أسرة الأســـتاذ محراب الدين خان، وهى الأسرة التى عشت فيها طوال إقامتى هناك، وكانوا يبلغوننى عن الأحوال ما يفطر قلبى ويقض مضجعى.

وكانـــت أخـــبار أحمـــد شـــاه مســـعود تتصدر وسائل الإعلام المرئية والمســـموعة فى جميع أنحاء العالم وكيف دوخ الروس، وجاهد بصبر وجلد، وكان المسلمون يتلقفون أخباره، ويعرفون كثيرًا من التفاصيل عن معاركه فى وادى بنجشير.

وبـــدأت أجمع الكتب والمقالات عن هذا البطل لأكتب عنه كتابًا يكون فى أيدى المثقفين العرب. وفى ذلك الوقت كان الأستاذ سيد صمد الأفغانى

وهـــو من رفاق أحمد شاه مسعود وتلاميذه المقربين إليه يزورنى باستمرار بكلـــية الدراســـات الإنسانية حيث كان طالبًا فى مرحلة الماجستير بجامعة الأزهـــر، وكان يعرف رغبتى الملحة فى كتابة كتاب عن أحمد شاه مسعود فـــأمدنى بكثـــير من الكتب والمقالات، وأخبرنى أنه أبلغ أحمد شاه مسعود باهتمامى بأمر الكتابة عنه فسَرّهُ هذا الأمر لأنه كان يحب أن يطلع العرب على جهاده من أجل الإسلام.

ومضت الأيام سريعة متلاحقة واستشهد أحمد شاه مسعود ظهر يوم التاسع مـــن ســـبتمبر عـــام ٢٠٠١م وبكاه المسلمون جميعًا لأنه كان مجاهدًا موهوبًا، ومحاربًا شجاعًا.

وفـــى ســـبتمبر عـــام ٢٠٠٣م تلقيت دعوة كريمة من وزارة الخارجية الأفغانية للمشاركة فى المؤتمر السنوى لإحياء الذكرى الثانية للشهيد أحمد شاه مســـعود، وبـــدأت أســـتعد للســـفر إلى أفغانستان، ولم يرحب أولادى وأهلى وزملائـــى وكـــل مـــن عرفـــنى بهذا السفر ورأوا فيه مخاطرة غير مأمونة العواقـــب، خاصة بعد أن اقترن اسم أفغانستان بالإرهاب، ولا أدرى من الذى ألصـــق هذه التهمة الظالمة بالأفغان ؟ فلم يشتهر عن الأفغان أنهم قاموا بعمل تخريبى فى الخارج، ولم يتورطوا فى ارتكاب جرائم دولية إنهم أناس يدافعون عـــن بلادهم ويتحصنون فى داخلها، ومن يذود عن وطنه ويدافع عن عرضه مـــتى يكون إرهابيًا ؟ حينما كان الأفغان يحاربون روسيا كانت وسائل الإعلام الدولـــية تهلـــل لهـــم وتصفق لشجاعتهم وحينما هزمها الأفغان وتفكك الاتحاد السوفيتى واطمأن الغرب وأمريكا لذلك أداروا الوجه الآخر للأفغان وعاقبوهم وألصقوا بهم تهمة الإرهاب.

وبالـــرغم مـــن كل هذا وبالرغم مما سمعته كان يتملكنى شوق عارم

للذهـــاب إلــى أفغانســتان فى مؤتمر أحمد شاه مسعود لأطلع على حقيقة الأحوال وأرى بنفسى ماذا حل بهذه البلاد الجميلة التى عشت فيها وسعدت بجمـــال طبيعـــتها الخلابة، وجمال شمائل أهلها الطيبين، وعزمت وتوكلت علـــى الله وركبت الطائرة من مصر إلى دبى وسط دموع أولادى وإخوتى وأخواتـــى وتوسلاتهم بأن ألغى هذا السفر، ولكنى كنت مصممة على إتمام هذا الأمر ومضيت فى الطريق.

وأقلعت الطائرة من مصر إلى دبى فى الواحد من سبتمبر عام ٢٠٠٣م، وكـــان معى حتى ركبت الطائرة الأستاذ عبد الرقيب سليم الدبلوماسى بالسفارة الأفغانية. ويطول شرح الفزع والرعب الذى كان يصيب كل من يمسك جواز ســـفرى بمطار القاهرة ويعرف أننى مسافرة إلى أفغانستان، وكانت آلاف لِمَ ؟ ولمـــاذا ؟ تسبق كل تحذير، أما البسطاء فى مطار القاهرة من الذين ترامى إلى أســـماعهم أنـــنى مســـافرة إلى أفغانستان فقد حيونى بهتاف الله أكبر وكأننى مســـافرة إلى ساحة الجهاد، ولكن كل هذا لم يثننى عن عزمى فى العدول عن الســـفر. بعد الوصول إلى دبى مكثت بمطارها الدولى عدة ساعات حتى تقلع طائـــرة آريانـــا المتجهة إلى أفغانستان، وكان سعادة السفير حاجى رشيد الدين محمدى سفير أفغانستان بدبى وهو صهر أحمد شاه مسعود هو الذى سيصحب المســـافرين من الدول العربية إلى أفغانستان لحضور هذا المؤتمر، وهذه عادة الأفغـــان فى تكريم وتعظيم ضيوفهم إذ يصطحبهم أحد الكبار منهم فى الرحلة لكى يطمئنوا اطمئناناً كاملاً عليهم. وكان العرب المسافرون لهذه المناسبة على متن طائرة دبى أربعة هم :

صحافيان من قطر يعملان فى تليفزيون الجزيرة.

صحافى من الكويت يعمل فى جريدة القبس الكويتية.

ومـــن مصـــر كاتبة هذه السطور، وكان الأستاذ فهمى هويدى الكاتب المصرى المعروف قد سبقنا بيوم إلى أفغانستان.

وبعـــد حوالـــى ساعتين ونصف الساعة هبطت بنا الطائرة على أرض مطـــار كـــابل الدولى، وكان في استقبالنا وفد كبير من كبار رجال أفغانستان لتحيتنا حيث اصطحبونا معهم إلى قاعة كبار الزوار.

وكـــان أول ما لفت نظرى هو الفارق الكبير الذى حل بمطار كابل حينما رأيـــته وأنـــا قادمة إلى أفغانستان فى بعثتى الدراسية فى مارس عام ١٩٦٨م، وفـــى زيارتى الثانية وأنا ضيفة للمشاركة فى مؤتمر البطل أحمد شاه مسعود فى أول سبتمبر عام ٢٠٠٣م.

لقـــد بـــدت على مطار كابل فى المرة الثانية حالات الحرب التى تواكبت علـــى أفغانســـتان، فالمطار مملوء بحطام طائرات كثيرة عن يمين وعن شمال، وبـــدا علـــى المطـــار آثار الضرب والتخريب الذى حل بالبلاد نتيجة الحروب المتوالـــية، وكانـــت هذه صدمة كبيرة لى وبعد ذلك توالت الصدمات. بعد إتمام مراســـم الضيافة نقلتنا السيارات من المطار إلى فندق الإنتركونتننتال وأثناء سير الســـيارة فى الشوارع كان قلبى ينفطر على ما حل بأفغانستان من دمار الحرب فالبـــيوت والمـــنازل المهدمـــة كثيرة، وآثار الدمار لا يستطيع أن يخفيها أحد، والمشـــوهون بفعـــل الألغـــام والحـــرب الذين قطعت أيديهم وأرجلهم يملأون الشـــوارع، لقد تحولت كابل إلى مدينة من العصور الوسطى ولا مبالغة فى هذا. فندق الإنتركونتننتال خُيِّل إلى حينما رأيته أنه ليس هو الذى عرفته من نيف وثلاثيـــن عامًا حتى إننى حينما دعيت للنزول من السيارة لم أصدق عينى، فبنيانه الشاهق ذو الطوابق العشرة لم ينج هو أيضًا من القصف والضرب، ولكـــن الجهـــد الـــذى بذلـــه الأفغان لإصلاحه حتى يبدو بحالة جيدة أمام

الضيوف القادمين كان ظاهرًا وواضحًا.

وإذا كان الحال كذلك فى أفخم فندق فى أفغانستان فلا تَسَل عن باقى منشآت الدولة.

المهم أن هذه الزيارة أصابتنى بهم وكمد على ما حل بأفغانستان لن أنجو منه أبدًا خصوصًا حينما رأيت الجامعة التى درست فيها، والمنزل الذى عشت فيه مع أسرة الأستاذ محراب الدين خان الرجل الطيب العظيم، فقد كان المنزل فيلا جميلة أنيقة فى حى ده پورى تقع خلف جامعة كابل والمسافة بينها وبين الجامعة كانت قصيرة لا تتعدى عشر دقائق سيرًا على الأقدام، كنت أستمتع وأنا ذاهبة إلى الجامعة لأننى أسير على شاطئ جدول صغير تجرى فى مياهه الصافية النميرة أسماك صغيرة، وعلى ضفاف هذا الجدول توجد أشجار السرو والصفصاف الخضراء الباسقة، أما الجامعة فكانت مبانى كلياتها بيضاء اللون يفصل بينها حدائق غناء تمتلئ بالزهور والورود من كل نوع : ورود النسرين وشقائق النعمان والنيلوفر والخيرى والنرجس والأرغوان والياسمين وأنواع أخرى لا تعد ولا تحصى، والطيور تتنقل من زهرة إلى زهرة ومن وردة إلى وردة، كانت حدائق الجامعة حدائق ذات بهجة أما مبانى الجامعة فهى من الداخل والخارج جميلة نظيفة.

وكانت مكتبة الجامعة تحتوى على نفائس الكتب وأقيم المصادر، كل هذا أصبح أثرًا بعد عين فالجامعة لا تكاد تراها من كثرة الحشائش والأحراش التى نبتت حولها، حتى إنك تتبين أماكنها بصعوبة من بين هذه الأحراش والأشجار، ولم تسلم مبانى الجامعة من الضرب وطلقات الرصاص، وكان قبر الزعيم جمال الدين الأفغانى يتوسط الجامعة برخامه الأسود وأعمدته الطويلة المميزة لم أتبين مكانه بل لم أره مطلقًا لكثرة

الأحـــراش التى أحيطت بالمكان. وهذا أمر طبيعى فمن الذى كان سيذهب ويشـــذب الحشـــائش ويقلم الأشجار والصواريخ وطلقات الرصاص تنهمر علـــى كابل كأنها المطر طوال ثلاثين عامًا. أما الفيلا التى كنت أقطن فيها فـــلا يوجـــد لهـــا أثر ولا خبر، وأخبرنى السائق أن هذا المكان كان ميدانًا لمعارك شرسة ولهذا تهدمت مبانيه وسويت بالأرض.

أمـــا نهـــر كابل الذى كان يشق مدينة كابل هادرا بمياهه التى تنبع من جبال الهندوكش، وتواصل السير حتى نهر السند فى الباكستان وكانت مياهه الغزيرة تشبه فـــى لونها مياه نهر النيل وقت الفيضان، هذا النهر تحول إلى قطعة أرض جرداء يقطعها الناس ذهابًا وإيابًا على أرجلهم، وأقام فيه أهل كابل دكاكين لبيع بضائعهم، ونصـــبوا فيه أكواخًا لمختلف أغراض البيع والشراء، وأخبرونى أن المياه لم تعد تـــأتى إلـــيه منذ سنوات طويلة بسبب حالة الجفاف التى تتعرض لها أفغانستان منذ بدأت الحروب فيها.

ورحـــت أسأل عن الأحبة والأصدقاء فعرفت عنهم أخبارًا قطعت نياط قلبى وفتتـــت كبدى فهؤلاء ماتوا فى الحروب، وهؤلاء ذهبوا يلتمسون العيش فى بلاد بعـــيدة بعد أن ضاقت بهم السبل، وهؤلاء اختفوا ولم يستدل لهم على أثر، وتلك أم فقدت أبناءها فظلت ملتاعة تبكيهم حتى فقدت عقلها وعثروا عليها ميتة فوق كومة مـــن حديـــد آلات الحرب المحترقة ولم يبق أحد من أسرتها، وهذه أسرة قطعت أوصـــال معظم أفرادها وهم عاجزون عن الحركة. قصص وقصص سمعتها عن الذين أعرفهم فما بال من لم أعرفهم ؟

أهـــذه أنـــت يـــا كابل بعد طول السنين؟! أهذه أنت يا جميلة جميلات مدائن المشرق الإسلامى؟! تذكرت وأنا أرى كابل فى هذه الزيارة قصيدة الشاعر الكبير فـــرخى سيســـتانى (المتوفى عام ٤٢٩هـــ) الذى يرثى فيها السلطان محمود

الغـــزنوى حينما توفى عام ٤٢١هـــ فى عاصمته غزنة بأفغانستان، وكانت غـــزنة فى ذلك الوقت حاضرة من الحواضر العظيمة فى العالم الإسلامى، وكـــان بلاط السلطان محمود يجمع الفلاسفة والشعراء والأدباء والمؤرخين وعلـــى رأســـهم البـــيرونى وابـــن سينا والفردوسى والعنصرى والفرخى ومنوچهرى والگرديزى والبيهقى وغيرهم كثير من عظماء المفكرين. يقول الفرخى[(١)] فى رثائه ما ترجمته :

أرى البـــيوت والمـــنازل ينبعـــث مـــنها الـــنواح والعويـــل والصـــياح
نـــواح وصـــياح يشـــجى القلـــوب ويدمـــى الأرواح

وأرى الشـــوارع والأزقـــة تمتلـــئ بالجلـــبة والضوضـــاء
وجلبـــتها وضوضـــاؤها مـــن العســـكر والفرســـان

وأرى الحوانيـــت خالـــية مـــن الـــناس
وأبوابهـــا أغلقـــت بالـــتروس والأقفـــال

وأرى العظمـــاء يلطمـــون خدودهـــم مـــثل النســـاء
فاحمـــرت عـــيونهم مـــن الدمـــوع الدامية حتى صارت بلون الشقائق والرمان

وأرى الكـــتاب أبعـــدوا عـــنهم المحابـــر والأقـــلام
ووضـــعوا أيديهـــم فوق رؤوسهم وضربوا أدمغتهم فى الحوائط والأسوار

وأرى الســـيدات خرجـــن مـــن منازلهـــن إلـــى الشـــوارع
ووقفـــن فـــى الميادـيـــن صـــائحات نائحـــات باكـــيات

وأرى المســـتخدمين عـــادوا مهموميـــن مـــن أعمـــالهم
ولـــم يذهـــبوا إلـــى الدواويـــن ولـــم يـــؤدوا الوظـــائف والأعمـــال

---

(١) كـــان الفرخى حينما توفى السلطان محمود الغزنوى مسافراً عند عائلته فى بلدته سجستان، وغاب عاما، وحينما عاد إلـــى غـــزنى لـــم يكن عارفا بأن السلطان محمود قد توفى، وأن حربا ضروسا نشبت بين ولديه محمد ومسعود من أجل الملـــك، وانضم فريق إلى هذا، وفريق إلى ذاك، وتحارب الفريقان وتقاتلا، فتغير وجه البلاد الجميل الذى عاشه الفرخى وعرفه،فـــنظم رائيـــته المشـــهورة التى يرثى فيها السلطان محمود الغزنوى، ويبكى المجد التليد، والعز الغابر والسؤدد الضائع. والقصيدة تعد أحسن ما قيل فى الرثاء فى الشعر الفارسى وتبلغ أبياتها الشعرية تسعة وستين بيتاً.

وأرى المطربيـــن يــبكون ويــنوحون ويعضــون أصــابعهم
ويضـعون آلاتهـم علـى رؤوسـهم ويلطمـون محزونيـن خدودهـم

وأرى الجـــند والعســكر حــياري بائســين
تمتلئ عيونهم بالدموع أسفًا وحسرةً، ونحفت أجسادهم من الهموم والأكدار

فهـل هـؤلاء هـم الـناس الذيـن رأيـتهم بـالأمس ؟
وهـل هـذه هـى المديـنة الـتى رأيتها فى العام الماضى وتلك الديار ؟

ألا تقـل لـى مـاذا حـدث ؟ بـالله خـبرنى إذا كنـت تسـتطيع
فأنـا لسـت غريـبًا فـلا تخـف عـنى الأمـور والأحـوال

ولـم يكن ما حل بأفغانستان من نكبات وقصيدة الفرخى هو الذى تذكرته فقط بل إننى تذكرت ما حل بالعراق الآن وما آلت إليه بغداد عاصمة العواصم وحاضـرة الحواضـر، وتذكرت الدمار الشامل الذى لحق ببغداد هى الأخرى فـرددت بيـنى وبين نفسى قصيدة الشيخ سعدى الشيرازى (متوفى عام ٦٩١ هـ) وهو يرثى بغداد بعد أن خربها التتار وبعد سقوطها عام ٦٥٦هـ.

حبست بجفنى المدامع لا تجرى   فلما طغى الماءُ استطالَ على السُكْرِ
نسـيمُ صـبا بغدادَ بعد خرابِها   تمنيـت لـو كانت تمر على قبرى
لأن هلاك النفس عند أُولى النُهى   أحب لهم من عيْشِ مُنْقَبضِ الصدرِ
وفى الخبر المروى : دين محمد   يعـود غريـبًا مـثل مبتدأ الأمرِ
أأغـربُ مـن هذا يعود كما بَدَا   وتُسـبى ديارُ السِّلْمِ من بلد الكفرِ؟

وسـط هـذه الأجواء المشحونة بالأحزان ووسط الكلمات الباكية التى قيلـت فى المؤتمر عن أحمد شاه مسعود أعطانى السفير خليل حنانى كتاب

"أحمد شاه مسعود وآزادى" أى أحمد شاه مسعود والحرية، والكتاب تأليف الأستاذ صالح محمد ريگستانى وهو من رفاق السلاح والأصدقاء المخلصين لأحمد شاه مسعود.

وعدت إلى القاهرة محملة بأثقال من الكتب عن أفغانستان وعن أحمد شاه مسعود، ولكنى بدأت أقرأ كتاب الأستاذ صالح محمد ريگستانى باهتمام شديد، وحينما فرغت منه صممت على ترجمته إلى اللغة العربية وذلك للأسباب الآتية :

١- إن المؤلف عاصر فترة الجهاد كاملة بجانب أحمد شاه مسعود، ولهذا فهو يعرف شخصيته معرفة كاملة، وتأريخه عنه يعتبر وثيقة مهمة.
٢- إن الكتاب يحتوى على معلومات قيمة عن أفغانستان إبان الجهاد ضد روسيا وإبان ظهور حركة طالبان.
٣- الكتاب يمثل صورة واقعية عن أحمد شاه مسعود تتجلى فيها بطولته أمام أعتى دولة وهى روسيا.

وترجمت الكتاب إلى اللغة العربية وأخذ هذا فترة ليست قصيرة، وبعد ترجمته وجدت أن أغير اسم الكتاب من (أحمد شاه مسعود وآزادى) أى أحمد شاه مسعود والحرية إلى (أسد الإسلام الظافر أحمد شاه مسعود) لأن قضية الإسلام والمسلمين كانت الشغل الشاغل لأحمد شاه مسعود، والأفغان يلقبونه "شير پنجشير" أى أسد پنجشير وشير معناها أسد وپنجشير اسم بلد أحمد شاه مسعود ومعناها الأسود الخمسة: پنج معناها خمسة وشير معناها أسد، أى أن ترجمة اسمه تصبح "أسد الأسود الخمسة".

ووجدت أن نسبته إلى الإسلام تكون أفضل لأن پنجشير وهى بلد

أحمد شاه مسعود وموطنه قليل من العرب الذى يعرفها وقد ظللت على صلة بالأستاذ صالح محمد ريگستانى طوال فترة ترجمة هذا الكتاب وكنت أستفسر منه عن كثير من المواقع والأسماء والرتب فى الجيش، وكان الرجل لا يتأخر فى الرد لأن الأفغان جميعًا يحبون أن يعرف العرب الصورة الحقيقية للبطل الشهيد أحمد شاه مسعود.

وحينما انتهيت من الترجمة وبدأت المقدمة كتبت عدة مقدمات وألغيتها عدة مرات، ثم وجدت أن الكتابة عن أحمد شاه مسعود تستحيل دون الكتابة عن أفغانستان لأن الرجل يمثل الصورة الحقيقية لبلاده، حتى إن النقاد يذكرون أن شكل وجهه تتمثل فيه جميع السلالات البشرية التى استوطنت أفغانستان منذ القدم فأفغانستان بوتقة انصهرت فيها دماء أحمد شاه مسعود فخرج منها بطلاً أسطوريًا يحيا فى ذاكرة العصور والأجيال.

فعشقه للجبال الشم الراسيات، وللوديان والأخاديد، والهضاب والروابى امتزج بروحه وخط معالم وجهه، وصارت أفغانستان هى أحمد شاه مسعود وأحمد شاه مسعود هو أفغانستان.

تارة تكون أفغانستان هى المرآة التى تنعكس عليها صورته وتارة يكون هو المرآة التى تنعكس عليها صورة أفغانستان، ولذا قررت أن أبدأ بمقدمة عن أفغانستان فى البداية ثم بعدها أكتب عن شخصية أحمد شاه مسعود ومقومات العبقرية فيها، وبذلك تتكامل صورته بين كتابات رفاقه وكتابات الآخرين.

أفغانستان .. الأرض والتاريخ

تمهيـــد:

طبيعة تكوين الأرض والجبال فى أفغانستان هى التى علمتهم المهارة فى خوض حروب العصابات التى تميز بها الأفغان للدفاع عن بلادهم، وقد حققــت هذه الحروب انتصارات متتالية لهم وألحقت الهزائم بجيوش كبيرة، كانــت لهـــا شهرتها الذائعة فى الحروب والمعارك، كما حدث فى حروب أفغانستان ضد المغول، وضد الإنجليز ، وضد الروس.

فجغرافيـــتها لها أثرها البالغ فى وضع الخطط التى تتناسب مع طبيعة بلادهـــم الوعرة، وكذلك مع درايتهم الشديدة بالطرق الخفية التى تصل بين الجبال الشاهقة والوديان السحيقة.

فالطبيعة الشديدة الوعورة هى التى تساعد الأفغان على تغيير التكتيك الحربى، وعلى المباغتة والتخفى والظهور، وتعتمد على السرعة والمفاجأة، وهـــى التى تملى عليهم أين يسكنون، وماذا يلبسون، وماذا يركبون، وبأى ســـلاح يحاربون والطبيعة هى التى خلقت فيهم العزم واليقين، وخلقت فيهم القوة والشدة والبأس والصمود فى وجه العدو مهما كانت قوته، ومهما كان عـــتاده، فطبيعـــتهم تحارب معهم وبجانبهم ضد عدوهم وضد كل من يتقدم غازيا لبلادهم .

وأفغانســـتان قطـــر داخلى ليس له شواطئ على البحار والمحيطات، وتـــبعد أفغانستان عن أقرب البحار إليها ٣٩٠ كيلو مترًا، وأفغانستان بلاد جبلـــية تمـــتد جبال الهندوكُش فيها من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى فتقســـمها مـــن النواحى الجغرافية إلى قسمين شمالاً وجنوبًا، وهذه الجبال صعبة المرتقى وعرة المنحدر .

ويصـــل ارتفاع بعض قممها إلى ٧٤٩٥مترًا فوق سطح البحر، وقمة نوشـــاخ أعلى قممها، وأعلى درجة حرارة فى أفغانستان تصل إلى خمسين درجة مئوية فى زرنج، وأقل درجة حرارة تصل إلى أكثر من ثلاثين درجة تحـــت الصفر فى چخچران عاصمة محافظة الغور، ومتوسط الأمطار فى العام ٢٩٥ملى متر، وأعلى متوسط للرطوبة ٥٣ % وأقل متوسط للرطوبة ٧% .

وأفغانســـتان لا يألف العيش فيها عدو أو غازٍ لأراضيها لأن الطبيعة تقســـو علـــيه وتحنو على أبنائها، فجبالها ضربت سورًا قويًا حولها يسمح بخروج الجيوش منها ولا ييسر الدخول إليها، وهذا ما حدث حينما انطلقت الجـــيوش الإسلامية من غزنى فى قلب أفغانستان فى القرن الرابع الهجرى وأوائـــل الخـــامس قاصـــدة شبه القارة الهندية تحت راية السلطان محمود الغـــزنوى (مـــتوفى ٤٢١هـــ) لنشر الإسلام فى هذه الأصقاع المترامية، فكانـــت تحقـــق النصـــر المؤزر وتعود ظافرة للعيش فى أحضان الروابى والجبال.

موقع أفغانستان :

تحـــتل أفغانستان موقعًا استراتيجيًا بالغ الخطورة، فمن الشمال تحدها الجمهوريات الإسلامية فى آسيا والوسطى وهى: تاجيكستان ، وتركمنستان وأزبكســـتان . وحدودهـــا مـــع تاجيكستان ١٢٠٦ كيلو متر وحدودها مع تركمنستان ١٠٢١ كيلو مترًا، وحدودها مع أزبكستان ١٣٧ كيلو مترًا.

ويحدهـــا من الجنوب والشرق الباكستان وتبلغ حدودها معها ٢٢٤٠ كـــيلو مترًا، ويحدها من الغرب إيران وتبلغ حدودها مع إيران ٩٠٠ كيلو

مـــتر، ويحدها من الجهة الشمالية الشرقية جمهورية الصين وحدودها معها ٩٣ كـــيلو مـــترًا ولأفغانستان حدود مشتركة مع جامو وكشمير تبلغ ١٠٢ كيلو متر.

وتـــبلغ مســـاحة أفغانستان ٦٥٢,٢٢٥كيلو مترًا مربعًا، ولهذا الموقع أهمية كبيرة فى قلب آسيا، فقد ظلت أفغانستان طوال عصور التاريخ ملتقى القوافـــل القديمة العابرة من الشرق إلى الغرب على طريق الحرير الشهير، كمـــا كانـــت معبرًا للغزاة من الشرق والغرب والشمال، وكان يدور على جوانـــبها صراع استعمارى بين بريطانيا فى الهند من ناحية وروسيا التى كانت تسعى للوصول إلى البحار الدفيئة من ناحية أخرى.

ويمـــيز الجغرافيون أفغانستان بأنها ذات طابع جبلى وهضبى، وجبال الهندوكش تكون السلسلة الفقرية لأفغانستان، وتتخللها كثير من المنحدرات الموحشة، وتجرى فيها مياه السيول، وأكثر أنهار أفغانستان منبعها من هذه الجـــبال مـــثل نهر آمو (جيحون) ونهر هِلْمَنْد ونهر كابل ونهر هِرِى ، ويتراوح ارتفاع قمم هذه الجبال شمال كابل بين ٤٥٠٠ مترًا، ٦٧٠٠ مترًا وتســـتمر هـــذه السلاســـل حتى قرب الحدود الإيرانية حيث تعرف بأسماء مختلفة، وهذه الجبال تغطيها الثلوج طوال العام، وتغطى الغابات منحدراتها العالية حيث تكثر فيها أشجار الصنوبر وأنواع أخرى من الأشجار العالية، وتعيش فى هذه الغابات كثير من الحيوانات المتوحشة ، ومن أشهر سلاسل الجـــبال المتفرعة من جبال الهندوكُشْ سلسلة جبال يَغْمَانْ، ويصل ارتفاعها إلى أكثر من ١٥,٠٠٠ خمسة عشر ألف قدم، وسلسلة جبال كوه بابا ويصل ارتفاعهـــا إلـــى أكـــثر من ١٦,٠٠٠ ستة عشر ألف قدم وسلسلة سَفِيْدكوه ويصـــل ارتفاعها إلى أكثر من عشرة آلاف قدم، وكما وصفت مصر بأنها

هـــبة النـــيل فإن الجغرافيين وصفوا أفغانستان بأنها هبة الهندوكش. وابن بطوطـــة هـــو أول من ذكر أن معنى كلمة هندوكش (قاتلة الهنود) فكلمة هندو تعنى هندى، وكش تعنى قاتلة؛ لأن العبيد والجوارى كانوا يجلبون من بلاد الهند إلى فارس عن طريق هذه الجبال فيموت أكثرهم فى الطريق.

جبال سليمان :

وهذه الجبال شاهقة الارتفاع فى قممها، سحيقة الانخفاض فى أوديتها، وهى الحدود الشرقية بين أفغانستان والباكستان، وأعلى قممها تخت سليمان ويـــبلغ ارتفاعهـــا ٣١٤٥ مترًا، وهذه الجبال بها كثير من الممرات أهمها جميعًا من الناحية العسكرية ممر خيبر، ويصل هذا الممر بين الهند وكابل ويمر بمدينة بيشاور فى الباكستان وطوله ٥٦٠ كيلو مترًا.

كذلـــك يوجـــد ممر بولان ويصل قندهار وشامان فى أفغانستان ببلدة كويـــته فى الباكستان، وكانت أفغانستان والهند يتبادلان البضائع عن طريق هذه الممرات.

كمـــا كانت هذه الممرات مسرحًا لكثير من المعارك الحربية أشهرها معارك الأفغان ضد الإنجليز فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

هضبة بامير :

ذكـــرنا أن سطح أفغانستان يسوده المظهر الجبلى والهضبى، وأشهر هذه الهضاب هضبة بامير .

ويصـــفها الجغرافيون بأنها سطح الدنيا لشدة ارتفاعها، وتغطى قممها الـــثلوج طـــوال العام، وشتاؤها يمتد إلى تسعة أشهر، وبها مناطق موحشة يرتادها الرعاة فى شهور الصيف التى لا تزيد مدته عن ثلاثة أشهر، وهذه المنطقة هى التى تمثل الحدود بين أفغانستان والصين وكشمير.

أنهـــار أفغانستـــان :

نهر آمو، وهذا النهر كان يسميه المسلمون الأوائل نهر (جيحون)

نهر هيرمند أو نهر هلمند

نهر فَرَاه

نهر هِرِى

نهر قُنْدُز

نهر خاش

نهر أَرْغَنْدَاب

نهر مُرْغَاب

نهر كُوكْچَه

نهر كابل

نهر پَنْجشير

نهر اليشَنْگ

نهر الينْگا

نهر كُنَر

نهر لُوگَر

وهذه الأنهار تضمها ثلاث مجموعات رئيسية هى :

١- مجموعة نهر آمُو (نهر جَيْحُون):

وهذا النهر يعتبر أهم أنهار آسيا الوسطى، وهو ينبع من هضبة پامير فى شمال أفغانستان ويبلغ طوله ٢٤٥٠ كيلو مترًا، وهذا النهر يمثل الحدود الشـــمالية لأفغانســـتان بيـــنها وبين جمهورية تركمنستان فى آسيا الوسطى

ويصب في بحيرة آرال، وقد تكونت عند مصبه دلتا عظيمة نمت فيها الأحراش والأشواك والأشجار الكبيرة، وهي مأوى لكثير من الحيوانات المفترسة، وتتجمد مياه هذا النهر في الشتاء بحيث تصبح وكأنها كتلة أرضية تكسوها الأتربة والغبار ويعبر عليه الناس والدواب، وفي شهر مارس حينما يأخذ الجليد في الذوبان من الداخل يصبح المرور عليه خطيرًا لان الغرق سيكون أمرًا محتومًا.

٢- المجموعة الثانية مجموعة نهر هِلْمَنْد:

وهو ينبع من المرتفعات الوسطى في جبال كوه بابا وهو إحدى سلاسل جبال الهندوكش .

ويبلغ طول هذا النهر ١٠٥٠ كيلو مترًا، ويتجه نهر هلمند إلى الجنوب الغربي حتى يصب في صحراء سيستان على الحدود بين إيران وأفغانستان، وأهم مشروعات أفغانستان الزراعية تقع على هذا النهر أو على أحد فروعه.

٣- مجموعة نهر السند :

وأهمها نهر كابل وروافده، وينبع من جبال الهندوكش، ويمتد مسافة ٥٥٣ كيلو مترًا، ويواصل سيره إلى مدينة بيشاور في الباكستان حيث يصب في نهر السند، ويقع ممر خيبر في جنوبه، وتقع عليه مدن مهمة هي: مدينة كابل وجلال آباد في أفغانستان، وپيشاور في الپاكستان .

هذا النهر وروافده يكون طرقًا مهمة من الناحيتين العسكرية والتجارية تخترق الجبال بين باكستان وأفغانستان، ومجرى هذا النهر من أعلاه ضيق وسريع الجريان كثير الجداول والشلالات، ولكن مجراه الأوسط والأدنى واسع يروي مناطق شاسعة من السهول الخصبة الغنية .

الأقسام الإدارية فى أفغانستان:

تضم أفغانستان تسعًا وعشرين ولاية أى محافظة، ويرأسها الوالى أى المحافظ وهى على الوجه التالى :

الشمال: بدخشان، تخار ، بغلان، قندز، بلخ ، سمنگان، جوزجان ، فارياب.

الشرق: كابل، كنر، لغمان ، كاپيسا، بروان ، ننگرهار، لوگر ، پكتيا ، پغمان.

الجنوب: زابل ، قندهار، هلمند، نيمروز.

الوسط: وردك، باميان، غور ، ارزگان.

الغرب: فراه، هرات، با دغيس، چخانسور .

بعد الوالى أى المحافظ يأتى " ولسوال" أى مدير المديرية، ثم يأتى بعد مدير المديرية المركز ويسمى رئيس المركز "حاكم محلى " .

وبعد المركز يكون "علاقة" أى النقطة، ورئيس النقطة يسمى " علاقة دار " .

أما القرية فهى أصغر الوحدات ورئيسها يدعى " ملك " أى العمدة .

أشهر المدن فى أفغانستان

كابل

وهى عاصمة أفغانستان ، ويذكر المؤرخون أنها بنيت عام ٧٧٠ قبل الميلاد، وكانت بحكم موقعها ملتقى الحضارات القديمة.

أصبحت كابل عاصمة لأفغانستان فى عهد تيمور شاه عام ١٧٧٦م، وتيمور شاه هو ابن أحمد شاه بابا مؤسس أفغانستان الحديثة، وترتفع كابل ١٧٦٠ مترًا عن سطح البحر وتتميز بضواحيها السياحية الساحرة مثل

قرغة، وباغ بالا، وپغمان، وسرُوبى . ويجرى نهر كابل وسط المدينة فيزيدها جمالاً وبهاءً.

وتوجد فى مدينة كابل جامعة كابل وكلياتها، وكذلك توجد المعاهد العلمية والمدارس الكبيرة، كما يوجد بها كثير من المساجد التاريخية مثل مسجد پل خشتى، ومسجد شاه دوشمشيره، والمسجد الأزرق الكبير.

قنـــدهار

وتقع فى الجنوب الغربى لأفغانستان وتبعد عن العاصمة كابل ٤٥٠ كيلو مترًا، أتخذها أحمد شاه الدرانى – المعروف بأحمد شاه بابا – عاصمة لملكه عام (١٧٤٧م)، ثم أصبحت كابل العاصمة فى عهد تيمور شاه عام ١٧٧٦م.

وفى عهد الملك محمد ظاهر شاه بنى فيها مطارًا دوليًا على أحدث الطرز المعمارية ويستقبل الطائرات النفاثة.

وتشـــتهر قندهار بوجود كثير من الآثار بها قبل الإسلام وبعد الإسلام ويعتبر قبر أحمد شاه بابا تحفة معمارية عظيمة إذ تغطى قبته رقائق الذهب الخالص ، كذلك يوجد مسجد الخرقة المشرفة ويقال: إنه يحتوى على رداء الرســـول ﷺ ، واشتهرت مدينة قندهار فى الفترة الأخيرة لأنها كانت مقر حكومة طالبان.

مدينة غزنة:

وتقـــع فـــى جـــنوب غرب كابل، وهى على طريق الموصلات بين كابل وقندهار، وتبعد عن كابل ١٥٠ كيلو مترًا وهى شديدة البرودة فى الشتاء، كانت عاصـــمة الدولـــة الغزنوية. ولعبت غزنى (١) دورًا مهمًا فى عهد الغزنويين فى

---

(١) غزنة = غزنى = غزنين ، ويطلق عليها الآن اسم غزنى.

القــرن الــرابع والخامس الهجرى، وذاع صيتها فى عهد السلطان محمود الغــزنوى (متوفى ٤٢١ هجرية) فتحت لوائه انطلقت الجيوش من أفغانستان إلى الهند حيث نشر الإسلام فى شبه القارة الهندية. وتوجد كثير من الآثار الإســلامية فــى مدينة غزنة وخاصة آثار سلاطين الغزنويين وأهمها قبر السلطان محمود الغزنوى الذى ظل على حالته حتى الآن، وتلقب غزنى بأم قرى كابل.

باميـــان:

تعد مدينة باميان أشهر مدن أفغانستان، وهى تبعد عن كابل ٢٤٣ كيلو مــترًا، وكانت فى القديم ملتقى للقوافل التجارية حيث كان يمر بها طريق الحرير ليصل إلى الصين، وكانت باميان مركزًا من مراكز الديانة البوذية حيث يوجد بها تماثيل بوذا الشهيرة التى دمرها طالبان، وهى ثلاثة تماثيل: الأول طوله ثلاثة وخمسين مترًا ويعرفه أهل باميان باسم شاه بابا أى الملك الوالــد ويسمى (خِنْگْ بت) أى الصنم الأبيض، والتمثال الثانى طوله ستة وثلاثــون مترًا ويعرفه أهل باميان باسم شاه ماما أى الملكة الوالده ويعرف باسم " سُرْخ بت " أى الصنم الأحمر.

أمــا الثالـــث فطوله اثنان وعشرون مترًا، وتوجد كذلك تماثيل أخرى كثيرة صغيرة، يرى أهل باميان أنها أولاد الملك والملكة.

وتحكـــى الكثـــير مـــن القصص والأساطير من أهل باميان عن هذه التماثيل .

وفـــى داخـــل هـــذه التماثيل توجد حجرات كثيرة فى طوابق متعددة يـــربطها ســـلم داخلـــى، وكانت هذه الحجرات قاعات للتدريس يدرس فيها الرهـــبان، فقد كانت مقر جامعة بوذية وكانت مكتبة الجامعة الكبيرة توجد

فى باطن الجبل تحت هذه التماثيل .

وقـــد زرت هـــذه المنطقة ومكثت فيها ثلاثة أيام عام ١٩٦٩م وكان السياح يفدون إليها من جميع أنحاء العالم، وفى المدينة - غير الفندق الكبير الذى يستقبل وفودًا كبيرة من الزائرين - أعدت وزارة السياحة أكواخا على غرار ما كان فى باميان قبل الإسلام .

هـــــرات

بفـــتح الأول أو كسره كما ينطقها سكانها، وهى مدينة أثرية قديمة من أمهات المدن فى أفغانستان تقع فى غرب أفغانستان وتبعد عن كابل ١٠٤٢ كـــيلو مـــترًا، وترتفع عن سطح البحر ألفًا وتسعمائة وعشرين مترًا، وهى أقرب المدن إلى إيران، وتقع هرات فى منطقة خضراء يانعة ويرويها نهر هرى (هرى رود).

ومســـجد هـــرات الجامع هو أكبر الأبنية بها، ووصف الإصطخرى المـــتوفى فـــى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى فى كتابه "المسالك والممالك" مسجدها الجامع بأنه عامر بالناس على دوام الأيام .

وقال صاحب كتاب "حدود العالم" الذى ألف حوالى عام ٣٧٣هـــ: "إن هرات مدينة كبيرة وفى غاية الإحكام، ومسجدها الجامع من أعمر المساجد" وكانـــت هرات عاصمة للدولة التيمورية فى القرن السابع الهجرى، وكانت مركزًا كبيرًا من مراكز الفكر والثقافة فى المشرق الإسلامى .

مدينة بلخ

بلـــخ مديـــنة تاريخية قديمة سميت بأم البلاد، وكانت عاصمة مملكة آريانا القديمة قبل خمسة آلاف سنة، وكانت تحمل اسم بكتريا، وهى تقع فى محافظـــة مزار شريف وهى موطن الفيلسوف ابن سينا، ولذلك يعرف باسم

ابـن سينا البلخى، وكذلك مولانا جلال الدين الرومى ويعرف بجلال الدين الرومى البلخى.

وتوجـد بمدينة بلخ كثير من الآثار قبل الإسلام وبعد الإسلام، ويوجد بهـا معـبد النوبهار الزردشتى الذى كانت تعبد فيه النار ولا تزال خرائبه قائمـة، وكـان جدود البرامكة سدنة فى هذا المعبد، ويقال: إن نيران هذا المعبد خمدت حينما ولد الرسول ﷺ .

جـلال آباد :

وهـى عاصمة محافظة ننگرهار، وتبعد عن كابل حوالى ١٤٩ كيلو مـترًا وجوها دافئ فى الشتاء وشمسها ساطعة، وهى تعتبر مشتى للأغنياء مـن أهـل كابل، وتشتهر جلال آباد بحقولها الخضراء وورودها المتفتحة وفواكههـا النضـيرة، وتمتلـئ بالصـناعات الخشبية التى تأتى إليها من الباكسـتان من مدينة پيشاور، وتشتهر جلال آباد بمناطق سياحية معروفة مثل: نور ستان، ولغمان، ووادى كنر موطن السيد جمال الدين الأفغانى.

بغـلان :

تقع مدنية بغلان فى شمال أفغانستان، وتمتاز بهوائها العليل ونسيمها الجميل وتشتهر بمصانعها مثل مصانع پلخمرى للنسيج ومصنع السكر.

گرديز :

وهى عاصمة محافظة پكتيا جنوب أفغانستان، بها غابات كثيفة، وهى تعتبر المركز الرئيسى للأخشاب التى تمون البلاد، وهى ترتفع ٢٣٠٠ مترًا عـن سطح البحر، وهى موطن المؤرخ المعروف أبى سعيد عبد الحى بن الضـحاك الگرديزى صاحب كتاب (زين الأخبار) ويعتبر الكتاب أقدم ما كتب عن خراسان.

مزار شريف :

وهى عاصمة محافظة بلخ، وتقع شمال أفغانستان وتبعد عن مدينة بلخ ١٠٠ مائة كيلو متر، وتشتهر بوجود مسجد سيدنا على بن أبى طالب ﷺ .

ويقـــال: إن السلطان حسين بايقرا وهو أحد سلاطين الدولة التيمورية رأى فى المنام سيدنا على بن أبى طالب ﷺ وأخبره أنه (دفن هنا) وأشار على مزار شريف، فشيد السلطان حسين بايقرا المسجد فى البقعة التى رآها فـــى المنام. ويقال: إنه قال ذلك ليعمر المكان ويؤمه الناس، وهذا المسجد يعتــبر مـــن أكـــبر مســـاجد آسيا الوسطى، حليت قبابه بأحجار اللازورد الـــزرقاء، ويؤمه الآلاف من جميع أقطار آسيا فى ربيع كل عام للاحتفال بمولـــد ســـيدنا على بن أبى طالب ﷺ، وأثناء الاحتفال بمولد على بن أبى طالـــب تكـــتظ المحافظة بالوافدين من جميع أنحاء العالم بحيث يكون من الصـــعب علـــى أى إنســـان أن يجد مكانًا يسكن فيه فى هذه الآونة، وفى الفلكلـــور الشعبى توجد أغانى كثيرة يتغنى بها الناس فى وقت الربيع حول الســـفر من كابل إلى مزار شريف للاحتفال بهذا المولد العظيم، وللتنزه بين ورود الأرغـــوان ذات اللون البنفسجى الجميل، والتى تتفتح فى هذا الوقت فتكسو قمم الروابى والجبال.

قنـــدز :

وتقـــع فـــى الشمال، وهى بالقرب من الحدود الشمالية لأفغانستان مع آســـيا الوسطى. وهى تشتهر بصناعة السجاد، وهى قريبة من نهر جيحون الذى يفصل بين أفغانستان وآسيا الوسطى.

الثروات الطبيعية فى أفغانستان

أفغانستان بلاد غنية بالثروات الطبيعية منها:

الغـــاز الطبـــيعى – البـــترول – الفحم الحجرى – النفط – الحديد – الـــنحاس – حجـــر الـــلازورد – الياقوت – الزمرد- المرمر – الرخام – الذهب – الفضة – القصدير – اليورانيوم.

الموانى المشهورة :

تورخـــم – سبين بولدك – قزل قلعة (شيرخان) حيرتان – آقينة – اشكاشم تورغندى – إسلام قلعة .

الطرق الرئيسية :

كابل – تورخم.

كابل – سالنگ حيرتان.

كابل – قندهار – سبين بولدك.

كابل – هرات – إسلام قلعة – تورغندى.

كابل – گرديز.

الدين فى أفغانستان :

قبل الإسلام وجدت فى أفغانستان الديانة البوذية والديانة الزردشتية .

وحينما فتح الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ أفغانستان عام ٢٣ هـــ اعتـــنق أهل أفغانستان الإسلام وجميعهم سنة على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان، ويمثل الشيعة حوالى ٥% من مجموع السكان.

تاريخ الأسر والأشخاص الذين حكموا أفغانستان

أفغانستان فى العصور الآرية :

"عرفت أفغانستان فى القدم باسم آريانا، وكانت تنقسم إلى ١٦ ستة عشر إقليمًا ذكرت فى الأدب الويدى ثم ذكرت فى الأدب الآوستى والأدب السنسكريتى.

وكانت مدينة بلخ (بخدى) هى عاصمة أفغانستان الآرية، وهذه المناطق والأقاليم كانت مسرحًا للنشاطات الأدبية والاجتماعية والسياسية والعسكرية للأفغان القدماء فى العصور الآرية .

وإذا كانت الويدات قد ذكرت هذه الأقاليم بأنهارها ووديانها فإن بطليموس ذكرها أيضًا وجعلها سبع ولايات بدلا من ستة عشر إقليمًا وهى:

١. مارجيانا: وهى عبارة عن وادى مرغاب فى غرب أفغانستان.
٢. بكتريانا: وهى تشتمل على منطقة بلخ وبدخشان فى شمال أفغانستان.
٣. آريانا: وتشمل وادى هرى رود وهرات وغيرهما فى غرب أفغانستان.
٤. باروبا ميزوس : وتشمل الهزاره وكابل حتى أبا سين ونورستان فى أفغانستان المركزية والشرقية .
٥. درانجيانا: وهى عبارة عن سيستان – وكندهار فى الجنوب الغربى من أفغانستان.
٦. أراكوزيا : وتشتمل على غزنة وجبال سليمان.
٧. جدورزيا: وهى عبارة عن مكران وبلوچستان حتى البحر فى جنوب شرق أفغانستان .

وقد أخرج بطليموس من أفغانستان الآرية عددًا من الأقاليم والمناطق نظرًا للتغيرات التى طرأت على خريطة المنطقة نتيجة للحرب والاستقطاعات التى كانت تغير معالمها وحدودها الجغرافية والسياسية من عصر إلى عصر.

أفغانستان فى العصور الإسلامية

فى العصور الإسلامية الأولى كان المؤرخون يذكرون أفغانستان بأسماء الأقاليم الخمسة الآتية:

١. باختر: هذا الإقليم يشتمل الآن على ولايات بلخ وبغلان وفارياب وجوزجان وتخار وسمنگان وكندز.
٢. غورات : إقليم الغور يشمل فى الوقت الحاضر ولايات الغور وبادغيس وهراة وفراه وأرزجان.
٣. كابلستان : وهذا الإقليم يشتمل الآن على ولايات كابل وكنر وميدان وپروان وكاپيسا ولغمان وننگرهار وكنر .
٤. زابلستان : هذا الإقليم فى الوقت الحاضر عبارة عن ولايات زابل وغزنة وباميان وكندهار وپكتيا وپكتيكا.
٥. النميروز: ويشتمل الآن على ولايتى هلمند وچخانسور وما بينهما من المناطق والأقسام الإدارية.

ويلاحظ أن عملية الاتساع والانكماش الجغرافى بين الولايات الأفغانية وكذلك بينها وبين الولايات المجاورة جعل أسماءها القديمة تختلف عن أسمائها الجديدة فى كل عصورها التاريخية.

واشتهرت أفغانستان فى العصرين الأموى والعباسى باسم خراسان، ويقول الأستاذ مير محمد غبار: "إن هذا الاسم قد أطلق على الأراضى

الأفغانــية فــى العصر الساسانى أى منذ القرن الخامس إلى القرن التاسع عشــر المــيلادى، ويــبدو أنــه كان يطلق على أفغانستان وعلى ملحقاتها الحالية".

وعلــى الرغم أن الدولة العباسية كانت قوية النفوذ فى إقليم خراسان، وكان الخليفة يبعث بالولاة من قبله إليها إلا أن خراسان بدأت تشعر بالحنين نحو حاكم من بنى جلدتها، ومع أن هذا الحاكم سيكون تابعًا للخليفة العباسى إلا أن وجــود أهل خراسان ممثلين فى الحكم أعطاهم نوعًا من الاستقلال كانوا يتوقون إليه، وأول من حكم خراسان من أهلها هو طاهر بن الحسين الفوشــنجى، وكــان من فوشنج بجوار هرات فهو يعتبر رأس الأسر التى استقلت استقلالاً فعليًا عن الدولة العباسية ولكنها كانت تتبعها تبعية اسمية، ولــم يرغــب هــؤلاء الحكام أن يتخلوا عن هذه التبعية أو يتركوها وذلك للمــنزلة المقدسة التى كان يراها هؤلاء الحكام فى الخليفة العباسى لقرابته مــن الرســول ﷺ ، ولاعتزازهم بالدولة التى تجمع جميع المسلمين تحت لوائها.

أســس طاهر بن الحسين الفوشنجى الدولة الطاهرة فى خراسان عام ٢٠٥هــ ، واستمر حكم هذه الدولة حتى عام ٢٥٩هــ .

وجاءت الدولة الصفارية بعد الدولة الطاهرية، وقد أسسها يعقوب بن الليــث الصــفارى عــام ٢٥٤هــ فقد استولى من الطاهريين على هرات ونيسابور، وحكم جنوب الهندوكش وخضع له ملوك الملتان وزابل والسند، وانتهى حكم هذه الأسرة عام ٢٩١هــ .

ثم قام السامانيون فى بلاد ما وراء النهر بقيادة الأمير نصر بن أحمد السامانى عام ٢٦١هــ وضم إلى بلاده ملكًا واسعًا، وكان أشهر ملوك هذه

الأسرة الأمير إسماعيل بن أحمد وانتهى ملك هذه الأسرة عام ٣٨٩هـ. ثم قامت الدولة الغزنوية بقيادة البتكين عام ٣٥١هـ واستمر حكمهم حتى عام ٥٩٨هـ، وكان أشهرهم السلطان محمود الغزنوى، وهو أول من لقب بالسلطان، وقد منحه الخليفة القادر بالله العباسى لقب " يمين الدولة وأمين الملة " وقد امتد حكم السلطان محمود الغزنوى إلى الهند والبنجاب وبلاد الغور وبلاد ما وراء النهر إلى جانب حكمه فى خراسان وفارس، وكانت عاصمة ملكه غزنى وتوفى ودفن بها عام ٤٢١هـ. وبعد وفاة السلطان محمود الغزنوى تولى خلفاؤه وحافظوا على ملكهم العريض إلى أن دب الضعف فى أوصال الدولة فانتهت عام ٥٩٨هـ، وحل محلهم الغوريون عام ٥٤٣هـ ثم انتهى ملكهم عام ٦١١هـ وكانوا يملكون رقعًا متفرقة فى خراسان، ولكنهم ثبتوا أركان ملكهم فى الهند وازدهرت فى عهدهم الفنون والعلوم.

ثم حكمت أسرة خوارزمشاه بعد الأسرة الغورية، وكانت هذه الأسرة تحكم فى خوارزم فى بلاد ما وراء النهر عام ٤٦١هـ، ولكن ملكهم امتد فشمل خراسان حتى وصل إلى حدود العراق، وانتهى ملك هذه الأسرة بالغزو المغولى للبلاد الإسلامية عام ٦٢٢هـ، ثم قام التيموريون بقيادة تيمورلنگ بعد ذلك واستولوا على هراة وكابل وقندهار وامتد نفوذهم إلى الهند وبدأ المؤرخون يعبرون عن اسم الأفغان بالأوغانيين، وتمتعت خراسان فى عهد التيموريين بالتقدم والازدهار والرفاهية، وأصبحت هراة عاصمة ملكهم من أجمل العواصم فى العالم الإسلامى.

وحينما مات تيمور لنگ تولى ابنه الرابع (شاه رخ ميرزا) عام ٨٠٧هـ وبلغت خراسان فى عهده أوج التقدم والازدهار وانتهى ملك

الدولــة التيمورية عام ٩٢٠هـــ وهذه الدولة من أعظم الدول التى ازدهرت فــيها الحضارة الإسلامية فى المشرق الإسلامى، وامتدادًا لهذه الدولة ظهر السلطان ظهير الدين محمد بابر، وهو حفيد تيمورلنگ، وقد بعث القوة فى الدولة التيمورية فاستولى على كابل وهرات وقندهار وبلخ، وكانت بدخشان تحت حكمه من البداية، ثم سار بابر إلى الهند ودخل دلهى واستولى عليها، وأسس بذلك الامبراطورية المغولية فى الهند، واستمرت هذه الأسرة تحكم الهند حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث قضى عليها الإنجليز بدخولهم إلــى الهــند وكانــت خراسان فى هذا الوقت مقسمة بين المغول فى الهند، والصفويين فى فارس.

وبــدأت الأســرة الهوتكــية فى خراسان يقوى نفوذها وذلك لازدياد الصــراع الــذى نشب بين المغول والصفويين على خراسان، فاستجمعوا قواهم وأسسوا ملكًا لهم بدأ عام ١١٢١هــ وانتهى عام ١١٥١هــ، ثم تلتها الأسرة الإبدالية فى هراة فحكمت من ١١٢٩هــ وانتهت بسرعة إذ توارث الحكم فيها سبعة حكام كل واحد لم تزد مدة حكمه عن عامين، وأطولهم مدة كــان ذو الفقار خان فقد حكم أربعة أعوام مقسمة على مدتين، وانتهى حكم هذه الأسرة عام ١١٤٣ هجرية، ثم تولى بعد ذلك نادر شاه أفشار فاستولى على خراسان وكان ملكًا على فارس أيضًا ، وفى عام ١٧٤٧م اغتاله أحد الضــباط فــى خراسان وبعد موته انتقل حكمه إلى الأسرة الدرانية بعد أن تمزقــت إمبراطورية نادر شاه أفشار، وفى عام ١٧٤٧م انتخب أحمد شاه بابا ملكًا على أفغانستان، وعرفت أفغانستان رسميًا بهذا الاسم منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر أى منذ عام ١٧٤٧م .

وكانــت عاصمته قندهار، وامتدت رقعة ملكه إلى ما وراء نهر السند

وضـــم إلـــيها لاهور وكشمير والملتان واحتل دهلى أكثر من مرة، وعندما توفى أحمد شاه بابا خلفه ابنه تيمور شاه فنقل عاصمة ملكه من قندهار إلى كـــابل عام ١٧٧٣م، وتوفى تيمور شاه عام ١٧٩٣م وبدأ ملك هذه الأسرة فـــى الاضمحلال والتدهور إلى أن انتهت على يد شاه شجاع عام ١٨١٢م بعد تجريده من كل ممتلكاته.

ثم انتقل الحكم من الأسرة الدرانية إلى أسرة باركزائى (محمد زائى) وهذه الأسرة بدأت بالأمير دوست محمد خان ١٨٢٦م، وانتهت بحكم الملك محمد ظاهر شاه عام ١٩٧٣م بعد أن دبر له ابن عمه وزوج أخته السردار محمـــد داود انقلابًـــا أطاح به وهو فى زيارة لإيطاليا، وأصبح محمد داود رئيسًـــا للجمهوريـــة وأنهى الملكية، ومع أن السردار داود من أسرة محمد زائـــى ويعتـــبر امتدادًا لابن عمه محمد ظاهر شاه، إلا أننا نعتبر أن حكم أسرة محمد زائى انتهى عند محمد ظاهر شاه للأسباب الآتية:

١- إن محمد داود أنهى الملك فى البلاد وجعلها جمهورية .

٢-كان محمد داود بانقلابه يبغى التقرب لروسيا، وكانت روسيا تحتضنه حتى إذا بلغت مأربها منه لفظته وأحلت غيره محله وهذا ما حدث .

قام محمد داود بالانقلاب عام ١٩٧٣م بمساعدة العناصر الشيوعية فى الجـــيش، وجعـــل المناصب العليا فى الجيش للشيوعيين ، وتضاعف عدد المستشـــارين السوفيت لتدريب الضباط على الأسلحة الروسية ، واعتمدت الـــبلاد اعـــتمادًا كبيرًا على السوفيت، وأدرك الأفغان نوايا الروس الخبيثة وراء تعييـــن داود رئيسًـــا للجمهوريـــة، فقـــد ضيق الخناق على الأنشطة الإســـلامية فبدأت المعركة المسلحة بينه وبين المقاومة الإسلامية وحاربهم

محمـــد داود بقســـوة وضـــراوة فاستشـــهد منهم العشرات واعتقل المئات واضطربت الأمور فى البلاد .

واغتنمـــت موسكو فرصة الاضطرابات والاغتيالات التى حدثت آخر أيـــام داود فهـــيأت الجـــو لانقـــلاب دموى فى إبريل عام ١٩٧٨م وأعدوا لمجـــزرة قـــتلوا خلالهـــا داود مع أولاده وأحفاده وثلاثة آلاف من أتباعه، وجرت الدماء أنهارًا فى قصر الرئاسة واعتقل المئات واختل الأمن وعمت الفوضى فى البلاد.

نور محمد تره كى ١٩٧٨ـ ١٩٧٩م :

أتـــى الســـوفيت بـــنور الدين تره كى على رأس السلطة ووقعوا معه حوالـــى ســـتين عقدًا بلغت قيمتها ٢٥٠ ألف دولار، وبلغ عدد المستشارين الـــروس العسكر آلافًا لا تعد يشرفون على إدارات وزارة الدفاع، كما زاد المستشـــارون فى الوزارات والدوائر الحكومية للسيطرة على جميع مرافق الحـــياة، وقـــاوم الشـــعب الأفغانى المسلم كل الصعوبات والتحديات، وبدأ الشـــعب الـــثورة فى مقاطعة نورستان، واستمرت فى الانتشار حتى نشبت ثـــورة عسكرية ومدنية شاملة فى مدينة هرات واستشهد فيها آلاف الأبرياء وســـقطت المراكـــز العســـكرية بـــيد المقاومة، وانضمت قطاعات الجيش بأسلحتها الثقيلة والخفيفة إلى المجاهدين فاشتد عزم المجاهدين على مواصلة الجهاد المسلح فى القرى والمدن حتى وصلت إلى كابل العاصمة .

حفيظ الله أمين ١٩٧٩م:

فشـــلت الحكومـــة فـــى بـــرامجها الشـــيوعية وهزمت أمام هجمات المجاهديـــن فجعلـــت حفيظ الله أمين يقتل أستاذه نور الدين تره كى ويعلن الـــولاء الكامل للروس وألقى حفيظ الله أمين باللائمة على تره كى لتشريد

عشرات الآلاف من الأبرياء، مع أن حفيظ الله أمين كان رئيسًا للوزراء فى عصــر تــره كـــى وشريكًا فى جميع مخططاته، وحوصر حفيظ الله أمين بالعملــيات الناجحة للمجاهدين فى جميع بلدان أفغانستان دفاعًا عن عقيدتهم وعن وطنهم فازداد يأسًا وقنوطًا وأعلنت محطة إذاعة سوفييتية فى الاتحاد السوفييتى ادعت أنها راديو كابل أن انقلابًا قد أطاح بحفيظ الله أمين، وأعلن أنـــه قد تمت محاكمته وإعدامه، واتهمته موسكو بأنه عميل أمريكا وعميل المخابرات الأمريكية، وكانت روسيا قد دبرت مقتله بالسم فى وليمة أقامتها له هو وأعوانه وكان قتله عام ١٩٧٩م.

ببرك كارمل ١٩٧٩م – ١٩٨٦م :

فـــى ٢٩ ديســمبر ١٩٧٩م دخل الروس أفغانستان بمائة ألف جندى روسى بمختلف الأسلحة الحديثة ترافقهم المصفحات والدبابات والطائرات، ثــم أحضروا ببرك كارمل *الذى كان سفيرًا فى تشيكوسلوفاكيا وأجلسوه فى* منصـــب الرئاســـة. وبدأ السوفييت فى قتال المجاهدين وحملوا على القرى والمدنيين بالطائرات والدبابات فدمروا البلاد بكل قسوة وقتلوا المدنيين بلا رحمة.

وذكـــرت جريدة برافدا السوفيتية فى ٣٠ ديسمبر ١٩٧٩م أن القوات السوفييتية ذهبت إلى أفغانستان لمساعدة الحكومة الأفغانية بناءً على طلبها بســبب تدخــل خـــارجى من جانب الولايات المتحدة والصين والباكستان، وقالـــت الجريدة: إن الجنود السوفييت سينسحبون حينما لا تحتاج أفغانستان إليهم.

وشـــمل الجهـــاد فئات كثيرة من الجيش وأساتذة الجامعات والطلاب والتلاميذ والنساء وموظفى الدولة وسائر المدنيين، فكانت العاصمة كابل بعد

شـــهر مـــن التدخل الروسى كأنها نيران تلتهب وكذا سائر المدن والقرى، ورغـــم كـــل الجهود التى بذلت لم يستطع السوفييت أن يسيطروا إلا على بعض المدن الكبرى والطرق الرئيسية المؤدية إليها، وبقى الريف والغالبية العظمـــى مـــن البلاد خارج نطاق السيطرة، وكانت القرى تمد المجاهدين بـــالمؤن والمساعدات، وهذا ما جعل السوفييت يهدمون القرى على رؤوس قاطنيها فتقاطر اللاجئون على الباكستان وإيران وتركوا مزارعهم وقراهم، وكـــان السوفييت يرمون فى القرى ألعابًا للأطفال على هيئة أقلام رصاص وبالونات ولكنها كانت شراكًا خادعة بترت أرجل الأطفال وأياديهم وتركت أعدادًا هائلة من المشوهين والمعاقين.

وكانـــت أســـلحة المجاهدين فى بادئ الأمر لا تزيد عن بنادق بسيطة ولكـــنهم بـــدأوا يســـتخدمون الأسلحة التى غنموها من الروس، واستمرت الخسائر الفادحة تظهر فى صفوف الجيش السوفييتى وأخذوا يتساءلون عن سبب وجودهم فى هذه البلاد، وبدأت الحكومة السوفييتية تخفى أعداد القتلى عن السوفييت أنفسهم.

ويعتـــبر عـــام ١٩٨٥م أشد المعارك عنفًا بين المجاهدين والسوفييت فتراكمت الجثث من الفريقين ولكنها لم تثن المجاهدين عن كفاحهم، وحاول كـــارمل أن يوطد علاقاته بالشعب الأفغانى ويدعو لانتخابات جديدة، ولكن الشـــعب الأفغـــانى لم يرضخ لهذا واستمر فى جهاده، فاستدعى السوفييت نجيـــب الله مـــن موســـكو عام ١٩٨٦م وعينوه رئيسًا للدولة بعد أن نحّوا كـــارمل عن منصبه وقتلوه. وأراد نجيب الله أن يُرضى مشاعر الغاضبين ضـــده لوقوفـــه مـــع السوفييت فأشرك فى الحكم أناسًا لا ينتسبون للحزب الوطـــنى الديمقراطى، ولكن تمسك الشعب الأفغانى بحريته وعقيدته جعلت

المجاهديـــن يقـــاومون، ومن جهة ثانية وقف العالم كله ضد السوفييت مما أجبرهم على الانسحاب فى ١٥ فبراير ١٩٨٩م.

وبعـــد انســـحاب الروس كانت حكومة نجيب الله تسيطر على رقعة أرض بســـيطة لا تتعدى ٢٠ % فحاول الروس دعمه ماليًا وعسكريًا ضد المجاهدين، ولكن محاولتهم باءت بالفشل أمام المجاهدين ودخل المجاهدون كـــابل فـــى ٢٩ إبـــريل ١٩٩٢م وزال نظام نجيب الله وقبضوا عليه وهو معتصم بمبنى هيئة الأمم المتحدة فى كابل وأعدموه.

وبعد زوال حكم نجيب الله كان من الصعب تشكيل حكومة تجمع قادة الفئات والمجاهدين.

ففـــى الشـــمال التقـــت قبائل التاجيك حول أحمد شاه مسعود، والتف البشتون حول حكمت يار، وكان حلف دوستم وسيد نادر كيانى يسيطر على المـــنطقة الواقعة بين مزار شريف وكابل، فى حين كانت هراة وما حولها تحـــت ســـيطرة اتحـــاد المجاهدين وإسماعيل خان وبعض قوات الحكومة الســـابقة، أمـــا قـــندهار فكان يسيطر عليها مزيج من المجاهدين والقوات الحكومـــية السابقة التى يرأسها ملا نجيب الله آخوند، أما الشرق والجنوب الشـــرقى فكـــان يســـيطر عليه العسكريون السابقون فى المنطقة ويرأسهم مولوى حقانى وحاجى عبد القادر. وأعلن رؤساء الجبهة الخارجية برئاسة صبغة الله المجددى تأسيس دولة أفغانستان الإسلامية، وحسب اتفاق بيشاور فى ٢٦ أبريل ١٩٩٢م يكون صبغة الله مجددى رئيسًا للدولة لمدة شهر، ثم يخلفـــه الأســـتاذ برهان الدين ربانى لمدة أربعة أشهر تختار بعدها حكومة مؤقـــتة. وفـــى ٢٨ أبـــريل عام ١٩٩٢م عينت الحكومة وزراء جدد ينتمون لأحزاب المجاهدين، وكان أحمد شاه مسعود وزيرًا للدفـــاع، ولكن حكمت يار

لــم يوافق على هذه الحكومة واتهمها بأنها غير شرعية، وطالب بانسحاب مليشــيات الجــنرال دوســتم من كابل، ووافق معظم الرؤساء على تمديد حكومــة الأســتاذ برهان الدين لمدة خمسة وأربعين يومًا، وشكلت حكومة الأســتاذ ربــانى مجلس شورى الحل والعقد، وانتخب الأستاذ برهان الدين رئيسًــا للبلاد، ولكن نشأ خلاف بين المعارضين وحدثت مواجهات مسلحة، وفـــى عام ١٩٩٣م جمع الملك فهد القوات المتناحرة وصالح بينها وأقسموا أمــام الكعــبة علــى احترام هذا الاتفاق، ولكن هذا الاتفاق لم يطبق عمليًا واستمر القتال، وكانت قوات حكمت يار هى التى تبدأ بالقتال دائمًا.

ونتــيجة لذلــك أصبحت الحكومة المركزية عاجزة عن حكم البلاد، وحكمــت كــل فئة جزءًا من البلاد، وفى هذا الجو نشأت جماعة طالبان، وكــان لجماعة طالبان صلات وثيقة بالمدارس الدينية فى بيشاور وكويتا، وكــان كثير من طلاب هذه المدارس وحتى أساتذتها يشتركون فى أعمال المقاومة ضد السوفييت. وقد تألفت قوى طالبان الأفغانية من عدة أصناف :

١- طلاب المدارس الدينية فى أفغانستان.

٢- الأفغان المهاجرون إلى الباكستان بعد دخول السوفييت.

٣- بعض طلاب المدارس الدينية من الباكستانيين .

٤- بعض المجاهدين الذين تركوا فرقهم وانضموا لطالبان من البشتون.

وحصــلت حكومــة طالــبان علــى تأييد الباكستان والمملكة العربية السعودية.

واستولت طالبان على قندهار وأعلنت أن غايتها من القتال هو توحيد المجموعات المسلحة لإحلال السلام فى البلاد.

ثــم أعلنت طالبان أنها تريد الاستيلاء على البلاد خطوة خطوة، ولكن

سرعان ما وجدت نفسها بين أربع قوى مسلحة: القوات الشمالية الغربية بقيادة إسماعيل خان، والقوات الشمالية الشرقية بقيادة أحمد شاه مسعود، والقوات الشرقية بقيادة حاجى عبد القادر، والقوات الشمالية بقيادة الجنرال دوستم والشيعة. وإذا أرادوا الاتجاه نحو كابل فسوف يواجهون بقوات إسماعيل خان وهو حليف قوى لقوات الأستاذ برهان الدين ربانى وأحمد شاه مسعود، فأعلنوا أن الغاية من تحركاتهم هى إحلال السلام فى كل أفغانستان، وهم يسعون لتأليف حكومة إسلامية وطنية ولقى هذا النداء صدىً كبيرًا لأن الشعب الأفغانى سئم الحرب، وبدأت جماعة طالبان تتحرك نحو جميع الأقاليم الأفغانية فيستولون عليها الواحد تلو الآخر، وفى نهاية شهر ديسمبر عام ١٩٩٦م كانت معظم البلاد فى أيدى طالبان وسيطروا على الطريق الواصل إلى باكستان ودول آسيا الوسطى.

وفى ديسمبر عام ١٩٩٨م دعا أحمد شاه مسعود كل الرؤساء من معارضى طالبان إلى بنجشير لاجتماع استراتيجى، وأسس المجتمعون منظمة سياسية وعسكرية جديدة باسم (الجبهة الإسلامية المتحدة لتحرير أفغانستان) وأقر المجتمعون تنصيب مسعود قائدًا لكل القوى المعارضة لطالبان.

وأسست جماعة طالبان إمارة أفغانستان الإسلامية برئاسة الملا محمد عمر ليحكم البلاد بطريقة الخلافة باسم أمير المؤمنين، وأحرقت جماعة طالبان تماثيل بوذا الشهيرة فى باميان واستشاط العالم غضبًا لذلك، ووقفت أمريكا بالمرصاد لهذا النظام فقد كانت تتحفز لدخول أفغانستان بأى ذريعة من الذرائع بعد جلاء الاتحاد السوفييتى عنها.

وقتل أحمد شاه مسعود فى ٩ سبتمبر عام ٢٠٠١م فى ظروف

يحوطهـا كثير من الشك والغموض. وفى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م انهار برجا الـتجارة العالمى فى أمريكا، وعلى أثر ذلك قامت الولايات المتحدة بإقناع كثـير من الدول بالاشتراك معها فى حملة ضد طالبان وضربت أفغانستان وهزمـت طالـبان فى ١٤ نوفمبر ٢٠٠١م ووقعت أفغانستان تحت وطأة استعمار ثقيل مرة أخرى.

"وجـرى فيها من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة فما الظن بتفاصيله".

وكان ما كان مما لست أذكره فظن ظنًا ولا تسأل عن الخبر

وقـد اسـتعرت هذه الفقرة وهذا البيت من كتاب "الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية" لابن الطقطقى وكان يتحدث عن هجوم المغول على الدول الإسلامية والفظائع التى ارتكبوها فى حق المسلمين.

وكان الهدف الرئيسى من ضرب أفغانستان وسيطرة قوات التحالف عليها :

١- إحكام السيطرة على القوة النووية فى منطقة شبه القارة الهندية ممثلة فى الهند وباكستان.

٢- حصـار الـتعاون العسـكرى الآخذ فى النمو بين روسيا وإيران ومنع احـتمالات تطوره إلى مرحلة أكثر تقدمًا بما يمكن الأخيرة من الدخول إلى النادى النووى.

٣- خلـق وجود عسكرى أمريكى للمرة الأولى فى آسيا الوسطى بهدف السـيطرة علـى بـترول بحـر قزوين، وذلك على غرار ما فعلته الولايـات المـتحدة فى بترول الخليج العربى حيث يقدر الاحتياطى البـترولى فى بحر قزوين بما لا يقل عن ٣٠٠ مليون برميل أى ما يوازى ٢,٣ مليار برميل، بالإضافة للغاز الطبيعى الذى يقدر بحوالى ٦٠٠ مليار متر مكعب.

٤- إيقاف النفوذ الصينى المتنامى فى منطقة آسيا الوسطى وتجريده من حلفائه فى المنطقة وتمثل باكستان التى أعادتها الحرب بقوة إلى الحظيرة الأمريكية واحدة من أهم حلفاء الصين فى المنطقة.

٥- إجهاض أى فرص للتعاون بين القوى الرئيسية فى القارة الآسيوية، حيث كانت هناك إرهاصات للتعاون بين كل من روسيا والهند والصين وإيران فيما يشبه الحلف الرباعى.

٦- تصفية الخلافات التى مازالت عالقة بين بعض دول آسيا الوسطى منذ نهاية عصر الحرب الباردة.

٧- تطويق الصين إذ تصير القوى المتمركزة في أفغانستان على بعد ثلاثين ميلاً من طريق قراقورم.

٨- ينكشف أمامها غرب إيران وبذلك تصير على مقربة من حقول البترول فى إيران والمملكة العربية السعودية.

٩- تصير عاملاً ضاغطًا على باكستان والهند.

١٠- تصير على مقربة من روسيا، وذلك عن طريق آسيا الوسطى الإسلامية التى ترتبط أفغانستان معها بحدود طويلة.

١١- تقف مانعًا أمام اتحاد المسلمين فى إيران وأفغانستان وآسيا الوسطى.

١٢- تستولى على ثروة أفغانستان الطبيعية البكر التى لم تستغل بعد.

١٣- تسيطر على الثروة المائية فى أفغانستان، وبذلك تكون قوة ضاغطة فى المنطقة بين أفغانستان وجيرانها؛ لأن كثيرًا من أنهار أفغانستان الكبيرة تنبع من أفغانستان وتواصل سيرها إلى الدول المجاورة مثل: نهر آمو(نهر جيحون)، نهر مرغاب، نهر هرى، هذه الأنهار تواصل سيرها إلى آسيا الوسطى، نهر كابل يواصل سيره إلى نهر السند فى الباكستان، ونهر هلمند يواصل سيره حتى صحراء سيستان فى إيران.

الشخصية الأفغانية ومنابع تكوينها

اتهمت الشخصية الأفغانية فى الآونة الأخيرة اتهامات كثيرة وألحقت بها صفات متنوعة مثل: الرجعية، والجمود، والبداوة، بل إن البعض غالى فى هذه الصفات فجعل الأفغان نموذجًا للعصور الوسطى، ومما يدعو إلى الغرابة أن هذه الصفات طفت على السطح بعد زوال الاتحاد السوفيتى فى ٢٢ ديسمبر ١٩٩١م وبعد أن تمكن الأفغان أن يلحقوا بجيوشه - التى قيل إنها لا تهزم - هزيمة ثقيلة ستظل موضع الدراسة والبحث من العلماء والمحللين.

ولقد ساعد على تكوين هذه الشخصية عدة منابع أهمها :

١- البيئة الأفغانية

إن الموقع المتميز التى تحتله أفغانستان جعلها مطمعًا للغزاة على مر الزمن لأن هذا الموقع يتحكم ما بين الشرق فى أقصاه الأعلى والأدنى، ولهذا يطلقون على أفغانستان بوابة العالم الإسلامى فى آسيا، وبوابة الشرق.

وهذه البيئة موزعة بين ثلاثة أشكال :

أ- جبال شامخة وهضاب عالية تغطيها الثلوج طوال العام.

ب- وديان سحيقة تجرى فيها الأنهار والغدران وتلتف حولها الأشجار.

ج- صحراوات قاحلة تغطى حوالى ربع أفغانستان وتقع فى الجنوب والغرب، وهى صحراوات فقيرة مجدبة.

ويتغير المناخ من منطقة لأخرى ويتباين السطح فهو شديد البرودة فى الجهات التى يزيد ارتفاعها على ثلاثة آلاف قدم.

أما المناطق الصحراوية فصيفها لافح شديد الحرارة.

وتهطل الثلوج فى فصل الشتاء، وتهطل الأمطار بغزارة فى فصل الربيع.

٢- طبيعة الشعب الأفغانى

التركيبة السكانية فى أفغانستان تركيبة متنوعة تختلف اختلافًا كاملاً عن أى شعب من الشعوب؛ لأن هذه التركيبة تذوب وتنصهر لتخرج منها الشخصية الأفغانية التى انسجمت أطرافها واتحدت اتجاهاتها، وأرى أن أشير إلى أهم هذه الأجناس والعرقيات :

أ- الأفغان :

الأفغان هم البشتون أو البختون وهم قبائل كثيرة متعددة منها : الدرانية، الغلزائية، الهوتكية الوزيرية، ويعيش أغلب قبائل البشتون فى الولايات الشرقية والجنوبية الشرقية من أفغانستان وفى هرات وسيستان، ويعرف البشتون بالشجاعة والقوة والصلابة، ويعشقون الحرية ويدافعون عن بلادهم ضد أى غاصب أو محتل ولا تقل نساؤهم شجاعة عن رجالهم، وفى داخل أفغانستان إذا تحدثت عن شخص وقلت أنه أفغان فهذه الكلمة تعنى أنه من البشتون، والأفغان يتحدثون لغة الباشتو ويجيدون اللغة الفارسية وبقية لغات أفغانستان أيضًا.

ب- التاجيك :

وهم المتحدثون باللغة الفارسية وهم أناس فى طباعهم رقة وخلق، وهم يعشقون الشعر والأدب، ويجيدون الفنون والآداب، والتاجيك فى سجستان وهرات يتحدثون بفارسية عذبة رقيقة قريبة الشبه بفارسية إيران، أما التاجيك فى شمال ميمنة وبدخشان فإنهم يتحدثون بفارسية تاجيكستان فى

آسيا الوسطى، أما تاجيك جنوبى الهندوكش فهم يتحدثون بفارسية قريبة من الفارسية الإيرانية مع كلمات من الپاشتو.

جـ الهزاره :

وهـم يسكنون قلب أفغانستان فى هضاب شاسعة جنوب سلاسل جبال الهـندوكش بيـن مدينتى كابل وهرات وملامحهم تشبه الملامح المغولية، ويقال: إن چنكيز خان فى كل حروبه كان يترك ألف فارس فى البلاد التى ينتصـر عليها وألف باللغة الفارسية معناها هزار ولذلك يربط العلماء بين كلمـة هزاره وهزار. وهم يمثلون الطبقة العاملة فى أفغانستان، وإن كانت هـذه الطـبقة قـد تغيرت الآن وأصبح منهم الكثير من الأثرياء والمثقفين وأساتذة الجامعات، ومذهبهم شيعى، ويتحدثون بلغة فارسية تختلط بكثير من الكلمات المغولية.

د ـ الأوزبك والتركمان :

يسـكن الأوزبـك سـهول نهر جيحون، ويشتغلون بالزراعة وتربية الخيول وأغنام القره قول أى الاستراكان.

وفـى الضـفة الجنوبـية لـنهر جيحون يقطن التركمان. والأوزبك والـتركمان تجمعهم وشائج الصلة بإخوانهم فى تركمنستان وأزبكستان فى آسيا الوسطى، ويتحدث التركمان والأوزبك باللغة التركية الچغتائية، وهذه اللغـة وإن كانت تصدر بها جرائد ومجلات فى هذه المناطق ولكنها ليست لغة رسمية مثل الفارسية والپاشتو.

هـ ـ العرب :

توجـد كثير من القبائل العربية فى أفغانستان منذ الفتح الإسلامى لها عـام ٢٣هـ، وهذه القبائل استقرت فى شمال أفغانستان، ولا تزال لغة هذه القـبائل هى اللغة العربية الفصحى، وقد زرت هذه المناطق حينما كنت فى

أفغانستان بصحبة سفير مصر في أفغانستان الأستاذ صديق درويش والأستاذ الدكتور روان فرهادى وكيل وزارة الخارجية الأفغانية فى ذلك الوقت للتعرف على هذه المنطقة ورؤية العرب هناك، وحينما طرقنا باب منزل شيخ القبيلة – وكان على علم بقدومنا – فتح فتى فى الثانية عشر من عمره وقال بلغة عربية فصيحة : حضر القوادم يا أبتاه. وأذكر أن الأستاذ السفير صديق درويش تحدث كثيرًا مع شيخ القبيلة وكانت لغته عربية فصيحة سهلة متدفقة لا لبس فيها ولا غموض، ولكن حينما سأله: أتزرعون هنا القمح ؟ استفسر وقال: ما القمح ؟ فشرح له الدكتور روان فرهادى باللغة الفارسية فرد شيخ القبيلة على الفور وقال : نعم نزرع الحنطة والشعير. وكان طلبهم من سفير مصر بسيطًا وهو أن يرسل لهم أساتذة متخصصين فى اللغة العربية حتى يحافظوا على لغتهم فى ألسنتهم بعيدًا عن أى كلمة دخيلة. وهذه القرى التى فى شمال أفغانستان يتحدث أهلها جميعًا باللغة العربية وكأنك فى مكان عربى، وقال الدكتور روان فرهادى: إنهم يحتفظون بعاداتهم العربية الأصيلة فى كل شيء. ونحن نتمنى أن يعود السلام والوئام إلى أفغانستان، وتذهب هيئات متخصصة فى اللغة والآداب العربية حتى تتعرف على لهجات هذه القبائل وتحدد أماكنها التى جاءت منها فى الجزيرة العربية، وبذلك يقدمون أجل خدمة للعلم والعلماء. وهناك إلى جوار هذه الأجناس أجناس أخرى من البلوش والبشه ئى والنورستانى.

وهذه الأجناس المتعددة والقوميات الكثيرة وَحَّد الإسلام بينها فاختفت نعرة القوميات وتوارت الافتخارات بالأجناس، فالكل مسلم يؤمن بالله العلى العظيم وبكتابه الكريم وبرسوله ﷺ.

٣- المنابع الحضارية للأفغان

التقى على أرض أفغانستان العديد من الحضارات والثقافات، وعلى أرضها امتزجت المادية اليونانية بالروحانية الهندية ويذكر المؤرخون أن الآريين - وهم سكان أفغانستان قبل الإسلام - هم أول من سنوا القوانين ودونوا الدفاتر ووضعوا القواعد والأسس السليمة للحضارة البشرية، وعلى أرض أفغانستان انتشرت الهندوكية والمجوسية والبوذية، وأخيرًا اعتنق أهلها الإسلام مختارين غير مجبورين.

كان لهذه البيئة وما فيها من التباين والاختلاف أثره وانعكاسه على طبيعة الشعب الأفغانى فنجد الأفغانى صورة من صور بيئته، فهو إما صاحب فكر حر وابتكار، وإما مقلد جامد يرسف فى أغلال التقاليد القديمة، وهو إما صديق ودود يضحى بكل ثمين وغال فى سبيل صديقه، وإما عدو لدود ينتقم ممن يكرهه أشد الانتقام.

ومن يدرس جغرافية أفغانستان يرى أن الانتقال من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب شديد الصعوبة اللهم إلا بالدوران حول الجبال، وهذه الوعورة فى الطرق أعطت الأفغانى الحرية فى اختيار الطريق الذى يبلغه إلى مأربه دون خضوع أو تأثير من أحد، فالتجربة وحدها هى التى تصقله وتعلمه أى الدروب يسلك وفى أى الطرق يسير.

وهذا يفسر لنا شيئًا مهمًا وهو أن أفغانستان محاطة بالشيعة الإسماعيلية من الشرق والجنوب فى الباكستان، والشيعة الاثنى عشرية من الغرب فى إيران ومع ذلك نجد أن ٩٥ % من الأفغان سُنَّة وأحناف بالذات.

أما الحدود المشتركة بين أفغانستان وجيرانها فقد جعلت الأفغان ينفتحون على الأديان من العقائد والثقافات المختلفة والحضارات القديمة، فقد كانت أفغانستان مركزًا من مراكز الثقافة اليونانية التى أتت إليها مع

الإســكندر الأكــبر المقدونـــي، كمــا كانــت مركــزًا من مراكز البوذية والزردشــتية، كذلــك انفتحــت علـــى الــثقافات الهندية بمختلف تنوعاتها وتجلياتها.

هــذه البيــئة الخشنة القاسية أورثت الأفغان الصلابة والشدة والزهد والثبات، وغرست فى نفوسهم إيمانًا بالله لا يزعزع، وتسليمًا مطلقًا بالقضاء والقــدر، وتوكــلاً على الله راسخًا لا يهتز أمام المصاعب والنوائب، فهم يعتقدون بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كيفما يشاء، ولذلك فهم لا يرهبون الموت فى الدفاع عن بلادهم.

الهويـــة الثقافيـة للأفغـــان

مع اختلاف أعراق الأفغان واختلاف لغاتهم التى تنتشر فى أفغانستان فهم مـــع ذلك يمثلون هوية ثقافية واحدة تمثل الوجه الحقيقى لأفغانستان؛ إذ أن الهوية الثقافية لأى شعب من الشعوب ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأصول العرقية والجغرافية للمكـــان، وتاريخه، وعقائده. والشعب الأفغانى تعددت أعراقه وأصوله، وتشكلت جغرافيـــته تشكيلاً فريدًا ولعبت عقائده وتاريخه دورًا كبيرًا فى تشكيل ثقافته قبل الإسلام وبعد الإسلام.

ونحـــن لا نستطيع أن ننكر أن اللغات هى الوعاء الذى تصب فيه الثقافات فتـــبلورها وتشكلها وتصيغها ومن ثم تظهر بها هوية الشعوب والأمم، ونحن إذا أردنـــا أن نـــتحدث عن أوعية الهوية الثقافية للأفغان بعد الإسلام فإننا نفاجأ بأن الأراضـــى الأفغانية ينتشر فيها لغات عديدة تصل إلى ثمانٍ وثلاثين لغةً، وهذه اللغات المتعددة – شئنا أم أبينا – تدخلت تدخلاً كبيرًا فى تشكيل الهوية الثقافية لهذا الشعب العريق.

وسوف أتحدث عن أهم هذه اللغات وهى تنحصر فى أربعة كان لها الفضل فى بلورة الهوية الثقافية للأفغان التى أكسبتها مميزاتها وشخصيتها التى تنفرد بها عن غيرها من الأمم والشعوب وهذه اللغات هى :

أولاً : اللغة العربية

ثانيًا : اللغة الفارسية

ثالثًا : اللغة الباشتو

رابعًا : اللغة التركية

أولاً : اللغة العربية

بدأ الإسلام يدخل إلى أفغانستان فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ قبل استشـــهاده، وفى أوائل عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ عام ٢٣ هجرية وقـــاوم الأفغـــان الفاتحين العرب مقاومة شديدة قبل أن يعرفوا الدين الإسلامى وتعاليمه، ولكنهم لم يلبثوا أن اقتنعوا به اقتناعًا كاملاً بعقولهم وقلوبهم فدخلوا فيه أفواجًـــا، وكانـــت الدعوة إلى الإسلام وتعاليمه تسبق العرب إلى مختلف الأقاليم الأفغانية، ولم يكد ينتهى القرن الثانى الهجرى إلا ودخلت أفغانستان بكل مدنها فى الدين الإسلامى، واستقرت كثير من القبائل العربية فى البلاد المفتوحة ولا يزال لهـــذه القبائل وجود فى أفغانستان حتى اليوم وتحتفظ هذه القبائل بعاداتها ولغتها العربـــية إلـــى الآن ، ولـــم يلبث أن ظهر من أبناء أفغانستان طبقة أجادت اللغة العربية واشتغلت بمختلف العلوم الإسلامية؛ لأنهم وجدوا أن دراسة اللغة العربية وآدابها من ألزم اللوازم لكل من يريد فهم الإسلام .

ولـــم نلبـــث أن وجدنا فى مختلف العلوم الإسلامية علماء عظامًا من الأفغان شاركوا إخوانهم العرب فى دراسة اللغة العربية من الأدب والفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام والتصوف والفلسفة، من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر مـــن الفقهاء والمحدثين الإمام أبو حنيفة النعمان (ت١٥٠ هـــ)، ومن المفسرين شـــيخ الإسلام الصابونى (ت٤٤٩ هـــ)، ومن المتصوفة شقيق البلخى (ت١٥٣ هـــــ)، ومن الأطباء والفلاسفة ابن سينا (ت٤٢٨هـــ)، ومن المتكلمين أبو القاسم الكعـــبى (ت٣١٩ هـــــ)، ومـــن المؤرخين أبوزيد البلخى (ت٣٢٢هـــ)، ومن الجغرافييـــن السائح الهروى (ت٦١١هـــ)، ومن علماء اللغة والنحو أبو منصور الأزهرى (ت٣٧٠هـــ)، ثم صاحب المؤلفات الموسوعية البيرونى(ت٤٤٠هـــ) الذى قال عنه المستشرقون: إنه أكبر عقلية فكرية ظهرت حتى الآن، وقد أمضى

حياته مصاحبًا للسلطان محمود الغزنوى فى غزنة بأفغانستان بعد أن قدم إليها من موطنه خوارزم.

أما فى العصر الحديث فقد انصهر فكر الأمة الأفغانية كلها فى روح الثائر المجـــدد جمال الدين الأفغانى؛ الذى حمل مشعل التحديث والتجديد والنهضة فى الفكر الإسلامى الحديث، وخلف مدرسة كبيرة كان من روادها الشيخ محمد عبده والشـــيخ محمـــد رشـــيد رضا وغير هؤلاء أعداد لا تحصى ممن خدموا الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية أجل الخدمات وأعظمها.

ثانيًا: اللغة الفارسية

اللغة الفارسية فى أفغانستان هى إحدى اللغتين الرسميتين فيها، وبناءً على دستور ١٩٦٤م فإنه بالإضافة إلى اللغة الفارسية التى هى لغة السواد الأعظم فى أفغانستان فإن لغة البشتو أيضًا لغة رسمية . واللغة الفارسية هى أعظم الروافد فى تكوين الهوية الثقافية للأفغان، واللغة الفارسية التى نعنيها هى اللغة الفارسية الإسلامية التى نشأت فى ظل الإسلام فى القرن الثالث الهجرى وأصبحت تكتب بالأبجدية العربية وحوت كثيرًا من الألفاظ والعبارات العربية، وقبل الإسلام كانت توجد اللغة الفارسية القديمة وهى لغة قريبة الصلة باللغة السنسكريتية وكانت تكتب بالخط المسمارى وبالحروف الآرامية . والأدب الفارسى هو أهم عناصر الحضارة الأفغانية، ولقد أسهم أدباء الأفغان وشعراؤهم بتراث فارسى أصبح ميراثًا لجميع الأمم التى تتحدث الفارسية، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر الشاعر أبو مؤيد البلخى صاحب الشاهنامه المنثورة التى كتبها عام ٣٥٠هـــ، وهى التى كانت أحد مصادر الشاعر الفردوسى (ت٤١٦هـــ) الرئيسية حينما نظم شاهنامته، والشاعرة رابعة البلخى، وسنائى الغزنوى (ت٤١٦هـــ) صاحب

حديقة الحقيقة، ومولانا جلال الدين الرومى (ت٦٢٨هـ) صاحب المثنوى، ومولانا عبد الرحمن الجامى (ت٨٦٨هـ) شاعر الصوفية العظيم ومؤرخهم الكبير، وشيخ الإسلام خواجة عبد الله الأنصارى (ت٤٨١هـ) صاحب منازل السائرين، وغيرهم آلاف لا نستطيع لهم إحصاءً أو عدًّا . ولقد تركوا تراثا عريضًا فى الآداب الفارسية لا يقل بأى حال عن الآداب العربية .

واللغة الفارسية هى اللغة الأولى فى أفغانستان بلا منازع، فهى لغتهم فى المحافل الرسمية، وهى لغة السياسة والآداب والفنون، وهى لغة مؤتمراتهم ومنتدياتهم العلمية، وهى لغة الدواوين والدوائر الحكومية، ولغة المدارس والجامعات، وهى لغة المحادثة لدى الجميع إذا تعددت لغات المتحدثين وأعراقهم وأجناسهم .

وتقديمنا للغة العربية فى صدر حديثنا أوجبته بعض العوامل أهمها :

أ- اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم وهو كتاب المسلمين الأجل والأكبر، وقد فرض على المسلمين على اختلاف لغاتهم أن يتعلموا قدرًا منها كل حسب استطاعته حتى يتمكنوا أن يؤدوا ما عليهم من الفرائض .

ب- اللغة العربية لازالت تحتل موقعًا مهمًّا بين اللغات الموجودة فى أفغانستان حيث توجد قرى كاملة فى شمال أفغانستان تتحدث بها حتى الآن كما ذكرنا .

ج- اللغة العربية ظلت قرنين من الزمان - الأول والثانى الهجريين - هى اللغة الرسمية فى أفغانستان بعد الفتح الإسلامى، وحينما بدأ أهل هذه البلاد عملية إحياء وبعث للغاتهم من جديد فى أوائل

القـرن الثالـث الهجـرى كتبوا لغاتهم بخط عربى، بل وأخذوا الأبجديـة العربية كاملة وأصبحت لغاتهم (الفارسية – الپاشتو – التركية – الأزبكية وغيرها) تحتوى على كم هائل من المفردات والأساليب والتعبيرات العربية بشكل يستحيل فصل التأثير العربى على هذه اللغات، ولم يجد علماؤهم غضاضة فى الأخذ من اللغة العربـية وآدابهـا؛ لأنهم هم وغيرهم من العلماء المسلمين غير العـرب شـاركوا العرب فى وضع أسس وقواعد اللغة العربية، وفى استجلاء مواطن سحرها وبلاغتها وفى كتابة المصنفات فى شـتى علومها، وأصبحت اللغة العربية كما هى ملك العرب ملك لهم أيضًا .

ثالثًا : اللغة الپاشتو

لغة الپاشتو هى اللغة الثالثة فى تجلية الهوية الثقافية للأفغان، وهى لغة رسمية أيضًا فى أفغانستان مع الفارسية. وپختو أو پشتو لغة الپشتون، والپشتون قبائل متعددة نذكر منها الدرانية والغلزانية والهوتكية والوزيرية، ويعيش أغلب قبائل الپشتون فى الولايات الشرقية والجنوبية الشرقية من أفغانستان. ولغة الپشتو وثيقة الصلة باللغة السنسكريتية والفارسية القديمة قبل الإسلام، ولكنها كتبت بعد الإسلام بحروف عربية، وتعرف عند العرب باسم اللغة الأفغانية، وقد وجدت كتابات من اللغتين الفارسية والپشتو فى نقوش شمال أفغانستان مما يدل على أن اللغتين كانتا موجودتين منذ أقدم العصور التاريخية القديمة فى أفغانستان.

وأقدم نص شعرى للأدب الپشتو عثر عليه يرجع إلى عام ١٣٩ هـ، ويمثل شعرًا حماسيًا للأمير كرورجهان، أما أقدم نص نثرى فيرجع

إلى عام ٢٩٧هـ، ويمثله كتاب دسالوزمى أى نسيم الصحراء من تأليف أبى محمد هاشم شروانى ولقد صدرت بالپشتو مجموعة كبيرة من المطبوعات الحكومية والصحفية والتعليمية منذ أن اعتبرت لغة رسمية، وفى إذاعة كابل تذاع نشرة الأخبار بالفارسية أولاً ثم تليها مباشرة بالپشتو، ولقد استخدمت لغة البشتو لغة ثقافة وحضارة وأدب ابتداءً من القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين، وترجم إليها كثير من الكتب الأدبية القديمة مثل شاهنامة الفردوسى (٤١٦هـ)، وكليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة.

كما اتخذها كثير من الشعراء أداة فى تسجيل فنهم مثل خوش حال خان (ت١١٠٣هـ)وقد كتب بالپشتو تراثًا نثريًا كبيرًا، ويشبهه النقاد بالمتنبى من حيث إن كلاً منهما أحب قومه ولغته، وكان كلاهما يدعو إلى العيش فى عزة وحرية، ونبذ اليأس والخوف والخضوع . أما الشاعر رحمان بابا (ت١١٩٦هـ) فكان يضارع فى شعره شاعر إيران المعروف حافظ الشيرازى الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى . ولقد أنشئ قسم اللغة البشتو وآدابها فى كلية الآداب جامعة كابل، وكذلك أنشئت أكاديمية للبشتو، وتوجد فى دار الكتب بمدينة قندهار آلاف المصنفات باللغة البشتو، وترجم كثير من الأدب البشتو إلى اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية. والبشتون يعشقون الحرية ولا يقبلون غاصبًا أو محتلاً فى بلادهم، ويبذلون الحياة رخيصة فى سبيل الوطن، والبشتون يقدرون المرأة تقديرًا كبيرًا، ويساوون بينها وبين الرجل فى القدر والمنزلة والاحترام، حتى إنهم يقولون: "إن غطاء رأس المرأة يساوى فى المكانة والقدر عمامة الرجل " وهم يتخذون العمامة رمزًا للعزة والكرامة عند الرجال .

ونساء البشتون لديهن شجاعة وجلد فى الحروب ضد أى غاصب أو

محتل، ويذكر التاريخ السيدة أدى غازى وكانت من إقليم وردك فى جنوب أفغانستان، وكانت تحمل السلاح وتحارب جنبًا إلى جنب مع الرجال ضد الإنجليز فى عام ١٨٤١م وأثر عنها قولتها الشهيرة: "إذا قتل الرجال فإن النساء سوف تدافع عن ديارهن، وإذا استشهدن فسوف ينتقم أولادنا لنا من بعدنا".

كذلك يذكر التاريخ السيدة مَلاَلَىْ فقد اشتركت مع الرجال فى الحرب التى دارت رحاها بين الإنجليز والأفغان عام ١٨٨٠م فى معركة ميوند الشهيرة، وكان الإنجليز أكثر عددًا وأكثر عدة وعتادًا، ولكن الأفغان خاضوا غمار حرب ضارية وكتب لهم النصر المؤزر فيها، وأثر عن السيدة مَلاَلَىْ شعرها الذى كانت تقول فيه للجنود :

إذا لم تنتصروا أو تستشهدوا أيها الرجال فى ساحة الوغى
فلا تعودوا إلينا بأخباركم الجبانة المفضوحة

وتخليدًا للدور الذى قامت به السيدة ملالى فى معركة ميوند أطلق اسمها على أكبر مدرسة للبنات فى كابل، كما كتبوا شعرها الحماسى الذى أنشدته أثناء المعركة على قاعدة النصب التذكارى الذى أقيم فى أكبر ميادين العاصمة كابل تمجيدًا لشهداء معركة ميوند.

رابعًا : اللغة التركية

اللغة التركية وآدابها أحد اللغات المهمة فى تكوين الهوية الثقافية للأفغان وذلك لوجود العناصر التركية فى شمال أفغانستان، والتقاء هذه العناصر بالعناصر التركية فى آسيا الوسطى شكَّل قوة كبيرة وثقلاً لهذه اللغة فى المنطقة.

واللغة التركية الموجودة فى أفغانستان هى التركية الچغتائية، وقد

ظهر الاهتمام بهذه اللغة كلغة أدب وكتابة فى القرن التاسع الهجرى على يد على شيرنوائى (٨٤٤ – ٩٠٦هـ) الذى كان وزير السلطان حسين بايقرا فى مدينة هرات فى غرب أفغانستان، وقد أخذ على عاتقه مهمة تدعيم اللغة الچغتائية والعمل على نشرها كلغة أدبية، ولما كان نوائى من أصحاب اللسانين الفارسى والتركى فقد حاول أن يستوحى الفارسية فى كتاباته التركية فألف كتاب "محبوب القلوب" مقتفيًا أثر سعدى الشيرازى (ت٦٩١ هـ) ، كذلك ألف ست مثنويات إحداها تقليدًا لمثنوية العطار (ت٦٩١هـ) والخمسة الأخرى تقليدًا للشاعر نظامى الگنجوى (ت ٥٩٩هـ) فى مثنوياته، كما حاول أن يبرز وجهة نظره فى أفضلية اللغة التركية على اللغة الفارسية وذلك عن طريق المقارنة بينهما فألف كتابًا أسماه "المحاكمة بين اللغتين" وقد نجح شيرنوائى أن يوجه الأنظار إلى التركية الچغتائية وأن يجعلها لغة أدبية دخلت ضمن إطار اللغات الإسلامية الأخرى، وأسهمت مثل سابقاتها فى تكوين الهوية الثقافية للأفغان.

عوامل التميز والعبقرية
فى شخصية أحمد شاه مسعود

اتسمت شخصية أحمد شاه مسعود بأداء عبقرى متميز كونته ثلاثة عوامل رئيسية :

١- بيئية .

٢- أسرية .

٣- شخصية .

وهذه العوامل الثلاثة هى التى صنعت منه جنديًا عبقريًّا وقائدًا فذًّا، وهى التى هيأته للشدة والبأس ، وهى التى جعلت له مكان الصدارة فى التاريخ العسكرى بين القادة الذين اشتهروا بعبقرية التخطيط وعبقرية الفن فى المواقع الحربية، وفوق كل هذا ومن بعده عبقرية الصفات الإنسانية التى مثلتها التضحية والفداء والبذل فى سبيل الإسلام وفى سبيل الشرف وفى سبيل الحرية وفى سبيل الوطن .

العوامل البيئية

وقبل أن أتطرق للحديث عن عوامل التميز والعبقرية فى شخصية أحمد شاه مسعود أجد من الضرورى أن أتحدث فى إيجاز عن طبيعة الجهاد الأفغانى ضد روسيا.

تنافست بريطانيا وروسيا فى التوسع الاستعمارى فاتجهت بريطانيا صوب الهند وأفغانستان، واتجهت روسيا صوب آسيا الوسطى حيث حلم بطرس الأكبر فى ضم خوقند، وخيوة، وبخارى لأن هذه الخانات كان المنفذ الوحيد إلى وسط آسيا من جهة الشمال، كما أن هذه الخانات مثلت

طريقًا تجاريًا مهمًا نحو أفغانستان، وكانت بريطانيا تحرص على أفغانستان لأنها كانت ترى أن أفغانستان دولة حاجزة بين نفوذ الدولتين، وخاضت بريطانيا غمار ثلاثة حروب فى أفغانستان كانت الحرب الأولى من ١٨٣٨م – ١٨٤٢م، والحرب الثانية من ١٨٧٨م – ١٨٨١م، والحرب الثالثة بدأت فى ٦ مايو ١٩١٩م، وانتصرت أفغانستان على الجيوش البريطانية، وسعت انجلترا لإيجاد مخرج لها فبدأت المفاوضات. وفى ٨ أغسطس عام ١٩١٩م وقعت انجلترا اتفاقية روالبندى التى اعترفت فيها باستقلال أفغانستان، وعلى الفور قامت أفغانستان بتبادل التمثيل الدبلوماسى مع دول العالم المختلفة.

ولكن حلم الاستيلاء على أفغانستان بالنسبة لروسيا لم يفارقها لأسباب كثيرة وظلت قابعة حتى واتتها الفرصة فى ديسمبر عام ١٩٧٩م فدخلت بجيوشها إلى الأراضى الأفغانية واستولت عليها، ولكن الجيوش الروسية لم تمكث أكثر من عشر سنوات واضطرت إلى سحب جيوشها فى فبراير عام ١٩٨٩م، وقيلت أمور كثيرة عن أسباب هزيمة الروس فى أفغانستان، وكان أهم هذه الأسباب كما نظن :

١- إن الأفغان حاربوا بعقيدة راسخة لسببين لا ثالث لهما: النصر أو الشهادة فى سبيل الله.

وكلام أحمد شاه مسعود فى هذا الشأن معروف وواضح "**أُشْهِد الله أننا ما قاتلنا من أجل أنفسنا ولا للدنيا ولا حتى لتحرير أفغانستان ما قاتلنا إلا لنصرة هذا الدين**".

٢- إن الهدف الحقيقى من غزو أفغانستان لم يتضح أمام جنود الروس، فقد أخبرهم قادتهم أن جيوش أمريكا والصين والباكستان غزت

أفغانستان وعلينا نصرة جيراننا الأفغان، وحينما وقع بعض الجنود في الأسر عند المجاهدين لم يروا أثرًا لأمريكا أو الصين أو الباكستان فكان لهذا أثره البالغ على معنوياتهم.

٣- كان الافغان يحاربون بمعنويات عالية وهم واثقون بالله ، أضف إلى هذا أن شعورهم بالظلم والقهر لم يقلل من ثقتهم بأنفسهم، فهم يعتقدون أنهم ضعفاء ولكن أمام قوة الله التي لا تقهر وليس أمام قوة البشر.

٤- كانت روسيا تنظر إلى نفسها أنها الدب، وأفغانستان عليها أن تعي جيدًا أنها تنام إلى جواره ويجب أن تتصرف وفق هذا المفهوم، وأن أي حركة منها تثير هذا الدب فسوف يلتهمها بشحمها ولحمها وعظامها.

٥- استهان الروس بكل أسباب المعرفة عن قادة الأفغان والمجاهدين الذين يحاربونهم، لدرجة أنهم لم يعرفوا شيئًا في البداية عن أحمد شاه مسعود، ولم يروا حتى صورة له، ولم يفهموا طبيعة المجتمع الأفغاني، ولم يفهموا الطبيعة السياسية للجهاد أو المقاومة، وهذا هو جانب الضعف الذي استغل بواسطة المجاهدين بكفاءة عالية.

٦- أفرط الروس في ثقتهم في عتادهم الحربي وفي الخبرات العسكرية لقوادهم، وكانت الصورة الشائعة لديهم عن الأفغان أنهم يحاربون في الجبال وهي لا تعدو أن تكون حروب كروفر لا تعتمد على خطة ولا تنتهج نظامًا، أما العتاد الحربي فالأفغان لا يملكون منه إلا القليل البالي منذ عقود سحيقة، ولا شأن لهم بما حدث من تطور في روسيا بالنسبة للتقنيات العسكرية والتكنولوجيا الحربية، ولكن

تصور الروس عن الأفغان جاء مضللاً لا يستطيع أن يسترشد به أحد؛ لأن الأفغان تمرسوا على تعاقب الأجيال على حروب الكر والفر أو ما يعرف بحرب العصابات لكثرة الغزاة الذين قدموا إلى بلادهم، وهم لا يهتمون بعامل الزمن لأنهم يعلمون أن المعارك تدور على أرضهم والوقت فى أيديهم وهذا مريح بالنسبة لهم مرهق بالنسبة لأعدائهم، وهذا ما جعل أحمد شاه مسعود يقول: "لقد فاجأنا الروس بخروجهم السريع من بلادنا بعد عشر سنوات".

ويقول الشيخ يونس خالص – وهو أحد أبرز قادة المجاهدين – فى هذا الشأن: "إننا معشر الأفغان لو أخذنا ثأرنا بعد مائة عام نكون قد أسرعنا فى ذلك".

وكثرة الحروب على أرض أفغانستان أورثتهم الصبر، وقوة البأس، ورباطة الجأش، وتحمل المكاره، ولذلك صارت لهم فنون فى القيادة والإدارة وفى المخاتلة والمباغتة، وهم لا يغترون بنصر ولا تتخلع قلوبهم لهزيمة، فإن الهزائم والانتصارات متعاقبة فى حرب العصابات " فقواعدها تنبنى على الضرب والهروب والتخفى ثم معاودة الضرب وهكذا".

أما العدة والعتاد فهم يحاربون دائمًا عدوهم بما يغنمون من أسلحته، ولقد فعلوا ذلك مع الإنجليز وفعلوا نفس الشيء مع الروس.

وفى هذا الشأن يقول أحمد شاه مسعود : "مع وجود الروس فى بلادنا فنحن لا نحتاج لشراء السلاح من الخارج، الروس أنفسهم يحلون لنا هذه المشكلة لسقوط أسلحتهم كغنائم فى أيدى المجاهدين،

مئات من الدبابات الروسية والمدرعات والعربات وغيرها من الأسلحة الروسية فى أيدينا ".

وفى زيارتى لأفغانستان عام ٢٠٠٣م ذهبت إلى مدينة پنجشير مسقط رأس البطل أحمد شاه مسعود، وعلى طول الطريق من كابل إلى پنجشير – أى على مدى مائة وخمسين كيلو مترًا – رأينا على الجانبين عربات ودبابات ومجنزرات وهياكل طائرات روسية الصنع الكثير منها كان جديدًا وكأنه لم يستعمل، وسألت المرافقين لنا عن مصير هذه الأسلحة فأخبرونى أن بعضها سيوضع فى متحف ضخم باسم الشهيد أحمد شاه مسعود، والبعض الآخر من الأسلحة سيدخل الخدمة فى الجيش الأفغانى.

٧– دخل الروس أفغانستان يملؤهم الكبر والغرور ويستخفون بشأن الأفغان، ويتضح هذا من خطاب أحد قادتهم لأحمد شاه مسعود حينما قال له حانقًا بعد أن أصاب أحمد شاه مسعود من جنوده مغنمًا: إننى سأعلمك كيف تكون الحرب. فرد عليه أحمد شاه مسعود وقال له : بل أنا الذى سوف أعلمك كيف تكون الحرب. وبعد فترة من الزمن لم تتجاوز ثلاثة أعوام على بقاء الروس فى أفغانستان تلاشى هذا الكبر والغرور، وأتى مفاوضون من جنرالات الروس لإبرام هدنة مع أحمد شاه مسعود لوقف إطلاق النار سنة ١٩٨٢م "وانطلق المفاوض الروسى على طبيعته ينفس عما فى نفسه من الآلام ويصف الحالة البئيسة الأسيفة والروح المعنوية المتردية التى يحياها الروس فى أفغانستان، ثم استطرد يقول : لقد ألقى بنا هذا الأحمق – بريجينيف – فى هذه المتاهة المهلكة والهاوية المحرقة ... وإننا نشعر أننا فى أفغانستان نرسف فى

أغلال وكل همنا كيف نحلها".

ولقد قيل بشأن الغرور والكبر: إن قتيبة بن مسلم "وهو من نوابغ القادة المعدودين الذين أنجبتهم الأمة العربية فى صدر الإسلام" وكان يلى خراسان لملوك الدولة الأموية، فخرجت بها خارجة أهمته فقيل له: ما يهمك منهم؟ وجه إليهم وكيع بن أبى مسعود فإنه يكفيكهم، فأبى وقال : لا، إن وكيعًا رجل به كبر ويحتقر أعداءه، ومن كان هكذا قلَّت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه فيجد عدوه منه غرة".

على أن حرب العصابات لم تكن هى الفن الوحيد الذى أتقنه الأفغان، فإن لهم تاريخًا طويلاً فى الحروب المنظمة وزحف الجيوش. فقد قاد السلطان محمود الغزنوى المتوفى عام ٤٢١هـ جيوشًا كبيرة من الأفغان من عاصمته غزنة فى قلب أفغانستان إلى شبه القارة الهندية، وكان للجيش الذى يقوده من فنون الحرب ما بهر الهنود أنفسهم حتى إن كثيرًا من قادتهم انبهروا بجيوش السلطان محمود وبأنظمته فى القيادة فأنشد بعضهم فيه شعرًا لفرط إعجابهم به. ولقد قاد السلطان محمود الجيوش إلى الهند على مدى ثلاثين عامًا ونجح فى فتوحاته كلها، ولم يأخذ عليه الخبراء بالحروب حتى الهنود أنفسهم خللاً واحدًا فى تنظيم الجيوش وقيادتها وهذا ما جعل فرخى سيستانى المتوفى عام ٤٢٩هـ – وهو أحد الشعراء البارزين الذين لازموا السلطان فى حروبه – يقول عنه متحدثًا عن فتوحاته فى الهند فى قصيدة مطلعها :

فسانه گشت وكهن شد حديث اسكندر

سخن نوآركه نو راحلا وتيست دگر

إن حديث الإسكندر الأكبر المقدونى صار أسطورة وصار قديمًا

ممجوجًا فهات حديثًا جديدًا فللجدة والطرافة حلاوة أخرى ومذاق آخر.

وتحدث بديع الزمان الهمدانى (المتوفى عام ٣٩٨هـ) عن السلطان محمود الغزنوى ووصفه بأنه أفريدون، وأنه الإسكندر الثانى ذاكرًا فتوحاته:

تعالى الله ما شاء ∴ وزاد الله إيمانى
أأفريدون فى التاج ∴ أم الإسكندر الثانى
فمن واسطة الهند ∴ إلى ساحة جرجان
ومن ناحية السند ∴ إلى أقصى خراسان

ووصف المؤرخون أعماله بأنها "كانت تدل على عبقرية حربية وسياسية فائقة" وامتد ملكه من بخارى وسمرقند إلى الگجرات وقنوج وشمل أفغانستان وما وراء النهر وخراسان وطبرستان وسجستان وكشمير، وجزءًا كبيرًا من الولايات الواقعة فى الشمال الغربى من الهند".

ولم تكن الدولة الغزنوية فى قلب أفغانستان هى التى قادت جيوشًا فى حروب منظمة إلى الهند بل خلفتها الدولة الغورية فى هرات (٥٤٣هـ - ٦١١هـ) وامتدت فتوحات هذه الدولة إلى الهند أيضًا، وأخذوا على عاتقهم نشر الإسلام فيها، وقاد السلطان محمد الغورى جيوشه من هرات غرب أفغانستان إلى الهند، حيث كونت هذه الدولة امبراطورية كبيرة فى الهند عرفت باسم الدولة الغورية فى الهند، وامتدت مملكتهم شرقًا حتى سواحل الكنج، وغربًا حتى أقاصى خراسان وخوارزم ونسا وباورد، وجنوبًا حتى بحر العرب.

فإذا سرنا إلى القرن الثامن عشر مع أحمد شاه بابا عام ١٧٤٧م - وهو الحاكم الذى عرفت أفغانستان لأول مرة بهذا الاسم فى عهده - نجد أن مملكته ضمت البنجاب وكشمير وأنه فتح بانى بت فى الهند واستولى

على دهلى.

مدينة پنجشير جبهة أحمد شاه مسعود

بعـد استيلاء الروس على أفغانستان فى ديسمبر عام ١٩٧٩م توزع المجاهدون للحرب ضد الروس على سبعة أحزاب هم على الوجه التالى :

١- الجمعية الإسلامية بقيادة الأستاذ برهان الدين ربانى، ويقود الحرب فيها أحمد شاه مسعود.

٢- الحزب الإسلامى بقيادة گل بدين حكمت يار.

٣- الحزب الإسلامى بقيادة الشيخ يونس خالص.

٤- جبهة الانقلاب الإسلامى بقيادة نصر الله منصور.

٥- جبهة الانقلاب الإسلامى بقيادة رفيع الله مؤذن.

٦- جبهة نجاتى ملى أى جبهة الخلاص الوطنى بقيادة محمد مير.

٧- الجبهة الوطنية الإسلامية بقيادة الشيخ أحمد الگيلانى.

وكانـت للحزبين الأوليْن القوة الإسلامية الضاغطة داخل أفغانستان، وحظيـت جـبهة أحمـد شـاه مسعود فى پنجشير بشهرة كبيرة، فقد كان المجـاهدون الذين يحاربون تحت لوائه مجموعة من خيرة المجاهدين من حيـث الحمـاس دفاعًـا عن العقيدة وعن الشرف، وتقودهم مجموعة من القـيادات يتميزون بقوة الفكر الحربى فانعكس هذا على المجاهدين فى قوة التدريب وقوة الروح المعنوية، وهؤلاء المجاهدون لم يكونوا فئة واحدة بل هـم مـن فـئات شـتى وأجناس متباينة ولغات مختلفة فمنهم : البشتون ، التاجـيك، الهزاره، الأوزبك، العرب والتركمان وغير هؤلاء من الأجناس التى انطوت تحت لوائه ولكنهم جميعًا جمعتهم وحدة العقيدة، أضف إلى هذا امتـيازات كانت ترجح كفتهم على عدوهم فهم يحاربون على أرضهم وهى

أرض ذات مميزات دفاعية ممتازة يجهلها عدوهم، وهذا وهبهم حاسة قوية فى معرفة هذه المزايا.

وپنجشير التى نحن بصدد الحديث عنها مديرية من مديريات محافظة پروان تبعد عن كابل مائة وخمسين كيلو مترًا، وتقع شمال شرق كابل بين سلسلتين جنوبى الهندوكش، وهى تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى.

وتمتد أوديتها الفرعية من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال حيث تتصل بالوادى الرئيسى فى پنجشير.

وتتصل پنجشير من ناحية الشمال بخوست، وفرنگك، ومحافظة تخار، وأندراب. ومن ناحية الجنوب بنجراب سنجن، ودرنامه، وريزه كوهستان. ومن ناحية المشرق والشمال الشرقى بنورستان، وبدخشان. ومن ناحية الغرب ترتبط بمديرية جبل السراج.

وكلمة پنجشير تطلق على المكان من دالان سنگك حتى خاواك وبريان وكافة الأودية الفرعية والقرى. ويجرى نهر پنجشير فى وادى پنجشير، وينبع من سلاسل جبال الهندوكش ويجرى على مسافة ٣٥٠٠ ثلاثة آلاف وخمسمائة متر ويصب فى الباكستان، وتضم پنجشير مائتا قرية.

ويذكر أهل پنجشير أن مدينتهم كانت تعرف فى عهد الغزنويين باسم كجكنه وكِجْكِن، ويذكرون أن زال أوصى ابنه رستم بألا يذهب إلى كِجكِن فقال له :

حذار يا بنى أن تذهب إلى كِجْكِنْ
فسوف تتقطع وتتمزق سنابك جيادك وخيولك

يجـــرى فيهـــا نهـــر ســـريـــع هـــادر غـــدار
وليس فيها حشائش أو أعشاب غير حجارة كأنها الخناجر البتارة

وقد ذكرت أسباب كثيرة فى وجه تسمية پنجشير أهمها: أن السلطان محمود كان يبنى سدًّا بجوار غزنة فاجتمع أهل كِجْكِنْ وأنابوا عنهم خمسة للذهـــاب إلـــى الســـلطان محمـــود وإنجاز مهمته، وفعلاً ذهبوا إليه وقاموا بمهمـــتهم خـــير قيام وبهر السلطان محمود بهم وقال لهم: إنكم لستم خمسة رجـــال بل خمسة أسود. فكلمة پنج معناها خمسة وشير معناها أسد أى أن معـــناها الأسود الخمسة، وقد أطلقوا على أحمد شاه مسعود (شير پنجشير) ومعـــناها أســـد الأســـود الخمسة، ولكن المؤرخين المسلمين ذكروها باسم پنجهير.

وقد ذكرها البيهقى (المتوفى عام ٤٧٠هـ) فى تاريخه فى موضعين فقـــال: "وقد أرسل ينالتگين سرًّا إلى التركستان عن طريق پنجهير ليشتروا له غلمانًا من الترك".

وقـــال فى موضع آخر: " كما أوفد السلطان مسعود الغزنوى مسعود بن محمد الليث رسولاً إلى أرسلان خان يحمل كتبًا ومشافهات بشأن طلب المدد وتوثيق العهود فذهب من غزنة عن طريق پنجهير".

كمـــا ذكـــرها ياقوت الحموى المتوفى عام ٦٢٧هـــ فى كتابه "معجم البلدان": "پنجهير مدينة بنواحى بلخ فيها جبل الفضة، وأهلها أخلاط وبينهم عصبية ... والدراهم بها واسعة كثيرة، والفضة فى أعلى جبل مشرفة على البلدة".

كمـــا ذكرها ابن بطوطة (المتوفى عام ٧٧٩هـــ) باسم پنجهير أيضًا وقد زارها بعد تخريب جنگيز خان لها: "ثم نزلنا بموضع يعرف بپنج هير،

ومعنى پنج خمسة وهير الجبل فمعناها الجبال الخمسة، وكانت هناك مدينة حسـنة كثـيرة العمـارة على نهر عظيم أزرق كأنه بحر ينزل من جبال بدخشان، وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذى يعرفه الناس بالبلخشى، وخرب هـذه البلاد تنكيز ملك التتر فلم تعمر بعد، وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكى وهو معظم عندهم".

هذه المنطقة الحصينة التى تلفها الجبال من كل جانب وترتفع أكثر من أربعـة آلاف متر فوق سطح البحر كانت الموقع الحصين الذى اتخذه أحمد شـاه مسـعود مـيدانًا لحربه ضد الروس، وقد تميزت جبهته بالقوة وشدة التحصـين حـتى إن الروس حينما أرادوا وقف القتال لفترة فى أفغانستان تفاوضوا مع أحمد شاه مسعود فى هذا الشأن، ورغم شدة التحصين الطبيعى لپنجشـير كان أحمد شاه مسعود يتنقل كل يوم من مكان لآخر بما يتناسب وحجـم المؤامـرة التى يتعرض لها مثل محاولة القبض عليه أو قتله لأن حياته كلها كانت محفوفة بالخطر.

جنگلك قرية أحمد شاه مسعود

هـى قرية صغيرة ترقد فى أحضان أودية پنجشير، وتسكنها أربعون أسرة فقط وهى تتميز عن القرى الأخرى بكثرة المثقفين فيها، وكان الروس مـن آن لآخر يدكون موقعها ويدكون منزل أحمد شاه مسعود ظنًّا منهم أن أحمد شاه مسعود يوجد فيها، ولكن آلياتهم ودباباتهم ومدرعاتهم كانت تدمر بـأيدى المجاهدين ولا تزال هذه المدرعات والآليات الحربية الروسية فى موقـع القـرية، وهـذه القرية مع صغر حجمها خرّجت كثيرًا من العلماء والقـادة منهم على سبيل المثال لا الحصر : القائد مسلم أحد رموز الجهاد فـى الحرب ضد روسيا وغيره من القادة الذين حاربوا الروس. والمستوى

الفكرى والثقافى فى هذه القرية يعتبر عاليًا لكثرة من نشأ فيها من المثقفين الذيـن أثروا الحياة الفكرية فى هذه القرية، وقد أثر هذا الجو الفكرى على التكوين الثقافى لأحمد شاه مسعود فنشأ يحب القراءة، وكان لا يراه أحد إلا وهو ممسك بكتاب، وكانت المناقشات الفكرية هى أسعد ما يستمع إليه، ولم تشـغله أمـور المعارك عن التفكير فى سبب تأخر المسلمين علميًا بالنسبة للغرب بعد أن كانوا يومًا ما سادة العالم فى العلوم والآداب.

٢- العوامل الأسرية

ولد أحمد شاه مسعود عام ١٩٥٣م فى أسرة عريقة عرف عنها الورع والتقوى والصلاح، وهو سنى المذهب من التاجيك، اسمه أحمد شاه واختار لنفسـه اسـم مسعود بعد هجرته إلى الباكستان بعد انقلاب السردار محمد داود، وكانـت الباكسـتان تحـتم على المهاجرين أن يختاروا أسماء غير أسمائهم فعرف باسم أحمد شاه مسعود.

أمـا والده فهو اللواء دوست محمد، كان ضابطًا فى الجيش الأفغانى، وكـان رجـلاً تقـيًا صالحًا صوامًا قوامًا توفى فى التسعينيات من القرن الماضـى وكانـت سنه قد جاوزت التسعين، ولأحمد شاه مسعود من والده إخـوة وأخـوات أشـقاء وغير أشقاء، وما يعنينى من هذه النشأة هو عدة عوامل أثرت فى شخصية أحمد شاه مسعود تأثيرًا مباشرًا.

أولاً : تنقل والده بحكم عمله بين محافظات أفغانستان وبصحبته أسرته جعل أحمد شاه مسعود يحب أفغانستان بمدنها وقراها، وجبالها، وأنهارها، ويعشق الأفغان مع اختلاف أجناسهم ولغاتهم وعرقياتهم فهم جميعًا قريبون منه يحبهم ويأنس إليهم وصار هذا الاختلاف فى نظره يمثل تجانسًا قويًا ووحدة لا تنفصم لأن الإسلام يجمع بينهم.

ثانيًا: احترف أحمد شاه مسعود الجندية منذ نعومة أظفاره وتأثر بعمل والده ومعظم أقربائه فقد كون فرقة عسكرية من رفاقه الصغار، وكان يذهب بهم فى سفوح جبال كارته پروان فى كابل، وكان هو القائد وهم الجنود ونظم لهم ملابسهم وقبعاتهم وكانوا يطيعون أوامره ويمتثلون لتعليماته.

وكان وجود والده إلى جواره طوال فترة الجهاد أثره الكبير فى مساعدته على الفهم الصحيح للتكتيك الحربى فى الميدان، وكيفية التخفى والتحصين ضد العدو.

ثالثًا: كان للأحاديث السياسية التى تدور فى أسرته بين والده وأقربائه ووجهة نظر والده المتشائمة عن السردار داود أثره فى تربية حسه السياسى منذ الصغر ووقوفه على مشاكل أفغانستان السياسية، وهذا ما جعله يندفع هو وزملاؤه لعمل انقلاب وهو فى السنة الثانية من المرحلة الجامعية ضد السردار محمد داود. ومع أن هذا الانقلاب فشل فشلاً ذريعًا وعرضه هو وزملاؤه للقتل والسجن والتعذيب إلا أن أعماق هذا العمل تدل بما لا شك فيه على تحمل هذا الشاب الثائر هو ورفاقه للمسئولية؛ لأنهم أدركوا تمامًا أن وصول السردار محمد داود إلى سدة الحكم معناها ارتماء أفغانستان فى أحضان الشيوعية مما سينذر بخطر جسيم نحو مستقبل أفغانستان.

رابعًا: كان لوالدة أحمد شاه مسعود أثر كبير فى حياته، فقد تعلم منها الحب والود والحنان والعطف والرقة، وكانت هذه الخصال تميز شخصيته، فمع أنه كان قائدًا كبيرًا فى ميدان الحرب يرهب العدو جانبه إلا أنه كان يذوب رقة وعطفًا أمام طفل أفغانى فقد أباه فى

الحرب، وكان قلبه ينفطر على الشعب الأفغانى الذى لا يكاد يفرغ من حرب حتى يدخل فى حرب مرة أخرى. وهو حينما علم أن ابنته الصغيرة نسرين بكت لسفره أثناء وجوده معهم فى تاجيكستان لعلاج أسنانه لم يحتمل وعاد إلى الأسرة بسرعة من أجل نسرين الصغيرة لأن بكاءها يشجيه ويدمى مشاعره.

وظـل أحمـد شاه مسعود يذكر لوالدته أنها كانت تمسح على شعره وتقـبله قبل ذهابه إلى المدرسة ومع رقتها إلا أنها كانت سيدة قوية الجانب فقـد كانـت توصـى والـد أحمد شاه شاه مسعود أن يعلم الأولاد السباحة والرماية وركوب الخيل والخطابة فى المساجد.

وتوفيـت أمه إبان حكم السردار داود ١٩٧٣ – ١٩٧٨م، وكان أحمد شـاه مسعود غائبًا عن المنزل بسبب المطاردة من رجال السردار داود له، ويذكـر أنه حينما عاد إلى منزله وجد به سيدات كثيرات ولكنه لم يجد أمه بينهن فأيقن أنها ماتت فتأثر لوفاتها تأثرًا عميقًا.

٣- العوامل الشخصية

أ- ألقابه :

لـم يحـظ بطـل من أبطال الأمم على اختلاف الجنسيات والأعراق بألقـاب عظـيمة مثل التى حظى بها أحمد شاه مسعود تقديرًا وإعزازًا من أمـته للدور الذى قام به، وهذه الألقاب كلها تدور حول البطولة والشجاعة والرئاسة والقيادة، وهذه الألقاب هى :

شير پنجشير : أسد پنجشير أى أسد الأسود الخمسة.

آمر صاحب : سيادة الرئيس.

رستم أفغانستان : رستم أفغانستان إشارة إلى البطل الأسطورى رستم.

قهرمان ملت	: بطل الأمة.
عقاب خاورزمين	: عُقاب المشرق.
سيمرغ پامير	: عنقاء پامير.
عنقاء هندوكش	: عنقاء الهندوكش
أسد العرين	: أسد العرين
ضرغام أفغانستان	: ضرغام أفغانستان.
ضيغم آريانا	: أسد آريانا.
جاگواراى شمال	: فهد الشمال.

ولقبته الصحافة الأجنبية بنابليون الشمال، وتيتو أفغانستان. وشبهه الكتاب الأفغان بخالد بن الوليد، ولعل أشهر ما عرف به هما اللقبان الأولان: شير پنجشير، آمر صاحب.

ومن الأسماء التى أُطلقت على أحمد شاه مسعود أيضًا: بطل أفغانستان، وبطل الإسلام، ولهذين الاسمين قصة أُحبُّ أن أرويها:

بعد أن أبرم أحمد شاه مسعود معاهدة وقف إطلاق النار مع السوفيت عام ١٩٨٤م ثار عليه بعض زعماء المجاهدين الذين كانوا يعيشون فى الپاكستان ثورة عارمة، ووصل بهم الأمر إلى حد اتهامه بالعمالة والكفر، وشَكَّلوا له فى پيشاور فى الپاكستان محاكمة، وحاكموه غيابيًا، ودافع عنه فى هذه المحاكمة جزائريان فقط هما: عبد الله أنس، وقارى عبد الرحيم.

وعبد الله أنس هو رفيق أحمد شاه مسعود وصديقه الحميم، عاش معه فترة فى موقعه فى پنجشير، وقد تزوج بعد ذلك من كريمة الشيخ عبد الله عزام الذى كان يتزعم المجاهدين العرب فى الپاكستان. والشيخ عبد الله عزام فلسطينى الأصل، ولكنه نذر نفسه لقضية الجهاد ضد روسيا وضد

الشـــيوعية، وكـــان الشيخ عبد الله عزام حاضرًا فى المحاكمة التى حاكمت أحمد شاه مسعود.

أما قارى عبد الرحيم فقد كان أحمد شاه مسعود يأنس إليه، ويحب أن يســـتمع مـــنه إلى دروس الفقه وتفسير ما يغمض عليه من أمور الشريعة، وهذان هما اللذان دافعا عن أحمد شاه مسعود فى المحاكمة.

أمـــا الذين انبروا فى الهجوم عليه فقد كانوا واحدًا وعشرين فردًا إلا أنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا عليه تهمة واحدة.

وبناءً على ذلك صممَّ الشيخ عبد الله عزام ألا ينجرف فى هذا التيار، وعزم على الذهاب إلى أفغانستان وإلى مواقع الجهاد عند أحمد شاه مسعود؛ لـــيقف بنفسه على مجريات الأمور، وسافر عام ١٩٨٨م ومكث شهرًا فى ميادين القتال، واطلع على كل شيء، ثم عاد إلى الباكستان، فالتفَّ حوله أعداء أحمد شاه مسعود، وسألوه: هل مازلت تعتقد أن أحمد شاه مسعود هو بطـــل أفغانســـتان؟! فـــردَّ قائلاً: بل هو بطل الإسلام . ثم كتب عنه كتابه المعروف "شهر بين العمالة"، وصدر الكتاب عام ١٩٩٦م، وكان الشيخ قد استشهد – رحمه الله–.

ولقـــد كـــان لهـــذه الرحلة أثر عظيم فى نفس الشيخ كما يتضح من صفحات الكتاب؛ إذ طاف بنفسه على محافظات الشمال التى تحارب تحت قـــيادة أحمـــد شـــاه مسعود، وطوَّف بين تنظيمات الجهاد وقادة الجبهات، وتعرف على أحوالهم، واستمع إليهم، ثم عاد مطمئنًا للقرار الذى صَمَّم عليه وهو: أن ينفى كل التهم عن أحمد شاه مسعود وأن يمدحه حتى يلقى الله عز وجل.

وجديـــر بالذكر أن أفغانستان منحت أحمد شاه مسعود لقب : "قهرمان

ملى أفغانستان" أى البطل القومى لأفغانستان.

بـ السمات العامة لشخصية أحمد شاه مسعود :

لـــم يختلف واحد من زملاء أحمد شاه مسعود أو رفاقه والذين كتبوا عــنه أنه كان جنديًا ممتازًا، ومحاربًا فذًا، صاحب حنكة وخبرة أعطتها له سـنوات الجهـاد الـتى بدأها فى أوليات شبابه المبكر، وكان قائدًا مغوارًا وسياسـيًا يحسـن سياسة من يقودهم، فهو لين الجانب معهم حيث يتطلب الموقف اللين ، وشديد حازم حيث يتطلب الموقف الحزم والشدة.

كـان قـوى الإيمان راسخ العقيدة، واثقًا بالله سبحانه وتعالى، وكان زاهدًا متقشفًا، وكانت أسرته تملك منزلاً بسيطًا بنى بالطوب اللبن ولم يكن لديـه أى ثروة، كان يثق فى معاونيه وفى قواد فرقه يمتدحهم ويفتخر بهم ويشـيد بالأمجاد التى حققوها، والأعمال التى نفذوها وقاموا بها، وكم من قواد ذُكروا بجانبه فلم يقلل من شأنهم أو يغض من أقدارهم فقد كان يعطيهم الثقة لتحمل المسئولية، أما إذا تحمل هو المسئولية أحس بعظم شأنها وثقلها على كاهله وقام بها على أحسن ما يقتضيه تحمل المسئولية.

كـان فـى المسـائل الحربية عميق النظر، ثاقب الفكر، غير هياب للمواقـف، جسـورًا مقدامًـا، صاحب لياقة بدنية عالية ورثها من أسلافه الأفغـان. وكان جريئًا على أعدائه فخافوه ورهبوه، وكان مبتكرًا فى رسم المعـارك الحربـية، مجـددًا فى أساليب الكر والفر، مطيلاً فى التخطيط، وحيـنما يهاجم كان يكبد العدو خسائر يستحيل جبرها، كان هادئًا صاحب أعصـاب فولاذيـة لا يجعلـه النصر ينتشى فيصيبه الغرور، ولا تسقطه الهزيمة فيفقد معداته وجنده، وكان يتقبل النصر والهزيمة بطبع رزين وهذا علامة على سلامة العقل واعتدال النفس.

وهــذه الطــبائع يتميز بها الأفغان على طول العصور، فهم صبارون علــى الشــدائد، لا تــروعهم الهزائم، ولا يفت فى عضدهم الانكسار أمام العدو؛ لأن بيئتهم عودتهم على الكر والفر والتجمع والتفرق فى الحروب.

كــان أحمد شاه مسعود يحارب بجيش تعداده بسيط جيشًا عظيمًا وقوة عظمــى وهــو لا يمــتلك ســلاحًا مثل أسلحتهم، فإذا انتصر الروس فهم ينتصــرون لقــوة عدتهم وعتادهم، ولكن إذا انتصر أحمد شاه مسعود فهو ينتصــر بقــوة عبقريته وفكره وحسن تكتيكاته العسكرية، وبقوة إيمانه بالله تعالى.

كــان لديه قدرة كبيرة على ابتكار المفاجآت بالنسبة لأعدائه، وكانت مفاجآته تفقد أعداءه التوازن رغم تفوقهم فى العتاد العسكرى.

كــان يجيد بث عيونه داخل صفوف عدوه لتنقل له بأمانة وصدق ما يجرى فى صفوفهم، ثم تبث عنه بين صفوفهم ما يرهق أعصابهم ويخيفهم ويرهــبهم، كــان يتمتع بخفة حركة نادرة تشعر قواته بأنه موجود فى كل مكــان وفــى كــل لحظة ، وكان يبعث فيهم الثقة ويبث فيهم روح الأمان والاطمئــنان بــأنهم يحاربون تحت راية قائد عظيم، وكان حينما يشعر أن احتلال موقع سيكون مصحوبًا بالخسائر كان يأمر قواده أن يصرفوا النظر عــن هذه الخطة أو يعطى الأمر أن تتم دراسة وبحث الهدف مرة ثانية، ثم يــدرس ويبحــث عــن خطــط وطرق تتم دون خسائر ، وكان أحد تميزه العسكرى أنه كان وقت الهزيمة يرسم شكل الانسحاب حتى تكون الخسائر فــى القــوات التى تحت إمرته قليلة، وكثيرًا ما أعطى الأوامر بالانسحاب ليمنع الخسائر فى البشر والمعدات وكان ينجح فى الحفاظ عليها.

وسوف أفصِّل الحديث الآن عن العوامل التى ميزت شخصيته .

*** عنصر المفاجأة فى المعارك :**

المفاجــأة هى حدوث شيء لا يتوقعه الإنسان، والمفاجأة فى تعريفها الحــربى: "هــى فعــل مــا لا يتوقعه العدو بما يوقع الارتباك فى صفوفه ودفاعاته وفى تفكيره فيشل ذلك التفكير، أو يدفع صاحبه إلى أن يقدم على تصــرفات غــير مدروســة، مثال ذلك أن يستخدم تكتيكًا غير متوقع، أو بــتطوير أســلوب للقتال أو استخدام سلاح جديد أو تطوير استخدامه. وقد تــتحقق المفاجــأة بالــزمان أو المكان أو العدد أو كشف أسرار العدو أو بالخداع أو المبادرة أو بالسرعة، والمرونة أو باختيار الهدف" .

وكــان أحمــد شاه مسعود يتميز بإجادة المباغتة والمفاجأة للعدو فى المعارك ولم يعط الروس فرصة ليلتقطوا أنفاسهم، وكان مفاجآته تعتمد على خفــة الحــركة فــى إدارة المعركة وعلى الموقع الاستراتيجى لجبهته لأن پنجشير بجوار الطريق الرئيسى لجبال سالنگ وبجوار مطار بگرام.

كان مسعود يباغت الروس فى خيامهم على نهر پنجشير، وكان أحيانًا يرسم خطة يحتاج فيها إلى ثلاثين مجاهد فيتقدم له مائة ومع أن النهر كان مانعًــا قويًا بين رجاله وبين الروس يعترض طريقهم بالإضافة إلى الثلوج التى تكسو الجبال إلا أنهم كانوا ينطلقون سابحين فى النهر فيدخلون الخيام على الروس محققين أهدافهم ثم يعبرون النهر بسرعة راجعين إلى أماكنهم ولم يفقدوا سوى شهيد أو شهيدين .

كذلــك كانت لمسعود مفاجآت على قاعدة الروس فى بلدة أعنابه مما أصــاب الــروس بالذهول وجعل قوادهم يصممون على إعدامه لو وقع فى أيديهم .

ولـم يكـن مسعود يحب المناوشات العسكرية وحرب الاستنزاف فقد يـبقى خمسـة أشهر دون هجوم واحد ويمضى وقته فى التخطيط والتنظيم ودرس مواقع العدو والأسلحة التى يملكها، ثم ينقض على الهدف فى هجوم واحـد مباغـت ويحسـم المعركة لصالحه، فقد كانت كل معاركه يميزها التخطيط الطويل والهجوم المباغت. كان يطبق استراتيجية المفاجأة السريعة فـى الحـرب وكان يستعملها كسلاح قوى وكانت هجماته المفاجئة أحيانًا تكون لا ليحتل مواقع ولكن ليثير الرعب والفزع فى صفوف العدو فتصيبه فوضـى شـاملة تمـزقها الإشاعات وتفترسها التهويلات ويجرون الفلول ويلملمـون الأشـلاء، وقـبل أن يفيقوا ليتبينوا ماذا حدث يكون مسعود قد انتصر وملأ قلوب أعدائه رعبًا وفزعًا.

***** الشعور بالمسئولية تجاه الجنود فى الجبهة وتأمينهم وبث الثقة فى نفوسهم :**

كـان أحمـد شـاه مسـعود يشعر بمسئولية كبيرة تجاه جنوده الذين يحـاربون تحـت لوائه فى جبهة پنجشير، وكان يحس أنه - وهو القائد - عليه أن يسد كل ثغرة تجعل عدوه ينفذ منها فينال من جنوده، وكانت قوته فـى تحديـد الأهـداف التى يريد أن يضربها للعدو فيهزمه أهم المقومات لنصره والحفاظ على جنده، كان يرسم أماكن التحصين على الخريطة لجنده فيكونون فى مأمن عن أعين الروس، فطبيعة أرض پنجشير مليئة بالأنهار والجبال وهى دفاعات قوية للمجاهدين ولكنها عوائق لم يألفها الروس وكان مسعود فطنًا فاستفاد من هذه الطبيعة.

ولا شـك أن الانتصارات التى كان يحرزها مسعود فى معاركه ضد السـوفييت كانت تمنح جنوده ثقة واطمئنانًا لا حدود لهما بأنفسهم وقدراتهم وقـدرة قـائدهم فهـو البطل الذى انتصر بهم وانتصروا به، ولا شك أن

إحساس الجنود فى المعركة بمسئولية قائدهم عنهم وثقتهم وشعورهم بالأمان معه شيء له أهميته فى الحروب، لقد استقر فى أذهانهم أنهم يستطيعون أن يجابهوا السوفييت ويهزموهم، وأنه ليس هناك شيء اسمه المستحيل، بل إن ثقة المجاهدين تحت لواء مسعود وإحساسهم بالأمان معه تجاوزهم إلى أعدائهم فأصبح الروس لا يسمعون اسم أحمد شاه مسعود حتى يكون هذا فى حد ذاته مثارًا للرعب وعاملاً من عوامل الهزيمة والفزع.

كانت معارك مسعود يتوفر فيها جانبان مهمان: جانب مادى يمثله العتاد العسكرى والتدريب والخبرة والجندية، وجانب معنوى يمثله الإيمان بالله سبحانه وتعالى والهدف الذى يحاربون من أجله والروح المعنوية العالية والثقة فى القائد، وقد خرج المجاهدون من المعارك تحت قيادته يملؤهم الأمل والثقة فى النصر، ومن هنا كانت معارك مسعود ضد السوفيت ذات قيمة فنية عالية، فقد كان قادرًا أن يحرك قواته فى الزمان والمكان المناسبين، وأن يمنح رجاله الأمان والثقة، وكان لهذه الصفات أهمية كبرى فى نجاح معاركه.

*** قوة مخابرات مسعود ويقظتها** :

كان مسعود يعتمد على مخابرات قوية يقظة واعية بين صفوف جنوده تنقل له ما يجرى فى صفوف العدو أولاً بأول، وكان هذا يساعده فى وضع الخطط، وتجنب الوقوع فى مفاجآت، ومن ذلك ما يرويه أحمد شاه مسعود نفسه من أن معلومات موثوقًا فيها جاءته بأن الروس سيقومون بهجوم كاسح على بنجشير يأكل الأخضر واليابس. فنصح مسعود أهل الوادى أن يهاجروا عن طريق جبل خاواك لأنه الجبل الوحيد الذى يمكن للبشر والدواب أن يسيروا فيه، وطلب مسعود من أصحاب السيارات فى بنجشير

أن يـــنقلوا الأسر بأقصى سرعة ممكنة وأطاع أهل بنجشير جميعًا قائدهم، فلقـــد أتت إليه مخابراته بخطة الروس كاملة وأبلغوه أن الغارات فى الأيام الـــثلاثة الأولى ستكون ستمائة غارة يوميًا مع إلقاء الغازات السامة وإنزال كومـــاندوز علـــى رؤوس الجبال، ثم تتقدم الدبابات وسط الوادى مع فرق الكوماندوز.

ويذكـــر أحمد شاه مسعود أن السرعة فى هذا الأمر كانت عاملاً مهمًا لأن أى تـــراخٍ مـــن الممكـــن أن يزج بالمجاهدين فى هذه البراكين الثائرة وتحـــت هذه الحمم المتساقطة، ولكن أحمد شاه مسعود أفسد عليهم خطتهم وأخلـــى الـــوادى ودخل الجيش والكوماندوز فلم يكن أحد فى انتظارهم إلا الألغام التى نثرها لهم المجاهدون فى أماكن لم يعرفوها، وأسر المجاهدون مـــنهم أعـــدادًا كبيرة بعد أن نصبوا لهم الكمائن، وذكر لى بعض الأفغان الـــثقات أن القائد الروسى فى هذه العملية انتحر من شدة الحزن ومن هول الخسائر الفادحة التى خسرها.

كـــان لأحمـــد شـــاه مسعود ارتباطات بأشخاص حتى داخل الحكومة الشـــيوعية الأفغانية، وكانوا يمدونه بمعلومات مهمة فى كثير من الأحيان، وكـــان يستطيع بالمال أن يشترى من جنرالات الروس خطة تحرك قواتهم قـــبل أن تـــبدأ، حتى إنه كان يشترى الرشاشات من الجنود الروس أنفسهم بثمن زهيد. ولقد تعرض مسعود أكثر من مرة للقتل والاغتيال ولكن يقظة رجالـــه أنقذتـــه من هذه المؤامرات، وكانت عادة مسعود أنه كان يعفو عن الذيـــن تآمـــروا لقـــتله وكان يطلق سراحهم، أما الذين كانوا يتآمرون ضد الوطن ويتجسسون لصالح العدو فقد كان لا يعفو عنهم أبدًا.

* أحمد شاه مسعود قائدًا مرموقًا وإداريًا ناجحًا

كـــان مســـعود سياسيًا حسن القيادة يحب رجاله ويعتز بجنوده، وكان كـــأى إنسان يأسف ويجزع إذا استشهد أحد منهم، ومن ذلك ما قاله لمحدثه حين علم باغتيال القائد ذبيح الله: "لقد ضُربتُ ضربةً قويةً باغتيال ذبيح الله الرجل القوى، لقد كنا نعول عليه كثيرًا فى تجييش الشعب فى مزار شريف فلا تتصور حجم الضربة التى تلقيناها بخسارته".

كـــان أحمـــد شاه مسعود هو الشخص الوحيد الذى يصدر التعليمات والأوامـــر إلـــى جمـــيع القادة فى جبهته، وكان على هؤلاء أن يقدموا إليه تقريـــرًا عـــن الأوضاع فى مناطقهم مرة كل أسبوع على أقل تقدير، وكان نشـــاط هـــؤلاء القـــادة محصورًا بمناطقهم سواء كانت قرية أو مديرية أو محافظة.

وكانـــت المجموعـــات اللاســـلكية تقدم إليه التقارير التى يتلقونها من الجـــبهات الأخرى، ثم يقدمون له المعلومات عن تحركات الروس فى ممر ســـالنگك وعـــن المواجهـــات معهم، وكانت طبيعته فى التفكير والتخطيط الاســـتراتيجى والقـــتال طبـــيعة منظمة، وليست طبيعة فوضوية، وكان له اســـتراتيجية واضـــحة، وكـــان لا يسمح أن يريق المسلمون دماء بعضهم الـــبعض، وكان ينزل أشد العقاب على من يتورط فى ارتكاب هذا الجرم، وكـــان الذيـــن يدخلون تحت إدارته من المجاهدين يأتمرون بأمره فى تنفيذ العمليات العسكرية.

وكـــان مســـعود يجيد فن الإدارة، وكان إداريًا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمـــة كـــان يعمـــل وفـــق مسئولية مطلقة خولت إليه فاستخدمها أحسن استخدام، فقد كان يفكر، ويدبر، ويشرف، وكان قادرًا على تفويض السلطة

لمــن يليه من الرؤساء، وكان الذين يقتربون منه يرون أنه كان قادرًا على تحقيق مستقبل مشرق لأفغانستان، ويكفى أن نعرف أن مناطق الشمال التى كان يحكمها مسعود كان الإنسان فيها لا يحتمى بسلاح يحمله، فهو ليس فى حاجة إلى أى سلاح أبدًا؛ لأن الذى يحمل السلاح هو الجيش النظامى فقط، وكانــت عنده جيوش نظامية: جيش مشاة، وجيش دبابات، وجيش مدفعية، وجيش مهندسين، كان يملك جيش دولة كامل.

وبلغــت درجــة الأمان فى تلك المناطق بحيث لو سُرقت فيها عصا يعرف صاحبها، ويؤتى بها.

ولــيس معنى ذلك أن مسعودًا كان ينفرد بالرأى أو يستبد به، فقد كان يــرى أن العمل الجماعى هو الذى يحقق المصلحة فى إطار أن يعرف كل إنســان العمل المنوط به والموكول إليه، ولذلك كان مسعود يحظى باحترام القــواد جمــيعًا مــثل: إسماعيل خان، وجلال الدين حقانى، وآرْيَن پور، والشهيد ذبيح الله، وعبد الصبور فريد وغيرهم.

أمــا أساتذته مثل الأستاذ الشهيد الدكتور غُلام محمد نيازى والأستاذ بــرهان الدين ربانى، والأستاذ عبد رب الرسول سياف، والشهيد المهندس حبيب الرحمن فقد كان دائمًا يتحدث عنهم بغاية الاحترام والتقدير ويضعهم فى المكان اللائق بهم.

وقــد ذكر الشهيد الأستاذ عبد الله عزام فى كتابه "شهر بين العمالقة" لمحــات عــن دماثة خلق أحمد شاه مسعود وعفة لسانه ولين جانبه وأدبه الجم.

كــان أحمــد شاه مسعود يعتنى بالإعداد والتنظيم والتدريب والضبط والربط وكان يعيش بين جنوده يأكل مما يأكلون ويلبس مما يلبسون، وهذا

ما جعلهم يحبونه ويفتدونه بأنفسهم. كان من حسن إدارته الاهتمام بمشاعر الـناس ومـراعاة مطالبهم فلم يرهقهم بإتاوات باهظة أو ضرائب تفرض عليهم، وهذا ما جعل الناس فى پنجشير تلتف حوله.

وكـان متواضعًا معهم ضحوكًا مرحًا فكهًا خفيف الظل حبيبًا للشعب الأفغانى صغيرًا وكبيرًا، وكان صاحب شخصية ذات أبعاد متعددة، فقد كان إلـى جانـب كفاءتـه فى الميدان لديه قدرة فائقة بعد كل معركة أن يجلس بتواضـع بيـن قواده ورجاله يشرح لهم المعركة ويتدارسها على الخريطة موضـحًا الجانب السلبى والإيجابى فيها، ولا يستنكف أن يستمع إلى النقد مـنهم مهما كان النقد موجهًا إليه وهذا علامة على القيادة الناجحة لأنه كان يحـب أن يسـتفيد من الخطأ دائمًا ويستفيد الآخرون به، وهذه مدرسة فى فـنون الحرب كان أحمد شاه مسعود يحرص أن يلقن مبادئها وتجاربها إلى تلامـيذه، وكـان منهم الكثير من الذين استوعبوا فنونه الحربية وهضموها فرشـحهم لقيادات ومنحهم من الثقة ما أتاح لهم الفرصة ليثبتوا حسن رأيه فـيهم، بـل لقد استطاع أحمد شاه مسعود أن يترك الوادى فترة لسارنوال محمـود أحـد القـادة البارزيـن وتوجـه هـو إلى الشمال لينقل التنظيم والاسـتراتيجية إلـى هناك وكان له الفضل فى إبراز كثير من القادة الذين يعـتد بهـم ويعتمد عليهم فى الجهاد فى وطنهم ضد أى غاصب أو محتل، وهـذه الشخصية التى تنظر إلى الآخرين وتحتضنهم وتبرزهم لا تجود بها الأزمان بسهولة.

*** مسعود القائد التقى :**

كان أحمد شاه مسعود مسلمًا تقيًا وزاهدًا ورعًا وكان يقول: "أشهد الله أننا ما قاتلنا من أجل أنفسنا ولا للدنيا ولا حتى لتحرير أفغانستان، ما قاتلنا

إلا لنصـــرة هذا الدين، ولو قاتلنا لغير الله ما استطعنا أن نصبر هذا الصبر الطويل ولا أن نقدم هذه التضحيات الباهظة".

كان أحمد شاه مسعود رغم مشاغله حريصًا أن يرافقه مولوى قارى، وكـــان يـــتولى مهمـــة التدريس لمسعود الذى كان رغم كل هذه الظروف العسكرية والحربية فى الجبهة لا يترك الحصة الدينية فى المذهب الحنفى؛ لأنه كان مطلوبًا من كل قائد أن يكون على معرفة بالفقه الدينى فى المذهب الحنفى، وكان على مولوى قارى أن يلازمه فى أى مكان هو فيه ليدرس له لأن أحمد شاه مسعود كان أحيانًا يغير مكانه فى اليوم والليلة أكثر من مرة، وحيـــنما تعـــرف أحمـــد شاه مسعود بعبد الله أنس الجزائرى طلب منه أن يـــدرس له الـــتجويد كـــل يوم نصف ساعة بعد صلاة الفجر، ويقول عنه الأســـتاذ عـــبد رب الرســـول سياف : "كان أحمد شاه مسعود رجلاً مؤمنًا صادق العقيدة، وكانت عبادته وطاعته تنعكس على كل أعماله، وكان يؤمن إيمانًـــا راســـخًا بـــأن الإســـلام نظام كامل يخلص البشرية مما تعانيه من المصائب، وكان كثير السؤال عن كثير من المسائل الشرعية.

كـــان عابدًا مخلصًا فى عبادته، يقوم الليل ويصلى بخشوع وخضوع، وكـــان يحب أن يكون متوضئًا دائمًا ولا يشعر بالراحة إلا وهو متوضئ، وكـــان يصـــلى مـــع الجماعة دائمًا وإذا لم يجد من يصلى معهم كان يؤم حراسه ويصلى بهم، كان لا يبدأ حملة إلا باسم الله، وكان توكله ظاهرًا فى كـــل تحركاته الحربية، وكانت الحملات العسكرية أحيانًا تصل إلى طريق مسدود لا يفتحه إلا اعتماده على الله وتوكله عليه، كانت تبدو عليه علامات الانـــزعاج مـــن اختلاف المسلمين وعدم تفهمهم قضاياهم وتقلب مشاعرهم وعدم تحكيم عقولهم وتسرعهم.

وكان يعتز بانتماء إخوانه العرب لجبهته، ويعتز بالشيخ عبد الله عزام وعبد الله أنس الجزائرى، وذكر رفيقه الأستاذ سيد عزيز صفو أنه حينما جاء للدراسة فى مصر ورجع إلى أفغانستان طلب منه أحمد شاه مسعود أن يحدثه عن مصر فحدثه عن حضارتها القديمة والإسلامية وعن جمال عبد الناصر وعن الأزهر وعن شيخ الأزهر وعن الدكتور أحمد زويل وكيف استطاع أن يحصل على جائزة نوبل فى العلوم وكذلك حصل عليها نجيب محفوظ فى الآداب. كما حدثه عن الشعب المصرى وكيف يحب الاستماع إلى القرآن الكريم فى كل مكان حتى فى السيارات والقطارات، وأن الشعب المصرى شعب متوازن يجمع بين الحرية والتمسك بالعقيدة الدينية، وأضاف الأستاذ سيد عزيز صفو أن أحمد شاه مسعود كان يصغى إصغاءً شديدًا وهو يستمع عن مصر وكان يسعده هذا، وكان يعتبر أن مصر هى قبلة البلاد الإسلامية وهى مهد الأنبياء يوسف وموسى عليهما السلام، ويوجد الأزهر العريق بها. وكان يحب من الفقهاء المحدثين الشيخ يوسف القرضاوى، وكان يحتفظ فى مكتبته بتفاسير للقرآن الكريم، وكتاب "حياة محمد" لمحمد حسين هيكل وسيرة ابن هشام، وكان يحب من شعراء التصوف الفارسى جلال الدين الرومى وسعدى الشيرازى وحافظ الشيرازى، وكان عفيفًا نزيهًا لم يشك أحد فى عفته ونزاهته وكان يبتعد عن الحرام ويكره الفاسقين ذوى الأخلاق السيئة، وكان يحرص دائمًا أن يكون قواده من الأتقياء الذين يخافون الله ويخشونه.

كان أحمد شاه مسعود وفيًا لعهده إذا عاهد، صادقًا فى قوله إذا تحدث، وكان يقول: إن كلامنا هو أفعالنا، وكان لا يخون الأمانة، وكان يكرم الأسرى ولا يهينهم ولا يحتقرهم ولا ينتهك آدميتهم.

سألوا أحد قادة الروس وهو وارينكوف ماذا سيفعل لو وقع أحمد شاه مسـعود أسيرًا لديه فرد على الفور: سوف أشنقه، ولكن أحمد شاه مسعود قال: أما إذا وقع وارينكوف أسيرًا عندى فسوف أكرمه وأعلمه كيف يتعامل الأسـير فـى الإسـلام. أحمد شاه مسعود كان يعمل دائمًا لنصرة الجهاد وإعطاء المثل الأعلى للمجاهدين فى أفغانستان، وهو الذى ألقيت على كاهله الأعباء الجسام لدحر الشيوعيين فى أفغانستان.

استشهاد أحمد شاه مسعود
(٢ سبتمبر ١٩٥٣م – ٩ سبتمبر ٢٠٠١م)

قبل أن أتحدث عن استشهاد الزعيم والقائد أحمد شاه مسعود أحب أن أذكر أننى رجعت إلى مقالات ثلاثة من الذين عاصروا هذا الحادث وكتبوا عنه وهم :

١- مقال الأستاذ السفير مسعود خليلى فى مجلة ميهن الصادرة فى كابل ٢٠٠١م.

٢- مقال الأستاذ فهيم دشتى بنفس المجلة.

٣- مقال وداعًا يا مسعود للأستاذ صالح محمد ريگستانى أرسلت إلىّ بالبريد الإلكترونى، والأستاذ صالح ريكستانى لم يكن موجودًا أثناء الضرب ولكنه وصل من تاجكستان من العاصمة دوشنبه بطائرة هليوكوبتر أقلته هو وعبد الودود مساعده من مطار دوشنبه إلى مدينة خواجة بهاء الدين والمسافة بين مدينة دوشنبه ومدينة خواجة بهاء الدين خمسة وأربعون دقيقة، وكان وصول الأستاذ صالح محمد ريگستانى بعد أن نقل أحمد شاه مسعود إلى المستشفى فذهب إليه مباشرة فوجد أنهم قد غطوه بملاءة بيضاء فكشفه وقبله ووصف الإصابات التى وجدت به.

استشهد أحمد شاه مسعود فى التاسع من شهر سبتمبر عام ٢٠٠١م فى محافظة تخار فى شمال أفغانستان على نهر جيحون (آمودريا) فى مدينة (خواجه بهاء الدين) ويوجد بها فندق تابع لوزارة الخارجية، وكان هذا الفندق يمتلئ دائمًا بالصحفيين من وكالات الأنباء والصحف والعاملين

بوسائل الإعلام المرئية والمسموعة حيث كانوا يتنقلون بالطائرة بين مدينة خواجـه بهاء الدين ومدينة پنجشير. لتسجيل ما يجرى بين طالبان وجبهة الشمال التى يقودها أحمد شاه مسعود، وكانت طالبان قد سيطرت على كابل فـى ١٢ أكـتوبر سـنة ١٩٩٦م، وفى ١٣ مايو عام ١٩٩٧م انتقلت دولة الأستاذ برهان الدين ربانى إلى مزار شريف باسم الجبهة الإسلامية المتحدة لنجاة أفغانستان "جبههٔ متحد إسلامى براى نجات أفغانستان" وكان الموعد أن يجـرى أحمد شاه مسعود لقاءً صحفيًا مصورًا مع اثنين من الصحفيين المغاربـة يحملـون الجنسـية البلجيكية، ومكث هذان الصحفيان فى مدينة خواجه بهاء الدين خمسة عشر يومًا ينتظرون هذا اللقاء، وكانت عادة أحمد شـاه مسـعود حينما يبدأ فى استقبال الصحفيين يجعل الأولوية للصحفيين العرب دائمًا.

وفـى الموعد المحدد لعقد اللقاء الصحفى طلب أحمد شاه مسعود من صـديقه الحمـيم الأستاذ مسعود خليلى (حاليًا سفير أفغانستان بالهند، وهو نجل الشاعر الكبير الأستاذ خليل الله خليلى) أن يحضر معه هذا اللقاء.

وفـى الغرفة المعدة لذلك جلس أحمد شاه مسعود ومسعود خليلى على يمينه وجلس عاصم - وهو مترجم أحمد شاه مسعود وكان يعمل فى وزارة الخارجـية - علـى يسـاره وأمامـه الصحفى الذى كان سيجرى الحديث والمصـور وكان معه كاميرا ثبتها فى مواجهة الجالسين، كما حضر اللقاء الأسـتاذ فهيم دشتى وهو رئيس تحرير مجلة الأسبوع التى تصدر فى كابل وكـان يصـور بآلة التصوير الخاصة به مثل هذه اللقاءات ويكتب عنها، وكان الصحفى وزميله يتحدثان باللغة الإنجليزية وكان الذى يتولى الترجمة فى هذا اللقاء مسعود خليلى لأن أحمد شاه مسعود طلب منه ذلك.

وعــرف الصــحفى نفسه وزميله لأحمد شاه مسعود بأنهما لا ينتميان لهيــئة أو مــنظمة ولكــنهما من الجماعات الإسلامية الموجودة فى أوروبا والتى تبحث فى مشكلات العالم الإسلامى.

وطلــب أحمــد شــاه مسعود منهما أن تطرح الأسئلة كلها فى البداية ليسمعها ثم يبدأ فى الرد عليها سؤالاً سؤالاً.

ويذكر الأستاذ مسعود خليلى أن حوالى ثمانية من الأسئلة كانت حول أسامة بن لادن، وما هو حقيقة الموقف بين أحمد شاه مسعود وبينه. وعندما سمع أحمد شاه مسعود الأسئلة كلها أشار عليهما أن يبدأ التسجيل.

وعــندما بدأ التسجيل بدأت الانفجارات تدوى دويًا هائلاً، وبدأت مياه ســميكة ملتهــبة تــتحرك ناحية أحمد شاه مسعود ومسعود خليلى وعاصم وتكســر زجــاج النوافذ، وبدأت شظايا القنابل تدخل فى أجسامهم، وسمع مســعود خليلى أحمد شاه مسعود وهو يكبر ويتلو الشهادة ثم انقطع صوته تمامًا، وغاب مسعود خليلى عن الوعى ونقل إلى ألمانيا للعلاج من إصابات كبيرة وخطيرة، وتم شفاؤه بحمد الله إلا من آثارٍ لا تزال ظاهرة عليه.

وتوفــى عاصم فى الحال، وأصيب الأستاذ فهيم دشتى بحروق شديدة فى يديه لازال يعانى من آثارها حتى الآن.

أما الصحفى الذى كان يجرى الحوار مع أحمد شاه مسعود فقد تمزقت أشــلاؤه وتناثرت فى كل جانب، فنصف البدن فى ناحية والآخر فى ناحية أخرى واليدان والرجلان فى ناحية ثالثة.

أما المصور فقد نجا من الحادث، وقيل: إنه جرح جرحًا بسيطًا ولكن أطلق عليه الرصاص فمات فى الحال.

ويذكــر الأستاذ مسعود خليلى أن هذين الصحفيين ربما كانا ينتميان

للجماعات الإرهابية المتطرفة التى تنتشر فى أوربا، أما عن فحصهما قبل الدخـول عـند أحمد شاه مسعود فقد ذكر أنهما فحصًا حوالى ثلاث مرات وفحصـت حقيبتهما كذلك وذكر : أن القنابل التى كانت معهما ربما كانت علـى شكل بطاريات دقيقة يصعب كشفها لأن أفغانستان ليس لديها أجهزة تكتشف هذا النوع من القنابل، وذكر أن الصحفى ربما كان يحتفظ معه بعدة قنابل من هذا النوع لأنه تمزق إربًا إربًا.

وعـن هذيـن الصحفيين يذكر الأستاذ فهيم دشتى : أنهما طوال مدة إقامـتهما لـم يبد عليهما شيء غريب أو مثير للشك، أضف إلى ذلك أنهما قامـا بعمـل تحقـيقات صحفية مع كثير من القادة منهم الأستاذ عبد رب الرسول سياف وغيره وكانا قادمين من مواضع طالبان.

كانـت حالـة أحمد شاه بعد وفاته وبعد نقله إلى المستشفى العسكرى الصغير الموجود بهذا المكان كما وصفها الأستاذ صالح محمد ريكستانى :

نقـل إلى المستشفى وكان قد فارق الحياة قبل نقله كان وجهه مغطى بالدماء وآثار تفجير القنابل كان ظاهرًا عليه.

وجد تحت عينه اليمنى جرح صغير ولكنه عميق.

كان صدره ممتلئًا بالثقوب والدماء، وبه جرحان عميقان يصلان إلى القلب ويظهر منهما ابيضاض عظام صدره.

تقطعت أجزاء من أصابع يده اليمنى. يوجد جرح عميق بقطر خمسة سنتيمتر فى الناحية اليمنى من الخصر.

بعـد استشـهاده دفـن أحمد شاه مسعود فى مسقط رأسه بنجشير فى الـرابع عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م حيث بنى له قبر على بعد ميلين من منزلـه فوق ربوة عالية أطلقوا عليها اسم (تپهٔ سالار شهيدان) يعنى ربوة

سـيد الشـهداء، وقـد بنى القبر بالرخام الأسود وزين بآيات الذكر الحكيم وبـأقوال وأبـيات من شعر شعراء الصوفية الذين أحبهم. ووقت دفنه كان يومًـا حزينًا لأفغانستان فقد خرج الأفغان جميعهم لتشييع جنازة هذا القائد العظيم الذى دافع عن بلاده فى ظل ظروف لا يحتملها إنسان، ولكنه – كما يقـول الأفغان – كان شخصية استثنائية ليس فى تاريخ أفغانستان المعاصر فقـط بـل علـى مدى تاريخها كله. وفى يوم ١٦ يوليو ٢٠٠٥م وضعت الحكومة الأفغانية حجر الأساس لمقبرة جديدة سوف تزين بآيات من القرآن الكريم وبأشهر أقوال وأشعار شعراء الصوفية المعروفين وسوف ينقل إليها لأن المقبرة التى تضمه الآن بنيت على عجل.

توفـى أحمـد شاه مسعود ولم يترك لأبنائه أى ثروة أو ميراث سوى المـنزل الذى كان يعيش فيه والده، وهو منزل بسيط مبنى بالطوب اللبن، وتـرك أحمـد شاه مسعود من الأولاد خمس بنات وولد واحد هو أكبرهم، ووقت استشهاد والده كانت سنه لا تزيد عن اثنى عشر عامًا. كان أحمد شاه مسعود فيما ذكره عنه أصدقاؤه المقربون يشعر بدنو أجله فى الأيام الأخيرة قـبل استشهاده حتى إنه ذات يوم فى شهر أغسطس سأل زوجته إن كانت تجـيد الحياكة حتى يكون لها مورد تستطيع أن تعيش منه هى وأبناؤها بعد وفاتـه، وطلب من ابنه أحمد أن يدفنه على الربوة القريبة من منزله حتى يستطيع هو ووالدته وأخواته أن يزوروه.

مات أحمد شاه مسعود شهيدًا كما كان يتمنى دائمًا، ولم يحرمه الله بعد هـذا الجهـاد أن يجعله فى مصاف الشهداء العظام الذين دافعوا عن الدين واستشهدوا فى سبيل العقيدة، ولكننا نريد أن نقف وقفة أمام قصة استشهاده ففيما يبدو أن الرجل كان هدفًا لمؤامرة كبيرة لها أطراف متعددة متشابكة،

والدليل على ذلك أمران :

الأول : الصحفيان ظلا فى مدينة خواجه بهاء الدين خمسة عشر يومًا لم يشعر إنسان أبدًا أن وراءهما سر كبير، بل إنهما لفتا الأنظار بحسن خلقهما وأدبهما وهدوئهما وعدم تذمرهما على الرغم أنهما ظلا مدة طويلة حتى سمح لهما بالمثول أمام أحمد شاه مسعود لإجراء حديثهما.

الأمر الثانى : لماذا قُتل المصور زميل الصحفى وقد نجا من الحادث وكانت إصابته طفيفة جدًا، وكان من الممكن أن يقود إلى أمور تحاول فك هذا اللغز الكبير ولكن فيما يبدو أن الجريمة كانت أكبر من أى تدبير عادى وذهب السر واختفى إلى الأبد.

واستشهد أحمد شاه مسعود، استشهد الرجل الذى اجتمعت فى شخصه كل زعامات أفغانستان فهو مثل السلطان محمود الغزنوى فى السياسة وحسن التدبير والحنكة والحزم، وهو مثل السلطان مسعود الغزنوى فى الشجاعة والجرأة وقوة البأس والإقدام، وهو مثل أحمد شاه بابا فى حبه للأفغان على اختلاف عرقياتهم وأجناسهم ولغاتهم، وهو مثل الزعيم جمال الدين الأفغانى فى كراهيته للمستعمر والمستعمرين وعشقه للحرية والأحرار.

لقد أحب أربعة أشياء واستشهد فى سبيلها (الإسلام – أفغانستان – الأفغان – الحرية) هو باختصار بالنسبة للأفغان: الوالد والزعيم والابن والشقيق والحبيب، إنه بطل أبطال أفغانستان أحمد شاه مسعود.

أ. د / عفاف السيد زيدان

القاهرة – مدينة نصر

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

صفحات من تاريخ أفغانستان المعاصر

أسد الإسلام الظافر
أحمد شاه مسعود

تأليف

صالح محمد ريگستانى

ترجمته عن الفارسية وقدمت له

أ. د. عفاف السيد زيدان

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



مسعود با پسرش أحمد مسعود سال ۱۳۷۹ (۲۰۰۰م)

أحمد شاه مسعود مع ابنه أحمد عام ۱۳۷۹هـ ش (۲۰۰۰م)

إهداء

إلى الأب أحمد شاه مسعود

وإلى الابن أحمد أحمد شاه مسعود

راجيًا أن يأخذ الابن مكان الأب

صالح محمد ريكَستاني

من مذكرات أحمد شاه مسعود

مـــن الجائز أن الأشخاص الذين سمعوا اسمى عن بعد أو يروننى من الظاهر ولا يعلمون شيئًا عن همومى وأعبائى يغبطوننى أو يحسدوننى على مركـــزى ومكانـــتى، ويتمنون أن يكونوا مكانى ليظفروا بهذه الشهرة وهذا المجد، ولكن الذين يعرفوننى عن قرب ويعرفون مشقاتى وأعبائى وإلى أى حـــد تكـــون مســـئولياتى جسيمة ومشكلاتى فى العمل ثقيلة يدركون كيف ينقضـــى ليلى ونهارى، وهؤلاء الأصدقاء المقربون أيضًا لا يعرفون كذلك همومـــى ومشـــاغلى فليس من عادتى أن أبوح بأسرارى الداخلية لشخص حتى أقرب المقربين من الأصدقاء والأشقاء.

ففـــى طفولـــتى وحيـــنما كنت أذهب إلى المدرسة كنت دائمًا مهمومًا حزينًا وظل الأمر كذلك حتى منتصف الصف الثانى عشر، فأنا لم أكن أفهم دروسى، ولهذا السبب كنت أشعر دائمًا بعذاب وألم فى داخلى، أحيانًا كنت أجـــتهد ولكـــن هـــذا الاجـــتهاد كان يذهب سدى، فلم يكن لى معلم ماهر، وللأســـف أن الكسل وهو أسوأ الصفات التى كانت فى نفسى، كان سببًا فى عـــدم صـــمودى فى الدرس والتحصيل فقد كنت أكف يدى عن العمل بعد اجتهاد بسيط.

وفى الصف الثانى عشر الذى اعتمدت على نفسى فيه قليلاً، من لطف الله أن اجتهادى أتى بنتائج مثمرة حتى إننى فجأة صرت إنسانًا آخر.

مقدمة للقارئ العربي

يعتــبر أحمــد شاه مسعود أشهر قائد أفغاني في الجهاد ضد الاتحاد السوفييتي في الأعوام ١٩٧٩ - ١٩٨٩ م.

ففي سن التاسعة عشر من عمره التحق بسلك المجاهدين وجاهد أكثر مــن ربــع قرن من أجل الإسلام والحرية، ولقد امتزجت شهرته في داخل أفغانســتان بالأســاطير، لدرجــة أن وجهه من حيث الشكل انحصرت فيه أشكال جميع السلالات والأقوام التي استوطنت أفغانستان، وفي الواقع كانت حــياته بســيطة للغاية ولكنها كانت مؤلمة، فلقد أوقف ما يقرب من ثلاثين عامًا من عمره للجهاد من أجل الإسلام والمسلمين، ثم لقي وجه ربه شهيدًا وقصة استشهاده مفجعة ومؤلمة.

كــان مولــده فــي وادي پنجشير وهو المكان الذي حدثت فيه أكثر الخسائر لجنود الاتحاد السوفييتي في أفغانستان.

وفــي عــام ١٩٧٨م تولــت الحكومة الشيوعية مقاليد الحكم ثم دخل الســوفييت ثم جاءت طالبان، وحتى عام ٢٠٠١ م تعرضت پنجشير مرات ومرات لهجوم قوات الحكومة الشيوعية ثم الاتحاد السوفييتي وبعدها طالبان ولكــنها لــم تحــتل ولم تهزم، وكل هذه المقاومة وهذا الصمود كان نتيجة للقــيادة الحكــيمة لأحمــد شاه مسعود، ولهذا السبب لقبه أعداؤه بالفارس المغوار، أما أحباؤه ورفاقه فقد لقبوه بأسد پنجشير.

وذات مــرة ســأله أحد الصحفيين: يقولون عنك أسد پنجشير فما هي وجهــة نظرك في هذا الأمر؟ فأجاب: " إن الأسد حيوان أما أنا فإنسان ". ويعني ذلك أنه إنسان بالمعنى الحقيقي والواقعي.

كـــان من أبرز علامات شخصية مسعود أنه كان قوى العقيدة طاهرًا عفــيفًا شــجاعًا مقدامًـــا صـــاحب عقل راجح ثاقب البصيرة، وكان بسيطًا صاحب شرف ومروءة متواضعًا حرًا.

فـــى عـــام ١٩٨٢م قام الاتحاد السوفييتى بحملة على وادى پنجشير للمرة الخامسة، وطالت الحرب شهورًا ووصلت إلى النهاية ولم يستطع أى طـــرف أن يتغلب على الآخر، وفى هذه الأجواء المتضاربة اقترح الاتحاد السوفييتى أن يجرى مباحثات مع مسعود. فتشاور مسعود مع العلماء والقادة فـــأذنوا له بالمباحثات مع السوفييت، ونتيجة لهذه المباحثات تم وقف إطلاق الـــنار الذى استمر عامين، ولكن فى عقب هذا اشتعل أوار الحرب وكانت أكـــثر دموية مما مضى، وأثار وقف إطلاق النار الكثير من التساؤلات لقد تصـــالح الكفار مع مسعود، وأضرم المسلمون نيران الحرب ضده، ونشر اثـــنان مـــن زعمـــاء المجاهديـــن الشائعات ضده فألحقوا لطمة شديدة إلى شخصـــية ذلك المجاهد المسلم بين المسلمين وخاصة المسلمين العرب إلى حد أن بعض علماء العرب الآن يساورهم الشك فى إسلامه، الشك فى مسلم لم يعش لحظة واحدة بغير ذكر الله، وسوف تشهد كل أحجار أفغانستان بين يدى الله تعالى على جهاد مسعود.

وفـــى الـــنهاية وفـــى التاسع من سبتمبر عام ٢٠٠١ م قتله اثنان من المســـلمين المغاربـــة فـــى عملية انتحارية، فلماذا صمت الذين قاموا بقتل مسعود؟ ولماذا تخفوا جبنًا وخوفًا ؟ وإذا كان أحمد شاه مسعود يستحق القتل فلماذا لم يفخروا بعملهم؟

لقد كان مسعود يقول بخصوص الحركات الإسلامية للمتطرفين: "إنهم شـــباب لديهم إحساسات نقية طاهرة لعزة الإسلام والمسلمين، ولكن للأسف

ليس لديهم تعقل أو روية".

فـــى الفصـــل الأول مـــن هذا الكتاب سوف تعرفون ما يخص وقف إطـــلاق النار مع الاتحاد السوفييتى وأسبابه، ثم تتعرفون فى الفصل الثانى باختصار على شخصية أحمد شاه مسعود ومن أجل معرفة أوضح بالكتاب صـــنفت مقدمة أساسية لتكونوا أكثر معرفة بالكتاب، وأشكر العالمة الجليلة الأستاذة الدكتورة عفاف زيدان فقد ترجمت كتابى إلى اللغة العربية، وسوف يظل هذا من المفاخر فى حياتى [١].

مع احترام

صالح محمد ريكستانى

مدينة موسكو

٢٠ مايو ٢٠٠٤م

---

١) إننى أتوجه بالشكر الجزيل للمؤلف الأستاذ صالح محمد ريگستانى على هذا التقدير الكبير لشخصى الضعيف، وأرد عليه التحية بأحسن منها فأذكر أن كتابه القيم عن *أحمد شاه مسعود* قد أتاح لى فرصة كبيرة لأعرف شخصية أحمد شاه مسعود عن قرب، وأقدمه لقراء العربية مجاهدًا فى سبيل الله يرفع راية الإسلام فوق قمم جبال الهندوكش، ويأبى الظلم ويكره الضيم، ويقف فى وجه المعتدى الغاصب لبلاده غير عابئ أن تكون حياته هى الثمن الذى سيقدمه قربانًا وفداءً:

إذا الشـــعب يومًا أراد الحياة — فلابـــد أن يســـتجيب القـــدر
ولابـــد للـــيل أن يـــنجلى — ولابـــد للقـــيد أن ينكســـر
ومـــن لا يحب صعود الجبال — يعـــش أبـــد الدهـــر بيـــن الحفر

مقدمة الطبعة الثانية

بعد الطبعة الأولى للكتاب أظهر جمع من الأصدقاء الفضلاء والعلماء وجهـات نظـرهم واقـتراحاتهم وانتقاداتهم التى ساعدت على إصلاح هذا الكـتاب، وكانت دقتهم وعلو وجهات نظرهم أرفع وأعلى من توقعات العبد الفقير لله.

ولهذا أتقدم بخالص الشكر الجزيل والتقدير الكبير لعلو همتهم ورفعة أذواقهم. والعبد الفقير لله موافق على بعض ملاحظاتهم بخصوص النقد فى بعـض مواضع الطبعة الأولى للكتاب، ولكن بخصوص الجزء الآخر من الملاحظـات فلـيأذنوا لـى فأنـا لست موافقًا معهم، ومع ذلك فبعض هذه المطالب يجب أن أعرضها فى المقدمة.

فـى أواخـر عام ٢٠٠٠م وكنت حتى ذلك الوقت أقوم بعملى ملحقًا عسـكريًا وممـثلاً شخصيًا لمسعود فى تاجيكستان، وصمم أن يبعثنى إلى روسيا لأقوم بنفس مهام وظيفتى فى موسكو. ولأول مرة يفصح العبد الفقير لله لأحمـد شـاه مسـعود عـن رغبـته أنه يريد ذات يوم أن يكتب كتابًا بخصـوص حرب السوفييت ضد المجاهدين فقال: إن الأمر لن يكون سهلاً لأن جـريمة الهجـوم على أفغانستان يعلقها زعماء الاتحاد السوفييتى كل واحد فى رقبة الآخر وخصوصًا الأحياء فإنهم يعلقونها فى رقاب الأموات، فقلـت: إن هدفـى هو كتابة كتاب عادى لا يحتوى على المسائل السياسية قال: فى نظرى أن تبدأ بالهدنة ووقف إطلاق النار لأنه حتى الآن لم يتناول شـخص هذا الأمر فوافقت ورجوته أن أسجل صوته فقبل، ولكنه أشار أن

أرى فـــى البداية الرئيس ميرداد [١] لأنه يعرف المقدمات، وكان ميرداد فى ذلك الوقت رئيسًا لشئون إعادة الإعمار وكانت أسرته تعيش فى تاجيكستان فالتقيــت به فى منزله وسجلت كلامه وكتبت تاريخ ٢٠٠٠/١١/٢٧ م على الشريط، وبعد ذلك رأيته مع مسعود فى منزل مسعود فى مدينة دوشنبه [٢] وقـــد مكثت أسرة مسعود مدة فى مدينة دوشنبه، وقد دونت هذا فى الكتاب وشــرحت أســبابه. وبخصوص أسباب وقف إطلاق النار ونتائجه تحدث مســعود عـــنه بعد سبعة عشر عامًا، وقد سجلت كلامه على شريط بتاريخ ٢٠٠٠/١٢/١٢م ولكن اللقاء مع الجنرال أناتولى استغرق ثلاثة أعوام؛ لأن اســمه بالكـــامل لم يكن معى وكان قد تقاعد من أعوام. على كل حال لقد اجــتهدت اجــتهادًا شـــديدًا أن أبحث عنه وأخيرًا، تم اللقاء فى منزلى فى موسكو، وقد سجلت كلامه، وطبعًا كما وعدته أعدت له الشرائط وتم اللقاء

---

(١) ميرداد البنجشيرى: ولد عام ١٩٤٥م فى قرية رحمن خيل فى بنجشير، درس المرحلة الابتدائية فى مسقط رأسه وقضى المرحلة الثانوية فى مدرسة ابن سينا، ثم التحق بكلية الــزراعة فـــى كابل، ثم سافر إلى كاليفورنيا بأمريكا لدراسة الدكتوراه فى الزراعة، وحصـــل علـــى الدكـــتوراه عـــام ١٩٧٧م وحيـــنما عاد إلى أرض الوطن تنقل فى المحافظـــات المختلفة فى أفرع الزراعة، ووضع الأساس لشركة تنقية الحبوب وكانت مهمـــتها الارتقـــاء بإنتاج القمح. كان من السابقين للدخول فى حزب خلق الديمقراطى الشيوعى، ولكن لأنه درس فى أمريكا لم يرتق فى مدارج الحزب ولم يكن موضع ثقة خاصة مع اختلافاته بمستشارى الاتحاد السوفييتى، حينما دخلوا إلى أفغانستان اشترك فـــى موضـــوع وقـــف إطـــلاق النار ولهذا كان سببًا فى غضب الدولة الشيوعية فى أفغانستان وسجن هو وأسرته عام ١٩٨٣م، وفى البداية حكموا عليه بالإعدام ثم خففوا الحكـــم إلى المؤبد وأطلقوا سراح أسرته، وأمضى هو فى السجن سبعة أعوام، وأطلق ســـراحه حينما انتصر المجاهدون عام ١٩٩٢م ثم صار معاونًا للزراعة إبان حكومة المجاهديـــن (١٩٩٢ – ١٩٩٦م)، ومن عام ١٩٩٦م إلى عام ٢٠٠١م فترة المقاومة ضـــد الإرهاب صار رئيسًا للجنة إصلاح الجبهة وفى الوقت الحاضر يشغل منصب وزير الدولة فى وزارة الزراعة.

(٢) دوشنبه عاصمة تاجيكستان (المترجم).

معه فى تاريخ ٢٦/٤/٢٠٠٣م.

وجدير بالذكر أننى التقيت مع عدد من المترجمين فى موضوع وقف إطـــلاق النار وسوف يأتى ذكر هذا ولكننى لم أوفق فى العثور على أمير محمد السمرقندى مترجم الدور الأول للمباحثات ولكنى جادٌ فى البحث عنه.

وأوضح هنا قليلاً عن موضوع الهدنة ووقف إطلاق النار للأشخاص الذين يسمعون عنه لأول مرة: عام ١٩٨٢م هاجم السوفييت وادى پنجشير لخـــامس ولســـادس مـــرة، وطالـــت الحملات فى هذا العام وكانت خلاف الحملات السابقة ودامت تسعة أشهر فى الوقت الذى لم تبد هناك أية بادرة لـــنهاية الحرب، وأظهر السوفييت فى بادرة غير منتظرة اقتراح المباحثات مـــع الجـــبهة، ولم يصدق مسعود هذا أول الأمر فاستدعى العلماء والقادة وجعـــل الموضـــوع قيد البحث والمشورة، وقبل اقتراح السوفييت من قبل مجلـــس شـــورى العلمـــاء والقادة، وأعطوا مسعودًا الصلاحية بأن يجرى المباحثات، ونتيجة لهذا انعقدت مباحثات وقف إطلاق النار من عام ١٩٨٣ حـــتى ١٩٨٤م وقد أثار وقف إطلاق النار والهدنة جدلاً واسعًا وتساؤلات كثيرة بعضها لا يزال يثار حتى الآن.

وهـــذا الكـــتاب يجيـــب على هذا السؤال: لماذا اقترح السوفييت على مســـعود وقـــف إطلاق النار؟. وعلى هذا النحو فإن الجزء الأول من هذا الكتاب يختص بوقف إطلاق النار.

الجزء الثانى من الكتاب عن شخصية مسعود، وفى هذا الجزاء أفخر بأنـــنى أحـــد زملاء مسعود وقد أمضيت واحدًا وعشرين عامًا تحت قيادته متوجًا بالمجد والفخار فى خدمة الدين والوطن، وقد اجتهدت أن أعرف عن قـــرب شـــعاب شخصـــية مســـعود وأفكاره بالشكل الذى رأيته، ولا أدعى

الصواب وعدم الخطأ فى كل ما كتبت. ولقد ظهر الباعث على كتابة الجزء الثانى فى نفسى بعد استشهاد مسعود لأننى أعتقد أن مسعودًا لم يُعرف المعرفة الواجبة، وأتعشم أن أكون قد خطوت خطوة فى هذا الأمر فقد سجلت ذكرياتى أنا عن مسعود وليس وجهة نظر الآخرين، وذكر هذا الأمر مهم وضرورى بل إنه غاية فى الأهمية؛ إذ كيف تستطيع وبأى معيار أن تحكم على مسعود فمسعود رجل مسلم ومجاهد، وقد ألقى الإسلام بظلاله على كافة جوانب شخصيته، وكان شغله الشاغل: الدين، والعقلانية، والاعتدال، والرؤى الصحيحة فى كل الأمور والأشياء. واقتراح العبد الفقير لله أن تبحث شخصيته فى إطار هذه المعايير، وليس مقصود الكاتب أن يعرف كل شخص كيف يفكر، لأن ميدان الفكر الإنسانى واسع، ولكننا نريد أن نشير إلى بُعْد مهم فى شخصية أحمد شاه مسعود. وأرجو أن ينشر بسرعة ما كتبه هو من كتابات قيمة حتى تضيف نقاطًا مهمة لتحليلاتنا عن هذا الرجل العظيم العاشق للحرية.

صالح محمد ريكَستانى

مدينة موسكو

١٨/١٠/٢٠٠٣م

الهدنة ووقف إطلاق النار ١٩٨٣ – ١٩٨٤م

على لسان ميرداد:

فــى صـيف عــام ١٣٦١ هــ ش (١٩٨٢م) كلفنى مجلس شورى الانقلاب فى دولة كارمل [١] أن أذهب إلى پنجشير على رأس مجموعة من الموظفين ذوى الأصل البنجشيرى فى الحكومة، وكانت هذه المجموعة تزيد على مائتى شخص. وفى ذلك الوقت كانت قوات الاتحاد السوفييتى مشغولة بعملــيات هجومــية فى پنجشير وتجرى فى الوادى حرب حامية الوطيس، وكانــت الوظــيفة المسندة إلىّ هى أن أرغب أهل الوادى فى الاتجاه نحو الحكومــة وأوزع عليهم المساعدات، ومع سماعى لهذا الخبر تملكنى حزن شديد لأننى لم أتوقع مطلقًا تعيينى فى مثل هذه المهمة وخصوصًا أن حربًا ضروسًا تدور رحاها فى الوادى، وأنا لم أعرف لنفسى وظيفة غير وظيفتى مــنذ بدايــات الحــرب والضــرب، لهذا كان لابد أن أذهب عند دستگير پنجشيرى [٢] لأستوضح الموضوع أكثر، وأبحث معه عن السبب والعلة فى

---

(١) بــبرك كــارمل تولى رئاسة جمهورية أفغانستان عام ١٩٧٩م وتولى الرئاسة بعد تره كى وحفــيظ الله أمين، وكان من المؤسسين للحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى، وكانت فــترة حكمــه ســيئة إذ اتجهت البلاد فى عهده كلية إلى روسيا، وكانت جميع مقاليد الأمــور فى أيدى المستشارين الروس وكأن أفغانستان أصبحت تابعة لروسيا، ولكنها تحت وطأة حرب المجاهدين واستنكار العالم نحت ببرك عن السلطة فى مايو ١٩٨٦م وأتت بنجيب الله علي على رأس السلطة (المترجم).

(٢) دســتگير پنجشــيرى وزيــر المعارف الأفغانى فى بداية الحكومة الشيوعية الموالية للسوفييت.

هذا الأمر، فقال: إنك رجل مسن [١] وأنت محبوب ولك شعبية، وتستطيع أن تساعد الناس، وليس هناك حيلة غير ذهابك، لأن هذا هو قرار مجلس شورى الانقلاب، فاضطررت أن أذهب إلى مجلس المدينة محل تجمع الأشخاص المعينين، وهناك ومع رؤية ساحة توزيع الأسلحة بعدد هؤلاء الموظفين التعساء مثلى الذين لا يهتمون بالأمور العسكرية زاد اضطرابى أضعافًا مضاعفة، كنا جميعًا ٢٦٠ مائتين وستين شخصًا، وبصعوبة استطعت أن أقللهم إلى ١٦٠ مائة وستين شخصًا، لأنهم لَن يكونوا متمتعين بالسلامة التى تمكنهم من إجراء هذه الوظيفة، وبعد يوم واحد ذهبنا إلى منطقة گسيل بواسطة عدة طائرات هليوكوبتر فى منطقة أعنابه (وهى أول قرية كبيرة فى پنجشير حينما تدخل الوادى) وفى منطقة أعنابه توجد قاعدة للسوفيت، وضمنًا فإن عددًا من أهل المنطقة على خلاف سائر نقاط پجشير لم يتخفوا فى الجبال وظلوا هناك وكان عملى مع هؤلاء أكثر.

وبقيت هناك أربعة أشهر ونصف، وفى هذه المدة كان السوفييت أحيانًا يدعوننى داخل قاعدتهم لتوفيق الأمور المدنية أو العسكرية، وأظن أن قائد القاعدة كان شخصًا آخر غير الشخص الذى كان يتحدث معى وكان يدعى الجنرال أناتولى، وكان من المحتمل أن يكون رئيس الاستخبارات أو ربما كان يعمل فى هذا المجال وأنا لم أره مطلقًا فى ذلك الوقت أو بعده بالزى العسكرى. وفى خضم تلك الأحداث ذهابًا وإيابًا والتى تعرفت فيها على الجنرال أناتولى لم أكن أدرى أن كلامنا فى عديد من اللقاءات التى جمعتنا كان يحس منه أو يشعر بأننا من الممكن أن نتفاهم مع بعضنا

---

(١) دستگير پنجشيرى قال هذا بالنص لميرداد مع أن ميرداد فى هذا الوقت كان سنه سبعة وثلاثين عامًا يعنى لم يكن مسنًا بأى حال. (المترجم).

البعض باللغة الإنجليزية وكانت هذه هى بداية معرفتى بالجنرال أناتولى.

كان أناتولى طويل القد وقورًا حسن العشرة، تصادق كل منا مع الآخر فى غاية السرعة، وكنا كثيرًا ما نجلس سويًا نتجاذب أطراف الحديث، وكان يتحدث حتى فى الأمور السياسية ولكننى كنت محتاطًا دائمًا وكنت أتجنب المخاطرة فى الأحاديث السياسية. وفى أكثر الأوقات كان كلانا يشاهد نقل القتلى والجرحى بنيران الاتحاد السوفييتى الذين كانوا ينقلونهم من الأجزاء العليا للوادى.

وذات يوم وكنا نتحدث حديثًا وديًا قَدِمت إلى الوادى قوة مدرعات كبيرة، وكانت هذه القوة ترغب فى أن تتخذ مكانها فى الأطراف العليا للوادى فى الجهة المقابلة للمجاهدين فالتفت إلىّ أناتولى وقال ضاحكًا: ميردار خان؛ أترى إلى أى حد تكون قوة الاتحاد السوفييتى؟ فقلت على غير عادتى فى الاحتياط: لو آلاف أضعاف هذه القوات فإنها لن تستطيع أن تقلل سنتيمتر واحد من قمم هذه الجبال، فضحك ولكنه لم يقل شيئًا.

وفى اليوم التالى حينما تقابلنا قال: ميرداد خان مقولتك بالأمس جعلتنى أفكر فما الذى تقصده بهذا؟ فقلت له: إن قصدى من هذا أن المقاومة فى مقابل قواتكم هى مقاومة الشعب، والشعب مثل الجبال فيجب البحث عن حل آخر. فلم يقل شيئًا ولكن قولى هذا له كان يضرب به المثل بعد ذلك، وكل وقت كانت تقع فيه حادثة أو حرب أو مقاومة من قبل المجاهدين كان يقول لى: إنك تقول الحق قمم الجبال صعبة (وفى اليوم الذى قلت فيه تلك الجملة كنت لا أتخيل أبدًا الحل الذى تم بعد ذلك، ولكن كانت تلك الجملة مبينة لما فى ضميرى وما فى نفسى، وكنت متأثرًا تأثرًا عميقًا من رؤية الحرب وكثرة القتلى)، وكانت الأيام تمضى وتمر والحرب

مستمرة في الوادى.

وفـــي أحـــد الأيام اقترب أناتولى منى ودعانى لتناول شاى الصباح، وكان واضحًا من سماته أن لديه حديثًا مهمًّا سوف يقوله وأثناء تناول الشاى التفــت إلـــى وقال: لقد مات زعيمنا فالتفت إليه وقلت له: لم أفهم قصدك؟ فقـــال: مقصـــدى برجنيف وتعجبت لسروره وحبوره ولم أكن أصدق هذا الكـــلام فقلت مترددًا: ليس جيدًا أن يموت زعيم الشيوعيين فى العالم فليس الأمـــر حسنًا وقلت كلامًا على غرار هذا النحو فالتفت إلى تأثرى وضحك وقـــال: لا تخف، اعتمد علىّ لأن الأمور على عكس ما تظن، لقد صارت الأحـــوال جيدة، فهؤلاء أصدقاؤنا وعلى رأسهم السيد اندروبوف قرروا أن يصبح هو الزعيم. قال هذا الخبر فى الوقت الذى لم توجد فيه أى أخبار فى وكـــالات الأنباء عن موت برجنيف حتى إنه فى صبيحة ذلك اليوم وحينما ذهبـــت إلى كابل سألت دستگير پنجشيرى عن الموضوع لم يكن لديه علم مطلقـــا. وبتحول الأمر إلى اندروپوف انتهت وظيفة أناتولى فى أفغانستان وعـــاد إلـــى موسكو. وقبل ذلك رجعت أنا إلى كابل إلى وظيفتى الأصلية يعنى شركة تنقية الحبوب.

عودة أناتولى إلى أفغانستان

فى أواخر الخريف فى نفس العام قدم إلى مكتبى أربعة من مستشارى الـــروس ومـــترجم، وعرفوا أنفسهم بأنهم أصدقاء أناتولى وأخبرونى عن قدومه وقالوا: لقد أتى لتوه من موسكو، وهو الآن فى قاعدة بگرام ومكثوا قليلاً ونهضوا دون أن يعطوا توضيحًا أكثر وقالوا إنهم سيعودون غدًا.

وجـــاءوا فـــى اليوم التالى ومثل اليوم السابق تحدثوا حديثًا عامًا مثل أوضاع الأمن ووضع جبهات الحرب والحكومة وغير ذلك فازدادت رغبتى

لأعــرف سبب مجيئهم، وأخيرًا ضقت ذرعًا فسألتهم عن سبب مجيئهم إلى مكتــبى، فقــالوا: إننا زملاء أناتولى، ولقد جئنا من الإدارة السياسية للسيد اندروپــوف، ولــن نخبرك بشيء حتى يأتى أناتولى وسوف يصل سريعًا وسوف يقول لك كل شيء.

وفــى اليوم التالى أتوا إلى مكتبى مع أناتولى، جاءوا فى سيارة CD تابعة لسفارة الاتحاد السوفييتى.

وســررت أنا وأناتولى حينما التقينا وتصافحنا بحرارة، وسأل كل منا الآخــر لعــدة دقائق عن الأحوال والحياة الشخصية وأوضاع الأسرة وعن أعمال وانشغال كل منا، وعندئذ قال أناتولى: إننى أعلم أنك متعجل لتعلم ما الخبر ولأى سبب جئت. سأقول لك السبب، وبدأ الكلام على هذا النحو:

إن لــدى تمثيل شخصى من السيد اندروپوف ورفاقى هم أعضاء فى مكتبه. وبمجيء اندرپوف ظهرت تغيرات فى الاتحاد السوفييتى ومن جملة ذلــك تصميمه أن يجد حلاً لخروج قوات الاتحاد السوفييتى من أفغانستان، وســوف أعمل أنا وأنت بخصوص هذا الأمر. إننى أتذكر كلماتك فقد كنت تقــول: مــع القــوة يكون وجود المصاعب والمشاكل، وحانت الفرصة أن نبحــث عــن طريق للصلح. ثم أوضح أن الاتحاد السوفييتى صمم أن يبدأ مباحــثات الصلح فى البداية مع القادة الأصليين فى داخل أفغانستان، وبعد ذلــك يقــوم بوقف إطلاق النار فى المناطق التى تحت السيطرة وبصورة تدريجــية يخــرج قواته من أفغانستان، ولكن وجدت فى ذهنى أسئلة كثيرة أجاب أناتولى على بعض منها، فمثلاً حينما سألته: لماذا تبدأ عملية السلام من پنجشير؟ فقال: إن پنجشير وسالنگك هى المحل والمكان لأكثر مشاكلنا وخسائرنا فى أفغانستان. فپنجشير كذلك على رأس الطريق الرئيسى لذهابنا

وإيابـنا، ومـن ناحية أخرى القوات المستقرة فى هذه النواحى تحت قيادة أحمـد شـاه مسعود لديها تشكيلات أحسن ولديها زعامة واحدة، وفى حالة التوافق معهم من الممكن عمل معاهدة معتمدة، هذا فى الوقت الذى لا يوجد فى سائر نقاط أفغانستان هذا التعداد من المجاهدين تحت قيادة واحدة، وهذا الـنوع مـن التركيب من الممكن أن يواجه فى عملية السلام من الأساس بموافقـة أحدهـم ومخالفة الآخر، ولكن بخصوص انتخابك أنت لأداء هذه المهمـة فذلك لأن القرار فى البرنامج أن يبدأ الصلح من پنجشير وأنت من نفـس هذه المنطقة، والأهم من ذلك أننى ليس لى صديق غيرك منها أعتمد عليه وبناءً على هذا أردت أن تساعدنى.

وقد أخذت المباحثات بيننا عدة أيام وكان ذهنى مشغولاً بأسئلة كثيرة. فـى الواقـع أن السـوفييت مصممون على الخروج من أفغانستان، فكيف يخـرجون؟ وأيـن سـتذهب قوات الدولة الموالية للسوفييت؟ وماذا سيفعل المجـاهدون؟ وأى نـوع مـن الدول ستكون الدولة المستقلة؟ وأى شخص ستكون له الزعامة؟ وعشرات أخرى من الأسئلة.

وفطن أناتولى فى هذا الوقت إلى فكرة ذهابى فقال: إن مهمتك ليست صـعبة؛ ابحـث أنت عن شخص يوصل رسالتنا إلى مسعود، وبمجرد أن تكتشف هذا الشخص سوف تنتهى مهمتك.

وكان الاطمئنان الكثير الذى بعثه أناتولى فى نفسى قد أوجد شيئًا من التصـديق لـدى، فمن الجائز أن يكون السوفييت يريدون أن يخرجوا من أفغانستان ولهذا يلزمنى أسبوعان ثم أبدأ العمل.

وأول مشـكلة اعترضتنى أننى لا تربطنى بأحمد شاه مسعود أى نوع مـن المعرفة أو الارتباط سوى أننى كنت أعرف والده وأحيانًا كنت أذهب

إلـــى منزـــله، ولكن مسعودًا كان طفلاً فى ذلك الوقت حتى إننى لا أتذكر وجهه.

وبعـــد عـــدة أيام من التفكير فى اختيار شخص يذهب إلى أحمد شاه مسعود تحدثت فى هذا الشأن مع داود (1) الذى كان من أصدقائى المقربين، أما قبل ذلك حلفته وأقسمت عليه أن يجعل الموضوع سرًّا بيننا فقال بسرور بـــالغ: إن هـــذا الأمـــر يسير إننى أستطيع أن أنهض بهذا الأمر، وأنا دائم الذهاب والإياب إلى پنجشير فلا تقلق.

فتحدثـــت تلفونـــيًا مع أناتولى فقدم مع وفد إلى مكتبى فعرفتهم بداود وشـــرح أناتولى خطورة المهمة لداود، وأكد كثيرًا أن الرسالة لا تقع فى يد أحد وخصوصًا أعضاء حكومة ببرك كارمل.

وبعد الظهر أحضر أناتولى الرسالة وأعطاها لداود، ومرة أخرى أكد لـــه أهمـــية إخفـــاء هذا الأمر وذهب، وبعد ذهاب أناتولى سألت داود عن الـــبرنامج الذى سيبدأ به العمل، وكأن داود أدرك حساسية الموضوع أكثر بعـــد كلام أناتولى لأنه قال لى: فى نظرى أن أذهب بدون رسالة إلى هناك

---

(1) محمـــد داود: هو من أقارب أحمد شاه مسعود ولد عام ١٩٢٣م فى جَنْگَلَكْ پنجشير، ودرس المـــرحلة الابتدائـــية فى مسقط رأسه، أما المرحلة الثانوية فقد أتمها بالمدرسة العســـكرية فى كابل ثم التحق بالجامعة العسكرية حيث تخرج عام ١٩٤٦م، وتنقل فى جمـــيع محافظـــات أفغانستان للعمل فى جميع الأفرع العسكرية وتقاعد عام ١٩٧٨م. وفـــى آواخـــر عام ١٩٨٢م دعى من طرف الرئيس ميرداد ليلعب دورًا فى موضوع وقف إطلاق النار. وقد عين فى عام وقف إطلاق النار رئيسًا لمدينة أعنابه، وفى عام ١٩٨٤م حكـــم علـــيه بالحـــبس ثمانية عشر عامًا من طرف الحكومة الشيوعية مثل الرئـــيس مـــيرداد وگلداد. وأمضى فى السجن سبعة أعوام وأفرج عنه عام ١٩٩٢م ومات بعد مدة من الإفراج عنه.

لأن المجاهديـــن يمـــلأون المكان أسافر أولاً وأعرف وضع الطريق وفي المرحلة التي تليها أحمل الرسالة، فقبلت اقتراحه الحذر، وصبيحة ذلك اليوم ســـافر داود. وحتى عودته لم يفارقني الشك والقلق وفطنت إلى نقطة هامة وهي ألا يضعوا في المظروف شيئًا يلحق الأذى بمسعود.

ولهذا قلت لأناتولي: إن داود قد ذهب حتى يرى وضع الطرق، ولدى اقتراح آمل ألا يكون سببًا في إيذاء مشاعركم فقال: قل أي اقتراح لديك.

قلـــت: هـــل مـــن الممكن أن تفتح الرسالة قبل أن تعطيها لداود في حضوري وحضوره. طبعًا أنا لا دخل لي بمحتويات الرسالة، ولكنني أريد أن أطمئـــن أنها رسالة فقط. ففطن أناتولي فورًا إلى حيطتي وحذري فقال: إنني موافق تمامًا فأعطيته الرسالة ثانية وظللنا في انتظار داود.

وبعـــد فترة رجع داود وطمأننا أنه مستعد للقيام بهذه المهمة فأخبرت أناتولي بالموضوع، أما أناتولي فكما وعد فقد فتح الرسالة أمامنا، وبعد أن اطمئننا دفعها داخل المظروف مرة ثانية.

ومـــرة ثانية هاجمتني الوساوس والشكوك مثل: كنت أنا الذي حملت الرســـالة، التأكيد المجدد من أناتولي بأنه لا يجب أن يطلع على السر أحد مـــثل مخابـــرات خـــاد (١) وجهـــات الدولة الأخرى غير هؤلاء القلة من الأشـــخاص (٢) ولا تقـــع الرسالة في أيديهم، كل هذا جعل ثقل هذه المهمة أكثر على كاهلي.

ولم تكن وساوسي وشكوكي بلا سبب، فبعد ذلك ألقتني مخابرات خاد الحكومـــية فـــي الســـجن وسألوني عن تفاصيل هذه الأمور وسأعود لسرد

---

(١) مخابرات خاد هي مخابرات الحكومة الشيوعية الأفغانية.

(٢) يقصد الروس الذين قدموا إلى مكتب أناتولي.

الأحداث.

وأثـناء توديعـنا لأناتولى تبادر إلى ذهنى شيء جديد آخر هو مسألة أمن داود، فقد كنت أعلم أنه سوف يواجه الموت فى الوادى فقلت لأناتولى: إن لدى اقتراح بخصوص أمن داود، امتنعوا عن إجراء أى عمليات حربية فـى بنجشير طوال الأيام التى سيقوم فيها داود بإجراء هذا العمل، وإلا ما هـى الضمانات التى ستجعله يذهب بسلامة إلى أحمد شاه مسعود أو يعود من عنده؟ فصمت برهة وقال: أنا موافق فاطمئن، وودعت أناتولى ورجعت مع داود إلى الإدارة.

ومرة أخرى تحدثنا حول الجوانب المختلفة لإجراء هذا العمل، وكانت الحالة المعنوية لداود أحسن منى مرات ومرات، وكأن له أعوامًا مكنته أن يكـون على دراية بإجراء هذه المهمات، وفى اليوم التالى تحرك داود إلى بنجشير وبقينا منتظرين، وتذكرت عدة مرات أنه منذ أن بدأت عملية السلام وأنـا قـد شـملت كيانى أحزان مؤلمة، وفى تلك الأثناء - وكان الأسبوع الثالث يكاد يقترب من آخره ولم يكن هناك أى خبر عن داود - فهاجمتنى مرة أخرى جيوش الهواجس والشكوك، ماذا لو قبض على داود فى الطريق بواسـطة قوات الدولة أو بواسطة جماعات أخرى من المجاهدين؟ أو حدث له ما هو أسوأ من ذلك كأن يقتل فماذا أقول لأسرته؟ كل هذه الأشياء كانت تؤذينى وتضايقنى أيما ضيق وإيذاء.

وفى يوم الثامن والعشرين حضر داود حيًّا سليمًا [1] ودون أى اهتمام

---

(١) يقـول مـيرداد: إن ذهاب داود وعودته استغرق ثمانية وعشرين يومًا. ولكن أناتولى يقول: إنها استغرقت عشرة أيام. ومن الجائز أن يكون هذا التناقض فى الأقوال بسبب مضى فترة طويلة أو بسبب النسيان.

عن الجواب الذى أحضره فإننى قد تنفست الصعداء حينما رأيته وأحسست براحة فى نفسى، ثم جلسنا وسألته عن الأحداث فقال إنه جاء بالموافقة، ثم شرح أحداث ذهابه إلى أحمد مسعود عن طريق الجبال، ولقد استفاد من شخص يدعى گلداد [1] فى الوصول إلى أحمد شاه مسعود وقد جعلنى فعله هذا عصبيًا وقلت له: ألم أقسم عليك وأحلفك ألا يعرف شخص آخر شيئًا عن هذه الأحداث، فقال: لا تتعصب فهو لا يعرف شيئًا، إنه صديق سابق لى، والوصول إلى أحمد شاه مسعود عن طريق الطرق المليئة بالالتواءات والمنحنيات الجبلية صعب جدًا وغير ممكن، بل إنه حتى مستحيل، وبإيضاحه لهذا الأمر مضيت فى الاستمرار فى الموضوع وأخبرت الجنرال أناتولى بمجيء داود فجاء على الفور وقابل داود.

وسر أناتولى سرورًا بالغا بموافقة مسعود على رسالته واسترسل فى نظراته وقال: الآن يجب أن نضع الخطوة الثانية، فالخطوة الثانية هى

= وأنا أرجح التاريخ الأول لأن الذهاب والإياب من كابل إلى پنجشير وبالعكس فى الوقت الذى حدثت فيه هذه الأحداث كان يأخذ وقتًا طويلاً لا يقل عن التاريخ الذى ذكره ميرداد بأى حال لانعدام المواصلات المنتظمة، ولكثرة نقاط التفتيش، وامتلاء الأماكن خلف الجبال وفى الوديان بالمجاهدين، واشتباكهم مع السوفييت فى حروب شرسة على نحو ما هو معروف، علمًا بأن المسافة بين كابل وپنجشير لا تزيد عن ١٥٠ (مائة وخمسين) كيلو متر (المترجم).

(١) گلداد صديق داوودمن قرية حصارك فى پنجشير كان فى السادسة والستين من عمره أثناء كتابة هذا الكتاب، وكان يعيش فى كابل. درس العلوم الدينية فى القرية واحترف الفلاحة فى أول الأمر ثم رحل إلى كابل سعيًا وراء الرزق، وهو من الرجال ذوى الوقار والاحترام فى القرية، استطاع أن يوصل محمد داود عبر الجبال الصعبة الوعرة إلى أحمد شاه مسعود، وكان له ارتباط قبل ذلك بمسعود حيث كان يعتمد عليه، وكان ابنه من المجاهدين تحت إمرة مسعود.

اختـــيار مكان المباحثات ثم التفت إلي، وقال: صديقك داود يجب أن يحمل الرســـالة الثانـــية الآن، وهـــنا ذَكَّرْتُ أناتولى بوعده لى وقلت له: طبقًا لما وعدتـــنى انتهت مهمتى، فهذا أنت وهذا هو داود بقية مشروع السلام يجب أن تـــتحمله أنت، ومع أن أناتولى كان غير راضٍ أن ابتعد عن هذا الأمر ولكنه احترم الوعد ورضى أن أتنحى وأتخذ جانبًا.

جذبى مرة أخرى إلى الأحداث:

لـــم تكـــد تمضـــى عدة أيام حتى حضر الجنرال أناتولى إلى منزلى، وبرؤيـــته امـــتزج فى نفسى الاضطراب مع السرور، وجلس وبعد السلام والتحية قال مباشرة: لدى خبر سعيد بالنسبة لك لقد طلبك أحمد شاه مسعود لتذهب إليه فيجب أن تستعد للذهاب ومع سماعى لهذا الكلام سرت حالة من الضعف والوهن إلى أعضاء بدنى: لماذا طلبنى؟ وأى أمر له معى؟ ولاحظ أنـــاتولى حزنى فلم يدعنى أنتظر أكثر وقال: حتمًا سوف تسأل لماذا؟ أنا لا أعـــرف بالضبط، ولكنى أظن أنه يريد قبل ملاقاتى أن يفهم كل شيء عنى وعن برنامجى، كذلك بخصوص مكان اللقاء لم نصل أيضًا إلى اتفاق فآمل ألا ترد طلبه وطلبى. ومع وجود هذا الاضطراب وقلة الرغبة قبلت الدخول مـــرة أخرى فى هذه الأحداث على أثر إصرار أناتولى فى وجوب الذهاب إلـــى أحمـــد شـــاه مسعود، وأعددت نفسى للسفر وفى الغد أو يومًا بعده لا أتذكر جيدًا ذهبت إلى پنجشير فى طائرة هليوكوبتر، وكان داود وگلداد فى انـــتظارنا هـــناك وفى منطقة الرخة - يعنى فى مكان لا ينفصل كثيرًا عن الخـــط الأول للمجاهدين - انضممت إلى داود وگلداد، ومرة أخرى بحثت تفاصـــيل الجزئـــيات معهمـــا، وبعد تناول طعام العشاء تحركنا فى منطقة تفصل بين الجبهتين والطريق إلى هناك نصف ساعة أو أكثر أو أقل سيرًا

علـى الأقـدام، وفى ظلمة الليل البهيم أعطينا من الجانب المقابل علامات بواسطة مصباح يدوى، ومن طرفنا أُعْطِيتْ علامات أيضًا ثم سلكنا الطريق مرة أخرى ولم نكن نرى شيئًا ولم نكد نسير إلى الأمام حتى رأيت شخصًا يقـترب مـنى فـى ظلمة الليل، تقابلنا سويًا وسلم كلانا على الآخر، وفى الظلمـة التى بها بصيص من النور عرفته كان العم تاج الدين خان[١] أحد أقـرباء أحمـد شـاه مسعود وكان من بلدتنا وكنت أعرفه من قبل، وبعد المصـافحة الـتى تمت من جانبه بوجه بشوش سلكنا الطريق وكانت نقطة التقائنا هى منطقة پاراخ، وكان يفصلنا عن مكان اللقاء أكثر من خمسة كيلو مـترات؛ لأن قرية بلندى فى بازارك هى المكان الذى اختير لإتمام اللقاء. وذهبنا هذه المسافة مترجلين وأثناء سيرنا فى الطريق فطنا إلى أن مجموعة مـن المجاهديـن تحرسـنا من الأمام ومن الخلف وعلى طول الطريق لم أتحدث كثيرًا مع العم تاج الدين فقد كان الصمت يسيطر علينا أغلب الوقت. وفـى الطـريق كنت قلقًا وحزينًا وأقول الحقيقة: فقد كنت خائفًا قليلاً فأنا ذاهـب فى النهاية إلى صفوف العدو، فأنا إذا لم أعرفهم بأنهم أعداء فإنهم

---

(١) تـاج الديـن المشهور بالعم تاج الدين ابن الملا محمد دين ولد عام ١٩٤٠م فى قرية بازارك فى پنجشير، كان والده مدرس العلوم الدينية فى بلدته وتعلم العلوم الدينية لدى والده، كان يعمل أعمالاً حرة وقت الشباب، وأحيانًا كان يعمل فى دكان والده الصغير، وحيـنما جاء مسعود إلى پنجشير عام ١٩٧٩م وبدأ الجهاد كان بجانبه ثم صار أقرب المساعدين إلى أحمد شاه مسعود، وهذا بسبب خصاله النبيلة مثل: الحفاظ على السر، الذكـاء، الصبر، التحمل، ولم يمض طويلاً حتى عرف بين المجاهدين باسم العم تاج الديـن وهذا بسبب اهتمامه وعطفه على كل المجاهدين الذين كانوا يعملون تحت إمرة مسـعود، ثـم تـزوج مسـعود بعد ذلك من ابنة تاج الدين فازدادت أواصر الأخوة والصداقة بينهما إحكامًا وترابطًا. كان مسعود يقول عنه: ليس لى صديق أقرب وأعز منه.

يعـــتقدون بقدر كاف أننى عدو، وفى فضاء مملوء بالدم والبارود والعداوة والحقـــد هـــا أنا ذا أذهب إليهم بأقدامى فمن هو الذى لا يستطيع أن يكون مهمومًا أو حزينًا؟ .

وفـــى الـــنهاية وصلنا إلى منزل محمد غوث(١) (بعد ذلك صار سائقًا لأحمـــد شـــاه مسعود) كان المنزل والقرية معروفين لى معرفة كاملة لأنها كانـــت تتصل بقريتى وكان القرار أن نلتقى فى الليل مع أحمد شاه مسعود، ثـــم نعود قبل ضياء الصباح ولكن مسعودًا لم يحضر فى تلك الليلة وكذلك فـــى غد ذلك اليوم، وقال العم تاج الدين: سوف يأتى فى الليلة التالية وذلك لكـــثرة مشـــاغله، وبعد أن انقضى النهار فى قلق وانتظار وصل أحمد شاه مســـعود وكـــان الليل فى أوله وحينما دخل إلى الغرفة كانت قيافته وشكله يخـــتلفان تمامًا عن تصورى، ومن العجيب أننى لم أجد فرصة حتى أسأل داود وگلداد شيئًا عن أخلاقه أو قيافته.

فـــى تصورى أنه كان طويل القد كث اللحية ذا بشرة أحرقتها الشمس كنـــت أتصوره شخصية صارمة خشنة .. ولكن فى الواقع رأيت شيئًا آخر كـــان متوســـط القد غير كثيف اللحية، كبير الرأس أكثر من العادى، كانت جبهته عريضة بارزة عن عينيه، وكان وجهه نحيفًا أبيض البشرة.

كـــان يقـــابل بمودة وترحاب ففى أول لقاء له معى اطمأننت اطمئنانًا كـــاملاً وكانت أول كلماته اعتذارًا مؤدبًا لأننا انتظرنا فترة طويلة، ثم سألنا

---

(١) محمد غوث قائد مجموعة الضرب فى معسكر پارنده فى أعوام ١٩٨٠م حتى ١٩٨٤م وهو مـــن المجاهدين ذوى السبق، ويوجد منزله فى قرية بلندى بازارك فى پنجشير، وعمل سائقًا لأحمـــد شاه مسعود منذ عام ١٩٩٢م وظل يؤدى لأحمد شاه مسعود مهام هذه الوظيفة حتى استشـــهاده عـــام ٢٠٠١م، ثم صار سائقًا للدكتور عبد الله عبد الله وزير خارجية أفغانستان الحالى حتى كتابة هذا الكتاب.

عــن كيفــية سيرنا على الأقدام وهل تعبنا أم لا؟ قلنا: لا، إذ لم يكن الأمر مشكلاً لهذا الحد.

وبعــد تــناول الغذاء بدأ فى الكلام وفى البداية سأل عن سبب اقتراح الســوفييت لإجــراء مباحثات وكذلك بخصوص هيئة السوفييت: تكوينهم؟ وتعدادهم؟ ومن هى الجهة التى أرسلتهم؟

وســألنى كذلك عن معرفتى بهيئة المباحثات وتوقعاتى الشخصية لما ينــتوون وغــير ذلــك مــن المســائل التى ترتبط بهذا الأمر فأجبت قدر اســتطاعتى، وفــى الــنهاية قال: إننى لست موافقًا على اقتراحهم أن تتم المباحــثات فى المكان الذى ذكروه وهو أن تكون فى مكان تحت سيطرتهم أو فــى مكان وسط بين الجبهتين؛ لأن اقتراح المباحثات لم يكن من طرفنا فقل لهم أن يأتوا مطمئنين فى المكان الذى سوف نعينه ولن يصبهم خطر أو مكروه فإن كلامنا هو أفعالنا.

وبعــد انــتهاء الكــلام ودعناه بحرارة فرجعت إلى الرخة حيث كان ينــتظرنا أنــاتولى ورفاقــه، فأعدت عليهم بالتفصيل حديثى مع أحمد شاه مسعود. فاطمأن أناتولى لوعد أحمد شاه مسعود، وكان يقول: يجب الذهاب فــى المكان الذى يعينه ولا يجب أن نظهر عدم الثقة فى أول خطوة. وكان يقــول: إن عملية الصلح والسلام يجب أن تبدأ بالثقة، ولكن سائر أعضاء الهيــئة اتخذوا جانب الاحتياط والحذر وكانوا يقولون: يجب أن يكون مكان اللقــاء فى مكان وسط بين الجبهتين وكان موضوع الاختلاف فى وجهات النظر سببًا فى سفرى مرة أخرى إلى أحمد شاه مسعود، ولكن مسعودًا أكد مرة أخرى على موقفه السابق، وأضاف فى حالة عدم قبولهم لهذه الشروط لسنا فى حاجة إلى المباحثات.

ورجعـت إلى الرخة وأخبرت هيئة المباحثات بالموضوع، وأضفت: إن أحمـد شـاه مسعود ليس لديه اقتراح ثان لمكان المباحثات، فقبلت هيئة المباحـثات بعـد بحـث مستفيض وقرروا أن يذهب الجنرال أناتولى وأنا وداوود ومـترجم يدعى أمير محمد السمرقندى (١) للقاء أحمد شاه مسعود، وفى الليلة التالية كنا فى مكان المباحثات وجرت أمور اللقاء والتقارب مثلما حـدث فـى المرات السابقة، وأيضًا كان التواصل بيننا بالإشارة بالمصباح والكشـافات ثم اقتراب شخصين هما العم تاج الدين والحاج عزم الدين (٢) والمشى بالأقدام وإلى آخر ما كان يحدث دائمًا.

وكـان مكان اللقاء هو نفس مكان اللقاء السابق منزل محمد غوث فى قرية بلندى بازرك پنجشير، وبعد ساعتين من الانتظار وتناول الطعام وفى المكـان المذكـور حضـر أحمد شاه مسعود وكان كعادته مرحبًا ومبتسمًا صافحنا وسأل عن أحوالنا، وبعد ذلك بدأ الجنرال أناتولى الكلام.

يجـب أن أذكر أن هذا اللقاء حضره أربعة أفراد: أحمد شاه مسعود، الجنرال أناتولى، المترجم أمير محمد السمرقندى وأنا يعنى "ميرداد".

---

(١) هو محمد السمرقندى الذى أشرت إليه فى مقدمة الكتاب. وكان مترجم الدورة الأولى للمباحـثات وكمـا أعلـم فهى لم تطبع، كان يعمل فى وزارة الداخلية فى أزبكستان، وأنـاتولى لا يعـرف اسمه الأصلى، وقال: إننا نسميه ماكس، وكاتب هذه السطور لم يوفق فى العثور عليه.

(٢) الحـاج عزم الدين ابن الملا نقل الدين ولد عام ١٩٥٣م فى قرية پارنده فى پنجشير، أتم تعليمه الابتدائى والثانوى فى مدارس خاصة، ثم ذهب إلى إيران قبل عام ونصف مـن الثورة الإسلامية واتهم بمعاونة الثوار ضد الشاه وسجن بهذه التهمة حتى قامت الثورة وأفرج عنه، وعمل فى البداية فى مجال المعلومات والاستخبارات لدى مسعود وكان يضطلع بأكثر الأعمال سرية، أخذ فى حياته الكثير من المكافآت والرتب آخرها أنه وصل إلى رتبة تورن جنرال عام ٢٠٠٢م.

التطوع لأفغانستان على لسان أناتولى

فـــى عام ١٩٨١م تطوعت للذهاب إلى أفغانستان والسبب فى ذلك أن هذا التطوع يرتبط بوظيفتى، كانت رغبة صحفى ورغبة ضابط استخبارات من أجل الفهم والمعرفة.

فـــى ذلك الوقت كانت مصادر الاتحاد السوفييتى تشير إلى أن الحياة فـــى أفغانســتان هادئة والأمن مستتب، وجنود الاتحاد السوفييتى مشغولون بالمــناورات العســكرية، وفى المقابل كانت المصادر الأخرى تتحدث عن الحرب المستعرة للمجاهدين فى أفغانستان ولكن شعبنا فى الاتحاد السوفييتى لــم يكن لديه أى أخبار عن هذا، ولم يكن تطوعى من أجل الحرب فأنا لم أمسك أسلحة بيدى أبدًا ولم أشارك فى حرب حتى إننى لم أسمح للمترجمين معـــى بحمل أية أسلحة، إننى – وتحت اسم صحفي وضابط استخبارات – كنت أريد أن أعلم ماذا يجرى هناك.

وحيـــنما ذهبـــت إلى أفغانستان مدة ثلاثة أشهر رأيت بعينى ماذا كان يجرى هناك، ولن أنسى أبدًا أجساد المدنين الذين قتلوا فى مدينة قنذر على أثر القصف لطائراتنا.

وإننى أعتبر أن من حسن حظى أنهم أرسلونى إلى بنجشير، وفيما عدا ذلــك على سبيل المثال لو بقيت فى قنذر أو فى أى مكان آخر من الجائز أننى كنت سأنشغل بعمل آخر.

وحينما ذهبت إلى بنجشير فى شهر مايو ١٩٨٢م لم يكن فى أعنابه[١] مـــنزلاً سليمًا، فقد خلت من الناس ولم أر حتى الكلاب، وكان العسكريون التابعون لنا يقولون: لقد حررنا بنجشير وسوف يبدأ الناس بعد ذلك حياتهم

---

(١) أول قرية كبيرة فى بنجشير حينما تدخل إليها.

الهادئة، ولكننى فى الوقت الذى رأيت فيه پنجشير كان الوضع وضعًا آخر، لقد أخلوا پنجشير من الناس وليس من المجاهدين، وكانت سيادة الناس فقط فى داخل القواعد العسكرية.

لقد تم تقدم قواتنا حتى بازارك ثلاثين كيلو مترًا فى الوادى فى ثلاثة أيام ولكن العودة كانت فى خمسة وعشرين يومًا وهذا مع اجتياز قاعدتين فقط فى الرخة (مركز المديرية) وأعنابه، ولم أكن أعرف مع اجتياز هاتين القاعدتين أى الأهداف التى كانوا يريدون أن يحققوها فقد كنت أنهى أعمال وظيفتى.

هذه هى الظروف التى بدأت بها العمل، وفى البداية قلت لا يوجد شخص فى المنطقة ولكن شيئًا فشيئًا رجع الناس من المدينة والجبال.

فى هذه الأيام حينما تعرفت على ميرداد تصادقنا وكنا نجلس سويًا كثيرًا ونشرب الشاى، ونتجاذب أطراف الحديث حول أفغانستان، وكان الحديث عن أفغانستان جذابًا بالنسبة لى، فقد كان لدى الكثير من الأسئلة التى كنت أريد أن أعرف الإجابة عنها: رجوع الناس إلى أعنابه جعلنى أفكر ما الذى يجب أن يعمل مع هؤلاء الناس، لقد أردت أن أشير إلى نموذج پنجشير وأنه توجد الإمكانيات للهدوء والتقارب والمباحثات مع الأطراف المتقابلة من أجل تأمين حياة السلام ولكن لماذا پنجشير؟ ذلك لأن پنجشير تعتبر أكثر منطقة ساخنة فى أفغانستان.

أثناء وقت استراحتى فى موسكو طرحت أفكارى مع رئيسى إيواشوتين وطبعًا قبل الوصول إلى قناعته ومن أجل قناعة نفسى التقيت مع عدد من أهالى پنجشير فى كابل بصورة عامة غير معينة ووضعت أفكارى للمشورة.

وأخيرًا، وفقت فى أخذ إذن من رئيسى لتطبيق ما طرحت، وطبعًا لم أكن أعرف مع من أطرح الموضوع أو ما الذى كان يطفو على السطح، ولكنى فهمت بعد ذلك أن أجاركف القائد الأعلى للجيش وأستينف وزير الدفاع كانا مطلعين وعارفين بالموضوع ويتابعان الأحداث بشوق، أما ماذا كانوا يعلمون وما الذى كان يجرى على السطح السياسى غير المعلوم فلا أعرف شيئًا، ويجب أن أشير إلى نقطة هامة وهى أن عام ١٩٨٢م شغلت كلها فى الاستعداد لهذا البرنامج.

ومن أجل الشروع فى العمل أرسلت رفاقى فى البداية إلى ميرداد ليكونوا على صلة به، وبعد ذلك سلكت أنا الطريق إلى كابل، وفى العاشر من نوفمبر ١٩٨٢م كنت مشغولاً بالأمر وبعد المشورة مع ميرداد اخترنا داود لإنجاز هذا العمل فكتبت رسالة لمسعود وقعتها أنا، وكانت الرسالة مختصرة: "اللقاء من أجل تبادل وجهات النظر حول الأمور المهمة " وأعطيت الرسالة لداود وأرسلناه إلى الجهة المقصودة، وطبعًا فعلنا الإجراءات اللازمة من أجل تأمين الأمن لداود فى الحدود المرتبطة بنا مثل وقف قصف القوات على پنجشير فى وقت ذهاب وإياب داود وكذلك سرية الأمر وغير ذلك.

ولكن القضية ليست بهذه البساطة فطبقًا للدستور لم يكن أحد يعلم قط شيئًا عما يجرى من قواتنا بما فى ذلك الفرقة الأربعين و KGB وأركان الدولة الأفغانية، وأصغر خطأ كان من الممكن أن يجعل الجهد والتعب يضيع أدراج الرياح، يجب أن أقول بحزن وأسف أن هناك أشخاصًا كانوا مخالفين للصلح ولا قيمة فى أذكرهم اليوم.

وأخيرًا عاد داود بعد عشرة أيام، وحقيقة كنت مضطربًا حتى عودته،

ومســعود فى رسالته - التى لا أعلم إن كانت بخطه أو كتبها شخص آخر بإذنـــه - أجاب بالموافقة على اقتراحى ودعانا للقائه فى پنجشير، المهم أنه ضمن الأمان من ناحيتنا.

وقــبل ذهــابى إلى لقاء مسعود ذهب إليه ميرداد وداوود ليعين مكان اللقــاء. وكانت نظريتنا أن يكون مكان اللقاء بالقرب من قاعدتنا فى الرخة أو فــى مــنطقة لا يعــرفها إنسان، ولقد رفض مسعود الاقتراح أن تكون المباحثات فى قاعدة تبعد عن قواعد المجاهدين ولو بعدة أمتار، فصممنا أن نذهب إلى المكان الذى يعينه مسعود والذى لا نعلم أين هو، وكان القرار أن نلــتقى بممثلى مسعود فى الليل فى منطقة غير مأهولة ثم نذهب إلى المكان المعين للقاء.

اللقاء مع مسعود:

إنـــنى أذكـــر تلـــك الليلة جيدًا ٣١ ديسمبر ١٩٨٢م ليلة العام الجديد ١٩٨٣م أُعْطِيــتْ الأوامــر لقواتنا بألا تقوم بعمليات قصف، وذلك ما كان معمولا به على الجبهات فى مثل هذه الأيام.

تحركنا مع مدرعة BTr إلى ناحية المكان المعين كان معنا مخابرات محدودة تلازمنا فى كل خطوة، وذلك للعبور من بين القوات الأفغانية التى تــرابض على مشارف قواتنا فى الرخة، واجتزنا المكان بحيطة بالغة وفى الداخل وبواسطة أربعة أفراد - هم أنا وميرداد والمترجم والسائق - وصلنا إلـــى مكـــان اللقاء الأول، حتمًا تريدون أن تعرفوا كيف كانت إحساساتى؟ وهــذه الأمور سألنى عنها أيضًا بعد ذلك سوكولف وزير الدفاع وأجاركف قائد عام القوات المسلحة: هل كان الأمر مخيفًا؟ فقلت: أبدًا مطلقًا فقط كان لدى حزن عميق سببه الخوف أن يصرف مسعود النظر عن لقائنا فى آخر

لحظـــة ويرسل شخصًا آخر، والجدير بالذكر أننى حتى هذه اللحظة لم أكن قد رأيت مسعودًا أو صورة له.

فماذا لو أجلسوا شخصًا آخر مكانه؟ فقط هذه الحيرة وهذا الحزن كان يتملكنى. وصلنا إلى مكان التعارف وفى ظلمة الليل عرفونا بممثل مسعود، وبعــد أن سألنا العم تاج الدين عن الأحوال تحركنا فورًا سيرًا على الاقدام إلـــى مكان اللقاء وأظن أن السير على الأقدام طال لعدة ساعات، كان تاج الديـــن يراقبنى وفهمت أن لديه إذن لمراقبتى كان يرينى الطريق فى ظلمة اللـــيل ثم يتوقف فى كل فرصة لنستريح قليلاً وكانت هناك مجموعة للأمن معنا.

انصـــرم جـــزء من منتصف الليل حيث وصلنا إلى مكان اللقاء، وفى وسط خرائب الحرب لا أعلم كيف بقى منزل سالم وغير مهدم، وفى داخل المـــنزل كـــان شـــيئًا عجيـــبًا بالنسبة لى، كان المنزل نظيفًا جميل الفرش والأوعـــية والألحفة والوسائد فجلسنا وشربنا الشاى وأخبرنا تاج الدين عن تأخير اللقاء وقال: إن مسعودًا يقول: إذا وافق الضيوف فسيكون اللقاء غدًا التاسعة والنصف لأن الوقت الباقى قليل.

وطـــبقًا للبرنامج الذى كنا نريده فقد كنا نود أن نختتم اللقاء فى الليل وفـــى ضـــياء الصباح نكون فى مقرنا، ولكن هذا التغيير فى البرنامج يبدو معقولاً لأن الوقت الباقى قليل حتى يتنفس الصباح.

لهـــذا وافقـــت، وحقـــيقة أقول أننى ذهبت فى راحة إلى النوم، وفى الصباح قبل مجيئه كنت أفكر كيف سأحييه وأسلم عليه وأسأله عن أحواله؟ هـــل مـــثل شخصـــين من جانبين متعارضين ومختلفين؟ وهل بشكل جاف ورسمى؟ أم أحييه وأسلم عليه بطريقة الأفغان؟ اخترت الطريقة الأخيرة.

فى الساعة التاسعة والنصف تمامًا دخل مسعود، وعلى خلاف ما كنت أتوقـع كـان شابًا جميلاً متوسط الطول كان له وجه مشرق مضيء وكان مهذبًا، فتبادلنا السلام والتحية بالطريقة الأفغانية وجلسنا.

وكـان أول سؤال له ليس بخصوص الهدف من سفرى بل إنه سألنى عـن أحوالى بعد رحلة طويلة فى الطيران؟ وهل أنا متعب أم لا؟ مثل هذا الكلام ساعد الجو على الشروع فى المحادثات، وقد تعلمت هذا من مسعود. وبعـد ذلك سأل عن الهدف من سفرى فقلت: إننا نقترح عمل هدنة لوقف إطلاق النار.

بهذا الترتيب بدأت المباحثات ثم انتهت بوقف إطلاق النار ستة أشهر، وتمت *الموافقة على وقف إطلاق النار* بصورة شفهية *ولم نتبادل أى* وثائق بيننا، والتزمت قوات مسعود بوقف إطلاق النار طوال فترة المعاهدة ولكنها نقضـت عـدة مرات من جانب قواتنا، من جملة ذلك أننى كنت مرة عند مسـعود وكانت طائراتنا قد قصفت أماكن فى پنجشير، وكان هذا سببًا قويًا لعصـبية مسعود وقال لى: إذا لم تصدق تستطيع أن تذهب وترى ذلك عن قرب طبعًا صدقت أن مسعودًا يقول الحق والصدق، إن المسئولين فى قواتنا يقولـون: إن القصف تم سهوًا أما بعد ذلك فسوف تتم أعمال الضبط أكثر على الفرقة الأربعين.

التقيـت مـع مسـعود خمس أو ست مرات حتى تمت الموافقة على جزئيات وقف إطلاق النار، وهل تعلم أنه كانت تطرح بيننا نحن السوفييت اقتراحات ووجهات نظر عجيبة، وكان ذلك ناشئًا عن عدم معرفتنا بمسعود وجهلـنا بالأوضاع. مثال ذلك كانوا يقولون : يجب أن يقترح على مسعود أن يقبل منصبًا فى دولة كارمل، فقلت مجيبًا على ذلك: إننى أعلم أن مجرد

طــرح ذلــك خطــأ وليس صوابًا ومثل ذلك أيضا أن نطلب منه أن يلقى الأفغــان بأســلحتهم، وكنت أقول فى الرد عليهم: كيف تطلبون من عدوٍ لم يغلــب أن يلقــى بأسلحته ؟ بل إنهم كانوا يسألون: هل الأفغان لا يدركون الموضوع السهل البسيط فى أننا جئنا لتأمين حكم الشعب هنا ؟

أتذكــر ذات مرة أن باول كراف (صار بعد ذلك وزير الدفاع) (١) فى اجــتماع للناس فى أعنابه خاطبهم وقال: إننا سوف نسلمكم الأرض، وكنت أحــس مــن جانب الناس أنهم كانوا يتساءلون ماذا : أرضنا يعطوها لنا؟! وأسئلة كثيرة من هذا القبيل كنت أنا الذى أجيب عليها.

وجــاءت المــرحلة الأخيرة فى وقف إطلاق النار، وبدأت قواتنا فى الــتقهقر مــن الرخة، وبقيت قوات رمزية من قواتنا فى أعنابه كما تم فى الاتفــاق وكذلــك سائر المناطق التى كان يشملها وقف إطلاق النار كما تم ترســيمه فى الخريطة. وفى وقت الخروج والانسحاب اقترحنا على مسعود أن نترك طوع يمينه المتخصصين لتطهير الألغام فنحن نستطيع ذلك ولكنه أجاب : أشكركم، إننا نعرف أكثر منكم أين هى الألغام.

أنــا لــم أعرف كم من الوقت مضى بعد وقف إطلاق النار فوظيفتى انتهــت فـــى أفغانســتان، ولم يسر مسعود بهذا الخبر وكان يريد أن أبقى، وكنــت أنا نفسى أريد البقاء واقترحت هذا على رئيسى ولكنه لم يقبل هذا فمــاذا كنــت أستطيع أن أفعل، ويقولون هنا فى روسيا : الأمور من أعلى تكون معروفة أكثر.

---

(١) حيــنما كــان أنــاتولى يكتب هذه المذكرات كان باول كراف عقيدًا وكان معاون غند وأعــنابه، وفــى أعــوام ١٩٩٢-١٩٩٦م صــار وزيرًا للدفاع، والآن صار سفيرًا للأرجنتين.

واســتقر وقــف إطــلاق الــنار وصار فكرى عمليًا وتحققت أمنيتى ورجعــت إلــى موسكو ولكن سؤال العسكريين لدينا صار دون إجابة ماذا بعد؟

ومضــى ما هو بعد ذلك وأجاب الزمان فإن العمليات المشهورة عام ١٩٨٤م أوقعت خسائر ولم تثمر نتيجة.

الجديــر بالذكــر أن هــذه العمليات تركت تأثيراتها على ساحتى فى موســكو، فإن أفراد مخابرات KGB بدعوا فى التحقيق معى ولكن هذا لم يتم فى إدارة KGB ولكن فى مكتبى وليس باسم تحقيق ولكن تحت مسمى محادثة.

أمــا أصــدقائى ورفاقى فقد كان ينتظرهم مصير أسوأ من مصيرى فالمــترجم أمــير محمد السمرقندى استجوبوه أيضًا، فتشوا منزله للحصول علــى ســيف مرصــع بالجواهــر قيل إنه أخذه هدية من مسعود، ورموا ميرداد [1] فى السجن حيث أمضى هناك سبعة أعوام.

---

(١) لم يكن ميرداد وحده بل إن رفاقه داود وگلداد أيضًا حكم عليهم بالحبس مددًا طويلة من قــبل أجهزة الدولة، فقد حكم على گلداد خان بالحبس ثمانية عشر عامًا أمضى منها ستة أعوام فى سجن پلچرخى المخيف، وحكم على داود بالحبس عشرين عامًا أمضى منها ستة أعوام فى سجن پلچرخى أيضًا.

أسباب الهدنة ووقف إطلاق النار

على لسان أحمد شاه مسعود:

لكى نفهم أسباب وقف إطلاق النار يجب أن نعود إلى الوراء :

هـاجم الاتحاد السوفيتى پنجشير عام ١٣٦١هـ ش ١٩٨٢م هجومين واسعين، ولم يكن هناك وقت طويل يفصل بين الهجومين، ومن المستطاع أن يقـال أن الهجوم الثانى تم مع أن الحملة الأولى لم تحقق المرجو منها. كـان لديـنا الخبر عن هجوم العدو وبناءً على التجربة بالهجوم والحملات السـابقة، فإننى جعلت الجزء الأكبر من قواتنا فى الأقسام السفلى للوادى، وكنت أريد أن تظل الحرب فى هذا الجزء المحدود وألا تسحب الحرب إلى الأجـزاء العلـيا فى الوادى، وقطعنا الطريق الضيق الذى استقروا فيه فى مدخـل الـوادى، وأردنـا أن نواجه العدو بقوات المشاة، ولكن العدو على خـلاف مـا توقعنا أنزلت قواته بعض الضربات الجوية فى الأجزاء العليا للوادى فى (الرخة وآستانة) [1] على الرغم أن مصادرنا أطلعتنا قبل يومين مـن الهجوم على كيفية تكتيك عدونا، ولكن الرسول يزعم أنه أخبرنا عن الهجوم الذى كان قبل ذلك لم يهتم بوصول الرسالة الثانية، وبناءً على ذلك فقد فوجئنا إلى حد ما.

وعلى الرغم من وجود الاستعداد الكامل فى أسفل الوادى فقد ووجهت قوات المظلات للعدو فى الرخة وآستانة بمقاومة شديدة وقتل العشرات منهم فى الرخة.

وسـقطت لهم ثلاث طائرات هليوكوبتر، وأخذ أكثر من أربعين نوعًا

---

(١) أماكن فى الكيلو ٢٥ ، ٣٥ فى الوادى.

من الأسلحة الخفيفة المختلفة النوع بشكل غنائم، ومن جملة الغنائم قاعدتان للصواريخ أرض جو، وكان من المعلوم أنها كانت جزءًا من تشكيل القطع المهاجمة، وأصبح الأمر لا يشكل احتياجا لأننا فى ذلك الوقت لم نكن نملك طيارة .

وكانت هناك أربعة أشياء جديدة بالنسبة لنا:

١- الاستفادة الواسعة من الطائرات الهليوكوبتر .

٢- إنزال قوات المظلات جوًّا.

٣- الضربات الشديدة عن طريق الجو.

٤- تطويل مدة الحرب.

إن الحمــلات السابقة لم تطل أكثر من شهر أبدًا، ولكن فى هذا العام طالت الحرب فأخذت الربيع والصيف.

وفـــى أواســـط الصـــيف اختارت قوات العدو حالة الدفاع واصطف عســاكر الأفغــان فـــى ثلاثـــة مناطق أعلى الوادى (برچمن – بهارك – وبـــازارك) [١] واتخـــذوا الرخة وأعنابه مركزًا لهم، وكان جند الأفغان فى الحكومة الشيوعية تحت قيادة شهنواز الذى صار بعد ذلك وزيرا للدفاع.

ولأن العـــدو اتخـــذ حالة الدفاع فقد بدأنا نحن عمليات الهجوم وكانت قوات عساكر الأفغان الشيوعيين فى برچمن هى أول الأهداف.

وقد تعرضت هذه القوات لخسائر جسيمة حتى أننا نستطيع أن نقول: إن تسعين فى المائة منها مُنى بخسائر فادحة. أسر المئات وألقى عدد كبير

---

(١) بـــازارك – بهارك – وبرچمن: أماكن من أعلى إلى أسفل الوادى بالترتيب فى الكيلو ٣٠، ٣٥، ٤٥.

منهم بنفسه فى مياه نهر پنجشير طلبًا للنجاة ولكنهم غرقوا جميعًا فى النهر، ففى المرة الأولى وقع فى أيدينا عدد من الأسلحة الثقيلة والمدرعات، وقد أثرت عمليات برچمن على معنويات قوات العدو وخاصة عساكر الأفغان الشيوعيين تأثيرًا شديدًا، والجدير بالذكر أن السوفييت لم يساعدوهم أو أنهم لم يستطيعوا.

والآن وصلت نوبة القاعدتين الداخليتين فى بهارك وبازارك وما أصابهما، فقد أدرك العدو إلى أى حد أثمرت المقاومة فحتى وقت الهجوم على هاتين القاعدتين قطعت خطوط الإمدادات الجوية أما الخط الأرضى فقد كان هدفا للعمليات المتعاقبة.

وعلى طول مسيرة طريق پنجشير بين الرخة وما أبعد منها كانت هناك عمليات مستمرة على خطوط الإمدادات والمواضع والقواعد السوفيتية، ولم يكن هناك بد من أن يتراجع عساكر الأفغان الشيوعيون فى قاعدتى بهارك وبازارك ونظرًا لأنهم منوا بخسائر فادحة فقد أخلوا بهارك وبازارك ثم تقهقروا إلى الرخة وأعنانه، وعلى هذا النحو فإن ثلث الوادى تحرر بعد حرب دامت ستة أشهر، وصارت الفرصة فى أيدينا أن نضغط على مركزى السوڤييت.

وفى مثل هذه الأوضاع وصلنا إخطار من ببرك لا يزال موجودًا عندى وذكر أن الضرب سيكون بأقصى سرعة ممكنة إذا لم نسلم فى الوقت الفلانى ونضع أسلحتنا على الأرض وسوف يحدث لنا كذا وكذا، وكان واضحًا من لهجة الخطاب أن ببرك لا يزال يثق فى قوة جيش السوفيت وكان مطمئنًا لجانبهم فى أن يجبروا له هزيمة عساكر الأفغان الشيوعيين لأنه فى غير ذلك فإن عساكر الأفغان لم تبق لديهم أى روح معنوية لإنجاز

أى عمل مهم.

وكان من الضرورى أن نرد جوابًا على رسالة ببرك فصرنا نفكر فى الاستعداد للدفاع مقابل الهجوم الذى سوف يشنه علينا وهو الهجوم الذى تحدث عنه ببرك، وتم الهجوم بواسطة قوات السوفييت ولم يختلف هذه المرة عن عملياتهم الأولى، غير أن خسائر الناس كانت أكثر وإحراق المنازل تم على مساحة أكبر، ونظموا أكبر عملياتهم من الضربات الجوية الشديدة، وكذلك حملة مدرعات عن طريق البر.

وكانت الهزيمة الأولى للهجوم الكاسح الذى قام به السوفيت فى الأجزاء العليا للوادى وتقهقرهم حول منطقتى الرخة وأعنابه هو الذى ضاعف لدينا الرغبة فى تصفيتهم من پنجشير؛ لأن تواجدهم فى الوادى مضر بالنسبة لنا لأننا سوف نجابههم بعد ذلك أما الآن فنحن سوف نرى من أين نبدأ العمل.

كانت القواعد العسكرية للسوفييت فى الرخة تشكل القوات الداخلية فى الحكومة الأفغانية الشيوعية الجزء الأكبر منها، أما فى أعنابه فإن أكثر الجنود فيها من الروس.

قاعدة الرخة موجودة فى أراضى مملوكة للناس؛ وهى أراضى محصورة من الشمال والجنوب بجبال عالية، ومن أجل الدفاع عنها وتأمينها تحتاج إلى اثنين أو ثلاثة أماكن تابعة للنطاق الأمنى فى الشمال والجنوب ومن أجل درأ الحملات القريبة فى أطراف الرخة توجد أماكن مغطاة ومزارع للألغام وقد اخترنا ثلاثة أهداف للهجوم هى: الهجوم على المواضع والاستيلاء عليها مؤقتًا أو بصورة دائمة، الهجوم على خطوط الإمدادات الأرضية والجوية ويكون الهجوم بالأسلحة الخفيفة وفى ذلك

الوقـــت كـــان لديـــنا أسلحة مثل : مدافع ٨٢ ملى متر، ورشاشات مضادة للطائرات ١٢,٧ ملى متر وغير ذلك.

ولإجـــراء هـــذا التكتيك كلفت اثنين نابهين من القادة فى الرخة وهما القائد گدا والقائد پناه وقام كلاهما بابتكارات جيدة، فالقائد گدا أجبر عساكر العدو بالقصف المستمر من بعيد على تحمل خسائر فادحة وعدم القدرة على الـــتحرك فـــى ساحة القاعدة وكانت حرب استنزاف، حيث إن وابل طلقات الأســـلحة البعيدة المدى سمرهم على الأرض لدرجة أن حركتهم فى داخل الخـــنادق العســـكرية لـــم تكن تخلو من الإصابات. والقائد پناه قام بأعمال خارقـــة فـــى استيلائه على المواضع والهجوم وعلى قوافل الإمدادات، كما كانـــت له عملـــيات فـــى داخل معسكر العدو، وكذلك صوفى غلام محمد والمشهور بصوفى دَهْشكَه [1] هاجم المواضع بسبب وجود مزارع للألغام، وكانت لا تخلو من تلفيات وخسائر بالنسبة لنا.

إننى أظن أن أكثر من مائة شخص من أفرادنا فقدوا أرجلهم على أثر انفجار الألغام، وكثير منهم استشهدوا لأن الأطباء المهرة والأدوية اللازمة

---

(١) صـــوفى غلام محمد المشهور بصوفى دهشكه كان فى هذه الفترة قد أصبح أسطورة بيـــن عســـاكر السوفييت والأفغان، كان يقال: إن ما طرحه مسعود وكان مؤثرا هو السلاح البعيد المدى وكان يتم بواسطة مجاهدين أكثر فدائية وشجاعة، وكان جميعهم يعملون بشجاعة وإخلاص وصدق. إنك يجب أن ترى صوفى دهشكه عن قرب، هذا الرجل الذى له كل هذه الشهرة الأسطورية بين الأعداء تجد أن قامته بها انحناء قليل، ولـــــه أبـــيض الشعروله وتقاطيع حسنة بيضاء، ملابسه قديمة، فقير ضيق ذات اليد ولكـــنه قانع وصبور، لم يمنحوه امتيازا أبدًا، هل تصدق أنه كان يحارب ولكن ليس مـــن أجـــل الامتياز أو التقدير إنه من نسل المجاهدين العظام، كان يحارب من أجل غاية أرقى وأسمى وكان يحيا من أجل هذا المجد وهذا الفخار.

دَهْشَكَهْ هى راجمة الطائرات، وسُمى غلام محمد بصوفى دَهْشَكَهْ أى عاشق دَهْشَكَهْ لتفوقه فى الضرب والتصويب بهذا السلاح. (المترجم).

فى الجبهة كان الإنسان يحصل عليها نادرًا.

كان الطريق الذى يربط بين قاعدتى الرخة فى الأجزاء العليا للوادى وأعـنابه فـى الأجزاء السفلى للوادى يقطع دائمًا بواسطة حملاتنا، وكانت قوافـل الإمـدادات بعـد أسابيع من التفتيش تستطيع أن تصل إلى الرخة وتوصـل شـيئًا حتى إنهم فى بعض الأوقات غيروا اتجاه الطرق الوحيدة ولكـن دون فـائدة تذكر لهم ومع بداية سقوط الثلج وابيضاض الجبال كان الهجوم على المواضع يواجه بمشاكل لأن إمكانية رؤية الألغام وإبطالها كان ينعدم، وكان لدىَّ فكر تكتيكى جديد عن الحملات كانت تسمح به الظروف الجويـة بالنسبة لنا. فقومت مع القائد پناه إمكانية هجوم داخل الصفوف فى قـاعدة الـرخة، والمعلوم أن إمكانية ذلك موجودة وتشكلت هذه الحملة فى وقـت قصـير وكانـت المدافع المضادة للطائرات والبنادق ١٢,٧ ملليمتر ١٤,٥ ملى متر قد جعلت العدو فى القاعدة فى غاية البؤس والشقاء.

وكان القرار أن يجمع القائد پناه أربعين من المتطوعين الفدائيين ويتم الهجـوم مباغتًا ولما أطلع المجاهدون القائد پناه أن تعداد المتطوعين وصل إلى مائة وخمسين شخصا، لذا من أجل الاحتياط فى المباغتة صرفنا النظر عن إجرائها مؤقتًا.

وفى النهاية حانت الفرصة وأذنت أن يعملوا؛ ففى قاعدة الرخة توجد بحيرة صغيرة تمر من وادى كرباشى وهى تفصل قوات السوفييت عن جند الأفغان فى الحكومة الشيوعية. وظل العدو غافلاً عن وضع الألغام فى هذه البحـيرة الصغيرة الذى لا يتعدى الماء فيها قد الساق إلى الركبة، واستفاد القائد پناه فى ظلمة الليل الحالك من مجرى البحيرة ودخل إلى قاعدة الرخة وهناك فتح النار على مواضع العدو وجعل مركز السوق والإدارة الخاص

بهم هدفًا له، وبوغت الشيوعيون وظنوا أن قوات جند الأفغان فى الحكومة الشيوعية هى التى فتحت عليهم النيران ففتحوا النار عليهم، وفى المقابل ردت عليهم قوات جند الأفغان فى الحكومة الشيوعية بوابل من النيران ودام ضرب النار أكثر من ساعة.

وفقدت مجموعتنا التى قامت بتنفيذ هذا شهيدًا واحدًا وخرجت موفقة من الساحة، فى الوقت الذى لم يفهم العدو أن هذا الهجوم تم من طرفنا حتى اللحظة التى سمعوا فيها تكبير المجاهدين.

وقبل يومين من العمليات ولإلقاء الرعب فى مركزهم فى كابل قمنا بعمل لعبة إعلامية أَعْطَيتُ رسالة لواحد من أفراد إعلامنا اسمه غلام سخى ليوصلها علنا لأحد قادتنا اسمه صوفى رسول فى فرزه [١].

وكان غلام سخى قد تسلل من طرفنا للعمل فى جهاز KGB إلى درجة أنه استطاع أن يكون شخصية معتبرة لديهم.

وكنت أحيانًا من أجل تأمين اعتباره عند السوفييت أعطيه إخبارًا صحيحة لا تلحق الضرر بنا، وهذا العمل فى الواقع كان يعلى قدره عند شخص يدعى آزادخان كان يعمل فى جهاز K.G.B السوفييتى فى كابل، وأنا لم أكن أعرف آزادخان ومن الجائز أن يكون هذا هو اسمه المستعار فإن غلام سخى هو الذى كان يقول لى إنه كان يحمل الأخبار إلى آزاد خان.

وقد كتبت إلى صوفى رسول فى الرسالة: إننا سوف نبدأ فصلا من الهجوم الفاصل، وهذا الهجوم وهذه الحملات سوف يتصدى لها مئات الأفراد من الفدائيين. فلقد وصلت مهمات وأسلحة كافية، وستكون قواعد

---

(١) فرزه: منطقة فى شمال كابل، وصوفى رسول هو المسئول عنها.

العـــدو فـــى پنجشير، وسائر النقاط هى أهداف رئيسية لنا. وحينما أعطينا الرسالة لغلام سخى لم تصل إلى أيديهم قبل العمليات.

وقلت له أن يقول لموظف KGB أن يغلق الرسالة بعد القراءة بحيث إنهـــا حيـــنما تصل إلى رسول لا يشكون فيه، ولكنى لم أخبر غلام سخى بمحـــتوى الرسالة قبل ذلك، وحينما وصلت إليه الرسالة كانت العمليات قد تمت.

وبعـــد الفـــراغ من العمليات فى صفوف الرخة بدأنا العمل فى قاعدة أعـــنابه. وفـــى أعـــنابه كانت قوات العدو على خلاف الرخة كان أكثرهم يقيمون فى الخيام، وعمومًا كانت الترتيبات الدفاعية بالنسبة للرخة ضعيفة، وكانت مزارع الألغام أقل وبعد المشورة مع المجاهدين عينا الأهداف وهى مكان ذخيرة المهمات، وكانت فى قلعة مع عدد من الخيام التى كانت معدة لإقامتهم، ومن أجل النفاذ إليهم طلبت فدائيين وسباحين للنهر. ونهر پنجشير فى جنوب قاعدة أعنابه وهو نقطة جيدة من أجل النفاذ وإجراء العمليات.

وبوصـــول اللـــيل عـــبر المجاهدون النهر ودخلوا أعنابه من الناحية الجنوبـــية. ثـــم انقســـموا إلـــى قسمين وذهب أكثرهم ناحية الخيام وذهبت مجموعة إلى ناحية ذخيرة المهمات بالمدافع الثقيلة ٨٢ ملى متر وكانت قد وصـــلت حديـــثًا، ومع ارتفاع الطلقات النارية التى كانت علامة على بداية العملـــيات فتحوا النيران على الأهداف، والجدير بالذكر أنهم أثناء دخولهم إلى القاعدة لم يصطدموا حتى بطاقم الحراسة إذ المعلوم أنهم كانوا يغطون فـــى ســـبات عمـــيق، وهذه العمليات انتهت بالنصر المؤزر وعلى خلاف عملـــيات الرخة لم يستشهد أحد منا (قائد هذه العمليات كان حاجى بهلول)، ومن أجل تنفيذ العلميات الثانية لم ننس اللعب الإعلامية أيضًا أرسلت رسالة

إلـى شـخص عـن طريق غلام سخى وتحدثت فيها عن العمليات الثانية، ووصـفت العمليات الثالثة بأنها غاية فى الخطورة وصلت هذه الرسالة إلى موقع فى يقينى أن المسئولين عن الأمور كانوا فى غاية الحزن.

وأظـن أن خسـائرهم فى أعنابه كانت أكثر من الرخة، وبهذا داومنا الضغط المستمر على العدو وكنا نجتهد كل يوم أن نلحق خسائر بهم.

أوضـاعنا :

مـن ناحية الأسلحة لم يكن من المهم أن نعانى نقصًا منها لأننا بالقدر اللازم كنا نحصل على الغنائم ولكننا فوجئنا بقلة الذخيرة. فمثلاً لم يكن لدينا طلقات للمدفعين اللذين استهدفا الرخة فى ذخيرتنا، والطلقات التى بقيت من السـوفيت وكانـت أكـثرها صدأة كنا نجمعها وبعد أن ننظفها كنا نطلقها عليهم.

ومـن ناحية الملابس فلم تكن بحالة أحسن من المهمات، وأذكر تمامًا أن الأفـراد الذيـن كـانوا يقصفون قاعدة الرخة بالأسلحة كانوا يخلعون أحذيـتهم فى وقت التبديل ويعطونها للذين كانوا سيحلون محلهم، أما وضع الغـذاء فقـد كـان أسوأ من ذلك بكثير ففى أوائل الشتاء كنا نعطى للذين يتحصـنون فـى الخـنادق يومـيًا حفنة من التوت الجاف [1] ومقدارًا من الـبطاطس، يعنى كنا نعطيهم ما ننتجه من محصولات المنطقة أما الزيت والسمن والسكر والقمح فلم يكونوا يسمعون عنها.

الوضـع الاقتصـادى كـان غير قابل للوصف، فلم يكن من الممكن

---

(١) التوت فى أفغانستان شديد الحلاوة، وهم يجففونه ويقدم مع الشاى والحلويات ويستغنى بأكله عن السكر فى الشاى. (المترجم)

المضى قدمًا بالحرب دون اقتراض النقود وتكرر هذا مع البعض.

ونحـــن علـــى هذا الوضع وهذه الحالة وصلت إلى پنجشير هيئة من طـــرف الاتحاد الإسلامى للمجاهدين بزعامة الأستاذ سياف [1] والذى شكل حديـــثًا فـــى بيشاور، والاتحاد الإسلامى للمجاهدين فى أفغانستان هو أول اتحاد عام لفصائل المجاهدين شكل فى أفغانستان.

كانت الهيئة معها مقدارًا من الأموال النقدية لمساعدتنا، وكانت نفقاتنا فى تلك الآونة تبلغ فى اليوم الواحد مائة وخمسين ألف أفغانى [2] يعنى فى العام الواحد أكثر من ٦٠ ستين مليون أفغانى، وأحضرت الهيئة معها مليونًا و ٢٠٠ مائـــتى ألف أفغانى، ولكنهم بعد أن تفقدوا أحوالنا ورأوا أوضاعنا شعروا بالخجل الشديد من ترك هذا المبلغ.

كانـــت هذه هى المساعدة النقدية الوحيدة التي أرسلت لنا مرة واحدة بواسطة الاتحاد الإسلامى الحديث التأسيس على طول هذه الحرب الطويلة،

---

(١) الأســـتاذ عـــبد رب الرسول سياف من مواليد محافظة كابل فى پغمان عام ١٩٤٦م. تخـــرج مـــن كلية الشريعة جامعة كابل عام ١٩٦٧م، وعين معيدًا بالكلية حيث كان الأول بين الخريجين. حضر إلى مصر فى بعثة دراسية فى جامعة الأزهر للحصول علـــى درجـــة الدكـــتوراه فى الحديث وعلومه من كلية أصول الدين، وحصل على الماجســـتير عـــام ١٩٧٢م ورجـــع إلـــى كابل حيث كان عضوًا بارزًا فى الحركة الإســـلامية، وكانت بلاده تمر بظروف صعبة حيث كان الشيوعيون يحيطون بها من كل جانب حتى وقعت أفغانستان فى براثنهم عام ١٩٧٩م. قبض عليه عام ١٩٧٤م، وحكم عليه بالإعدام وتمكن من الهروب من السجن. انتخب رئيسًا للاتحاد الإسلامى لتحرير أفغانستان، وتشكل هذا الاتحاد عام ١٩٨٢م وأسندت إليه كثير من المناصب الرفيعة مثل منصب رئاسة الوزراء فى حكومة المجاهدين. (المترجم)

(٢) مائـــة أفغـــانى تســـاوى جنيهًا مصريًا، وألف أفغانى تساوى عشرة جنيهات مصرية. (المترجم)

فى الوقت الذى كان فيه هذا الاتحاد الجديد غنيًا جدًا من كل ناحية .

وفضلاً عن هذا وأثناء اشتعال الحرب أتى الحزب الإسلامى من جبهة أخــرى للحرب ضدنا، ففى البداية هجم الحزب الإسلامى على مراكزنا فى پــروان وكاپيســا ثم بعد ذلك قطع جميع طرق إمداداتنا، وفى ذلك الوقت كانــت خطوط إمدادات المجاهدين التى تسير من باكستان إلى المحافظات كانت تمر من نفوذ سيطرة الأحزاب المختلفة واستقر الحزب الإسلامى فى مســير طرقــنا. واغتنم الحزب الإسلامى فرصة انشغالنا فى الحرب ضد عســاكر الــروس فضرب فى البداية إمداداتنا، فعلى سبيل المثال وفى هذه الأثــناء كانـــت هناك حرب شديدة تدور رحاها فى پنجيشير فقبض الأستاذ فــريد [1] على قافلة أسلحة ومهمات لنا تتكون من مائة جواد فى كوهستان (وهـــى مـــنطقة بجوار پنجشير)، وكذلك سد الحزب الإسلامى فى وجوهنا طريق نجراب – پنجشير (فى الجنوب)؛ واندراب – پنجشير (فى الشمال) وسد كذلك طريق إمداداتنا من ناحية بدخشان منذ مدة قبل ذلك لتواجد قاعدة من قواعد الدولة فى كران.

وكانـــت الأوضاع الاقتصادية العجاف الصعبة سببًا فى رحيل الناس مـــن الـــوادى شيئًا فشيئًا، وطبعًا خروج الناس من الوادى الذى يرتبط به مجاهدونا أثر على الروح المعنوية للأفراد وعلى الحس الاقتصادى للجبهة تأثـــيرًا ســـلبيًا لأنـــه بخروج الناس كنا مجبورين أن نهيئ العيش لعدد من

---

(١) الأستاذ فريد رئيس كاپيسا من قبل الحزب الإسلامى من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٩٣م، وفى عام ١٩٩٤م اقترح أن يكون رئيسًا للوزراء من قبل حكمت يار فى حكومة المجاهدين لمدة عــام، وفـــى عــام ١٩٩٦م قاطع الحزب الإسلامى وانضم إلى حزب مسعود، وفى أعوام ١٩٩٧م – ١٩٩٨م صار محافظًا لمحافظة پروان.

المجاهدين الذين كانوا لا يحاربون فى الخنادق، ومع وجود هذه المشكلات جميعها لم نكن نقلل من الضغط على العدو وكنا منتبهين جيدًا ألا يفهم السوفييت وأجهزة إعلام العدو شيئا عن أوضاعنا.

ولو هجم العدو علينا فى تلك الأيام مرة أخرى لرأى أنه لم يكن لدينا من ناحية المهمات قدرة الدفاع عن أنفسنا.

حرب السوفيت عام ١٣٦١ هـ ش = ١٩٨٢م فى پنجشير من الممكن أن نسميها أطول عمليات قوات السوفييت فى أفغانستان.

الحرب الطويلة ووضع الاقتصاد السيئ وعدم انتباه زعمائنا المقيمين فى پيشاور إلى أوضاعنا، وعدم وصول المهمات وسائر ضروريات الجبهة، والنقص الشديد فى الأموال، وقطع طرق الإمدادات بواسطة الحزب الإسلامى، ورحيل الناس عن الوادى واستمرار الحرب كانت من المسائل التى تشغل فكرنا دائمًا وكنت دائمًا أفكر فى طريق للخروج، وفى مثل هذه الأوضاع والأحوال جاء عندى ذات يوم داود – بعد ذلك ولسوال (١) داود – وكان أحد أقربائى فتعجبت لرؤيته؛ ذلك لأننى لم أره منذ سنوات فظننت حتمًا أن هناك أمرًا هامًّا فقد كان ذلك يبدو من سماته، وبعد السلام قال مباشرة : لدى عمل مهم وعاجل بالنسبة لك، قلت : حسنًا فى الليل سأراك. وفى ذلك الوقت بالنسبة للقصف الجوى الشديد طوال اليوم لم يكن هناك مكان للقاء فى المنزل، ولهذا السبب بمجرد أن انبلج الصباح ترك الناس والمجاهدون المنازل، ومع وجود هذه البرودة أمضوا النهار حتى الليل فى المخابئ الباردة. وعلى ما أذكر رأيت داود فى قرية نوليج (٢)

---

(١) ولسوال: مدير المديرية. (المترجم)

(٢) قرية بجوار جنگلك مسقط رأس أحمد شاه مسعود.

فسألته: لأى أمر جئت؟ وبدون توضيح مقدمًا أخرج من جيبه رسالة مغلقة وأعطاهـا لـى، ففتحت الرسالة فوجدت رسالة سرية من قائد قوات الفرقة الأربعين السوفييتى بإمضاء وخاتم شخصى لا أتذكره وجاء فى الرسالة أن الحـرب فى پنجشير ليست بنفعكم ولا بنفعنا، إننا حاضرون للتباحث معكم لنمـنع الأكـثر مـن نزيف الدم، لقد كتب الخطاب بالخط الروسى وباللغة الروسية.

وعلى حواشيه توجد الترجمة باللغة الفارسية، وبعد جلسة قصيرة مع داود قلـت: اذهـب وقـل لهم إننى يجب أن أشاور الناس والقواد فى هذا الأمر. وبعد أسبوع سوف أجيبك.

ورجـع داود وظللت أفكر فى التشاور مع العلماء والناس والقواد، أما قبل ذلك فهناك نقاط ضرورية يجب أن نوضحها.

إنـنى مـنذ مـدة من قبل تنبهت أن جبهة پنجشير من حيث التفوق العسـكرى تقدمت على الجبهات التى حولها واشتهرت عنها، وهذا التفوق السـريع والشهرة والقرب من سالنگ وبگرام وهذا التطور السريع للجبهة كـان يشـد انتـباه الروس ويجعلهم يدبرون كل سنة أكثر من عملية على الوادى.

وهـذا علـى المدة الطويلة من وجهة نظرى كان مضرًا، ومن وجهة النظر الاستراتيجية فإن حرب العصابات التى كنا نقوم بها كانت فى مرحلة يجب أن تتسع فيها مناطق القواعد يعنى مثل پنجشير توجد جبهات أخرى، وذات مـرة وبهـذا الخصوص تشاورت مع إسماعيل طارق [1] من لغمان

(١) محمـد إسـماعيل طارق كان مسئولاً عن ولاية لغمان عام ١٩٧٩م، واغتيل بواسطة أفراد الحزب الإسلامى بقيادة حكمت يار.

وذبـــيح الله [١] من مزار واتفقنا أن المناطق الجبلية التى تطل على الطريق الرئيســـى لـــترمذ [٢] وتورخم [٣] يجب أن يكون لها تشكيلات وقواعد من الشمال إلى الجنوب، ولإجراء هذا العمل عين ذبيح الله فى منصب عسكرى وكـــان يعمـــل من مزار حتى سالگنك جنوبًا إلى كابل علاوة على جبهات أطـــراف پنجشـــير التى كان تفوقها بطيئًا، وقد لاحظت ملاحظة دقيقة أن الســـوڤييت جعلونـــى فى پنجشير مشغولاً فى الحرب ولم يعطونى فرصة لأقـــوم بهـــذا البرنامج عمليًا. أصلاً سحب جبهة پنجشير من الأزمة التى ذكـــرتها كان موضوعًا مهمًّا، أما فى الخطوة الأولى كان جانبا بالنسبة لى يحسب حسابه أهم توجه واهتمام بالنسبة لى هو توسعة مناطق القواعد التى تشـــرف وتـــتحكم فى الطريق الرئيسى لترمذ وتورخم، وقد أخذت رسالة السوفيت بفأل حسن وتمنيت أن أحصل على هذه الفرصة الذهبية.

وبســـرعة استدعيت عددًا من العلماء والقادة ذوى المشورة وطرحت الموضوع معهم [٤].

---

(١) الأستاذ ذبيح الله كان المسئول عن محافظة بلخ عام ١٩٧٩م، واغتيل بعد ذلك بواسطة الحزب الإسلامى بقيادة حكمت يار.

(٢) ترمذ: تقع فى جنوب أزبكستان على شاطئ نهر آمو ولها حدود مع أفغانستان، وكانت إحـــدى القواعـــد العسكرية المهمة للإمدادات السوفيتية فى ذلك الوقت، وهى مسقط رأس الإمام الترمذى صاحب كتاب جامع سنن الترمذى فى الحديث.

(٣) تورخم : تقع على الحدود بين أفغانستان وباكستان.

(٤) يذكر الكاتب أنه ذات يوم كان واقفًا فى منطقة (ملسپه) وكان أحمد شاه مسعود يمر فى عربة وبمجرد أن وقعت عينه علىَّ نزل من العربة وأخذنى إلى جانبه وقال بتأنى : إن الســـوفيت يريدون المباحثات ولا أعلم إن كانوا صادقين أم لا، وليبق الموضوع ســـرًّا عـــندك، ولكنها فرصة جيدة أن ندرب أفرادًا على أفرع الأسلحة الثقيلة يقصد مدافـــع الهـــاون فلديـــنا نقص كثير فى هذه الحرب، فمن كل قاعدة علم اثنين اثنين ودربهم وسوف أجتهد أن أطيل المباحثات.

وأخيرا أدرت الجلسة ووافقت مع أعضائها على اقتراح المباحثات مع السوفيت، وفى البداية طلبت وجهة نظر العلماء.

وفى الحقيقة وعلى ما أذكر كان أول المتحدثين من بين العلماء مولوى محمد وزير فقال : إننا فى حاجة ضرورية لاستعداد أقوى وأمضى لمواصلة الجهاد وهذا الاقتراح فرصة جيدة حتى نجابه العدو مرة أخرى باستعداد أقوى وأصلب. وبناءً على هذا فإن هذا الأمر ليس له ما يمنعه من وجهة نظر الشرع بل إننى أرى أنه (مثل صلح الحديبية الذى أبرمه الرسول ﷺ مع أعدائه، وكانت النتيجة لذلك أنه استطاع بعد سنة أن يفتح مكة وأطلق الله سبحانه وتعالى على هذا الفتح اسم الفتح المبين).

وأيد العلماء الآخرون كلامه مثل: مولوى فضل الوهاب، ومولوى مدثر، ومولوى جيلان، ومولوى عبد الرب وآخرون، بعد ذلك طلبت من القادة وأعضاء الجلسة الآخرين وجهة نظرهم. ولم يكن هناك شخص مخالف بل إنهم جميعًا بصوت واحد كانوا موافقين على أن تجرى المباحثات مع الروس، وبالاستفادة من تجربة حرب الأشهر التسعة الحالية تتخذ الإجراءات لاستعداد أكبر للحرب القادمة. ولكننى كنت أفكر فى توسعة مناطق القواعد [١].

وأتذكر أننى فى أحد الأيام كنت أجلس على مرتفع يطل على منزلى فى پنجشير وكنت أشاهد ساحة الحرب داخل الوادى، ودارت حرب حامية الوطيس وارتفع الدخان والنار من كل طرف وكنت أرى مئات المنازل وقد

---

(١) مناطق القواعد يسمونها المناطق الحرة حيث إن الفدائيين يتخذونها قواعد ومقرات أساسية لقواتهم والمناطق الجبلية وغير المعبدة تقل فيها مناورات ودبابات العدو وطائراته وهى تعتبر أماكن جيدة للفدائيين.

صارت طعمة للحريق المدمر، فتأسفت كثيرًا فى تلك اللحظة لأننى لا أجد الفرصـــة لأصـــنع عـــدة مدن مثل پنجشير لأسحب العدو فى ساحة واسعة للحـــرب، أو يســـتطيع أهلنا وقواتنا أن يذهبوا إلى مناطق أخرى فى حالة الضـــغط على أحد القواعد. وفى نهاية الجلسة وموافقة الجميع كنت آمل أن يتحقق هذا الأمل.

وبعـــد مضى فترة من الوقت أرسلت إليهم رسالة بأننى جاهز لإجراء المباحـــثات، وكان الخلاف الأول حول مكان المباحثات فقد طلبوا أن يكون مكـــان المباحثات فى ساحة تحت سيطرتهم فأرسلت إليهم عدة أفراد ممثلين لى بأننى لن أوافق على هذا أبدًا. فقالوا مرة أخرى: يكون محل المباحثات فـــى مكان بين البينين فرددت هذا أيضًا فقالوا: ما هى الضمانات من أجل ســـلامة هيئتنا قلت: كلمتنا وجبهتنا والاعتبار الذى لهذه الجبهة هو الضامن لأرواح هيئـــتكم، ثـــم أضفت: يأتى شخص واحد من جانبكم وبدون سلاح، فقـــبل الســـوفيت بعد تفكير ولكنهم قالوا: سيكون معه شخص آخر مترجم وعـــرفوا من جانبهم شخصًا يدعى أناتولى ومترجمًا كان يعرف الفارسية، ومن طرف الجبهة أعطيت الصلاحية لى لإجراء المباحثات، وبعد الموافقة على كل المسائل قدمت هيئة الاتحاد السوفيتى.

أناتولى رجل نحيف القد طويل القوام حسن الطلعة، حينما دخلت إلى المـــنزل وسألتهم عن أحوالهم ورحبت بهم وقلت بعد المجاملات المعروفة: كمـــا تعلمون إننا جاهزون من أجل المباحثات، وها أنا سوف أسمع منكم، ويجب أن أقول إن أندروپوف قد وصل إلى الزعامة فى هذه الأيام.

وبـــدأ أناتولى الحديث هكذا : إن هذه الحرب ليست حربًا عادلة، إنها ليست فى صالح الاتحاد السوفيتى ولا فى صالح أفغانستان، لقد بدأت خطأ

إننا كنا نظن أن الغرب وأمريكا هنا فى الوقت الذى ليس لأحد منهم وجود، إن أهـــل أفغانســـتان قاموا ضدنا، إننا نحارب الفلاحين والعمال ويجب أن تنـــتهى هذه الحرب، إننا ندافع عن حفنة باعت وطنها وهم أحياء يعيشون بيـــن الـــناس، وكمـــا أرى إن أى شخص غير مسلم لن يستطيع العمل فى أفغانستان، وفى ظنى أن ببرك ورفاقه ليس لهم مكان بين الناس، إنهم خانوا الوطن وباعوه.

حيـــنما قال أناتولى هذا الكلام كان ميرداد حاضرًا. وبعد هذه المقدمة تحـــدث عـــن حـــرب پنجشير وقال: لقد جرت الحرب بصورة طاحنة فى پنجشير، وقد خسرتم خسائر وخسرنا نحن أيضًا فيجب أن نعمل عملاً نمنع به نزيف الدم.

أمـــا أنا كاتب هذه السطور فقد كانت لى عدة أسئلة لأحمد شاه مسعود مـــن جملـــة هـــذه الأسئلة : فى نظركم حينما تحدث السوفيت مع الرئيس مـــيرداد هل هم فى الواقع كانوا يريدون الخروج من كل أفغانستان ؟ وهل هـــم بـــناءً علـــى برنامج عام اتصلوا لتخرج قواتهم من أفغانستان ؟ أم أن الحديـــث كـــان خاصا بپنجشير فقط؟ إنكم تعلمون أن حركتهم كانت حركة استراتيجية فى كل أفغانستان أم أنها كانت حركة تكتيكية خاصة بپنجشير؟ فأجاب أحمد شاه مسعود كما يلى :

أنـــا لم أسمع من أناتولى مطلقًا أنه قال إن السوفيت يقصدون إخراج قواتهم من أفغانستان، إنه تحدث بخصوص پنجشير فقط، من وجهة نظرى إن تحـــركاتهم كانت تكتيكية فقط، إننى فى أول جلسة فهمت من كلامه أن خســـائرهم كثيرة وهم يعانون تحت ضغوط شديدة وقواتهم لا تتمتع بروح معنوية عالية وهم يحتاجون إلى فرص أكبر من أجل الإعداد لحملة أخرى

أو هجـــوم آخـــر. مثلاً قال أناتولى فى الرخة بعض النكت الفكاهية كانت تـــروج بيـــن عسكر السوفيت، من جملة ذلك كانوا يقولون: "ذات يوم كان ثلاثمائة عسكرى روسى يسرعون فارين إلى أسفل الوادى فسألهم مستشار سوفيتى : ماذا حدث ؟ لعل الأمر خير لماذا تفرون ؟ ولماذا تهربون؟

فأجـــابوا ألا تـــرى اثنين من المجاهدين يتعقوبننا؟! فقال المستشار : حســـنًا المجاهدون اثنان وأنتم ثلاثمائة فلماذا تفرون ؟ فأجابوا: إننا لا نعلم مـــن هو الذى يتعقبونه منا. فأدركت تمامًا أن خسائرهم أكثر من تخميناتنا وهم تحت ضغوط شديدة. يجب أن أقول: إن أول لقاء لى مع أناتولى قمت فقـــط بإبلاغه عن استعدادنا للتفاوض، أما أجندة المباحثات وموضوع وقف إطلاق النار فلم يكن مطروحًا أصلاً.

وكـــان القـــرار أن يذهبوا ويفكروا فى أجندة المباحثات ونحن كذلك. وفى الدورة الثانية تتم المباحثات بناءً على هذا البحث، وأتذكر أن رؤيتى قد تحققـــت فإن أناتولى قبل الوداع قال: الآن وأنا ذاهب ماذا يكون لو توقفون إطـــلاق النار من الآن على معسكر الرخة، وتصرفون النظر عن العمليات الأعنف لأنها سبب فى خسائرنا وخسائركم، فقلت: حسنًا إننى موافق، وأنتم أيضًـــا أوقفوا القصف والعمليات، وأضفت أن هذا وقف لإطلاق النار غير رسمى حتى نرى إلى أى نتيجة سوف نصل وودعنا أناتولى ورجع.

وقـــد أصـــدرت أمرًا لجميع القوات ألا يطلقوا عليهم إلا بعد إصدار أمرنا وحتى وقت إمضاء الهدنة؛ لأن وقف إطلاق النار مع أنه غير رسمى فيجب أن يراعى من طرفنا، ولكن السوفيت كانت لديهم مشاكل لأن القوات الداخلـــية وهم الأفغان التابعون للدولة الشيوعية لم يكونوا فى الأحداث ولم يعرفوا لماذا تغيرت الأوضاع فجأة، وبناءً على هذا فإن وقف إطلاق النار

كـــان يـــنقض أحيانًا من ناحية عسكر الأفغان مثلما حدث وقصفت پنجشير مرة ومرتين واعتذروا لنا وقالوا: لقد أعطونا الخطة للقصف فى مكان آخر ولكـــنهم قصـــفوكم، والواقع أن نجيب وكارمل ولم يكونا راضين فقد كانا يـــريدان اســـتمرار الحـــرب بالنســـبة لنا، إنهما لا يهتمان بخسائر عسكر الســـوفيت فهـــم يفكرون فى إبادتنا، وحينما رجعت الهيئة السوفيتية بدأت العمل وأول شيء فعلته هو خلع أسلحة أفراد الحزب الإسلامى فى بشغور (وهو مكان داخل پنجشير). وكان أفراد الحزب الإسلامى فى تلك المنطقة يشـــكلون لـــنا بؤرة سرطانية ولم يأت منهم غير الضرر أما النفع فلم يكن متصورًا منهم، وكل مجرم كان يفر من قبضتنا كان يجد لديهم ملاذًا آمنًا، وكانت توجد لهم على طول الطريق نقاط تفتيش، وأسوأ من ذلك أنه حينما قـــام الحزب الإسلامى بسد طرق الإمدادات علينا من كل ناحية كان الناس يحضـــرون المـــواد الغذائية سرًّا من آندرآب، وحينما كانوا يعرفون هؤلاء الـــناس المســـاكين كـــانوا يخبرون قوادهم المحليين ليمنعوا العبور السرى للمواد إلى پنجشير. حينما التقينا مع آنا تولى بعد ذلك أشار إشارة مختصرة إلى إجراءات فى پشغور وقال: استفيدوا من هذه الفرصة لتصفية منافسيكم، فأجبت: إن هذا هو موضوعنا الداخلى فلم يقل شيئًا أكثر (١).

وبعد فترة رجعت الهيئة وفى الدورة الثانية للمباحثات بدأوا المساومة. فقلـــت: الآن إن مقصد كلينا هو منع سفك الدماء والخسائر، وأحسن طريق لهذا العمل هو أن تخرجوا من پنجشير فلم يقبلوا وقالوا: إننا لن نخرج من

---

(١) طـــبعًا مقصـــد أحمـــد شاه مسعود عن عدد من أفراد الحزب الإسلامى الذين سلموا أســـلحتهم، ولكن عددًا كبيرًا منهم يعتبر من أحسن المحاربين وهم باقون وصامدون فى خنادقهم حتى وقت كتابة هذا الكتاب.

بنجشير، إننا نستطيع خطوة بخطوة أن نقلل من قواتنا، وفى الخطوة الأولى ننقص تعداد قواتنا فى الرخة فأذن للأهالى أن يعودوا إلى منازلهم وينشغلوا بزراعاتهم.

فقلت: أين وكيف يستطيعون العودة وقد اتخذتم أراضيهم ومنازلهم مستقرًا ومقامًا ؟

وقد استمر هذا البحث ساعات طويلة، وقد أكدت عليهم الخروج من بنجشير ولكنهم يطرحون الخروج قدمًا بقدم وتقليل قواتهم ومثل هذه المسائل. يجب أن أقول: إن واحدًا من أفراد مخابراتنا بين السوفييت وكنا نسميه آغا صاحب قد ذاع أمره وانتشر وقتل بواسطتهم، ولقد أطلعنا بمنتهى الدقة عن برنامجهم، وقبل الدورة الثانية للمباحثات أطلعنى أن السوفييت فى الرخة تحت ضغط شديد فأصروا وتمسكوا بخروجهم من الرخة وسوف ينسحبون، أما أعنابه فليس عندهم نية للخروج منها فلا تضغطوا أكثر، وسوف تتباحث معكم هيئة ذات صلاحية عينت من قبل، وفى الواقع قد تم ما أطلعنا به آغا صاحب. قال أناتولى : حسنًا إننا سوف ننسحب من الرخة ليرجع الناس إلى منازلهم، أما فى أعنابه فإننا لسنا فى منازل الناس والناس يعيشون فى منازلهم، إننا لن ننسحب من أعنابه. كان أناتولى يقول الحقيقة فإن أهل أعنابه خلاف سائر أهل بنجشير ظلوا فى منازلهم، وقوات السوفييت استقرت خارج المناطق المسكونة حول سفوح الجبال. وأخيرًا بعد معاناة وبحث طويل رتبنا مع أناتولى المسودة التالية :

١- تنسحب القوات السوفيتية من الرخة وأعنابه.

٢- تبقى فى أعنابه فرقة عساكر أفغانية وفرقة عساكر سوفيتية فقط.

٣- تعداد الأسلحة يحكم تشكيل الفرقتين، أو توزيع الأسلحة على كل

منهما هذا مع دراسة تشكيل كل فرقة جيدًا.

٤- المواضع الأمنية الخاصة بهم لا تستقر فى ارتفاعات عالية فى الجبال.

٥- جنود السوفييت والأفغان التابعون للحكومة الشيوعية ليس لهم حق الدخول فى المناطق الآهلة بالسكان والأسواق، فاعترضوا على هذا الأمر وقالوا : على الحد الأقل يذهبون إلى مديرية أعنابه. وانتخب داود من ناحية الطرفين رابطًا ومنسقًا واستأذن منا أن يكون له مقر فى سوق أعنابه فوافقنا.

٦- قوافل إمداداتهم لها حق المجيء إلى پنجشير بإذننا فقط ولكن ليس لهم حق حمل الأسلحة والمهمات، ولرجالنا الحق فى تفتيش قوافل الإمدادات.

٧- قوافل الإمدادات الجوية يتم لها ما سبق، ولكن ليس لهم حق حمل الأسلحة والمهمات ويكونون تحت رقابة رجالنا فى أعنابه.

٨- الخطوة الأخرى رسمنا وقف إطلاق النار على خريطة، وفى هذا الشأن دققت كثيرًا لأعين ساحة وقف إطلاق النار لتبقى الساحة مهيأة ومعدة للحرب.

ولقد جعلت پنجشير وسنجن وبولغين تشملها ساحة وقف إطلاق النار فى الوقت الذى لا تشمل ساحة وقف إطلاق النار ارتفاعات پنجشير التى تشرف على الوادى الشمالى. وفعلت هذا بالنسبة لسالنگك [1] أيضًا فى الوقت الذى لم أجعل الجبال التى تتحكم فى طريق سالنگك يشملها وقف إطلاق النار ولكن سائر مناطق سالنگك كانت جزءًا من وقف إطلاق النار،

(١) سالنگك ارتفاعها يقسم أفغانستان إلى شمال وجنوب، ونفق سالنگك مشهور.

وأظـــن أنهم بسبب التعجل فى توقيع وقف إطلاق النار وفى هذا الجزء لم يدققـــوا الدقـــة اللازمـــة فى التكاليف، كما حدث بعد ذلك فى الحروب فى شمالى وسالنگك وغير ذلك من المناطق. وقد اعترضوا عدة مرات خاصة مـــع الهيـــئة التى أتت بعد موت أندرويوف من أجل مد وقف إطلاق النار وانجرت المباحثات إلى مشاجرات عنيفة.

وفـــى أثناء المساومة حول مواد الاتفاقية التى طالت إلى عدة أسابيع كنت مستعدا للخطوة الثانية يعنى تصفية اندراب (١).

يجب أن أقول إن آندراب كانت تهمنا من جهتين:

أولاً : لوجود جبل غير مرتفع هو جبل خاواك، وهو طريق إمدادات المواد الغذائية بالنسبة لنا.

ثانـــيا : كـــان هذا هو طريق اتصالنا الذى يمر بشمال أفغانستان من آندراب وهو طريق كنا نستطيع أن نستفيد به طول الشتاء، فى الوقـــت الـــذى كانـــت فيه الطرق الأخرى لپنجشير إلى ولاية لغمان: نورستان، بدخشان، وتخار، تسد خمسة أشهر فى الشتاء لتراكم الثلوج، ولقد صفيت موضوع آندراب فى ٤٨ ساعة فى يوم بارد مملوء بالثلج فى ظروف مفاجئة، ونزع عدد كبير من رجـــال الحـــزب الإســـلامى أسلحتهم وتوارى جمعة خان قائد الحزب الإسلامى مع رجاله، وبمجرد أن اطلع السوفيت طلبوا لقاءً عاجلاً وحينما توجهنا قالوا بعصبية شديدة : إنكم تستفيدون

---

(١) أنـــدرآب هى من المديريات التى ترتبط ببغلان وتقع فى شمال پنجشير، وهذا الوادى يعتـــبر طريق الإمدادات وهو شريان الحياة فى جبهة پنجشير ، والمناطق الآهلة فى ولاية كاپيسا تقع فى سفوح جبال پنجشير.

من كل موقع لتقوية أنفسكم وتصفية مخالفيكم، وهذا يخالف روح المباحثات.

فقلت: إن جمعة خان سد طريق إمداداتنا فنزعنا أسلحته، إننا لم نهاجم قواتكم وحتى الآن لم تتم أى اتفاقية رسمية نكون ملزمين بإجرائها، أما الاختلافات بين فصائل المجاهدين فليس لهذا الموضوع علاقة بكم حتى يأتى فى المباحثات.

فقالوا : إن جمعة خان رجلنا [(١)] وقد ارتبط بنا ارتباطًا وثيقًا فترة طويلة فقلت : إننا نعرفه باسم قائد الحزب الإسلامى، فقالوا: رفاقنا فى الحكومة (يقصد حكومة ببرك كارمل) آذونا إيذاءً بالغًا من المعلوم أنهم ضغطوا عليهم بشدة، وكان طلبهم أن نسحب قواتنا بأقصى سرعة ممكنة من آندراب ليرجع جمعة خان واستمرت المباحثات عدة ساعات ولم أقبل، وحينما رأوا أن الإجراء لم يأت بنتيجة تركوا الموضوع مكرهين.

والواقع أنه فى تصفية آندراب أعطونى موقعا أحسن فى المباحثات، أما أن تنتهى المباحثات بعد ذلك، إلى طريق مسدود وتنجر الأمور إلى الحرب فلم يكن لدى أى قلق من ذلك فالعدو الذى كان لا يعمل لنا أى حساب بالأمس هاهو يجلس معنا على طاولة المفاوضات، وفى أقصر مدة

---

(١) التقى الكاتب فى سنة ٢٠٠١م فى تاجيكستان مع ضابط الاتصال الخاص بجمعة خان. واسمه محمد على هايتف وكان فى رئاسة الاستطلاعات، وقد نقل لى بالتفصيل أحداث اتصاله بجمعة خان. وحينما انتهى وقف إطلاق النار وتمت العمليات الحربية المشهورة عام ١٩٨٤م على پنجشير هاجم جمعة خان أندراب مع القوات السوفيتية. واستقر هناك مرة أخرى، ولكن فى المرة الثانية لم يقطع الطريق إلى پنجشير شهامة ومروءة على الرغم أنه كان يقرر للسوفيت أنه ينفذ تعليماتهم وهذا الأمر يؤيده محمد على هايتف أيضًا.

لـــن يكـــون هناك احتمال لهجوم آخر ونخلص الجبهة وتنجو من الحصار، وبهـــذا الشكل ومع تصفية آندراب يعود طريقنا إلى شمال أفغانستان، وهذا يعطيـــنا فرصة كبيرة لننفذ برنامج العمل ونوسع مناطق قواعدنا فى شمال أفغانستان.

وفى نهاية الأمر اتفقنا حول المواد المذكورة وأوقفنا إطلاق النار لمدة ستة أشهر وبدأت قوات السوفيت تنسحب من الرخة، وذات يوم حينما كانت قواتهـــم تنســـحب مـــن الرخة قدمت هيئة من الضباط الروس ذوى الرتب العالـــية إلـــى الرخة وكانوا يريدون أن يقيموا حجم الضغط الموجود على جـــنودنا. وكان الحاج عزم الدين (١) هناك، وأشار قائد قاعدة السوفيت فى الـــرخة للهيئة إلى الجبال الجنوبية التى تطل على الرخة وكان يقول : من هـــنا وكـــل يـــوم كان فلان وفلان يفتح علينا النيران بعشرات الأنواع من الأسلحة المختلفة خصوصًا راجمة الطائرات ١٢,٧ مليمتر، ومدافع الهاون ٨٢ مليمتر، وكنا نخسر كل يوم كذا وكذا.

وفـــى هـــذه الأثـــناء اتجهـــت الهيئة إلى عزم الدين وسألت: هل هذا حقيقى؟ فأجاب عزم الدين: لا؛ إن مخابراتكم ليست دقيقة إن تعداد أسلحتنا هـــناك أعلـــى بمراتب عن الذى ذكر، ففى الواقع فى جنوب الرخة لم يكن لدينا أكثر من ثلاثة أنواع راجم للطائرات ونوعين من مدافع الهاون والعديد مـــن الأسلحة الأخرى وأكثر من هذا لم يكن هناك شيء وخطورة هذا على الســـوفيت كانـــت تكمن فى الاستفادة من هذه الأسلحة بشكل مؤثر وموفق وفيه فاعلية.

وبعقـــد اتفاقـــية وقف إطلاق النار التى كانت لمدة ستة أشهر رأست

---

(١) الحاج عزم الدين هو المسئول عن أمور الاستخبارات والجاسوسية.

مجلسًا وطرحت اتخاذ القرارات الحاسمة نحو إيجاد توسعة مناطق القواعد فى شمال أفغانستان فوافق الجميع لأنه يجب الاستفادة من الفرصة إلى حد كبير.

وكـــان ذهـــابى إلـــى الشمال قد تم فى وقت لأعرف شيئًا عن القادة والناس وأوضاعهم هناك.

وبـــناءً على هذا اقترح الدكتور عبد الحى إلهى – وكان معاونى فى ذلك الوقت – أولاً : أن ترسل هيئات إلى هناك حتى يهيئوا لنا مجال السفر وبـــرنامجه ثـــم أسافر أنا بعد ذلك، ومع أن اقتراحه كان معقولاً جدًا ولكن فرصة ستة أشهر لإتمام برنامجى كانت قليلة جدًّا لذا صممت أن أذهب إلى هناك، وقبل الذهاب لتنظيم مناطق كوه دامن والشمال فى شمال كابل عينت هيئات وأشرت عليهم بالآتى :

أن يشتدوا فى الحرب من سالنگك فى الجنوب إلى كابل، ولتحقيق هذا أرســـلت مجموعات قتالية منظمة ذات ثقل إلى سالنگك وشمال كابل أما أنا فذهبت إلى شمال أفغانستان [(١)].

ونعود لاستكمال كلام مسعود

فـــى شـــمال أفغانســـتان عقـــدت أول جلسة للقادة المنتسبين للجمعية الإســـلامية. وبعـــد الحديـــث بالتفصيل عن الأوضاع العامة فى أفغانستان

---

(١) كـــان الكاتب جزءًا من هذه الفرق ذهب إلى استاليف وفرزه لتنظيم وتعليم بقية الفرق. وفـــى اســـتاليف فـــى سرطان عام ١٣٦٢هـــ.ش = ١٩٨٣م هاجمتنا قوات الاتحاد الســـوفيتى، وكـــان هـــذا أول هجوم للسوفيت على استاليف حيث قتل عدد كبير من الـــناس، وصـــارت مئات المنازل طعمة للحريق واستمرت الحرب خمسة أيام. ولقد حاصـــر السوفييت استاليف وجرح كاتب هذه السطور فى هذه الحرب مع عدد آخر من المجاهدين واستشهد عدد آخر، وسوف يجىء تفصيل الكلام عن هذه الحرب.

تشـــاورت معهم حول أهمية إيجاد وتوسعة مناطق القواعد، وغير المرحوم عبد الحى خان كان القائد نحرين له ملاحظات، أما عارف خان فقد استقبل ذلك بالصمت، أما الآخرون فقد سعدوا بالبرنامج.

وكـــان القرار أن أعمل فى الأودية الأربعة: اندرآب خوست، فرنگ خـــيلاب، وفـــرخار. وفـــى الـــبداية يتصل الواديان الأولان بولاية بغلان والواديان التاليان بعدهما بولاية تخار.

وكـــلا الواديـيـــن ينتهيان إلى پنجشير (وجدير بالذكر أن هذا المجلس سمى بعد ذلك بمجلس شورى النظار والغالبية كانوا يظنون أن حزبًا سياسيًا جديـــدًا قد تشكل برئاسة أحمد شاه مسعود، فى الوقت الذى كان فيه مجلس شورى النظار هو الناطق باسم زعيم قوات الجمعية الإسلامية فى أفغانستان مـــن شـــمال كابل حتى شمال أفغانستان وليس حزبًا سياسيًا وقد ظللت عدة أعـــوام رئـــيس مركـــز عملـــيات هذا المجلس)، وفى هذا المجلس قسمت المـــناطق إلـــى مـــناطق جبلية ومناطق سهلية، وتقرر أن يكون العمل فى المناطق الجبلية على عاتقى مباشرة.

وشـــغل ســـائر الأعضـــاء بتنظـــيم المـــناطق شبه الجبلية والسهلية، ولاستعراض التقدم يستمر عمل الجلسات فى المواقع اللازمة.

وفـــى هـــذه المـــدة التى كنت فيها فى شمال أفغانستان وكانت قطعنا العســـكرية مع سائر المجاهدين من منطقة سالنگك إلى كاريزمير على بعد خمســـة كـــيلو مترات من كابل فى معمعة الحرب، وفى اشتباكات دائمة، وكانت تتم حملات هجومية أكثر من جانبنا، وكانت أشد هذه الحملات على قوافل الإمدادات الذاهبة والآتية من ترمذ على كابل، وطريق إمدادتنا الذى يتمـــثل فى قوافل الأسلحة والمهمات التى كانت تأتى من الباكستان وكانت

تمـر أمـام أعيـن عسـكر السوفييت فى أعنابه، وكانوا يرونها بعيونهم والأسـلحة والمهمات ليست بعيدة عنهم فى سالنكك وگلبهار وشمالى وكوه دامن ويستفاد منها فى قتل قوادهم.

ومـن أشـد مـا كـان يؤثـر تأثيرًا سلبيًا على السوفييت هو عبور المجاهدين وتكبيرهم فى مقابل قاعدة أعنابه وهم يذهبون إلى الجهة المقابلة لقوات الروس فى طرق سالنگ وشمالى.

وبهـذا الخصـوص اشـتكوا لممثلـنا عدة مرات وقالوا: إن تكبير مجـاهديكم يؤثر تأثيرًا سلبيًا على جنودنا فنرجو أن تمنعوا هذا، ولكنى لم أمنع المجاهدين من هذا.

وفـى هـذه الأيـام أقدم السوفييت على عمل هجوم كبير فى مناطق الشـمال وحاصـروه ولمـا كان جناح شمال شرقى جلگة الشمالى متصل بوادى پنجشير، وأصبح وقف إطلاق النار نافذًا فى پنجشير، وبناء على هذا رجـع إلـى پنجشـير آلاف الأشخاص من الأهالى ومئات الأشخاص من القوات المسلحة للمجاهدين الذين كانوا سيظلون فى الحصار.

وكـان بين المسلحين هؤلاء الذين سدوا الطرق أمام وجوهنا من قبل ولكن فى پنجشير استقبلونا بالترحاب والحبور.

وعلـى هـذا الـنحو لم يوفق عساكر السوفييت فى استكمال حصار شـمالى وبعد أسبوعين أنهوا عملياتهم ورجع الناس والقوات المسلحة مرة أخـرى إلـى مناطقهم، ومن المستطاع أن نقول: "كانت هذه هى الاستفادة الوحـيدة التى كان الاتحاد السوفييتى يريد أن يفعلها من أجل وقف إطلاق النار فى پنجشير ولكن هذا جاء بمنفعتنا. لأن المنفعة التى حصلنا عليها من وقف إطلاق النار لم تكن هذه فقط فقد كان أعز أمانينا هو صنع العديد مثل

قاعدة پنجشير (إيجاد وتوسعة مناطق القواعد) لأصل إليها فى مسافة قليلة، فمعرفة العدو أكثر تكون أفضل، فتح طريق الإمدادات وادخار المهمات من أجل حرب طويلة أخرى، وإعطاء فرصة راحة للناس والمجاهدين بعد حرب التسعة أشهر الماضية، التعريف بشمال أفغانستان والأهالى والقادة هناك، كل هذا كان من جملة فوائد وقف إطلاق النار وكانت تخصنا فقط، وعلاوة على هذا فإن العدو بالجلوس على مائدة مفاوضاتنا اعترف رسميًا بأننا أصحاب الأرض والساكنون الأصليون لها، ومع موت أندوپوف ووصول چرينكوف فى الاتحاد السوفييتى إلى مركز الزعامة استبدل أناتولى ورفاقه وقدموا هيئة أخرى كانت غير راضية مطلقًا عن وقف إطلاق النار.

وكنت مشغولاً بصنع قواعد فى الشمال، وكان عزم الدين هو مسئول الاتصال بالسوفييت فأرسل لهم خطابًا أن يعرفوا الهيئة الجديدة وخطوة خطوة يطلبون اللقاء. واتصلت مع آغا صاحب ومع سائر شبكات اطلاعاتنا فى داخل صفوف العدو وطلبت المعلومات لمعرفة كيف تجرى الأحداث، فالآن بقى من وقف إطلاق النار شهرلن فماذا يريدون؟ قال آغا فى جوابه : إن الهيئة الجديدة سوف تأتى بروح جديدة، فهؤلاء غير راضين عن نتائج وقف إطلاق النار تمامًا بل إنهم لهذا السبب عصبيون. كذلك مساعداتكم فى محاصرة شمالى وهجومكم على قوافلهم ومراكزهم فى سالنگك وشمالى كل ذلك جعلهم عصبيين خصوصًا عملكم ونشاطكم فى الشمال جعل صبرهم ينفد، فلو أنهم من أجل الحرب كانوا مستعدين فإنهم لن ينتظروا لحظة واحدة بعد انتهاء وقف إطلاق النار، أما الآن فهم ليسوا مستعدين من أجل عمليات واسعة.

وهـــم محتاجون لعدة أشهر أى أنهم يريدون وقتًا حتى يبدأوا عمليات، فأكـــناف الوادى وجوانبه خضراء، أما أعلى الوادى فهناك كثافة من الثلج (هكـــذا على وجه الدقة) ومع وجود طلبات متكررة منهم للقاء شغلت مرة أخرى للعمل فى الشمال وبقيت أسبوعين أو ثلاثة. وفى نهاية وقف إطلاق النار ذهبت إلى پنجشير.

وحـــل موعـــد اللقاء وجاءت الهيئة الجديدة التى تتكون من أربعة أو خمســـة أفـــراد، وبدأ رئيس الهيئة الكلام بعصبية وفى الخطوة الأولى اتهم الهيـــئة الـــتى كانت قبل ذلك بالخيانة، وقال: إن هؤلاء وقعوا اتفاقية خائنة وكانـــت لمصـــلحتكم فقط، ونحن قطعًا لا نقبل هذا أبدًا فبعد الهجوم كانت المجموعـــات القتالـــية الـــتابعة لـــنا تهيئ ملجأ فى سالنگك وشمالى للناس وللقـــوات المســـلحة أثناء انتهاء العمليات المؤدية إلى الحصار فى الشمال، تصـــفية أندراب، صناعة القواعد فى الشمال وذكر أشياء أخرى غير ذلك. وبعـــد ذلك أعطانى متن اقتراحات جديدة لى وقال: نحن حاضرون فى ظل هـــذه الشروط أن نمد وقف إطلاق النار معكم، ثم أضافوا: فى غير ذلك لا مناص من تهديد الحرب.

فقلـــت: لا تمتـــنوا علينا ولا تنسوا أنكم خلصتم عساكركم من موت محقـــق، إنـــنا لـــم يحدث منا أى تأخير عما جاء فى هذه الاتفاقية مطلقًا، واقتراحكم الجديد سأستشير فيه سائر أصدقائنا، وسيكون الجواب بعد عشرة أيام. وجدير بالذكر أننا لن نخاف من تهديداتكم، وكل لحظة نحن مستعدون للحرب.

واقـــتراحاتكم الجديـــدة تشتمل على مواد مذلة وأنا لا أجد لزومًا لكى أطرحها على مجلس الشورى، مثلاً من جملة ذلك:

١- أوقفوا العمل فى الشمال.

٢- إننا لن نعطى لقوافل الأسلحة والمهمات إذنًا للدخول إلى بنجشير.

٣- لا يمر أفرادكم المسلحون أمام قواعدنا فى أعنابه.

٤- أوقفوا الحرب فى كل مكان ضد قواتنا.

٥- أعطونا أعداد أسلحتكم وعنوان ذخائر مهماتكم.

٦- أوقفوا عمل قواعد فى پنجشير.

٧- لن نعطى إذنًا لدخول الأسمنت إلى پنجشير.

ويقال: إن المنابع الداخلية التى كانت تخالف وقف إطلاق النار أطلعتهم أن الأسمنت الذى كان يرد إلى پنجشير يصرف لتعمير القواعد الاسمنتية، فى الوقت الذى كان الناس يستوردون الأسمنت لتعمير العمائر، ولم يكن لدينا مثل هذا البرنامج.

إن اقتراحاتهم الجديدة تشير بوضوح أنهم غير راضين مطلقًا عن وقف إطلاق النار، وهم يفكرون فى هجوم أكثر اتساعًا من الماضى ولكنهم ينتظرون الفرصة.

وبعودة الهيئة أعطيت إذنًا فوريًا أن تستعد جميع القوات من أجل الحرب وأذنت للناس أن يحصدوا القمح ويدرسونه بمنتهى السرعة، وفى مدة عشرة أيام اتخذت جميع القوات استعدادها اللازم من أجل الحرب، ولكن القمح لم يكن قد نضج بعد لهذا أخرت اللقاء أسبوعين آخرين وطبعًا عرفوا بهذا الاستعداد، وحان وقت اللقاء وجاءت الهيئة الجديدة للمرة الثانية، وهذه المرة كنت على خلاف المرات السابقة كنت بملابسى العسكرية وكانت بندقيتى فى يدى، وصافحتهم وبعد ذلك وضعت علامة

خطأ على الورقة التى كانت تحوى اقتراحاتهم وأعطيتها لهم وقلت: هذا هو جوابى ونحن لنا اقتراحات فى مقابل هذا. قلت هذه الجملة ووضعت ورقتى أمامهم.

كانـت اقـتراحاتى شـيئًا مشـابهًا لاقتراحاتهم مثل تعداد كل قوات السـوفييت فـى أفغانستان كم عدد أفرادها؟ تعداد الأسلحة وأرقامها. تعداد الطيارات، والدبابات، تعداد قواتهم فى أعنابه تعداد أسلحتهم، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

وحيـنما بـدأ المترجم فى الترجمة لكل مادة من مواد اقتراحاتنا كان وجـه كل فرد من أعضاء الهيئة يحمر ثم يصير أكثر احمرارًا وبعد قراءة مـواد اقتراحاتـنا بدأت مشاجرة عنيفة بين كلا الطرفين، وفى تلك اللحظة التفـت إلى واحد من أعضاء الهيئة وكان أكثر عصبية من الآخرين وقال: إنك تحقرنا؟ ما هو ظنك عنا؟ إننا سنفعل كذا وكذا.

وفـى تلك اللحظة صرت عصبيًا أيضًا فكرمشت الورقة التى وضعت علـيها علامـة الخطـأ وقذفـتها ناحيته، وطلبت من الهيئة أن يخرج من المباحـثات، وسـادت العصبية على جو المجلس، وطلب رئيس الهيئة من الطرفين أن يضبطا أعصابهما فقلت: طالما هذا الشخص موجود هنا لن تتم المباحثات يجب أن يخرج، فقال رئيس هيئة السوفييت وهو فى حالة هادئة وغـير قادر على اتخاذ القرار: مثل هذا الأمر غير ممكن لأننا جميعًا هيئة واحدة، فقلت: على هذه الصورة لن تتم المباحثات. فلم يرضوا وخرجوا من الحجرة.

وفى خارج المنزل ظلوا عدة لحظات يتباحثون فيما بينهم، واضطروا أن يلتمسـوا الـرجاء من المضيف (جان محمد) أن يتوسط فقلت بغضب

لجان محمد ألا يتدخل فى مثل هذه المسائل وأن ينشغل بعمله.

وحينما لم يصل إصرارهم إلى نتيجة اضطروا أن يتركوا هذا الشخص خارج الحجرة، ودخل الباقون مرة أخرى إلى المباحثات، أما الشخص الذى بقى بالخارج ظل يشعل السجائر ويدخنها من القلق، وبدأنا المباحثات فى الداخل مرة أخرى، وأخيرًا وبعد مباحثات مستفيضة وافقنا ثانية على وقف إطلاق النار إلى الثانى من شهر عام ١٣٦٣ هـ ش الموافق ١٩٨٤م طبعًا إننى كنت أعلم أن عامل الوقت سيكون مساعدًا لهم من أجل العمليات ولكنهم لم يكونوا مستعدين أن يقبلوا شروطًا أخرى وأنا أيضًا اضطررت للقبول لأن عمل قاعدة فى الشمال لم يتم، وكنا محتاجين لستة أشهر لاستكمال ما كنا نصبو إليه، ووقعت الاتفاقية ورجعت الهيئة.

وفى الصباح جاءنى عزم الدين وقال: إنهم يقولون إنك بالتهديد أجبرتهم على توقيع هذه الاتفاقية ونحن لا نقبل هذا، فيجب أن تتم المباحثات من البداية وضمنًا لسنا جاهزين أن نأتى لإجراء دورة أخرى من المباحثات فى أعلى الوادى ويجب أن يكون المكان قريبًا من مركز قاعدتنا فى أعنابه.

وتم آخر لقاء لى معهم بالقرب من بحيرة تاواخ على بعد ثلاثة كيلو مترات من أعنابه، وكان هذا اللقاء يختلف عن اللقاءات الماضية فى ظلمة الليل الحالك وفى داخل عربة جيب [1]، وبعد مباحثات قصيرة وإضافة عدة

---

(١) كان للكاتب لقاء مع شكور المترجم التاجيكى فى تاجيكستان فى فبراير ٢٠٠١م فإن له حانوتًا فى مركز المدينة، ولم يذكر غير أكثر من أنه كان المترجم، وأن الاتفاقية وقعت فى داخل عربة بالقرب من بحيرة تاواخ، ولم يزد شيئًا عن ذلك. والسبب فى ذلك أنه طالما أن السوفييت لم يفتحوا أفواههم بكلمة فأنا لا أريد أن أجلب أوجاع الدماغ إلى رأسى.

تغييرات على متن الاتفاقية الجديدة وقعناها نحن الطرفان، وفى الواقع لم يرد أى تغيير مهم بالنسبة للاتفاقيات السابقة، التغيير كان فى أسلوب الزعامة الجديدة التى جاءت بعد أندروپوف وأنهم تنحوا نسبيًا عن التشنج الذى كان يسود الفترة التى قبل أندروپوف وأشاروا إلى أسلوب بريجنيف.

وفى خلال عام أثناء الهدنة ووقف إطلاق النار كان لنا إنتاج جيد:

إيجاد أربع قواعد مهمة فى أطراف پنجشير: أندرآب، وخوست فرنگ التابعة لولاية بغلان، ووادى خيلاب، وفرخار من توابع ولاية تخار. هذه القواعد تنفعنا حتى اليوم:

- تصفية أندراب وفتح طريق الإمدادات وطريق شمال أفغانستان.
- تأسيس مجلس شورى النظار.
- تأسيس قطاعات مركزية تكون أساسًا لجيش المستقبل فى أفغانستان.
- معرفة السوفييت ونياتهم وما يريدونه من القضايا منا.
- التعريف بشمال أفغانستان بأن تتوسع أعمالنا هناك بعد ذلك.
- الاعتراف غير الرسمى بالمجاهدين بواسطة السوفييت.

فى الوقت الذى كانوا يطلقون علينا قبل ذلك مجموعة المخربين الأشرار، المتمردين والبلطجية.

وللإنصاف فإن وقف إطلاق النار مع أنه تم فى حيز محدود فى أفغانستان ولكنى فى هذا الحيز المحدود كنت ممثلاً لجميع المجاهدين: أهدافهم وآمالهم وأمانيهم.

ولم يفصلنا السوفييت وقت المباحثات عن سائر المجاهدين، ولم يجعلونا جزءًا منفصلاً عنهم، إنهم يعرفون الطرف المقابل لهم جيدًا، وكانوا

يدركــون بوضوح أنهم فى عداء مع الشعب الأفغانى، وهذا ما كان يذكره أنـــاتولى مرارًا وتكرارًا. لقد أردت أن أفهمهم فى كل فرصة أنهم ارتكبوا خطـــأً كبــيرًا، وأنهـــم أشعلوا الحرب على حدودهم، وأنهم لن يكسبوا هذه الحرب.

أيها القارئ الكريم:

لقد كنت شاهدًا على كثير من الوقائع التى يذكرها مسعود، وأريد الآن أن أرتب الوقائع ترتيبًا آخر وأوضحها، وسوف أبدأ من پنجشير.

پنجشـــير هى وادى يبعد عن كابل مائة كيلو مترًا فى الشمال، وطوله يزيد عن مائة كيلو مترًا، وهذا الوادى يقع فى جنوب جبال الهندوكش التى تقســم أفغانســتان إلى شمال وجنوب، وفى البداية يتصل الوادى بولايات پــراون وكاپيســا فى شمال كابل، ثم ينتهى بولايات: نورستان، بدخشان، تخار وبغلان.

ويقولــون إن هــذا الوادى فى القديم هو كِجْكِنْ (بكسر الكافين)، وقد ســمى بهــذا الاسم فى زمان سلطنة السلطان محمود الغزنوى، ولپنجشير موقــع مناسب جدًا للحرب فهى تتكون من وادٍ رئيسى وعشرين وادٍ فرعى وتتشـــابك من الشمال والجنوب بالوادى الرئيسى، وفى وسط الوادى يوجد نهـــر رئيسى، ويوجد عشرون نهرًا فرعيًا وكلها تصب فى النهر الرئيسى، وعلـــى شاطئ النهر من ناحية واحدة فقط يوجد طريق للسيارات والطريق فـــى أسفل سفح الجبل وتستطيع سيارتان فقط أن تمرا متجاورتين، وهذا لا يحدث فى كل الأماكن [1].

---

(١) عقـــد مؤتمـــر الشـــهيد أحمد شاه مسعود فى سبتمبر عام ٢٠٠٣م، وكان من برنامج المؤتمر زيارة قبر أحمد شاه مسعود فى پنجشير، وأذكر أن السيارة سارت فى هذا =

مـــن ناحية الحرب: پنجشير مثل الدهاليز طويلة ومرتفعة قليلاً، ومن أجـــل الدخـــول فـــيها يجب أن تقعد وتشب برأسك وأحيانًا تستقيم بقامتك، وحيـــنما تدخل هناك بقصد الحرب لن ترى شيئًا أمامك ويزول الخطر فى الظاهر وتظل تتقدم وهذه الحالة تجعلك مغرورًا أو مسرورًا أو متحيرًا.

وفـــى الواقع الحالات الثلاثة ستكون ضدك لأن الخناجر الحادة سوف تـــنزل علـــيك فجأة من عشرين ناحية على الأذن والرقبة والكتف والصدر والفخـــذ والساق، والخناجر حادة وسريعة فإذا أردت أن ترجع فإنك لن تجد إمكانـــية لذلـــك لأنـــك ستكون محاصرًا والأرض ليست واسعة، وقد وقع جنرالات الاتحاد السوفييتى فى الفخ عدة مرات بهذا الشكل.

وفـــى الحقـــيقة وحتى عام ١٩٨٢م حيث أتموا حملتهم الخامسة على پنجشـــير كانوا يكررون نفس التكتيك، ولكنهم فى أواخر عام ١٩٨٢م فقط جـــددوا فـــى طريقة حربهم. وهذا التجديد أطال الحرب جدًّا دون أن تثمر نتيجة للاتحاد السوفييتى، ثم انتهت بوقف إطلاق النار.

وكـــان أكـــبر نقطـــة ضـــعف للسوفييت فى حرب أفغانستان هو قلة المعلومات، أما الإحصاء فهو المرض الآخر الذى أصيب به السوفييت ففى كل تقرير يجب أن يعطى الحساب والإحصاء جيدًا، وإذا لم يكن لديك دفتر حساب فماذا يكون؟ تكون مضطرًا أن تعد من نفسك قائمة أو أرقامًا، فالآن إذا أردت أن تراجع كشوف خسائر المجاهدين فى أرشيف السوفييت فستجد

= الطـــريق الضـــيق حـــول الجبل حتى وصلت إلى أعلاه حيث يوجد قبر أحمد شاه مســـعود فوق ربوة عالية، والذى ينظر من نافذة العربة ويرى النهر فى أسفل الجبل يصـــاب مـــن الخوف والفزع بدوار شديد، وكان السائق يسير بسرعة شديدة لدرجة أفزعت الراكبين طول الطريق. (المترجم)

أنهـم حملوا المجاهدين خسائر تبلغ عشرة أضعاف مجموع المجاهدين فى أفغانستان.

أحمـد شاه مسعود وهو مثال نادر حتى الآن لا يوجد معلومات دقيقة لديهـم عنه بخصوص تعليمه أو أى شيء عنه، حتى من المطبوعات التى كانوا يستطيعون الحصول عليها هذا فى الوقت الذى ظلوا فيه تسعة أعوام فى أفغانستان.

وهذا الضعف الذى كان يوجد فى عملياتهم فى پنجشير أنهم لم يدركوا أننا نعانى وضعًا سيئًا، وجرت الأحداث أن القوات السوفييتية قامت بثلاث حملات على پنجشير قبل عام ١٩٨٢م فى عامى ١٩٨٠، ١٩٨١م ولم تأخذ كل واحدة من العمليات السابقة أكثر من ثلاثة أسابيع أبدًا.

عمليات عام ١٩٨٢م من حيث الوقت والتكتيك كان فيها جديد وأيضًا من حيث الوقت والزمان.

أمـا نحن فلم يكن لدينا أى نوع من الاستعداد الذهنى والعملى لحرب تستمر لعدة أشهر وحينما مضت عدة أسابيع من الحرب كنا نفكر أن تنتهى بسـرعة، ولكـن مضت الأيام والأسابيع والشهور ولم يكن هناك خبر عن نهايـة الحرب، كان الخبر الوحيد الذى يصل هو الذخائر التى كانت تفرغ بالتدريج، ولكننا كنا لا نزال نفكر بأن العمليات سوف تنتهى اليوم أو غدًا، وسوف يذهبون ثم يعودون بعد عدة أشهر، إننا كنا ندرك تمامًا أن الاستعداد لحملـة علـى پنجشـير بالنسبة لهم لن تكون فى مقدورهم قبل عدة أسابيع وطبعًا كان هذا يعطينا فرصة للاستعداد، وكان تفكيرنا هذه المرة أن العدو بـدأ علينا حرب إبادة وسوف يظل حتى النهاية ومن الناحية العسكرية إن إدامـة الضغط على العدو هو أحد أصول الاعتداء. وهو الشيء الذى كان

يقوم به الاتحاد السوفييتى عام ١٩٨٢م وحسبما نظن إن تكتيكاتنا كما كان يقول مسعود هو عين تكتيكهم يعنى حرب الإبادة وهو قطع إمدادات العدو، وهم كانوا يفعلون هكذا وكانوا يقطعون طريق إمداداتنا، وفى الأماكن التى كانوا أنفسهم لا يستطيعون كان الحزب الإسلامى الذى يتزعمه حكمت يار يقطعهـا فـى سبيل الله. بخصوص الحزب الإسلامى لحكمت يار يجب أن نشـير لهذا الموضوع حتى لا نخرج من دائرة الإنصاف، كان سلوك قواد الحـزب الإسـلامى معنا ليس سلوكًا عدائيًا دائمًا فى كل وقت وهذا متعلق بالقـائد وبـنوع شخصيته وإلى أى حد يصغى إلى پيشاور أما بشكل عام كانت العلاقات على السطح هى تبادل إطلاق النار.

ذخائرنا انتهت تقريبًا بعد ستة أشهر، والناس الذين كانوا سندًا مهمًا لنا بدأوا رويدًا رويدًا يخرجون من الوادى، وتحملوا على عاتقهم آلام وعذاب وادى أنـدرآب الـذى كان قائده ظاهرًا من الحزب الإسلامى وباطنًا تديره الدولـة الشيوعية، وكما قلت فى التعريف ببنجشير إن نهاية وادى پنجشير تـتعلق بأربع ولايات أخرى من جملة ذلك أنها تتصل بولاية بغلان. ولكن هذا الاتصال عن طريق الجبال وليس هناك طريق للسيارات ولكن تم بناء الطـرق بعـد ذلك، وطوال أيام الشتاء تكون الطرق مسدودة، هناك طريق واحد فقط يمر من ولاية بغلان فى الشمال عن طريق جبل خاواك وهو أقل الجـبال ارتفاعًا بين پنجشير والشمال، والعبور من جبل خاواك فى الشتاء بالنساء والأولاد هذا يكون معناه استقبال الموت؛ لأن هذا الجبل لا يمر عام من الأعوام دون أن يدفن فيه أشخاص تحت مئات الأطنان من الجليد، فى الشـتاء العـبور من خاواك يعنى من مكان إلى مكان يأخذ خمس ساعات بالنسبة للرجال وأكثر من ذلك بالنسبة للنساء، وهذا فى حالة ألا تكون هناك عواصـف ثلجية، وإذا بدأت العواصف فإن عذاب نزع الروح تحت الثلوج

لن تراه بعيدًا.

هــذه هــى الحرب التى تمت فى الشهر السابع والثامن، وأعطتْ قمم الجــبال الخَــبَر عن مجيء الشتاء وليس هناك خبر عن نهاية الحرب، ولم يســتطع الــناس فــى ذلك العام أن يحصدوا حاصلاتهم؛ لأنه وقت نضج المحصول كانت طيارات العدو تقصف النار بالقنابل الجديدة، ومن بين هذه القــنابل مــواد مشــتعلة ملفوفة بأقمشة كانت تتناثر ويحرقون بها الزرع والضــرع. وپنجشــير وادٍ ضيق وأرضه قليلة ولهذا السبب فإن أكثر أهله يعيشون فى كابل وفى المدن الأخرى.

وفى الوقت الذى تبدلت الأرض الزراعية إلى دخان أسود يتصاعد فى الهواء، كان رب الأسرة يتحير أمام هذا السؤال أين يذهب ؟ إلى الباكستان أرض الإهانــة بالنسبة للمهاجر، إنهم لم يذكروا له قليلاً من القصص عن ضــرب البوليس الباكستانى وإهانته فأين إذًا إلى كابل ؟ خاد ! المخابرات الأفغانــية حيــث التحقيق وكهربة الجسد والضرب بالعصى ونزع الأظافر ونجيب وقيود اليد والأخذ وفى ظلمة الليل الضرب بالرصاص، وذلك بجرم عدم التسليم إلى الاتحاد السوفيتى.

فــأى رجــل عــاقل كان يريد أن يذهب بأقدامه إلى القتل بيد نجيب ويشقى زوجته وأبناءه، هل تعلم أن النساء فى بلادنا سيئات الحظ؟! السوء الأول أنهــن لا يدركــن حقوقهــن، وثانيًا أنهم لا يعترفون بحقوق المرأة، والمــرأة فى وطننا ليست مستقلة استقلالاً اقتصاديًا؛ لأنها مرتبطة بالرجل ارتباطًا كاملاً، وحينما يموت الرجل فالمرأة علاوة على سوء بختها وحظها فــإن الأيام الشؤم السود سوف تحيق بها خاصة فى الوقت الذى يريد ورثة الزوج أن يزوجوها لشقيق الزوج وهى لا تستطيع أن تقول شيئًا، إن مجرد

تصـــورى أن زوجتى سوف يزوجونها لشقيقى أو زوجة شقيقى يزوجونها لــى أفقد صوابى وأتمنى أن يجيء اليوم الذى تستطيع فيه المرأة التخلص من بعض هذه التقاليد الجاهلة، ولا يعرف الإنسان شيئًا عن اسم هذه التقاليد مرة أخرى.

وهذا الرجل الذى هو سند أسرته الوحيد مع معرفته بهذه الأحوال إذا ووجه بسؤال: الذهاب الإجبارى إلى أين ؟

هــل إلى مناطق حرة أخرى؟ وهل هناك مكان تستطيع أسرة فيه أن تستقبل أسرة أخرى؟ ولكن هل تستطيع أن تساعدها إلى مدة غير معلومة؟ الســوفييت لــم يقولــوا متى ينسحبون؛ كانوا يقولون إن قطاعاتهم محددة وليست مدة إقامتهم.

إنــك تســتطيع أن تحس بحالة رب أسرة رجل ليس بمفرده معه عدة أطفــال والأصــعب من ذلك لرب الأسرة هو أسرة شقيقه الذى يحارب فى الخــندق تكــون علــى عاتقه أيضًا، وكما قلت سابقًا إن سقوط الثلج على المــرتفعات قــد بــدأ رويدًا رويدًا ونزح الناس الذين يعيشون فى الأودية الفرعــية إلى السفوح وهو المكان الذى تدور فيه الحرب مستمرة، ولم يبق شــيء فــى منازلهم وكانوا يتحركون مجبورين ناحية جبل خاواك ليسلكوا طــريق الشــمال، وفى الحياة ممكن أن يواجه الإنسان بمثل هذه الحالات بحيــث يبقى العقل عاجزًا عن أى مساعدة، وفقط التوكل على الله هو الذى يســتطيع أن ينجيك من الانهيار الكامل ويوجد فى داخلك الأمل، إن التوكل موجــود فــى الإسلام وأظن أنه موجود فى الأديان الأخرى مثل اليهودية والمســيحية، إن الذيــن يحسبون كل شيء بالرياضيات فى حياتهم مفهوم التوكل لا يتبلور لديهم.

وحيـنما تعـزم على الرحيل توكل على الله، تحرك الناس مع نسائهم وأبـنائهم ومواشيهم إلى جبل خاواك، وكانوا يعلمون أنه كلما اقترب الشتاء يصـير الخطر أكبر فى خاواك وفى الوقت الذى عبرت فيه أول أسرة من خـاواك ذاع وشاع خبر سيء فى جميع أنحاء الجبهة، لقد أمر جمعة خان قـائد الحزب الإسلامى علاوة على الطريق الذى سده من قبل أن تعاد هذه الأسر، ومن أجل هذا العمل عين أحد قادته ويسمى قارى گلاب.

وكـان قارى گلاب ينتظر فى أول مبنى تحت جبل خاواك فى ناحية أندرآب حتى تصل تلك الأسر مقهورة ذليلة منكسرة، وفى ذلك المكان كان يوقفهـم ويسـتقبلهم هكذا: أولاً يشتم رجل الأسرة أمام زوجته وأبنائه بكل سب وشتم قبيح وكلام حقير، ثم بعد ذلك يجلده بكرباج أمام زوجته وأبنائه حـتى يصير من الخوف كأنه ورقة الصفصاف فى مهب الريح، ثم يرجعه وأسرته إلى مكانهما. إننى أتذكر أننى كنت فى قرية سفيد چهر فى پنجشير حيـنما أعـادوا رجلين وأسرهما إلى مسعود وكان واضحًا على رأسيهما وشـكلهما آثار ضرب الكرباج، وشرحوا له قصتهما وما مر عليهما وبأى ظـروف عصـيبة رجعوا مع نسائهم وأولادهم من جبل خاواك. وبعد ذلك أشاروا إلى ضرب الكرباج على وجوههم وقالوا: لقد قال لنا قارى گلاب: إننى أضربكم على وجوهكم حتى يرى الجميع. وأنصت مسعود بدقة شديدة وكانت هذه عادته، وكان وجهه يتلون ألوانًا ألوانًا عندما يسمع، ومثلما كان يفعل دائما طأطأ برأسه إلى أسفل وذهب فى تفكير عميق، وليس لدى شك أن جمعة خان وگلاب وأندراب سوف يمثلون أمامه وسوف يحاسبهم يومًا. لا تنسَ أننى تحدثت للمرة الثانية عن أوضاع الجبهة فقد طالت الحرب فى عام١٩٨٢ م ولم يكن لدينا استعداد للحرب الطويلة، لقد تحدثنا عن مشكلات الـناس وعن مشكلات المجاهدين والأسلحة والملبس والمواد الغذائية التى

سـمعتموها علـى لسان مسعود نفسه، ولا لزوم لتكرارها. ويوجد أمران مهمان أشير إليهما ثم بعد ذلك نتجه إلى موضوع وقف إطلاق النار .

الأمـر الأول: إن حـرب شعب أفغانستان ضد السوفييت فى المواثيق العالمـية اعتبرت حربًا باردة واعتبرها الغرب مصيدة للاتحاد السوفييتى، وبـناءً علـى هذا فإن صوت كل بندقية ضد السوفيت انعكس فى الصحافة الغربـية ووجد صدى إلى حد جعلت كثيرًا منا يتعجب، وحينما هزمت أول حملـة للسوفييت على پنجشير علقت بعض وكالات الأنباء على ذلك ولكن ليس كثيرًا، وحينما انتهت حملتهم على پنجشير عام ١٩٨١م بهزيمة وجدت صدى واسعًا فى مطبوعات الغرب. وحينما انتهت حملتهم الثالثة التى كانت فى نفس العام إلى غير نتيجة وجد مسعود وپنجشير شهرة عالمية، فمثلاً فى فرنسـا أنـتج فـيلم تحـت اسـم (وادى فى مقابل إمبراطورية) وأرسلت المطـبوعات الغربية الأخرى رسالة من وادى پنجشير إلى السوفييت تقول فيها: هل من مبارز؟ وكانت تثيرهم وتزيد عصبيتهم.

هـل مـن مبارز هو اصطلاح عربى كان متعارفًا عليه فى الحروب القديمـة حيـنما كان يتواجه جيشان ويصطف كلاهما أمام الآخر؛ ويخرج شـخص شـجاع مـن الصف ويخطو للأمام عدة خطوات ويقول: هل من مبارز ؟ هل من شخص يبارزنى ؟ وعندئذ يتقدم أمامه شخص من الصف المقـابل ويتـبارزان شخصًا لشخص حتى يتغلب أحدهما على الآخر، أما الآخرون فلا يشتركون فى هذه المبارزة فقط كانوا يتفرجون، وكان مسعود يعـتقد أن هـذه الدعايـة ليست فى صالح الجبهة، وأذكر أنه ذات يوم فى اجتماع القادة قال : إن الصحافة تعادينا سواء علمت أم لم تعلم.

الأمـر الـثانى : إن پنجشـير من حيث الموقع الجغرافى تطل على

الطـــريق الرئيســـى لسالنگك الذى يعتبر الشريان الرئيسى لكابل، وهذا هو الذى جلب إليه اهتمام السوفيت أشد وأكثر.

وعمومـــا كان مسعود يقول: الوضع على المدى الطويل لن يكون فى صالحنا، وكان يفكر فى الخروج من هذه الأزمة لأن هذه الحرب تسير فى طـــريق طويل، وكان مسعود يتصور أن العدو وضعه فى مأزق ويريد أن يفعل كل أعماله بالضغط المستمر.

ما ذكره مسعود آنفًا كان له أهمية فى توسعة مناطق القواعد، وحول هـــذا الموضـــوع سوف أشير إليه بشكل مختصر إن مسعودًا طرح أربعة مـــراحل استراتيجية للحرب ضد الاتحاد السوفيتى وتحرير البلاد. وطرح هـــذه الاســـتراتيجية علـــى أســـاس شروط بلادنا من حيث وجهات النظر المخـــتلفة الجغرافية والسياسية والتاريخية والاجتماعية والثقافية والعسكرية كانت فى نوعها جديدة فى بلادنا، وهذه الاستراتيجية لهزيمة القوى المعادية وتحرير البلاد كان يلزمها طى أربعة مراحل:

المرحلة الأولى : وضع النطفة :

هـــذه المـــرحلة يـــبدأ الفدائيون مباشرة بالحرب ضد العدو، وفى هذه المرحلة يكون الفدائيون جماعات صغيرة ولا يحاربون العدو مباشرة وجهًا لوجـــه، ويمتـــنعون عـــن إظهار أنفسهم ويعملون أكثر تحت الأرض وفى المخابـــئ، وقـــد طـــوت أفغانســـتان هذه المرحلة بسرعة وجاء الانقلاب الشيوعى ثم وُوجه بحركة الشعب التى تغلى.

المرحلة الثانية : مرحلة صنع القواعد :

مرحلة صنع القواعد هى أهم مراحل حرب العصابات، والقاعدة تكون مـــنطقة محـــررة مـــن أجل إقامة وتشكيل الفدائيين، وعمومًا فإن المناطق

الجبلية وصعوبة العبور لها مثل هذه الظروف.

وادى نـور فى ننگرهار، ژور فى پكتيا، أرغنداب فى قندهار، زنده جـان فى هرات، شولگر فى بلخ، يكاولنگ فى باميان، فرخار فى تخار، وتقريـبا كـل بدخشان، واغجان فى لوگر، وجگدلك وشكردره فى كابل، وپنجشير فى پروان، وهذه أمثلة من مناطق القواعد.

بعـد إيجـاد مـناطق القواعـد الموضوع المهم هو المحافظة عليها فالمحافظـة على القاعدة وأيضًا المرحلة التى تلى صنع القاعدة هما اللتان تسيطران على العدوان الاستراتيجى، فمناطق القواعد يجب أن تتوسع وهذا أساس مهم جدًّا لاستمرار الحرب.

فمسعود فى مرحلة صنع القواعد وُوجه بحملات متعاقبة، فقاعدة مثل پنجشـير لـم تستطع أن تستمر بأى صورة تحت الضغط المستمر للعدو، وكانـت اسـتراتيجية مسـعود هى التى تفرض فى أن تؤسس عدة قواعد أخرى، ولكن حرب ١٩٨٢م كانت تشير أن العدو هو الذى طلب مسعودًا، ومع معرفته بعلم حرب العصابات وامتلاك المعلومات عن الجبهة الداخلية فقـد أطـال جـبهة الحرب ليخلص نفسه من الهموم المستقبلة فى مثل هذا الوضـع الذى اقترح فيه الاتحاد السوفيتى وقف إطلاق النار، كان مسعود لا يصدق أن السوفيت يقصدون وقف إطلاق النار، وحقيقة أن قواتهم كانت فى وضع سيئ، وهم من أجل حرب أخرى يحتاجون إلى فرصة، ولكن لأن رؤيـة جـنود الـروس عن مسعود كانت أفكارًا ساذجة فقد أعطوه فرصة للطـيران من المصيدة، ففى الواقع إن السوفيت بوقف إطلاق النار ارتكبوا أكـبر خطـأ لعدم معرفتهم بشخصية مسعود، فمسعود فى خلال عام وقف إطـلاق الـنار صـنع أربعة قواعد مثل پنجشير وهى: اندرآب، خوست

وفرنگك خيلاب وفرخار. كان يريد أن يجر السوفيت فى الحروب بعد ذلك إلى ساحة واسعة، إنه لن يتقابل مع السوفيت فى پنجشير مرة أخرى بل فى ساحة كبيرة فى شمال أفغانستان والتى هى أكبر من پنجشير مئات المرات فبدأ فى النشاط. والجدير بالذكر أن السوفيت كانوا لا يزالون بصدد التفكير فى توجيه ضربة إلى پنجشير مثلما حدث بعد وقف إطلاق النار، فإن أحمد شـــاه مسعود تمكن من صد حملة كبيرة، ففى هذه الحملة استخدموا طائرة قاذفـــة قـــنابل ١٦٠ Tu واســـتخدموا آلاف العســـكر ومـــئات الدبابات والتجهـــيزات العسكرية ولكن مسعودًا أخلى الوادى من الناس والقوات قبل الضرب بثمان وأربعين ساعة.

وهجـــم الســـوفييت على الوادى الخالى، ويا لها من عمليات كل هذه التجهيزات الاستخباراتية وهذه الجنود وهذه المعدات وهذه التكاليف لإثبات الذات أمام العالم، مع الجهل بأن آلاف الأشخاص بما فيهم النساء والأطفال والمواشى قد تركوا الوادى، فماذا فعلت كل هذه الطيارات التى كانت تحلق فوق رؤسنا قبل عدة أيام من وقف إطلاق النار وماذا كانت الفائدة من هذه التكاليف ؟

لقـــد استفاد مسعود فى كل دقيقة من وقف إطلاق النار، حتى وقت أن بدأت المباحثات من جديد جعلها فى صالحه واستفاد منها فى تطبيق مرحلة استراتيجية:

فقـــد كان أول خطواته نزع سلاح أفراد الحزب الإسلامى فى پنجشير نفسها، والتى كان لا يأتى من تحركاتهم إلا نزيف الدم.

قلـــت قـــبل ذلك إن الهدف من هذه العمليات هو تصفية أفراد الحزب الإسلامى الذين كانوا يجاهدون من أجل حكمت يار.

أما هؤلاء الذين كانوا يجاهدون من أجل الله فهم موجودون حتى الآن ويعتبرون من المجاهدين العظام مثل القائد طارق.

أما الخطوة الثانية فكانت تصفية آندرآب ، فقد صفيت أندرآب فى هجـوم مباغـت فـى ليلة باردة فى الشتاء حيث العبور الصعب من جبل خـاواك، وفـر جمعة خان قائد اندرآب الذى كان يعتبره الحزب الإسلامى أحد أفراده وكذلك كان يعتبره السوفييت. وكان القرار أن أشْتَرِكَ أيضا فى العملـيات، ولكن حذائى كان قديمًا جدًّا، ومهما جدوا فى البحث عن حذاء فـإنهم لـم يجـدوا لـى حذاءً وأراد مسعود أن يعطينى حذاءه فلم أرض واضطررت للبقاء. لابد أنك تريد أن تعرف أين فر قارى گلاب ؟ لا بأس لقد أراد أن يهرب ولكنه تأخر ليلبس ملابسه الشتوية وكان الفتيان قد وقفوا خلف داره.

مـن الجائـز ألا تصدق أنهم أتوا به محترمًا إلى مسعود، وكان قائد سـاحة هـذه العمليات هو القومندان ميرزا الذى استشهد ضد طالبان عام ١٩٩٦م. رأيـته ذات مرة بعد العمليات وسألته : لماذا لم تعاقبه؟ فقال: لقد صـفعته صفعة شديدة على وجهه. فقلت: لماذا لم تضربه أكثر ؟ قال: لقد احـترق قلبى من أجله، إنه فى النهاية صار أسيرًا. ليرحم الله القائد ميرزا إلى أى حد كان عظيمًا.

أمـا بخصوص مصير قارى گلاب فسوف أذكر ذلك فيما بعد، والآن سـوف نرى ما هى الفائدة التى جناها مسعود فى صالحه من وقف إطلاق النار.

فمسـعود مـثلما جـاء آنفًا وفق أن يجمع قوات الجمعية فى الشمال وشمال شرق فى مجلس واحد عرف باسم مجلس شورى النظار، وزاد من

فعاليـــته ونشاطه كذلك تشكيل القطاعات المركزية، كان الإقدام الثانى وقت فرصــــة وقف إطلاق النار فالقطاعات المركزية والقوات المنظمة لمسعود كان يريد أن يجعلها أساسًا لجيش المستقبل فى أفغانستان، هذه القوات كانت مقدمة لكل العمليات التى كان يبادر بها مسعود وينهض بها، وهذا كان من ثمار وقف إطلاق النار.

ولهـــذا كان يقول: إن وقف إطلاق النار كان فرصة ذهبية، واعتبره القادة معقولاً، وتمنى العلماء أن يكون فتحًا مبينًا.

أمـــا السوفيت ما هو الهدف الذى كانوا يريدون أن يحصلوا عليه من وقف إطلاق النار ؟

مسعود فى ذلك الوقت أجاب على قادته الذين سألوه: فى نظرك ما هو هدف السوفيت من وقف إطلاق النار ؟

تنـــبأ مســـعود وتكهـــن بأربعة أشياء : التجسس والتسلل بين الناس، الإســـاءة إلـــى الجـــبهة، اغتيالى، الاستعداد لحرب أخرى. وكانت تنبؤات مسعود صحيحة ولكنهم لم يوفقوا فى أى واحدة منها. أولاً التجسس والتسلل بيـــن الناس لم يستطيعوا أن يقوموا فيه بعمل مهم، وإلا لظهر شخص واحد وأخـــبرهم فـــى هجوم ١٩٨٤م أنه لا يوجد إنسان فى الوادى فلا تضربوا سهامكم فى الحجر.

أمـــا بخصوص الإساءة إلى الجبهة يجب أن أقول: إن أعداء مسعود ومـــنهم حكمـــت يار أشاعوا إشاعات كبيرة، ومن جملة ذلك ما قرأناه عن مولـــوى تـــره خـــيل فى درس التفسير والذى طبعه متعجلاً تحت عنوان (مـــوالاة الكفـــار) وبطـــريقة غـــير مباشرة كفر مسعودًا وأسماه جاسوس السوفييت.

كانـــت إشاعات حكمت يار والبعض الآخر من الإخوان المسلمين قد تركـــت ظلالها على الوجه الإسلامى لمسعود أمام المسلمين العرب، وهذا الأمر ليس مجالاً للشكوى فالإخوان المسلمين فى أفغانستان من البداية كان لهم سيف ذو رأسين يضربون به الصديق ويضربون به العدو [١].

أما الهدف الثالث وهو الاغتيال فهذا كان له برنامج أيضًا؛ أثناء وقف إطـــلاق النار أقدم اثنان من جهاز المخابرات الروسية على اغتيال مسعود، وانتهى كلاهما بالفشل فإلى أى حد كان للمخابرات الروسية (K G B) دور فى ذلك لا أعرف.

ولكـــن البندقية والسم الذى هيئ لقتل مسعود موجود حتى الآن والذى نستطيع منه أن نظن ظنًا يقرب إلى اليقين يدل على اشتراك (K G B) فى عملـــية اغتـــيال مســـعود، وليس هناك مجال لإلقاء اللوم على المخابرات الروســـية لأنـــنى إلـــى الحـــد الـــذى أعلمـــه وهو قليل جدًا أن الإدارات الاستخباراتية التى تكون بريئة من هذا النوع من الإجراءات من الجائز أن تكون مشغولة فى البحث عن طرق أقصر للوصول إلى الهدف.

الهـــدف الـــرابع من وقف إطلاق النار من الممكن أن نسميه الهدف الأساســـى يعـــنى الاستعداد لحرب أخرى تم جيدًا وكما ذكرت آنفًا انتهى بالهزيمة.

فقد قيم مسعود انتصاره فى عمليات ١٩٨٤م على السوفييت بأنه نصرٌ اســـتخباراتى وهزيمتهم بأنها هزيمة استخباراتية، اسمحوا لى هنا أن أنكر

---

(١) فـــيما يـــبدو أن هذا الرأى ليس هو الرأى العام للكاتب عن الإخوان ، كما يتضح فى صـــفحات هـــذا الكتاب وخصوصًا فى حديثه عن المهندس حبيب الرحمن وغيره من زعماء الإخوان ، ويبدو أنه رأى متعلق بموقف ما فى هذا السياق (المترجم) .

عــدة نقاط هى فى نظرى جديرة بالذكر؛ إننى حتى الوقت الذى لم أر فيه أناتولى كنت أظن أنه عليم بكل تفاصيل وقف إطلاق النار، ولكن فى الواقع إنه كان خلاف تصورى بالنسبة لهذه المسألة التى بينتها، كان أبسط سماته يدل أنه كان ضابط مخابرات يذهب إلى پنجشير وكان لديه حبًّا شخصيًا أن يعرف الحقائق ويدركها.

وقــد تأثر من الوضع فى الوادى وأراد أن يمنع القتل بشكل أو بآخر فــيقول أفكـــاره فى موسكو لرئيسه إيواشوتين الذى كان رئيسًا للمخابرات فيقــبل الآخــر بعد البحث. بعد ذلك أذكر لكم الأحداث على لسان أناتولى، إننى حينما رأيت أناتولى فى موسكو صدقت أن هدفه كان منع القتل بالنسبة لجنودهم، وبعبارة أخرى: إن الباعث لديه كان عاطفيًا أما هل يا ترى كان له هدف أعلى من ذلك أشك أن الأمر كان كذلك.

ولكــن لماذا لا يكافئ جهاز المخابرات ضابطًا لديه قام بوظيفته على أتــم وجــه، بــل إن جهاز المخابرات بنوعٍ ما يعاقبه ؟ من كلام أناتولى: أعــرف أن المؤيدين للحرب لم يكونوا راضين عن عمله، ويظهر من ذلك أنه فى هذا الوقت مع وجود الحكر الشديد على الأفكار وجد أشخاص كانوا يفكــرون تفكيرًا واقعيًا ومُضِىْ الزمان دل على أن الواقعيين احتلوا مكان المستبدين بالرأى والمصرين على رأى واحد.

فلــو تذكــرون بعد الفترة الأولى لوقف إطلاق النار والتى كانت ستة أشهر أتت هيئة أخرى وقرأتم أحداث المشاجرة والجدل على لسان مسعود، ورئيس الهيئة الثانية كان يدعى اللواء اندرى پوف (يورى بتروفيتش) وقد التقيــت بـــه فى موسكو، وفى البداية سألته هل حقيقة أنك داومت فى أداء وظيفة أناتولى ؟

قال: نعم. فأضَفْتُ إن مسعودًا روى لى بالتفصيل أول لقاء معك والآن أريــد أن أسمعها منك، وفى البداية قدم شرحًا مفصلاً عن المساعدات التى قدمها لأهل أعنابه، وقد ندمت لماذا لم أحضر شكرًا من أهل أعنابه إليه !!! فكــل هــذا اللطــف والكرم والإحسان والسخاء والعناية والدقيق والسمن والســباخ للفلاحين، وعلى حد قوله تأمين الصلح والسلام أى أناس غافلون جهــلاء !!! ثم قال بعد ذلك: إنه ظل يمارس هذه الوظيفة فى أعنابه حتى آخر وقف إطلاق النار. وذات يوم ذهب ليتوسط أبعد من الساحة قليلاً بين زوجة وزوجها فسقط فى فخ المجاهدين فنادوا الترجمان الذى كان غائبًا فى هذه اللحظة الحساسة.

وكان المجاهدون يترددون فى كونه روسيًا فأعطاه واحد منهم ذخيرة صــاروخ آربى جى ليقرأ كتابتها الروسية فتجاهل وقرأها بالإنجليزية حتى لا يعــرفون أنه روسى ويقولون إنه يوغسلافى، ويأتى الترجمان ويخلصه وآخر الأمر لم ير مسعودًا مطلقًا، ولم يلتق معه.

أما سؤالى لك مثل أناتولى ما هى المكافأة والجزاء الذى أعطوها حتى يقــدروا دورك من أجل الصلح فأجاب إجابة جيدة: إنهم يعطون العسكريين النياشين والأوسمة فى الحرب وليس فى السلم.

وبهــذا الشــكل انــتظرت حتى تتحدث السلطات الأعلى من أناتولى ويورى اندرى يوف، ويقولون ماذا كانت أهدافهم من وقف إطلاق النار.

النقطة الأخرى فى أقوال مسعود وأناتولى فيها تناقض، فَحَسَبْ أقوال أناتولى قرار الهدنة كان شفاهة ولم يتبادلوا أى سند رسمى، فى الوقت الذى كان مسعود يذكر جزئيات هذه الاتفاقية بالنسبة لوقف إطلاق النار لأن بنود الاتفاقــية موجودة، ولكن حتى وقت كتابة هذا الكتاب بالنسبة لقصر الوقت

لم تكن فى يدى وإن شاء الله سوف أطبعها فى المجلد القادم.

والآن سنرى كيف كان مصير قارى گلاب الظالم، أمضى قارى گلاب عدة أسابيع فقط فى السجن وعفا عنه مسعود وكتب له قرارًا بأنه ليس لإنسان حق فى إيذائه، كان لدينا فى الجبهة مفتش اسمه مشتاق كان يصيب الجواسيس بالرعب ولقد لعب مشتاق دورًا مهمًّا فى تصفية الجواسيس فى الجبهة، ولقد ذكرت سابقًا عدم توفيق السوفييت فى أعمال الاختراق والجاسوسية داخل الجبهة. وهزيمة السوفييت فى أعمال الاختراق والجاسوسية يرجع سببها الأساسى لمشتاق، كان صدامه مع الجواسيس خشنًا وقاطعًا، ذات يوم أحضروا إليه جاسوسين وبمجرد أن عرفا أنهما سيؤخذان إلى مشتاق قذفا بنفسيهما من فوق الكوبرى إلى النهر. من الجائز أن تكون صورة الإنسان القاسى القلب قد أتت إلى ذهنك، ولكن على العكس كان مشتاق آغا شاعرًا جيد القريحة وإنسانًا ظريفًا لا يمت بصلة لحرفته، وإن شاء الله فى كتابى القادم سوف أورد نماذج من أشعاره الجميلة.

أما عن مشتاق وقارى گلاب فاسمع على لسان مشتاق فى خارج إدارتى التى كانت بالقرب من الطريق، كنت أتنزه فى (قرية دشت ريوب بنجشير) فقدم أحد الموظفين عندى وقال : يا سيد مشتاق إن الشخص الذاهب أمامك هو قارى گلاب. فسألت : من هو قارى گلاب ؟ قال: إن قارى گلاب مشهور بأذية الناس فأعطيت أمرًا أن يحضروه إلىَّ فذهبوا وأحضروه وكان يبدو مضطربًا.

فسألته : ما اسمك؟

فقال: گلاب الدين.

فسألته: هل أنت قارى گلاب؟

فقال: نعم.

فســألته: لماذا كنت تضرب الناس بالسوط؟ ولماذا كنت ترجع النساء والأطفال من جبل خاواك؟

فــأدخل يده فى جيبه وأخرج ورقة وفتحها فرأيت مسعودًا كتب له ألا يؤذيه أحد، فنظرت إليه وإلى الأمر مرارًا وتكرارًا وقبلت توقيع أحمد شاه مســعود عدة مرات ثم هجمت على رأسه وضربته بالأيدى والأرجل وفى عدة لحظات تعبت ومنعنى مَنْ عندى من الموظفين فنهض من مكانه وكان يــرتعد مثل أوراق الصفصاف، ولم أكد أستريح حتى تذكرت ماذا أفعل إذا علــم مســعود، فــبدأت العمل فورًا فأمرت أن يأتونى بجواد على عجل، وأركبــت قارى كلاب ومعه ثلاثة حراس، وقلت لا تتوقفوا لحظة واجعلوه يعبر جبل خاواك فى الليل.

وقــارى گــلاب كان لا يملك شيئًا صار يملك جوادًا يسبب غضبى، ولكــن ظلت الشكوك والوساوس تساورنى خوفًا من سؤال مسعود، وكنت أعلــم أن شــبكة المعلومات الخاصة سوف تبلغه هذا الخبر بأقصى سرعة ممكنة. فلم أنم طوال ليلتى وظللت أفكر ماذا أقول لمسعود فخطر فى ذهنى طــرقًا مختلفة للحل، وفجأة سمعت صوت عربة فنظرت من النافذة كانت عــربة مســعود فقلــت للحراس قولوا له: لست هنا واختفيت داخل حجرة ورأيت العم شهاب الدين سائقه وسأل: أين مشتاق ؟ قالوا: ذهب إلى مكان، فقــال: أيــن ذهب؟ قالوا: لا نعلم، قال: حينما يحضر قولوا له أن يحضر بمنــتهى السرعة عند سيادة الرئيس (آمر صاحب [١]) ومن لهجته ظهر أنه يعرف.

(١) لقب مسعود باللغة الفارسية آمر صاحب أى سيادة الرئيس (المترجم).

فلــم أنتظر فجمعت ملابسى وفررت من الإدارة متنقلاً من قرية إلى قرية وفى النهار لا أظهر نفسى لأحد، وبحث مسعود عنى فى هذه المدة.

ولا زلــت أفــر حتى شعرت بانقباض فى قلبى وعلى جانب الطريق كنت أمر من قرية بازارك، وفجأة وقفت عربة مسعود أمامى ولم يكن هناك مجــال للفرار وبدأ قلبى فى الخفقان بسرعة، ونظرت ناحية زجاج السيارة فكــان مســعود جالسًــا، كنت أعرف أننى لست محظوظًا حتى لا يرانى مســعود، توقفت العربة وأشار أن أذهب إليه لم تكن أرجلى تساعدنى على المشى فذهبت بالقرب منه وكان يريد أن يخفى ابتسامة مع الغضب، فجرت الدمــاء قلــيلاً فى عروقى وقال : أين أنت أيها الآدمى ؟ ودون أن ينتظر الجواب أمر أن أذهب لإنجاز أعمال فلان وفلان، الحمد لله مرت بخير.

وحيــنما كنت أتحدث مع مسعود بخصوص وقف إطلاق النار سألت مسعودًا عدة أسئلة كانت إجابتها كالتالى :

إنــك قلــت أنك سمعت أنهم اتهموا أناتولى فى الاتحاد السوفيتى لأنه وقع اتفاقية لصالحك نظير تقاضيه رشوة فهل هذا حقيقى ؟ فقال: ليس هذا حقيقــيًا أنــاتولى ضابط حساس عارف بأمور وظيفته وكان يقوم بمهامها جيدًا.

إننى فقط قدمت هدية إلى الترجمان أمير محمد السمرقندى عبارة عن ســكين ولم تكن ثمينة أو نادرة (١). أما العمل الذى عملته من أجل أناتولى ففى أحد المرات كان لقاؤنا يتصادف مع عيد ميلاده فقال أناتولى: مع أن الــيوم هو عيد ميلادى وكان يجب أن أكون مع أسرتى، ولكن بسبب أننى

---

(١) مــن عــادة الأفغــان أن يقدمــوا هدية إلى ضيفهم إظهارًا لزيادة الحفاوة والترحاب (المترجم).

أفضـــل السلام فسوف أكون معكم، فقلت: ليس فى الأمر مشكلة نحتفل هنا بعـــيد مـــيلادك وأمرت أن يحضروا خروفًا فأحضروه فقلت: لأناتولى هذا خـــروف، فقال : ماذا أفعل به؟ فقلت له: الآن أمسك السكين واذبحه بيديك وبعد ذلك نشويه ونأكل، فقال أناتولى: لا لا أنا لا أستطيع أن أذبح خروفًا، فقلت: ماذا تعنى؟ تستطيع أن تذبح إنسانًا أما الخروف لا ؟ فضحك الجميع، وبعد ذلك ذبح الفتيان الخروف وشويناه.

هـــذه الـــرواية صـــدقها أناتولى حينما التقيت به فى موسكو، سألت أناتولى : فى المرات التى قابلتَ فيها مسعودًا ما هو الشيء الذى علق أكثر بذاكـــرتك فأجاب أناتولى : شيئان علقا بذاكرتى أكثر بخصوص مسعود : الأدب والعقل.

التعريف بمسعود

ولد أحمد شاه مسعود في ١١ سنبلة عام ١٣٣٢ هـ ش الموافق ٢ سبتمبر ١٩٥٣م في قرية جنگلك في پنجشير، والده هو دوست محمد كان ضابطًا عسكريًا، وجده هو يحيى خان يعتبر من أكابر القوم في پنجشير، وكان يشغل أمين خزنة النقد الأفغاني في عهد الملك أمان الله خان الحر الأبي صاحب النزعة التحررية، وهذه الوظيفة ليحيى خان مكنته أن يلحق ابنه في سلك الضباط، وفي هذا الوقت كان الانخراط في المؤسسات التعليمية العالية وسلك الضباط يسهل للأشخاص أن يشقوا الطريق للصفوف العليا في المملكة وقد تمتع يحيى خان بهذه المكانة.

أما والدة مسعود فقد كانت ابنة ميرزا محمد هاشم خان وهو أيضًا من أسرة معروفة متعلمة وكان من الرخة في پنجشير، أما من ناحية الثروة فقد كان مسعود من أسرة متوسطة من ناحية والده ووالدته، تزوج دوست محمد والد مسعود ثلاث مرات تزوج للمرة الثالثة بعد وفاة الزوجة الأولى والزوجة الثانية وكان له من زوجاته الثلاث أحد عشر ولدًا ستة ذكور وخمس إناث.

من الزواج الأول ولدان: ابن، وبنت.

ومن الزواج الثاني سبعة من الأولاد: أربعة ذكور، وثلاث بنات.

ومن زواجه الثالث ولدان: ابن، وبنت.

وكان لدوست محمد خان والد مسعود من زواجه الأول بنت وولد، وابنه دين محمد الذي كان ضابطًا اغتيل أثناء الهجرة إلى باكستان ١٣٦٦ هـ ش (١٩٨٨م).

ومـــن زواجه الثالث كان له ولد وبنت واسم ابنه شعيب ومن زواجه الـــثانى كان لديه سبعة من الأولاد: أحمد شاه مسعود كان الابن الثالث من زوجته الثانية وقبل مسعود كان هناك أخت وأخ أكبر منه والأخ هو يحيى.

وبعده هناك شقيقاه أحمد ضياء وأحمد ولى، ولما كان والده أحمد شاه مســـعود يتنقل بين المحافظات المختلفة بحكم عمله فإن جميع أشقاء مسعود ولـــدوا فى محافظات مختلفة: مثلاً يحيى شقيقه الأكبر ولد فى مدينة بغلان، وأحمد ضياء فى غزنى، وأحمد ولى فى كابل، أما مسعود فى پنجشير. ومن الجائز أن يكون الله سبحانه وتعالى أراد لمسعود أن يكون عارفًا من البداية بالجـــبال، ولأن أول شـــيء سوف تقع عليه عيناه فى الطبيعة هو الجبال، فـــأول منزل له فى كابل كان فى سفح الجبل فى (ده أفغانان)، وأول نضال له بدأ من الجبل هو (انقلاب ١٩٧٤م). أما المنزل الثانى فقد كان فى سفح جبل كارته پروان وثانى نضال له أيضًا بدأ من الجبل فى پنجشير (١٩٧٩ م)، وفى كل وقت كان يتعرض لشدة كان يلجأ إلى الجبل.

الجـــبل بتعبير آخر معناه الصمود .. الاستقامة .. الشموخ، ودون أى تعبير آخر مطلقا لقد لعب الجبل دورا مهمًا فى حياة مسعود.

خـــدم دوست محمد خان والد مسعود فى فترة عمله فى سلك الضباط فى محافظات مختلفة مثل: ننگرهار، وبدخشان، وبغلان، وغزنى، وهرات، وكابل، وأحيانًا كان يعين فى وظائف فى وزارة الداخلية مثل رئاسة ديوان محاكم وزارة الداخلية أو قائدًا للكشافة والبوليس فى هرات.

ووصل دوست محمد خان فى فترة انخراطه فى سلك الضباط إلى درجة لـــواء ووصل إلى مركز قائد لواء الكشافة. كان دوست محمد شخصًا متدينًا، كـــان يـــداوم على الصلاة وتلاوة القرآن الكريم وقت السحر وظل هكذا حتى

آخر حياته، وقد حصل في حياته على وسام في التصويب والرماية في پغمان، وكـــان يلعـــب بالســـيف في المناسبات العسكرية وأحيانا في مراسم العرض العسكرى في عيد الاستقلال. ورمى السيف هو عبارة عن أداء حركات به في مراســـم العرض العسكرى يؤديها ضابط جميل القد حسن اللياقة ويقوم بأدائها في أول صفوف المشاة.

وكانـــت والدة مسعود سيدة مؤمنة عفيفة ماهرة ونشيطة، وكانت تهتم اهـــتمامًا زائـــدًا بأخلاقيات أبنائها، وكانت تريد أن يكونوا أصحاب فضائل جميلة ومحببة، التقى أحد الصحفيين بيحيى في كابل في يوليو ٢٠٠٣م فقال حول هذا الموضوع :

كنا تحت الملاحظة الشديدة لوالدتنا، ففي فترة الشباب المبكر في فترة البلوغ كنا نحضر إلى المنزل متأخرين فكنا نوبخ من والدتنا.

أذكـــر ذات مرة أنا ومسعود حصلنا على درجات عالية في امتحانات نهاية العام وأخبرنا والدنا بالنتيجة حتى يكافئنا كما وعد، وحينما رأى والدنا الدرجـــات قـــال: إننى مسرور من نتائجكما وكما وعدتكما سوف أعطيكما الجائـــزة، وحينـــئذ قالت والدتى : أنا لا تسرنى هذه الدرجات بهذا الشكل لأنـــنى ســـوف أسر حينما يكون أبنائى فرسانًا رماة يتعلمون الخطابة، ثم التفتـــت إلـــى والدى وقالت : قلت لك عدة مرات حينما تذهب إلى پنجشير اذهـــب إلى المسجد الجامع في الرخة واخطب في الناس وخذ أبناءك معك حتى يتعلموا.

وقـــد وفـــق والد مسعود إلى حد كبير أن ينفذ وصية زوجته، وحقق مســـعود آمـــال والدته تمامًا ولكن العمر لم يمهلها حتى ترى أحلامها في الواقع.

واكتسب مسعود من والده ووالدته أكمل الشيم والفضائل، فقد كان يشبه والده في جمال الرجولة وبهائها ومنذ نعومة أظافره تعلم منه الحياة العسكرية والرماية، أما التبتل والعبادة المتصلة والزهد والعفاف فقد كان مدينًا في ذلك لوالدتـــه. لقد حمل إرث هذه الصفات منهما معًا وظل مداومًا على ذلك حتى اللحظة الأخيرة في حياته.

فترة الطفولة
حتى نهاية الصف الثانى عشر

الصف الأول :

كـــان مســـعود فى فترة طفولته طفلاً ذكيًا نشيطًا، كان له باع فى كل نـــوع مـــن ألعـــاب الطفولة، ومن الناحية الجسدية كان قويًا متينًا مملوءًا بالحيوية فى سن الرابعة من عمره دخل هو وشقيقه يحيى الذى كان يكبره بعاميـــن الصف الأول فى مدرسة بازارك بنجشير، ولكن لم يكد يتم عامه الأول فى المدرسة المذكورة حتى ذهب مع أسرته إلى كابل ودخل مدرسة شاه دوشمشيره.

وحسب كلام مسعود كان يحيى الأول فى فصله ومسعود الثانى، وقد ذكـــر يحـــيى ذلك وكان منزل الأسرة فى هذا الوقت فى قرية الأفغان (ده أفغانان) بكابل خلف پراك هوتل.

الصف الثانى حتى الرابع :

عيـــن والده فى هذه الفترة قائدًا لقوات الكشافة فى هرات واصطحب أســـرته معه إلى هرات، وفى هرات دخل مسعود ويحيى مدرسة موفق فى هرات. وشغلا بالتعليم والتحصيل حتى الصف الرابع.

وخـــلال هذه المدة استعان الوالدان بالمعلمين والشيوخ فى المنزل لتربية مســـعود وتثقيفه، وفى نهاية الصف الرابع نقل والده مرة ثانية إلى كابل ونقلت أسرته معه.

الصف الخامس حتى السابع:

وفـــى هـــذه الفترة دخل مسعود مدرسة استقلال وهى تعد من المدارس الرفـــيعة فـــى الـــبلاد، وتابع مسعود علومه ودروسه بحب وشغف، وكان فى

فصـــله تلميذًا ممتازًا واستطاع أن يحافظ على الترتيب الثانى بعد شقيقه يحيى، وفى مدرسة ليسيه استقلال كان المعلمون محترمين طيبين. أما فى المنزل فقد كانـــت علاقـــته مـــتوترة وليست على ما يرام مع الشيخ الذى يعمله لأنه كان شخصـًـــا قاسيًا صارمًا وكان معتادًا على الضرب، وذات يوم فكر مسعود فى عمل يشاكس به الشيخ.

يقول يحيى[1]: فى ذلك اليوم لم يكن هناك شخص فى المنزل وحضر الشيخ وكما هى عادته كانت العصا فى يديه وكان مقطب الجبين، وكان من المعـــروف أن الأمور لا تسير دون ضرب، وهذا الأمر لا يزال باقيًا حتى اليوم.

وفى البداية سأل عن الدروس السابقة وفجأة نظر مسعود ناحية الباب وقـــال: نعـــم ســـوف أحضر. نحن لم نسمع صوتًا ولكننا صدقنا، فاستأذن مسعود من الشيخ وخرج من الحجرة وبعد لحظة نادانى وقال: تعال أريدك، وحيـــنما ذهبت إليه فى الحجرة الأخرى لم يكن هناك شخص غير مسعود وقال : إن هذا الشيخ زاد عن الحد، قلت: ولكن والدنا سوف يضربنا، فقال: لا تخف لن نضرب بحزامه بأكثر من واحد أو اثنين .

وفى هذه الأثناء فتح الباب ومن فتحته بدأ يشتم الشيخ قائلاً: لقد فعل كذا وكـــذا ونحن لن نقرأ لديه مرة أخرى، ثم أغلق الباب غلقًا محكمًا وصعد إلى الطـــابق الأعلـــى لحظات، بعد ذلك سمعنا فَتْح الباب وغلقه، وفهمنا أن الشيخ خرج من المنزل.

---

١١) كل أقوال يحيى كتبتها بناءً على لقائى معه فى كابل فى شهر يوليو عام ٢٠٠٣م وقد أثبتها فى هذا الكتاب.

واشتكى الشيخ بعد ذلك لوالدنا فدخل والدنا إلى حجرتنا عصبيًا والحزام في يديه وقال : هل وصل بكما الحال إلى درجة أن تفعلوا هذه الأعمال ؟ وأول ضربة بالحزام كانت على ظهر مسعود، وأراد أن يضرب الضربة الأخرى فقال مسعود : اصبر لحظة إن لدى الدليل على ما فعلت، فقال والدى : قل ما هو الدليل الذى لديك ؟ قال : فى هذه الأيام يذهب الكل إلى إستاد الاستقلال ليروا كرة القدم، وهذا الشيخ فى المنزل يضربنا. فضحك والدنا من هذا المنطق الطفولى وعفا عن ذنبنا. وفى هذه الفترة من حياة مسعود بدأ يتعرف على عظماء الشعر الفارسى مثل سعدى[١] وحافظ [٢].

وكان لديه مهارة فى الرسم وأخذ يتقدم فى هذا الفن إلى حد أنه أرسل أحد لوحاته بمعرض فى إيران ووضعت فى المعرض فى تهران على

---

(١) سعدى الشيرازى: مشرف الدين مصلح بن عبد الله سعدى شيرازى، من عظماء الشعر والنثر الفارسى فى إيران، ولد حوالى عام ٦٠٦ هـ فى مدينة شيراز بإيران، ودرس بنفس المدينة التى ولد بها ثم سافر إلى بغداد والتحق بنظامية بغداد، ثم سافر إلى سوريا ومكة وكاشغر فى الصين وتركستان فى آسيا الوسطى والهند، ثم عاد إلى مسقط رأسه أيام حكم الأنابك أبى بكر سعد بن زنگى وابنه سعد بين أبى بكر (٦٣٢ هـ - ٦٦٨ هـ) وهو الذى أخذ سعدى لقبه من اسمه وتوفى سعدى بين عامى ٦٩١ هـ، ٦٩٤هـ ودفن بمدينة شيراز مسقط رأسه، وأهم مؤلفات سعدى كتاباه بوستان، وگلستان. (المترجم).

(٢) حافظ الشيرازى: هو شمس الدين محمد بن بهاء الدين عرف باسم لسان الغيب، ويعتبر أعظم شعراء الغزل الصوفى الفارسى فى إيران فى القرن الثامن الهجرى، كانت له مجالس علمية، وكان يحفظ القرآن الكريم ولهذا أطلقوا عليه اسم حافظ، وكان يحفظ دواوين شعراء العرب وله ديوان شعر كبير، وتوفى عام ٧٩١هـ ودفن بمدينة شيراز مسقط رأسه. (المترجم)

أســاس الــتعاون الثقافى الذى كان بين الدولتين، ففى هذا المعرض كانوا يعرضون لوحات التلاميذ.

الصف السابع وعلامات العسكرية والجندية :

فى هذا الوقت كان والد مسعود قد اشترى منزلاً فى سفح جبل كارته پــروان وانتقلــت أسرته إلى هناك. وتعرف مسعود على زملائه بسرعة، وكــان يتمتع بينهم بالاحترام والتقدير فكان يتزعم جميع الألعاب والأنشطة الــتى يقوم بها الشباب فى البيئة التى يعيشون فيها، كانوا يطيعونه، ويذكر محمد أمين (١) الصديق المقرب من مسعود عن اليوم الأول الذى تعرف فيه على مسعود:

ذهبــت إلــى منزل عمى المقابل لمنزل مسعود وفى الشارع التقيت وجهًا لوجه مع مسعود فسألنى بجفاء وصرامة : ماذا تفعل فى هذه الحارة؟ ودون أن ينــتظر الجــواب رمــى بقلنسوتى من فوق رأسى بعيدًا وهددنى وانتهــت الأحــداث عند هذا الحد بعد توسط عدة أشخاص، وبعد عدة أيام ذهبــت مرة ثانية إلى منزل عمى فالتقيت بمسعود وجهًا لوجه مرة أخرى وفــى هذه المرة أتى ناحيتى بوجه بشوش وقال : إننى أعتذر عن الصدام الــذى حــدث فيما سبق لقد سألت عنك وعرفت أن عمك حقيقة يعيش هنا،

---

(١) الدكتور محمد أمين وهو صديق مسعود منذ فترة الشباب، ولد عام ١٩٥٥م فى كابل، ودرس المرحلة الابتدائية فى مدرسة غازى محمد أيوب خان، ودرس المرحلة الثانوية فــى المدرســة الــنادرية، وبعــد حصوله على إتمام الدراسة الثانوية التحق بالدراسة العســكرية ثــم رشــح فى بعثة إلى الهند حيث درس الطب هناك، ثم عاد إلى الوطن واشــتغل فى أكاديمية العلوم الطبية فى وزارة الدفاع، كان مسعود يعتمد عليه اعتمادًا كبــيرًا وكان يسلمه أعماله الخاصة حيث يتمها له على أحسن وأكمل وجه، وهو يعمل الآن فى مؤسسة مسعود.

ولهــذا فقــد بدأت صداقتنا من قديم الأيام في كابل. وكانت العادات أنه إذا ذهــب شخص من مكان إلى مكان آخر بقصد النظر والتلصص فإنه يكون موضعًا للتساؤل والتنبيه من الشباب في ذلك المكان.

وذات مــرة لام مســعود الجار المقابل له لأن ابنته لم يكن مظهرها مناســبًا فــي نظــر مسعود. وعلى هذا النسق فإن كل حارة وشارع كانت تستفيد من الشباب للمحافظة والحماية، وعلى رأس هؤلاء يكون هناك شاب جسور شجاع.

ويقول أمين: لقد أخذ مسعود زعامة أولاد الحارة ولكنه كان يدقق جدًّا فــي اختــيار الصــديق فقــد كان يختار الأشخاص ذوي الأخلاق الطيبة الممــتازة، وكانــت ألعابــنا عــبارة عن كرة القدم وكرة اليد والتمرينات العسكرية، كانت كرة القدم تلعب في الشارع دائمًا أو في بارك شهرنو في أيام الجمع والعطلات الرسمية، أما كرة اليد فقد كانت تتم في مكان خال في مــنزل فــي آخر شارعنا ويجب أن أقول: إن كرة اليد كان الكبار يلعبونها أيضــًا وكان على رأسهم نجيب [1] وكان نجيب بعد ذلك رئيسًا للجمهورية

(١) نجيــب الله : تولى رئاسة جمهورية أفغانستان بعد بيرك كارمل بين عامي ١٩٨٦ – ١٩٩٢م ولد في عام ١٩٤٧م وتخرج في كلية الطب عام ١٩٧٥م، ووالده أحد رؤساء قــبائل البشــتون. في عام ١٩٨٦م أصبح مع رئاسته للجمهورية رئيسًا للحزب الشعبي الديمقراطي ولكنه غير اسم الحزب وأصبح يسمى حزب أفغانستان الوطني، وأشرك فيه شخصــيات مــن غــير المنتمين للحزب الشعبي الديمقراطي لأنه كان يشعر أن الناس بفطرتهم الدينية يكرهون كل من ينتمي لروسيا ويتمسكون بدينهم، وبناءً على هذا أدخل فــي وزارتــه أشخاصًا غير حزبيين مثل عبد الخالق خلقيار الذي عينه رئيسا للوزراء وكــان مــن المثقفيــن في هراة، واستطاع خلقيار بذكائه أن يضيق الهوة بين الشعب والحكومــة. وأصدر نجيب الله عفوًا عامًا عن السيدات السجينات والذين قضوا نصف المــدة ومــن تجــاوزت سنه السبعين، لكن ماضيه كرئيس لجهاز مخابرات خاد وقتله لآلاف الأبرياء وسجنه وتشريده للشعب الأفغاني المسكين ثم قربه الشديد من روسيا =

وكـــان منزله فى شارع أبعد، وكان بجوارنا كذلك مير أكبر خيبر[1] زعيم الشيوعيين فقد كان بجوارنا أيضًا.

لقــد بدأ التدريبات العسكرية من الشارع وبعد ذلك انتهت إلى الجبل. وكانت التمرينات العسكرية فى الحارة تشمل جميع تمارين النظم العسكرية، وفى أحد الأيام طلب منى مسعود أن أصنع من ورق سميك قلنسوة الضباط والجــنود وجمـــيع الرتب العسكرية، وكانت مجموعتنا تحت قيادة مسعود كانـــت لهـــا هيـــبة ومنظر يستحق الرؤية، ولن أنسى هذا اليوم ففى مكان صغير وقف حوالى عشرون شخصًا يرتدون الملابس العسكرية، ثم أخذوا يمشـــون فـــى الشـــارع المشـــية العسكرية والجيران ينظرون من الأبواب والنوافذ إلى حد أننى قلت بعد مدة تبدأ تمريناتنا فى جبل كارتة پروان. وقد تـــم الـــتحرك إلى الجبل بسرعة بعد فترة من التمرينات وكانت التعليمات جديـــة، وقســـمنا مســـعود إلى مجموعات صغيرة تتكون كل مجموعة من

= وتنفـــيذه لكل ما يملى عليه منهم جعل الناس تضيق ذرعًا به ولا تثق فى مشروعاته الإصـــلاحية وصـــمموا على قتله والانتقام منه، على الرغم أنه كان يحتمى بمبنى هيئة الأمم المتحدة بكابل، وفعلاً وصل الشعب إليه وقتل على أثر دخول المجاهدين إلى كابل فى أبريل عام ١٩٩٢م. (المترجم).

(١) مـــير أكـــبر خيبر : أحد رواد الحركة الشعبية الأفغانية وأحد مؤسسى حزب الشعب الديمقـــراطى اغتيل فى عهد محمد داود واتهم داود بتدبير اغتياله، وأثناء الصلاة عليه فى مسجد پل خشتى قام حزب الشعب الديمقراطى بمظاهرة استفزت محمد داود فقبض علـــى ســـبعة مـــن زعماء الحزب من بينهم تره كى وكارمل واناهيتا زاده، وكان من المقـــرر أن يـــتخذ مجلـــس الوزراء قرارًا بشأنهم فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٨م ولكن دخل السوفييت فى هذا اليوم أفغانستان وكان قد أطيح بداود قبل ذلك، وبدأت أفغانستان فصلاً جديدًا من حياتها فى ظل الاحتلال (المترجم).

خمســـة أفراد وأعطى التعليمات لكل مجموعة ماذا تعمل، وكانت التكتيكات الخاصـــة بنا عبارة عن كمين، حملة، دفاع، حصار وغيره. وبعض الأيام كانت هذه التمرينات تستمر من الصبح حتى العصر، وكل واحد كان يأتى معـــه بمـــا يلـــزمه مـــن الطعـــام، وكان أحمد ضياء شقيق مسعود ضمن مجموعتنا.

وفـــى أيـــام الشتاء كان التزحلق على الجليد فى أطراف جبال كارته بروان له شكل تنافسى وجماعى وقد انضمت مجموعة منهم للعب معنا.

من هذه الألعاب التى استمرت فى حدود عامين ونصف وكانت قاسية وصعبة لم يتعب أحد، والسبب فى ذلك الشخصية الحميمة الصادقة لمسعود، كانـــت جماعتـــنا تصـــطدم اصـــطدامًا فعليًا مع أولاد الحوارى والشوارع الأخرى.

وذات يوم ضرب أولاد الحارة التى كانت تبعد عنا مسعودًا وكان يمر من هناك بمفرده، الجدير بالذكر أن ابن عمه واسعًا كان فى جملة المعتدين وطبعا لم يستطع أن يخالف العرف المتبع فى المكان، وحينما عرفنا بالأمر جمعنا الأولاد وانتقمنا منهم من أجل مسعود.

كـــان لمســـعود عادات طيبة: كان لا يحب الأشخاص المهملين، ولم أســـمع على لسانه مطلقا كلمات ركيكة أو سوقية، وحينما كان يغضب على شخص كان يسميه غولاً، كان لديه حب شديد للقراءة، كنا نقرأ القصص فى الـــبداية وأذكر كتب فيكتور هيجو، وماكسيم جورجى، وبعد ذلك كتب علم الـــنفس لدلكارينجى، كانت علاقته بقراءة الكتب إلى درجة أنه كان يعطينى كتابًا ويقرأ الآخر، وكان يقول: نتبادل الكتب التى عندنا وبهذا نستطيع فى مدة قصيرة أن نقرأ كتبًا كثيرة. كان يحب أن يسمع الموسيقى الهادئة، ومن

المغنين الأفغان كان يحب أن يسمع ناشناس – وساربان وكان يحب الألوان الزاهية ويعجب بها.

مشكلات فى مادة الرياضيات :

فى الصف التاسع إلى الحادى عشر وُوجه مسعود بالتدريج بمشكلات فـــى مادة الرياضيات. ونتيجة لذلك أنه نزل من الترتيب الثانى إلى الثانى عشر، ولكنه لم ييأس ولم يستسلم وصمم على معرفة السبب يقول يحيى فى هذا الموضوع: سألته يومًا عن السبب فى ذلك فقال : إننى اعتقد أن السبب فـــى ذلك أنهم يدرسون مادة الرياضيات باللغة الفرنسية، وأنا لا أعرف كل المصــطلحات الخاصـــة بهـــا فأعطيـــته بعد ذلك كتاب الرياضيات لغفور پـــروانى، وبدأ مسعود يذاكره وأحيانًا كان يقرأ حتى منتصف الليل، وكان يجتهد أن يتغلب على المشكلات والصعوبات.

وانتصـــر مســـعود أخـــيرًا فـــى هذه المعركة وأراد أن ينقل تجربته للآخرين ويساعدهم فكان يعطى دروسًا فى منزله، وكان يدرس لتلاميذ فى الســـنوات المخـــتلفة وأكـــثرهم المرحلة الابتدائية، وحينما كان يزداد عدد التلامـــيذ كـــان يؤجر منزلاً فى نفس المكان. وكان الهدف من ترتيب هذه الدروس هو مساعدة الذين يعانون كما عانى مسعود فى السابق، لذا قام بهذا العمـــل دون أن يتقاضـــى أجرًا، وكان يدرس مجانًا؛ لأن أصحاب الدخل القلـــيل قدرتهـــم علـــى الدفع تكون أقل. حتى وقت العطلات الصيفية كان مسعود يذهب مع عدد من أصدقائه إلى پنجشير، ويستفيد من الفرصة ويبدأ فى التدريس للشباب.

الصف الحادى عشر والثانى عشر :

فـــى هـــذه الفترة بدأ مسعود يوضح ويفصل طريقه، ولقد اشتهر بين الأصـــدقاء والأقارب بالمسلم المتمدن، وكان أحيانًا يتشاجر مع الشيوعيين الأفغان، كان يدرس التفسير وقراءة القرآن بصورة منتظمة عند إمام مسجد كارتـــه پـــروان مولانا سيد يعقوب الهاشمى [1] والذى كان فى نفس الوقت رئيس دار الحفاظ فى كابل.

---

(١) فى عام ١٩٨٩م أرسل نجيب الله رئيس الجمهورية فى الحكومة الشيوعية بعد إعلان المصـــالحة الوطنـــية يعقوب سيد هاشمى إلى ولاية تخار عند أحمد شاه مسعود ليخبره بالتوجهات السياسية الجديدة فى حكومته ولكن أحمد شاه مسعود رده.

انتهاء الدراسة فى المدرسة والرغبة فى الدراسة فى الجامعة العسكرية

بانــتهاء فــترة الدراســة فى المدرسة أراد مسعود أن يدخل الجامعة العسكرية وطبعًا الرغبة العارمة كانت من الممكن أن تتحقق ولكن تصميمه قوبل بمعارضة الأسرة ومن جملتهم والده، بل على العكس فإن والده رغبه فــى الذهــاب إلى فرنسا فى بعثة كان رشح إليها من قبل المدرسة، ولكن مسعودًا لم يرضخ لهذا الأمر والتحق بكلية بلتكنيك فى كابل، وبلتكنيك هى المؤسســة التى كانت تنشر وتبث الأفكار الشيوعية، ومع أن انضمامه لهذه الكلــية تــم علــى خلاف ميله الداخلى ولكنه بسرعة أظهر حبًّا وميلاً إلى تخصص الهندسة، وقد ظل حتى آخر فترة فى حياته يظهر استعداده وتعلقه بهذا النوع من الدراسة فقد كان مرتبطًا به.

التعرف على صبور :

حســب قــول محمد زمانى [١] شقيق زوجة صبور أنه عُرِضَ فيلم فى عام ١٣٥٠ = ١٩٧١م أثناء حكم الملك ظاهر شاه، وكان هذا الفيلم يعد كفرًا فــى نظــر الطــلاب المسلمين، وكان هذا الفيلم سببًا فى الاعتراض الشديد والمظاهــرات ضــد الحكومــة فــى داخــل الجامعة، وقد حاصر البوليس

---

(١) صــالح محمد زمانى من المجاهدين المسلمين التحق عام ١٣٥١ = ١٩٧٢م بصفوف نهضة شباب المسلمين، وكان من أتباع المهندس الشهيد حبيب الرحمن، وكان أحمد شاه مســعود صــديقًا حميمًا لصبور، وهو الذى عرفه على المهندس حبيب الرحمن وكانت بينهما قرابة وكان منزله مركزًا لتجمع ومجالس أعضاء نهضة الشباب المسلم فى كابل، وهــو الآن موظف فى رئاسة المساحة فى أفغانستان وقد التقى به الكاتب عام ٢٠٠٣م فى كابل.

المتظاهرين واجتهد أن يمنع انتشار المظاهرات فى جميع الأنحاء، وكان هذا الفـيلم سـببًا فى إثارة أحاسيس الكثير من الطلاب المسلمين، ولم يكن لدى هؤلاء الطلاب أى ارتباط بأى منظمات إسلامية وتعرفت أنا وعدد آخر على المهـندس حبيب الرحمن وكان صبور نفسه طالبًا فى پلتكنيك، ولكن معرفة صبور ومسعود - على حد قول أمين صديق مسعود - تمت فى الپارك.

وكـان مسعود أحيانًا يذهب إلى الپارك مع أمين، وكانوا يلعبون ألعابًا رياضـية وفـى هذه الحديقة تعرف مسعود على صبور وهو الذى عرف مسـعودًا بعـد ذلك على المهندس حبيب الرحمن، وكان مسعود فى السنة الأولى فى پلتكنيك وسوف يأتى هذا بتعبير مسعود نفسه.

السنة الأولى فى پلتكنيك:

تعـرف مسعود فى الثانوية العامة (الصف الثانى عشر) على خطب الإخـوان ويكتـب هـو فى مذكراته : كنت فى الصف الثانى عشر حينما عرفـت اسم الإخوان وبما أن المجاهدين المسلمين فى أفغانستان يرتبطون مـن النواحى الفكرية بالإخوان المسلمين فى مصر فقد اشتهروا أيضًا باسم الإخـوان فى أفغانستان. وحينما دخل مسعود السنة الأولى فى كلية پلتكنيك صـار أكـثر معرفة بالإخوان لأول مرة فى الجامعة. ولما كان لدى شوق كبـير للتعلـيم فـى السنة الأولى، لم تكن لى أى معرفة بالجوانب الدقيقة للإخوان، خصوصًا وأن أحد الأشقاء كان يوصينى من آن لآخر ويقول: فى فـترة التعلـيم لا يجب أن أتابع المسائل السياسية، والأفضل أن أدرس فى الـبداية جيدًا، ولكن بعد ذلك يكون اتخاذ الموقف السياسى، واتخاذ الموقف السياسـى كـان فى أن أكون منتظمًا فى الصلاة وسببًا فى أن أكون عدوًا لـدودًا للشيوعية إننى لم أقترب من الإخوان فجأة أو دفعة واحدة فقد كنت

أفكر فى نفسى ولكن كل زملائى والإخوة من الإخوان كانوا يعتبروننى من الإخــوان؛ لأنــنى كنت أصلى وأدافع عن الإسلام وكنت أصاحب الإخوان وأصادقهم.

وفـــى أواخـــر السنة الأولى وأول السنة الثانية صرت إخوانيًا تقريبًا، ولــم يفارقــنى شــوق الدراســات العليا وشوق الحصول على الماجستير والدكتوراه لأننى غرقت تمامًا فى الأعمال السياسية.

وفـــى سرطان عام ١٩٧٣م قام محمد داود بانقلاب وغيرت طريقى تمامًا وصممت على ذلك.

انقلاب محمد داود ١٩٧٣م:

وصـــل محمد داود إلى السلطة بعد انقلاب أبيض بمساعدة الشيوعيين الأفغـــان وحتى الآن لم يكن معلومًا مستوى الاتفاق الذى وصل إليه محمد داود رئــيس الجمهوريـــة مـــع الشيوعيين، ولكن عُرِفَ بعد ذلك أن قربه للشـــيوعيين كـــان تكتيكًا وكلاهما كان بصدد القضاء على الآخر فبائتلاف محمد داود مع الجناح اليسارى فى الدولة أراد أن يسحق جناح اليمين، وفى منتصـــف الطريق فطن إلى أن الجناح اليسارى كان يفكر فى القضاء عليه هو ونظامه، وكان يجب فى هذا الوضع أن يتحد مع الجناح اليمينى ويسحق جناح اليسار.

ولكـــنه لـــم يعمل هذا العمل ودفع حياته ثمنا لهذا الخطأ. وكانت أشد التنظـــيمات خطورة ضد داود هى جامعة كابل پلتكنيك، وكان مسعود تحت زعامـــة حبيـــب الرحمـــن الذى كان يسبقه دراسيًا بعامين وقد دخل ميدان الجهـــاد ويشرح مسعود فى مذكراته انقلاب داود الذى كان باعثًا لديه على الجهاد فيقول :

"أتذكــر أنــنى كنت جالسا فى منزلى مع أسرتى نستمع إلى الأخبار وعزفــت فى الراديو موسيقى عسكرية ولكن لم يكن هناك شيء معلوم، ثم جــاء صــوت داود تحملــه أمواج الأثير، وعرفنا عن الانقلاب وفى هذه اللحظة قال والدى : لقد انتهت أفغانستان ووقعت فى فك الشيوعية وروسيا.

وتملك جسدى وكيانى حزن وألم وغضب لا أعرف أسبابه. وفى اليوم الــتالى أعلــن داود تشــكيل وزارتــه، وكان الشيوعيون المشهورون من أعضائها مثل فيض محمد [١] وزير الداخلية، وحسن شرق [٢] وغيرهما.

فذهبــت إلــى زميلى الإخوانى خواجة عبد الصبور وكان بينى وبينه صــداقة حمــيمة؛ وكانت تربطه بكبار الإخوان روابط وثيقة، وقرأت فى أول نظــرة إلــى وجهــه أنــه حزيــن مثلى ولكنــه أراد أن يتماســك

---

(١) فــيض محمــد: كان وزير الداخلية حينما تولى محمد داود رئاسة الجمهورية، واغتيل عام ١٩٨٠م أثناء حكم ببرك كارمل وكان يشغل منصب وزير شئون الحدود، وأعلنت الجــبهة الوطنــية الإســلامية لأفغانستان أنها وراء مقتله مع اثنين من كبار المسئولين الأفغان (المترجم).

(٢) محمــد حســن شــرق : تخرج فى كلية الطب عام ١٩٥٣م وعين طبيبًا فى مستشفى محمــود خــان ثم عين مديرا لمكتب محمد داود وكان رئيسًا للوزراء فى ذلك الوقت. وكــان حسن شرق معروفًا منذ صغره أنه عميل للروس وكان يطلعهم على كل أسرار الحكم فى أفغانستان أولاً بأول لقربه من محمد داود. وكان حسن شرق يشارك علنًا فى حلقات الشيوعيين التى كانت فى طور التشكيل والتنظيم. وفى الفترة الثانية لتولى محمد داود رئاسة الوزراء كان حسن شرق هو الرجل الثانى الذى له السلطة فى الدولة وكان يقــوم بوظيفــته كوكيل لمحمد داود، وحينما أراد محمد داود أن يحد من نفوذ وتدخل الشــيوعيين فــى الأمــور السياسية والاجتماعية والعسكرية أرسل حسن شرق سفيرًا للــيابان، وبعد الانقلاب على محمد داود عين سفيرًا فى الهند ثم عين رئيسًا للوزراء. تمت تنحيته من منصبه بعد انسحاب الروس من أفغانستان فى ١٥ فبراير عام ١٩٨٩م وذكر فى أسباب تنحيته أنها لأسباب صحية. (المترجم)

ويقول لي: لا تقلق.

وبعـد الحديث هدأت الأمور، وبعد ليلة كنت سألتقي بالمهندس حبيب الرحمـن لأنـني قلت لعبد الصبور: إنني سوف أعمل جاهدًا لأضم بعض الضباط إلينا.

التعرف بالمهندس حبيب الرحمن وطرح الانقلاب الأول :

كان حبيب الرحمن يقود قطاع شباب النهضة الإسلامية في أفغانستان، ثم انضم إليهم في عقب ذلك عدد من أساتذة جامعة كابل.

وكـان مسـعود في الصف الأول في پلتكنيك وتعرف على المهندس حبيب الرحمن بواسطة عبد الصبور، وهذا الأمر كان بداية تحول مهم في حياته السياسية.

فعلـى ما أظن أن شخصيته كانت الشخصية الفريدة المميزة للمسلم، وظل مسعود في كل فترات حياته تحت تأثير شخصيته، وكان مسعود يذكر دائمًا تقواه وشجاعته وتعقله وبصيرته، كان كلما يأتي الحديث عنه في ثنايا كلامه كان يستخدم كلمات مثل ذلك المبارك، ذلك العظيم، ذلك التقي النقي الورع، ولا يكون خطابه معه إلا بكلمة الأستاذ.

كـان حبيب الرحمن يؤيد الجهاد المنطقي العقلاني المبني على إدراك صحيح للأوضاع الموجودة ولم تكن الإجراءات العصبية الهوجائية ترضيه، وكان يؤكد كثيرًا على التعقل والتأني في الأعمال والأمور.

ويشـرح مسعود أحداث معرفته مع حبيب الرحمن: التقيت مع حبيب الرحمن في الليلة الموعودة في الحديقة العمومية في كارته پروان رأيته في المظاهـرات وكنـت أعـرفه، تحدثنا قليلاً وأعطاني عملاً وهو أن أقابل الضباط وأن أبلغهم بالأمور عن طريق صبور، وفورًا بدأت العمل وطرحت

الموضوع مع جگرن [١] القائد محمد غوث وكان أحد أقربائى وبعد ذلك صار رئـــيس لجنة النظام فى الجمعية، وكان متوافقًا مع فكرى فقبل وكان جاهزًا أن ينظر فى الأمر مع عدد من رفاقه.

واجتمعـــنا بعد عدة أيام فى منزلنا مع حبيب الرحمن وجگرن محمد غــوث والطـــيار ظاهر خان والطيار مير أنجام[٢] الدين خان وتم الحديث حـــول التخطـــيط وكانـــت كلمة التخطيط فى نظر مسعود تعنى الانقلاب العسكرى الذى بقى على تنفيذه مدة قليلة، يقول فى هذا الشأن : لقد تطورت الأمور وكان يجب أن يتم الانقلاب فى هذه الأيام.

ولكـــن انتشر وذاع سر الانقلاب، وعلى حد قول مسعود بسبب عدم التجربة كان كل فرد من المجاهدين يقول لزميله بصوت عال ليلة الجمعة: لا تـــنسَ لـــيلة الجمعـــة، وتصادف وجود أحد من مخابرات داود فى نفس المكـــان فشـــك فـــى هذه الجملة فقبضوا على المجاهد وذاع أمر الانقلاب، وأظـــن أن إفشـــاء سر الانقلاب له عوامل أخرى ذكرها مسعود مرة وقد نسيته ويستمر مسعود فى الحديث عنه: "واستمر العمل على هذا النحو حتى قبض ذات يوم على الأستاذ حبيب الرحمن وأجبرت أنا وعبد الصبور على الفـــرار. وغير مشكلات المجابهة مع داود. ووجه حبيب الرحمن بمتاعب فى داخل النهضة من شباب المتطرفين الذين كان يتزعمهم حكمت يار ولم يســـتطع أن يكبح جماح گلبدين حكمت يار وسيف الدين نصر تيار، ويقال

(١) هاجـــر جگـــرن محمد غوث مع مسعود ومعهم آخرون من المجاهدين إلى الباكستان، وفـــى عـــام ١٩٧٩م عين رئيسًا للجنة النظام فى الجمعية الإسلامية، واستشهد فى عام ١٩٨٢م على أثر قصف پنجشير بالقنابل.

(٢) مـــير أنجام الدين خان أمضى مدة طويلة فى سجن پلچرخى، وفى عام ١٩٩٢م وعلى أثر انتصار المجاهدين عين قائدًا لقوات الدفاع الجوى وهو يعيش الآن فى كابل.

أنه من البداية وجد جناح التطرف فى داخل النهضة، فمثلاً فى عام ١٣٥١ هـــ ش ١٩٧٢م قــتل سيدال أحد طلاب جامعة كابل واتهم حكمت يار بقــتله، وقبض على المهندس حبيب الرحمن والدكتور عمر ومولوى حبيب الرحمـــن ونصر تيار، وبعد مدة برئ الآخرين ولكن حكمت يار والدكتور عمـــر ظلا فى السجن حتى انقلاب محمد داود عام ١٩٧٣م فقد أفرج عنهم فقط بعد الانقلاب.

ويقول مسعود : إن الأستاذ حبيب الرحمن لم يكن راضيًا عن السلوك العنيف لحكمت يار ونصر تيار، حسنًا أتذكر أنهم ذات يوم أخبروا الأستاذ حبيب الرحمن أن البوليس قبض على حكمت يار ونصر تيار فقال الأستاذ حبيــب الرحمـــن: ما أجمل أن يقبض البوليس على هذين الشخصين حتى نفكر بهدوء لعدة أيام.

ولكن محمد داود رئيس الجمهورية لم يعط وقتًا لحبيب الرحمن والآخرين لـــيفكروا بهـــدوء فقـــد كان مصممًا أن يقضى على مخالفيه، ففى شهر جوزاء ١٣٥٣ هـــ ش (١٩٧٤م) حاصـــر البوليس كارته پروان ليقبض على حبيب الرحمن وسائر أتباعه.

يقـــول صالح زمانى : أكثر لقاءات المهندس عبد الصبور ومسعود تمت فـــى منزلى، وفى ذلك اليوم لم يكن هناك أحد فى منزلى ولم يكن عبد الصبور كذلـــك موجـــودًا وهـــو أحد جيرانى، وقبل محاصرة البوليس قدم حكمت يار والدكـــتور عمـــر إلـــى منزلى وقالا: قل للمهندس حبيب الرحمن: احذر لأن الحكومـــة بصدد القبض عليه فأخبرته بالموضوع، ولكنه لم يأخذ الأمر بجدية كافية وقبضوا عليه صبيحة ذلك اليوم.

وبالقـــبض على حبيب الرحمن تفرق المجاهدون واختبأ كل واحد فى

مكان وكان منزل مير صفى [1] فى فرزه شمال كابل أحد هذه المخابئ.

استشهاد المهندس حبيب الرحمن :

كمـــا ذكـــرنا آنفًا كان القبض على المهندس حبيب الرحمن من أجل تقويـــض أركان النهضة الإسلامية، وكما يقول صالح زمانى: بعد القبض على حبيب الرحمن وفى نفس العام ١٣٥٣هــ ش الموافق ١٩٧٤م قبضوا أيضًا على الدكتور عمر، ونسيم، وأحمد شاه ابن ملامولا.

وكمـــا يقـــول أحمد شاه مسعود : جعلوا الأستاذ حبيب الرحمن فى مبنى وزارة الداخلـــية رهـــن التحقـــيق، وطلبوا منه أن يفشى أسماء أعضاء النهضة الإسلامية ومن أجل أخذ اعترافاته عذبوه تعذيبًا فظيعًا، ولكن فى البداية قال لهم ذلك التقى المبارك: محال أن تسمعوا منى شيئًا آخر غير اسم الله تبارك وتعالى، وكـــانوا يعذبونـــه يومـــيًا وكانوا يجرونه فى خارج السجن فى هواء شهرحوت البارد[2] حتى يذوق ويلات العذاب أكثر.

ولكـــن ذلـــك العظيم كان ينصرف إلى العبادة وهو على هذا الحال. وكـــان مســـعود يذكـــر كثيرًا أحداث حبسه بحيث يجب أن يكتب منفصلاً، وأخـــيرًا وفى شتاء عام ١٣٥٣هــ ش الموافق ١٩٧٤م أذاع راديو كابل خبر إعدام المهندس حبيب الرحمن ويقولون: إن فيض محمد وزير الداخلية أصـــر علـــى إعدامـــه منذ فترة، ولكن داود أمر بقتله لأنه أبى التوبة فى

---

(١) كـــان مير صفى شخصًا متدينًا شجاعًا صاحب تضحية وفداء، وقد توفى قبل عدة أيام من كتابة هذه السطور، ولم أوفق فى لقائه حتى أكتب ذكرياته عن هذه الأيام العصيبة.

(٢) الـــبرودة فـــى شهر ديسمبر ويناير فى كابل لا يحتملها إنسان، ولذلك يدفئون المنازل بالفحم والخشب وتصل درجة الحرارة فى كابل فى هذا الوقت إلى عشرين درجة تحت الصفر (المترجم).

حضــوره وخاطــبه بشجاعة وقال : لماذا التوبة؟ وهل أتوب عن ذنب لم أرتكبه؟

وفى الوقت الذى كان الضغط يزداد فيه على المجاهدين يومًا بعد يوم أحرز الشيوعيون نفعًا كبيرًا من جراء هذا الصراع، والشيوعيون هم العدو الأصــلى للمســلميــن المجاهديــن الذيــن لم يبرحوا خنادقهم بعد مجيء محمد داود.

الفرار إلى الباكستان:

بعــد مضـــى ثمانية أشهر فى پنجشير صمم مسعود على الذهاب إلى باكستان وقبله ذهب عدد كبير من المجاهدين إلى هناك وكان الأستاذ برهان الدين ربانى فى باكستان أيضًا.

وكانــت علاقــات رئــيس الجمهورية محمد داود مع الباكستان على موضوع الحدود بين البلدين باردة جدًا. وكلا الطرفين يرحب بالمعارضين لكلا النظامين ضد بعضهم البعض، ولقد قدم مسعود سرًا إلى المدينة متنكرًا فغير هيئته وقابل صديقه أمين، واطمأن على حاله وحال الأسرة وكان يقول لـــه: ألا يذكــر شيئًا لوالدته. ولكنه كان يشعر أن أمين لا يستطيع أن يقول شيئًا عن أحواله لوالدته التى ابتليت بالسرطان، وبناءً على هذا ذهب لرؤية والدته فى منتصف الليل وكانت هذه آخر مرة رأى فيها مسعود والدته.

وحضــر إلى كابل جان محمد الصديق الآخر لمسعود والذى كان قد ذهــب قبله إلى باكستان ليكون دليلاً لمسعود إلى الباكستان، وذهب مسعود إلى الباكستان بمساعدته.

في الباكستان

مـــنذ مولد الباكستان في عام ١٩٤٧م وهي ترتبط بأفغانستان بعلاقات مملوءة بالتقلبات، أحيانًا كانت هذه العلاقات تتوتر وتصل إلى حد الصدام، وأحيانًا كانت هذه العلاقات تشهد بعض التطورات نحو المودة، وهذا واضح وجلـــي وذلـــك لأن باكســـتان كـــان لديها رؤية إستراتيجية دائمًا بالنسبة لأفغانستان ولكن زعماء الأفغان كانوا على عكس ذلك.

فقـــط كان محمد داود رئيس جمهورية أفغانستان (١٩٧٣ – ١٩٧٤م) وأحمـــد شاه مسعود – مع وجود الاختلاف والتفاوت في أفكارهما وأسلوبهما – همـــا فقط الشخصان اللذان لديهما حساسية مفرطة ودقيقة بالنسبة لمطامع باكســـتان، وأهـــداف هـــذه الجارة التي ما إن فتحت عيونها على العالم حتى كانت عيونها على جيرانها.

وكـــان لجوء المجاهدين المسلمين الأفغان لدى حكومة باكستان هدية أعطاها الله لها، وكان ذو الفقار علي بوتو رئيس وزراء باكستان قد ضاق ذرعًـــا مـــن تدخلات حكومة محمد داود، ولم يلبث أن تفاعل خيرًا بمجيء الضـــيوف الجدد، ولكنه لم ينظر للجميع بعين واحدة، فمن أجل استراتيجية الباكســـتان اســـتطاعت فـــي أول خطـــوة أن تســـتخدم أعنف شخص بين المجموعة لأنها كانت بصدد شخصية لا تقبل المصالحة مع داود فتستمثرها وكان لحكمت يار هذه الأوصاف.

وفـــي الباكســـتان اتخـــذ رجالهـــا هؤلاء المجاهدين تحت التعليمات العسكرية واشترك مسعود أيضًا في هذه التعليمات.

وفـــي الخطـــوة التالية بدأوا في مشروع انقلاب ضد داود ويجب ألا

يغيب عن البال أنه منذ عام ١٣٥٣هـ ش - ١٩٧٣م وكانت المرة الأولى التى يذهب فيها مسعود إلى الباكستان، وحتى عام ١٣٥٨ - ١٩٧٩م - وكان الجهاد قد بدأ - كان بين أفغانستان والباكستان ذهاب وإياب مستمر، ومن أجل تنفيذ الانقلاب الأول فى أسد ١٣٥٤ هـ ش - ١٩٧٤ ضد حكومة محمد داود وضعت اختيارات كثيرة ويقول المهندس محمد إسحاق ؛ وهو من أصدقاء مسعود الذين لهم تجربة فى هذا الموضوع: "فى المرة الأولى أرسلنا مسعودًا إلى پنجشير لرؤية الأودية الفرعية وقال لنا فى لقائه: إن دستگير پنجشيرى وجميع الشيوعيين يفكرون فى تبديل پنجشير بقاعدة شيوعية.

ومن ناحية أخرى فإن ضغط الحكومة على المسلمين كان فى ازدياد، ومن الممكن ذات يوم أن نضطر إلى اللجوء إلى الجبال واستفادة بالإجازات اذهب لترى الأودية الفلانية عن قرب، وضمنًا لا تغفل إمكانية انتقال المواد الغذائية اليومية واجعلها تحت الدراسة، وبعد ذلك عرف كل واحد بالأودية التى تقترب منه. وأظن أن هذه كانت بداية الانقلاب[1].

الانقلاب الثانى ١٩٧٤م:

فيما يبدو أن مبتكر هذا الانقلاب هو حكمت يار لأنه من الواضح أن إتمام مثل هذه الإجراءات بدون موافقة أو مساندة من الباكستان كان غير ممكن، ففى حكومة باكستان ومنذ البداية كان جهاز المخابرات العسكرية متعهدًا بالسياسة فى أفغانستان وباكستان، ولعب الساسة دورًا ظاهرًا ودعائيًا.

---

(١) التقى الكاتب فى يوليو ٢٠٠٣م مع المهندس محمد إسحاق فى مكتبه فى الرئاسة العامة لراديو وتليفزيون أفغانستان، والكلام الذى ذكره كان نتيجة لهذه المقابلة.

ولقد دبر الانقلاب العسكرى على هذا الأساس حملات من بكتيا، وكنر، ولغمان، وبدخشان، وپنجشير، واحتلوا عدة ولايات. وفى عقب ذلك تتم الانتفاضة الفعلية فى داخل كابل، وتم هذا الانقلاب العسكرى بمساعدة عبد الكريم مستغنى قائد عام القوات المسلحة. فقد كان مستغنى يجب أن يخرج إلى المدينة يوم الاحتفال، دباباته تكون ظاهرًا للعرض العسكرى وفجأة يعمل لإسقاط الحكومة.

وفى هذا المشروع سلم لمسعود مسئولية احتلال الإدارات الحكومية فى مسقط رأسه پنجشير، وكان جان محمد هو رائد العمليات فى كنر ومولوى حبيب الرحمن فى لغمان والدكتور عمر فى بدخشان وعبد الخالق فى پكتيا كل واحد منهم أخذ على عاتقه إتمام ما وكل إليه. وكما قلت آنفًا أرسل مسعود منذ البداية أشخاصًا لاستطلاع الأودية الفرعية، والمكان الذى أرسل فيه المهندس إسحاق وشقيقه كفاية الله كان هو الأودية التى فى شمال وشمال غرب الرخة والتى كانت مراكز إدارية للحكومة. والخطوة التى كانت بعد ذلك كانت إرسال الأسلحة والمهمات والأفراد، ومن أجل إرسال حوالى مائة مجاهد، وكانت الحجة هى العمل ومحل الإقامة لم يكن من السهل نقل المهمات والأسلحة وتكديسها، وكان مسعود يرسل أفرادًا من مناطق مختلفة بحجة قضاء أجازة الصيف عند أصدقائهم فى پنجشير وهذا الأمر كان مرتبًا لأن أكثرهم كانوا طلابًا فى الجامعة، وكانوا يضعون الأسلحة والمهمات فى حقائب ملابس السفر، وكان جميع الأفراد قبل العمليات يجتمعون جميعًا فى مركز الرخة، ووقت قرب العلميات سوف يقسم مسعود الجميع إلى أربع مجموعات: ثلاث مجموعات لاحتلال ثلاثة مراكز حكومية والمجموعة الرابعة قطع المضيق فى مدخل الوادى والذى نسميه الطريق الضيق، وكانت هذه أول العمليات العسكرية التى كان سيقوم

بها مسعود .. العمليات التى كانت تنتظره منذ كان فى الصف السابع.

وجـاء الـيوم الموعـود وأمضى مسعود استعداده العسكرى بحنكة وتجربة وكان فى هذا الوقت (١٩٧٥م) عمره واحد وعشرون عامًا وبدأت العملـيات، وفى ظرف ساعة واحدة كانت المراكز الحكومية والإدارية فى أيـدى مسـعود، وبـلا خسـائر أو إراقة للدماء انتصر مسعود وتحررت پنجشـير، ولكن النصر الذى أحرزه مسعود لم يستمر طويلاً فقد كان القدر يـريد أن يذيقه حلاوة النصر ومرارة الهزيمة فى نفس اليوم، وهاهو كان ينتظر أخبار النصر فى كابل.

ولكـن بـدلاً مـن رسول النصر الذى يأتى من كابل وصلت القوات الحكومية باسم القوى الضاربة للوم والعقاب ولم تكن من المصلحة مجابهة هـذه القوات، لهذا أعطى مسعود أمرًا بالانسحاب وأشيع أنهم باكستانيون، وعـندئذ دخل الناس المعركة بنية تأديب الباكستانيين وعقابهم وكانوا حتى هـذه اللحظـة يتفرجون. ونتيجة لهذا قتل كثير من أحسن أصدقاء مسعود بشـكل مفجـع بواسـطة الـناس وليس بواسطة الدولة. وانسحب مسعود والمهندس إسحاق (رئيس الراديو والتليفزيون) وكفاية الله[1]، وصفر محمد شـيون، ونصـر الله (وكلاهمـا استشهد وتاريخ شهادتهم للأسف ليس فى ذاكـرتى) إلى جمالورده وهو الوادى الذى عرفه قبل ذلك المهندس إسحاق وشقيقه كفاية الله، وشرح قبل ذلك.

ويقول المهندس إسحاق فى هذا الشأن: كنا ذاهبين إلى الأطراف العليا فـى وادى جمالورده، وأثناء العبور من البحيرة سقط حذاء شيون فى النهر

---

(١) شـهرته مصـطفى وهو شقيق المهندس محمد إسحاق، استشهد فى پنجشير ١٩٨٠م، وكان مسعود يذكره دائمًا وكان يقول: مصطفى أقرب شخص بالنسبة لى.

فأردنـــا أن نشترى من شخص حذاءه ولكنه كان بصدد تسليمنا للدولة، ولما رأى أننا مسلحين خاف وأذعن لبيع الحذاء.

ونجونــا مـــن هــذا الخطر وأمضينا الليل فى أعلى جزء فى الجبل فأصبت بصداع شديد، ولن أنسى هذا أبدًا أمسك مسعود برأسى تحت إبطه، وحينما أشرق الصبح أردنا أن ننزل أسفل الوادى، وبعد العبور من ارتفاع آخــر إلـــى الجزء الأعلى فى وادى كشناباد وصلنا إلى اندرآب وهنا ظن الـــبدو أنــنا فارون ونخاف من شيء، فأوقفونا وأرسلوا شخصًا ليأتى بجند الحكومة فوقعنا فى مأزق، وكنا قد أخفينا السلاح قبل ذلك فى الجزء الأعلى مـــن الجـبل، وأخذنـــا عـــدد من رجال القرية من هذا المكان إلى ذلك ثم أحضــــرونا من ذلك إلى هذا ففكرنا كل لحظة أنه من الممكن أن يصل جند الحكومـــة ويقبضوا علينا، وأخيرًا بدأوا فى سلبنا ونهبنا وأخذوا كل نقودنا والأشــياء القيمة لدينا من وجهة نظرهم، أتذكر أنهم عندما كانوا ينتزعون ساعة مسعود من يده قال لهم: إنها تذكار من والده ليكفوا عن أخذها ولكنهم لـــم يســـمعوا، وبعد ذلك فهمنا أن الأمر كله عبارة عن تمثيلية ولم يكن فى أذهانهم إخبار الحكومة أو تسليمنا. كان يومًا مريرًا ولكن السيئ أحسن من الأسوء ورجعنا مرة ثانية إلى ناحية پنجشير ووادى پارنده.

كـــان أمامـــنا طريق طويل ونحن جياع، متعبون مهزومون وعندما دخلنا إلى وادى پارنده كنا نسأل الناس: ما الخبر فى الوادى؟ فكانوا يقولون لنا: قام عدد من الناس بانقلاب ولكنهم هزموا وسحقوا.

ماذا حدث فى كنر وپكتيا فى ولغمان؟

فى پكتيا لم يوفق عبد الخالق فى إجراء شيء وفى كنر وفق المهندس جـــان محمد فى أن يقتل عددًا من الشيوعيين، ولكن فى لغمان قبض على

مولوى حبيب الرحمن بواسطة القوات الحكومية، واستشهد بشكل مفجع بعد التعذيب والإهانة والتحقير، ثم قبض على الدكتور عمر بعد مدة فى بدخشان.

مسعود فى مكان سرى:

ويستمر المهندس إسحاق فى روايته:

"صممنا فى پارنده أن يذهب كل شخص إلى منطقته ويختفى فى مكان، فذهب صفر محمد شيون ونصر الله مع مسعود إلى قريته جنگلك، أما أنا وشقيقى كفاية الله (مصطفى) فذهبنا عند أقارب والدنا فى قرية كرباشى".

ثم يضيف المهندس إسحاق:

"فى وادى كرباشى لم تمض عدة أيام حتى قدمت والدتنا وقالت: تعالوا وتوكلوا على الله نذهب إلى منزلنا واختفوا هناك". كنا متعبين فقبلنا مشورة والدتنا وجئنا إلى منزلنا وعشنا فى السر والخفاء فترة حتى أرسل إلينا مسعود الأستاذ فاروق شقيق الأستاذ بيرنك فأخذنا إلى الباكستان، وكان مسعود قد ذهب قبلنا إلى الباكستان وفورًا فكر فى انتقالنا.

ولكن ماذا حدث لمسعود ورفاقه شيون ونصر الله؟ كما قلت آنفًا لقد جئنا إلى وادى پارنده وهو مكان منفصل فقد كان مسعود وشيون ونصر الله فى جانب، وانجنير إسحاق مصطفى فى جانب آخر، ومن مدخل وادى پارنده حتى قرية جنگلك مسقط رأس مسعود لا يزيد عن كيلو مترين، ولكن مسعود لم يكن يستطيع أن يعبر من تلك المنطقة لأن هناك سوقًا صغيرًا، ولهذا تسمى هذه المنطقة منطقة بازارك وقال الأهالى: إن ضباط الحكومة كانوا مستقرين هناك ولذلك ظلوا حتى خيم الظلام.

وذهـــب مســـعود إلى قريته فى ظلمة الليل مستفيدًا بنهير يبدأ من پارنده ويـــوازى الطـــريق، ودخل القرية ولكنه تجنب الذهاب إلى المنزل، لقد أخبر البستانى الخاص بهم فرهاد عن مجيئه فقط. وفى الليل لم يبق فى القرية ولكنه اخـــتفى فـــى غار خلف المنزل. ولم يعرف مخبأه إنسان غير فرهاد البستانى الأســـمر اللـــون، وكـــان فرهاد يحمل الطعام ليلاً إلى مسعود وفى النهار فى الوقـــت الـــذى كان يعمل فى البستان بيديه المتعبتين كانت عيونه وآذانه على أوضاع القرية وكان يراقب مسعودًا.

والآن وقـــد مـــرت ســـنوات علـــى هذه الأحداث كان فرهاد مخزن الأســـرار، فقد كان مسعود يعتبر هذا العبد الأسود الحبشى كأنه والده، كان حينما تسأله عن أشياء لا يجب أن تقال يهمهم بالضحك تجاهك وتبرق عيناه وتظهر أسنانه اللامعة وأكثر من هذا لا تستطيع أن تأخذ شيئًا منه.

ومضـــت أعوام بعد هذا وفى وقت الحرب ضد الروس كنت أمر مع مسعود بالقرب من مخبأه القريب وكانت الأمطار تهطل بشدة فقال مسعود: نذهب إلى مخبأى العجيب، إننى لم أكن رأيته حتى ذلك الوقت، فى حين أنه فى نفس مكانى ودخلنا داخل المخبأ وظللنا ساعة هناك.

وذكـــر مســـعود الزمان الذى كان لاجئًا فيه هناك وقال: فى الصباح كنـــت أتحرك قليلاً وكنت أحتاط فى تحركاتى، وذات يوم احتجنا إلى الماء وقـــررنا أن يذهـــب ويحضـــر الماء من " ينبوع بيدك " فقلت له أن يذهب بمنـــتهى الحيطة والحذر ويكون منتبهًا لكل مكان، ولم يكد يبتعد عدة أقدام عـــنا حـــتى اصـــطدمت قدمه بحجر ووقع الدلو من يده وكأنه كرة قدم بدأ يـــتدحرج إلى أسفل ودوى صوته فى الوادى لدرجة أننى ظننت أنه لم يبق شخص ولم يسمع هذا الصوت، ولكن من لطف الله لم يحدث شيء.

وجديـــر بالذكر فى آخر هذه الموضوعات أن مسعودًا كان يعتقد فى السنوات التى تلت ذلك فى حياته أن الانقلاب ضد داود كان خطأً.

قبل المعركة حيث كان الاتحاد قد جدد وبعد عام من التجديد كان تحت رئاسة القاضى أمين ولكن الأمر صار إلى طريق غير معلوم، وفى النهاية وقع الانقسام فى الجمعية، وكان المهندس گلبدين يريد أن يعمل لينفصل عن الأستاذ [١] وأسس الحزب الإسلامى بمساعدة وتشجيع الباكستانيين.

الاخـــتلاف بين مسعود وحكمت يار من الممكن أن نسميه اختلافًا عميقًا وـــله جوانـــب متعددة، وهذا الاختلاف معروف وشائع فى كل أبعاده، ومع أن الاثنيـــن كانـــا يجـــاهدان لإيجـــاد حكومة إسلامية؛ إلا أن تفسيرهما للإسلام والحكومـــة الإســـلامية وطـــرق الوصـــول لهذا الهدف – وهو إيجاد حكومة إسلامية – كان متفاوتًا ومتباينًا بينهما.

ومن هنا اشتهر مسعود بأنه معتدل واشتهر حكمت يار بأنه متطرف، أضـــف إلـــى ذلـــك أن عداءه وتصرفاته بالنسبة للآخرين كانت غير قابلة للتحمل.

ويقـــول مسعود فى هذا الشأن: كان حكمت يار حريصًا غاية الحرص للوصول إلى الحكم إلى حد لم يكن هذا يبارح رؤاه وتخيلاته، ففى الباكستان كنا نعيش فى عدة منازل متجاورة، وكان حكمت يار يوميًا بعد صلاة الفجر يـــأتى من منزله الذى يقيم فيه إلى منزلى ويجمع الكل ويسأل: ماذا رأوا فى المـــنام أمس؟ فإذا كان أحدهم قد رأى رؤيا فإنه كان ينقلها إليه ثم يأتى دور الـــذى يليه، وكان يسر سرورًا بالغًا بالرؤى التى ترتبط بوصوله إلى الحكم، وكان الفتية يصنعون له أحلامًا من هذا النوع فمثلاً كان أحدهم يقول: رأيتك

---

(١) يقصد الأستاذ برهان الدين ربانى رئيس الجمعية الإسلامية (المترجم).

فـــى الـــنوم تمـــتطى صهوة جواد أبيض ونحن جميعًا مترجلون فى معيتك، وندخل مدينة ضوء مصابيحها يظهر من بعيد.

وكـــان هـــذا الأمر يستمر يوميًا حتى ضاق الكل وذات يوم قال أحد أصـــدقائنا ويدعى قارى ظاهر وهو الآن حى يرزق: "لقد فكرت، وإن شاء الله ســوف أخلصكم من هذا الهم والغم. ولما كان اليوم التالى جاء مخاطبًا حكمـــت يار: لقد رأيت لك رؤيا عجيبة فقال له حكمت يار: اذكرها، فقال قـــارى ظاهر: لقد رأيت برميلين متجاورين أحدهما مملوء بالعسل والثانى مملـــوء بالقاذورات، وقد جلست أنت فى برميل العسل حتى رقبتك وأنا فى برميل القاذورات، وفجأة خرجت من برميل العسل وخرجت أنا من برميل القـــاذورات، واحتضن كلانا الآخر، وكنت ألحسك وأنت تلحسنى. ومع نقل هـــذه القصة دوى انفجار من الضحك يملأ سماء الغرفة وخرج حكمت يار غاضبًا من الحجرة وتخلصنا إلى الأبد من هذا التهريج.

قتل المهندس جان محمد:

كـــان جان محمد من الأصدقاء المقربين لمسعود وهو الشخص الذى صـــحب مســـعود إلـــى الباكستان، وكان من المريدين لحبيب الرحمن مثل مسعود وكان ضد عادات حكمت يار. ومن ناحية أخرى كان موفقًا فى عدة عمليات فدائية فى محافظة كنر مسقط رأسه.

وكـــان يعتبر شخصية مرموقة بين المجاهدين المهاجرين، وفى عام ١٩٧٤م بقى الأستاذ ربانى مدة طويلة حوالى ستة أشهر فى المملكة العربية الســـعودية. وفى تلك الأيام طرح حكمت يار موضوع أخذ البيعة لنفسه من المجاهديـــن، وكانـــت غيـــبة الأستاذ ربانى عذرًا مقبولاً بالنسبة له. وكان إجـــراؤه مجابهًـــا لإكراه عدد كثير: من بين هؤلاء الذين كانوا هناك كان

المهندس جان محمد، ولكن السبب الأصلى فى العداء كان حكمت يار يريد أن يعين مولوى جميل الرحمن وكان من محافظة كنر وكان مسئول الجهاد فى محافظة كنر. وكان المهندس جان محمد فى هذه الأثناء هو المانع لتنفيذ برنامج حكمت يار ولذلك أراد أن يزيحه من الطريق.

كانـــت الشخصـــية المســـتقبلية لحكمـــت يـــار تـــتخذ هذا النوع من الإجـــراءات، وهذا الموضوع يدل كيف كان يتعامل مع الموانع فى مسيرة نضاله.

فـــذات يوم انتشر خبر بين المجاهدين أن المهندس جان محمد قبض علـــيه بواسطة ISI وهذا الخبر كان سببًا فى تعجب الجميع، وكان المحير أنهـــم جعلـــوا أن ســـبب القبض عليه هو الجاسوسية لصالح حكومة داود فجعلـــوه رهـــن التحقـــيق فى أحد المراكز العسكرية المرتبطة بالمخابرات الباكســـتانية ISI وكـــان التحقـــيق يتم معه بواسطة المؤيدين لحكمت يار، وكانـــت علاقات حكمت يار مع جهاز المخابرات الباكستانية تحس وتدرك فى هذا العمل المشترك.

وعرفت نتيجة التحقيقات بسرعة، ودعا قاضى أمين المجاهدين لسماع اعترافات جان محمد المسجلة على شريط، وكان يظهر فى هذا الشريط أن جان محمد اعترف بالتجسس لصالح حكومة محمد داود، اعترف بالتجسس بواسطة شخص اشترك قبل ذلك بقليل فى تدبير انقلاب ضد داود.

وبعـــد ســـماع الشريط خاطب قاضى أمين مسعودًا ويقول: "إن جان محمد يدعى أنك شريكه فيسأل مسعود: أين جان محمد ؟ إننى أريد أن أراه عن قرب فكان القرار أن يتواجه مسعود مع جان محمد.

مؤامرة لقتل مسعود بواسطة حكمت يار والمخابرات الباكستانية ISI.

يقول مسعود: لقد قبضوا على شخص آخر مع جان محمد وبقى هناك عـدة أيـام، وهـذا الشخص قدم سرًا إلىَّ وأوضح كيف عذبوا جان محمد بصورة وحشية ليعترف بالتجسس لصالح داود.

وجاء اليوم الموعود وكنت جاهزًا للقاء، وكنت أعلم أن هذا هو دورى فأخذت معى مسدسين أحدهما وضعته فى حزامى والآخر ربطته برباط فى أرجلى، وكان معى المهندس أيوب وكان بعد ذلك رئيسًا للجنة العسكرية فى الجمعـية، وذهبنا إلى أحد مكاتب ISI وهناك بدلاً من أن نرى جان محمد واجهونا بحكمت يار.

وبمجرد الجلوس بدأ باتهامى بالتجسس لصالح حكم محمد داود، وأن جـان محمـد اعترف بكل هذه الأشياء. فقلت له: إن أجل خدمة أنت التى قدمـتها لدواد لأنك دفعت خيرة شباب المسلمين إلى الهلاك بسبب انقلابك التافه.

وحمى وطيس الشجار بيننا، وفجأة أخرج حكمت يار مسدسه من جيبه ولكنى كنت مستعدًا قبله فأخرجت مسدسى وصوبته تجاهه وأخرج المهندس أيوب مسدسه مؤيدًا ومناصرًا لى وأنا لن أنسى له شجاعته ورجولته، وكان ضابط المخابرات المركزية حتى هذه اللحظة يبدو صامتًا ومتفرجًا، وانتبه إلـى أن الأمر اتخذ شكلاً آخر خلاف البرنامج، وبناءً على هذا تدخل وقال بعصـبية: لا تتعاركا هنا واخرجا من هنا فخرجنا ولم أر جان محمد مرة أخرى، وبعد عدة أسابيع استشهد جان محمد وكان أول مسلم يقتل بواسطة حكمت يار.

وكـان قـتل جـان محمد هو قمة الخلاف بين مسعود وحكمت يار

والمخابــرات الباكستانية ISI وقبل قتل جان محمد قتل حكمت يار الطالب سيدال بتهمة الشيوعية وكان طالبًا فى جامعة كابل.

هذا هو جان محمد المجاهد المسلم، وفى عقب ذلك انفصل حكمت يار عــن حــزب النهضــة وأســس حزبًا جديدًا تحت اسم الحزب الإسلامى لأفغانستان، الحزب الذى أراق الكثير من دماء المسلمين والكفار، ومع هذا فهو ينتظر الجزاء الأوفى والعظيم من الله تعالى.

كانت علاقات حكمت يار بالمخابرات الباكستانيةISI من عام ١٩٧٤م إلــى ١٩٩٤م يعــنى فى العقدين القريبين وكانت أوج هذه العلاقات وقت اعــتداء روســيا على أفغانستان، وكان حكمت يار يتلقى أكبر المساعدات وأكثرها.

ومــع خــروج القوات الروسية من أفغانستان كانت أحلام المخابرات الباكســتانية ISI لتوصــيل حكمــت يار إلى السلطة قريبة من التحقيق فى الواقــع، وإن جــنرالات المخابرات الباكستانية يطالبون من السياسيين فى الحكومة مكافأة عالية سياسيًا واستخباراتيًا مقابل توفيقهم فى مساعدة حكمت يار.

ولكن فجأة حدثت حادثة أخرى من الممكن أن نسميها كابوس المخابرات الباكســتانية ISI لقد قدم مسعود إلى كابل فيجب أن يكون جنرالات الباكستان متأثريــن، ويجب أن يعرفوا ما هو جواب السؤال فمع وجود كافة التحذيرات الــتى قامــت بها المخابرات الباكستانية ISI ضد مسعود فى فترة الجهاد ضد الاتحــاد الســوفييتى وذلك لتمنع ظهور قوة أخرى فى وجه حكمت يار، إذن فكيف استطاع مسعود أن يجتاز هذه الموانع والعوائق؟ وسوف أجيب أنا على هذا السؤال ولكن فى مجلد آخر.

الانقلاب الشيوعى (أبريل ١٩٧٨م)

بـــدأ الانقلاب بضباط ذوى رتب صغيرة من الشيوعيين الأفغان، ولم تتمكـــن إجـــراءات رئـــيس الجمهوريـــة محمـــد داود أن تقبض على قادة الشـــيوعيين فـــى الأيام القليلة قبل الانقلاب أن تمنع من وقوع المأساة التى تبدلت بعد ذلك بأزمة عالمية كبيرة لا تزال بلادنا تعانى ويلاتها حتى الآن.

ورئـــيس الجمهورية محمد داود - بصرف النظر عن أخطائه - فهو إنسان مسلم ومحب لوطنه وكان تقدميًا طموحًا شجاعًا عصبى المزاج.

كـــان الشيوعيون الأفغان يقلدون جميع الأعمال السيئة للشيوعيين فى الاتحـــاد السوفييتى، وأول هذه الأعمال الانقلاب يعنى الطريق السريع لحل معضـــلة اجتماعـــية عميقة، والثانى قتل رئيس الجمهورية وجميع أعضاء أسرته.

وفـــى عقب ذلك شعارات الموت لهذا ويحيا ذلك، والشوارب الطويلة المسترســـلة الـــتى تـــتدلى تحت الشفتين، ونعرات هورا ولينين وماركس والإلحـــاد، والقرآن وأنه عبارة عن أساطير الصلاة وأنها تمارين رياضية، والشـــيخ الرجعى ومحمد وأبيض الشعر عجوز من قبيلة قريش. والخطوة الـــتى تلـــت ذلـــك عدد من الفرمانات المفضوحة للإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، أما اللون الأحمر فهو علامة لجواب كل سؤال، وكان علامة على الأبواب والحوائط والنوافذ وكان لباسًا وواجهة وبيرقًا، وحتى الآن لم تصـــف الحسابات بين الناس وهؤلاء فقد أشعلوا أوار الحرب، وحتى كتابة هذا الكتاب لا تزال مستمرة ولكن بأسماء وعناوين مختلفة.

مسعود وبداية الجهاد ١٩٧٩م:

في صيف عام ١٩٧٩م قدم مسعود إلى مسقط رأسه بنجشير مع أربعين من رفاقه المجاهدين كان أحمد ضيا شقيقه معه، وقسمت هذه الجماعة إلى مجموعتين بقي مسعود مع حوالي عشرين فردًا في بنجشير أما الباقون فقد ذهبوا إلى ولايات أخرى.

وبدأ مسعود العمل بسرعة وبدأ الدعوة للجهاد، وبالاصطلاح العسكري بدأ التجنيد الإجباري واجتمع المتطوعون حوله من كل مكان، ومثل ما كان يفعل دائمًا لم يعط فرصة التفكير للدولة، وبدأ الحملة، وفي ظرف مدة قصيرة احتل ثلاثة مراكز حكومية في بنجشير، وبعد ذلك صمم على قطع الطريق شمال وجنوب أفغانستان وهو يمر من مرتفعات سالنگ ويتصل بواسطة نفق طويل، وكانت سالنگك تعد في فترة الحرب شريان الحياة للحكومات الموجودة في كابل، ووفق مسعود في حدود ستة أو سبعة أشهر أن يسد طريق الشمال إلى الجنوب.

في سالنگك وفي هذه المدة كانت الاشتباكات مستمرة بين قوات الدولة الشيوعية والمجاهدين دون أن تأتي نتائجها بتغيير مهم بالنسبة لوضع خطوط الجانبين، وفي أواخر الأسبوع السابع بدأت الدولة تعد لحملة شديدة ضد قوات مسعود وهزم مسعود ومني بخسائر وتقهقر إلى بنجشير ولكن قوات الدولة تعقبته، وكانت قوات مسعود تتقهقر خطوة خطوة إلى الوراء ببنادقهم وبطونهم الخاوية واحتل العدو الوادي.

وفي الوقت الذي جرحت فيه قدم مسعود من ناحية، فمن ناحية أخرى كانت هذه هي المرة الثانية التي يهزم فيها في مسقط رأسه بنجشير. ولكن هذه المرة كانت مختلفة مع عام ١٩٧٤م فالمرة السابقة كانت انقلاب ولكن

هــذه المرة جهاد. فى تلك المرة لم يكن الناس يعرفون، أما هذه المرة فهم يعـــرفون أن هذا الشاب ذا السادسة والعشرين عامًا رأسه مملوءة بالحماس والفتوة.

وتقهقـــر مسعود إلى الأجزاء العليا وسيطرت قوات الدولة على جميع المناطق التى فقدها.

كـــان مســـعود دائمًـــا يحرز النصر بعد الهزيمة، وكان لا ييأس من هزيمـــته أبـــدًا، يكتب فى مذكراته بتاريخ ١٣٦٣/٣/٢٤هــ الموافق يونيو ١٩٨٤م بخصـــوص هـــذه الهزيمة: "إن الهزيمة شيء سيء ومرير ومن الجائـــز أنه لا توجد مرارة تعادل مرارة الهزيمة، وخصوصًا الهزيمة فى حرب مسلحة أمام عدو لدود".

إن الهزيمة وما يلازمها من أحزان وهموم هى فى نظر البعض بداية انتصارات عظيمة يكون تصورها بالنسبة للهزيمة غير ممكن، لقد جوبهت عـــدة مرات فى حياتى بمثل هذه المسألة وكانت انتصاراتى كلها بعد تجرع الســـم العلقـــم للهزيمة، إننى أتذكر حينما هزمت قواتنا أمام عساكر الدولة وأبدنـــا عام ١٣٤٨ (هذا خطأ فى الكتابة بالنسبة لمسعود إنه يقصد ١٣٥٨ هـــــ = ١٩٧٩م) كـــان أكثر الناس يكرهنا، واعتقدوا أن هذا من عوامل التعاسة والبؤس بالنسبة لى، وفى ظرف أقل من يومين أو ثلاثة انقلب علينا أكـــثر الـــناس الذيـــن كـــانوا يشعرون بالمجد والفخار فى صحبتنا وكانوا يـــنظرون لنا بالتحقير والامتهان وكأننا شيوعيون وهم غرباء عنا سنوات وأعوام.

آه أى مشـــقة وأى زجـــر، إن القلم لا يستطيع شرحه أيضًا فلعل هذه التعاسة وهذه الهزيمة هى التى كانت بداية الانتصار العظيم، فإن جبهتنا مع

كونهـــا صغيرة وبها مشكلات تفوق الحد وصلت إلى أوج الفخر والشهرة، وصنعت منها نموذج المقاومة للمجاهدين المسلمين فى أفغانستان أمام قوى عظمى هى الروس.

كان مسعود يعلم أن الناس لم يحولوا وجهتهم عنه وبناءً على هذا أخذ فى تجديد قوته، أما هذه المرة لم يرد أن يكرر الخطأ السابق وفى أثناء الحرب فى ســالنگك ضربوه من الخلف فلم يلم مسعود أحدًا ولم يقبض على أحد فقد كان يعلــم أن جــيش عدو معروف كسب جيشًا مغمورًا، وبعبارة أخرى: اشتروا المباغتة بثمن الهزيمة.

وبعــد ذلك بدأ العمل بالانتخاب من البداية وتوصل إليه بتدبير محكم بأن قال لعدد من المتطوعين: الفداء والاستشهاد ضرورى فمن لديه استعداد للشـــهادة فليرفع يديه فرفع حوالى أربعين شخصًا أيديهم وبدأ مسعود عمله بهؤلاء الأربعين.

وبعد الخطوة الأولى التى هى التعيين والانتخاب وضع الخطوة الثانية وهـــى تعلــيم وتربية الأفراد، لقد كان التعليم والتربية ركنًا مهمًا فى حرب مســعود فقــد ظــل حتى آخر فترة فى حياته ينهض بهذه العناية والرعاية الجادة، وكانت لدى مسعود فى موضوع التربية والتعليم مثابرة وكان يسهم فـــى التدريس، وكان معلمًا جيدًا وكانت لديه قدرة على الإفادة كان يدرس مـــادة الرياضــيات، وكانت لديه تجربة فى التعليم فى هذه الناحية أعوامًا طويلـــة، وأنا أمارس حرفة التعليم إلى جانب أمور الحرب وكانت مسئولية كافـــة المراكز التعليمية لمسعود تقع على عاتقى، وأنا أريد أن ألقى الضوء قلــيلاً فـــى هــذا الشأن: قسمت قواتنا إلى ثلاث مجموعات قطع مركزية ومـــتحركة ومحلـــية، وكانت التعليمات للقوات الثلاثة إجبارية ولا يقبل أى

مجاهد أبدًا بدون تربية أو تعليم، وقسم التعليم إلى ثلاث مجموعات أطلقت علـيها الكـورس الأول حتى الثالث، وكان الكورس الأول يعطى للقوات المحلـية فقـط وكان يدرس للقوات المتحركة كورسين والكورسات الثلاثة للقوات المركزية.

الكورس الأول كان يشتمل على الأساسيات الأولى لحرب العصابات مـع التعريف بالأسلحة اليدوية واستعمالها وقيادة مجموعة من عشر أفراد، الكـورس الـثانى إضافة لما كان فى الأول قيادة مجموعة من ثلاثين فردًا واشـتراك ثـلاث مجموعات كل مجموعة عشر أفراد تكون المعركة فيما بيـنهما، الكـورس الثالث: يشتمل على قيادة مائة فرد وأكثر فنون القيادة وتخطيط الحرب، كذلك كان يدرس فيه الاستراتيجية العسكرية والسياسية.

واحتوت الكورسات الثلاثة على تدريس المسائل الإسلامية لأن التعليم دون تربية يكون ناقصًا، وكان مسعود نفسه يدرس الاستراتيجية وقمت أنا بتدريس التكتيك العسكرى.

إن هدفى من ذكر هذه الجزئيات هو أن قواتنا فى عام ١٩٩١م حينما دخلت كابل كان تعداد قواتنا المركزية أقل بكثير جدًّا مما تتطلبه الظروف، والسب فى ذلك يكمن فى أن خروج الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٨٩م جاء هـذا علـى خـلاف ما كان ينتظر مسعود لأنه كان يظن أن الحرب ضد السـوفييت ستطول من خمسة عشر عامًا إلى خمسة وعشرين، وحتى ذلك الوقـت كـان يكمل عمل القوات المركزية التى هى أساس جيش المستقبل لأفغانستان طبقًا لبرنامج مسعود. أما السوفييت فقد خرجوا قبل عشرة أعوام من توقع مسعود، لهذا السبب قال مسعود ذات مرة: لقد فاجأنا السوفييت.

ومسـعود هـو مؤسس حرب العصابات فى أفغانستان، وهو من هذا

المـــنطلق أول شخصية تضع نظرية للدفاع ضد الاعتداء، ومن الضرورى أن يعلمــوا هــذه النظرية لأبناء اليوم والغد فى بلادنا للدفاع عن بلادهم، وإنـــنى اعتقد أن جزءًا مهمًا من هيكل جيش أفغانستان يجب أن يشكله قسم حـــرب العصــــابات، فقد أوضحت التجارب من هنا أن كل مرة يتم الهجوم فيها على بلادنا فإن حرب العصابات توضح أن مصير هذا الهجوم سيكون لـــنفع حـــرية واستقلال الوطن، ومن الجائز أن العديد لا يوافق على طرح المسألة بهذه الطريقة ولكن لدى أدلة كثيرة للدفاع عن هذا الموضوع.

كـــان لـــدى مسعود استعداد وموهبة فى هذا الجانب وتذكرون أنه فى بدايـــات شـــبابه كان متعلقًا بالألعاب العسكرية. وصمد فى انقلاب ١٩٧٤م ضـــد محمد داود لأنه كان يتمتع باستعداد يفوق الحد فى هذه الناحية، كان لديـــه حـــب يـــزيد عـــن الوصف لجميع الأفرع العسكرية الإستراتيجية، والتكتيكية، والتكنولوجية، والأسلحة وغير ذلك.

ومن أجل القارئ غير العسكرى سوف أنهى هذا المبحث الممل بذكر خاطرة توضح علاقته وحبه واهتمامه بالأسلحة:

فـــى عـــام ١٩٩٤م كنا فى كابل فى منزل الجنرال فهيم وفى ذلك الوقت كـــان وزيـــرًا للداخلـــية وقائد جبهات حرب كابل (وهو الآن مارشال ووزير الدفاع)، كان لدينا جلسة خاصة وكنا أربعة أشخاص: مسعود وفهيم وكذا محمد قائد حرس وزارة الدفاع وأنا، وكان موضوع الجلسة هو إعداد برنامج لجنوب كـــابل وكنت فى ذلك الوقت رئيس عمليات مجلس شورى النظار وقائد جبهة جـــنوب كابل، وفرشنا الرسوم والخرائط على الأرض وكنا مشغولين بالأمر، وفجـــأة طرق الباب فالتفتنا فوجدنا الجنرال لطيف وكان فى هذا الوقت مسئول الإمدادات العسكرية لجميع الجبهات ولو كان شخصًا غيره ما سمح له بالدخول

حـــتى الحجرة، ولكن لطيف كان يقوم بوظيفة حساسة فى ذلك الوقت فإنه كان يرى كل من يأتى إلى مسعود، دخل لطيف ولكنه وقف بالقرب من الباب وبعد السلام والكلام مع مسعود قال: أحضرته.

فسأل مسعود: جئت به؟

فقال لطيف: نعم.

فسأل مسعود: أين؟

قال لطيف: هنا!

فقال مسعود: أحضره.

فسأل لطيف: هنا؟

فقال مسعود: نعم هنا.

وخرج لطيف من الحجرة ولم يدر بخلدى ما الذى أحضره، تصورت أنهـــم قبضـــوا على مجرم ولكن لم يطل انتظارنا فقد ترامى إلى آذاننا جر شـــيء فـــى الدهليز، وظهر أن مجموعة أشخاص يحضرون شيئًا مسحوبًا مجرورًا، وحينما اقترب الصوت من باب الحجرة وصل صوت أحدهما إلى الآذان وهـــو يقـــول: أرجله أرجله ارفعها، وكان الآخر يقول: بالراحة كن محتاطًا وقامت ضجة فى الدهليز فماذا تظن؟ ماذا أحضروا؟ هل أحضروًا مجـــرمًا؟ لا أحضـــروا راجمة صواريخ مسكينة وأدخلوها داخل الحجرة، ويقينًا أن التعب الذى تحملوه لإحضارها حتى الطابق الثانى كان أكثر بكثير مـــن التعب لإدخالها داخل الحجرة، والأشخاص الذين رأوا ماكينة راجمة صواريخ الدهشكة ١٢,٧ مليمتر يدركون ما أقول. ولكن لماذا طلب مسعود هـــذا الســـلاح فـــى هـــذا الوقت وفى هذا المكان؟ السبب فى ذلك أننا فى الأراضـــى الجبلـــية نستفيد استفادة كبيرة من هذه الماكينة ولكن عيبها كان

ثقلها، وأمر مسعود أن يبحثوا له عن نوع أخف وها هو الجنرال لطيف بعد البحث الكثير وفق فى تهيئة هذا الطلب، وحينما رأى مسعود الماكينة نهض من مكانه وشغل بتفحصها فنظر إلى گدا محمد نظرة ذات معنى، وكان أقدم قوادنا سواء من حيث السن أو من حيث الأقدمية والخبرة، وفى نفس الوقت كـــان شخصـًــا رزينًا وظريفًا وكان معنى نظرته أن الجلسة انتهت هنا وقد كان كما أراد.

فى الساعة التاسعة صباحًا التقينا فى المكان ورأيت مسعودًا يجلس فى الدهليز وإلى جواره الحاج بهلول وكان أحد قادتنا المجيدين، وحينما وقعت أعين مسعود علىّ سألنى: هل رأيت راجمة الصواريخ الجديدة إلى أى حد خفــيفة وجميلة؟ ونسى أننى رأيتها بالأمس، قلت: نعم رأيتها بالأمس، فقال مسعود: نحن أيضًا تفحصناها ورأيناها بالقدر الكافى مع الحاج بهلول عدة لحظـــات قــبل ذلك وكان من المعلوم أن رؤية اليوم السابق لم تكن كافية، ومن هذه الخواطر تستطيعون أن تقيموا مدى تعلقه وحبه للأسلحة.

كان مسعود يستطيع أن يستعمل كل أنواع الأسلحة التى كنا نستعملها فى وقت الحرب ضد الاتحاد السوفييتى، كل الأسلحة التى كانت تصل أولاً بأول إلى أيدينا كان أول شخص يتعلمها هو مسعود، وحينما صرنا أصحاب مدفعية ثقيلة وقوات مدرعة تعلمها أيضًا، وقبل ذلك تعلم أيضًا قيادة الطائرة الهليوكبتر، وأحيانًا كان يشترك فى الطيران، وحقيقة يجب على كل قائد أن يكون على معرفة ودراية بأسلحته هو وعتاد الآخرين، وهذا أقل شيء فيما يــتعلق باتخاذ قراراته، وبعبارة أخرى: إن المعرفة بالأسلحة ضرورية أما حب الشيء للوصول إليه هو الذى يوجد القوة والطاقة، وكان مسعود يقول إن الحــرب علم وفن أما القيادة فهى فن فقط. كان أساس عمله فى الخدمة

التعليمـــية والتربية، وكان لديه اهتمام بهذه الأمر حتى إنه كان يشترك فى كــل مـــا يخص التعليم والتربية ولتفهيم موضوع يكون محل اهتمامه كان يعتمد على كثير من الأمثلة والنماذج، وهذه الأمثلة والنماذج كان يستعملها ويغيرها حتى يفهم التلميذ، كان يدرس الإستراتيجية وأيضًا التكتيك. تأسيس جــيش إســلامى كـــان أحـــد آمال مسعود القديمة، ولقد طرح أول أفكاره بخصوص هذا الأمر فى عام ١٩٨٤م لأول مرة.

ففـــى أى ظـــروف طرحه! جدير أن أوضحه فى هذا المجال: بعد وقف إطـــلاق الـــنار بـــدأت أكـــبر حملـــة للجيش الأحمر فى ربيع عام ١٩٨٤م، وبحســـاباتنا كانـــت هـــذه هى الحملة السابعة وكانت أكبر حملاتهم، وكنا مع مسعود فى وادى پارنده (بفتح را وكسر دال) وهذا الوادى فى نفس الوقت هو مسقط رأسى، وپارنده هو أحد الأودية الفرعية لپنجشير، ويشتهر بعذوبة مياهه الصـــافية النميرة، وكانت الحرب تجرى بشدة فى داخل الوادى وتقدمت قوات مشـــاتهم فـــى داخل الوادى حتى آخره، وكنا نجلس حيث نبعد قليلاً عن آخر قـــرية فى منطقة تدعى هزار چشمة تحت حجر كبير كان يبدو من بعيد كأنه حجـــر عظـــيم، وقد أحيط كل ما حوله بسور حجرى بحيث أصبحت وكأنها حُجرة، واجتمعنا أقل من عشرة أفراد تحت هذا الحجر.

وكـــان مســـعود يتحدث بخصوص جيش أفغانستان الإسلامى، وكان يطـــرح هـــذا الموضـــوع فى ظروف كانت أصوات الانفجارات المخيفة لطائـــرات العـــدو الحربية تصم آذاننا، وكانت هذه الأصوات تختلط أحيانًا بأصـــوات قصـــف مدفعيتهم الثقيلة وكان أكثرنا عيونه معلقة على مسعود وآذانـــنا منصتة للأصوات خارج المجلس، فمن ذا الذى يستطيع أن يسيطر على نفسه ولا يقلق؟ آخر قوات المشاة للعدو لا يفصلنا عنها مسافة قصيرة

ولكـــن مسعودًا كان غير مبال كان مستغرقًا فى المستقبل وكأن هذه الآمال والأمانى سوف تتحقق فى العام القادم.

لقد وضع مسعود استراتيجية على أربعة مراحل للحرب ضد الاتحاد السـوفييتى شملت من بداية حرب العصابات حتى النصر وكيفية الوصول إليه، وفى التاريخ القديم والمعاصر لأفغانستان تمت حروب عصابات كثيرة وبعـبارة أخرى: إن الاستفادة من هذا النوع من التكتيك هو جزء من ثقافة وتـراث أمتـنا، ولكن مسعودًا أول من وضع لهذا النوع من الحرب أساسًا علميًا فى بلادنا ودَوَّنه.

وقـد أورد مسعود تجديدًا فى ساحة هذا التكتيك يعد ابتكارًا جديدًا فى سـاحة حـرب العصابات. كان مسعود يظن أن الحرب سوف تستمر من عشـرين إلـى خمسة وعشرين عامًا وسوف يوفق فى هذه المدة، وسوف يـرتقى بجيشـه غـير المـنظم إلى جيش شبه منظم، ولكن جيش الاتحاد السـوفييتى انسحب قبل ذلك من أفغانستان يعنى قبل أن تصل الحرب إلى ذروتها. ولهذا السبب بعد خروج قوات الاتحاد السوفييتى من أفغانستان كان الجمـيع يظـن أن عمر الحكومة الشيوعية برئاسة نجيب الله سيكون عدة أسـابيع أو عدة أشهر، ولكن مسعودًا كان يقول: لا يزال الوقت مبكرًا على سـقوط الـنظام. وكان يعتقد أن المجاهدين لا يزالون فى مرحلة المناوشة الاستراتيجية ولم يصلوا بعد إلى ما أسماه المرحلة الثالثة لحرب العصابات.

وقـد عمل مسعود من بداية الحرب حتى آخر حياته على حفظ قواته الـتى كانـت أساسًا مهمًا فى حرب العصابات، فقد كان يتضجر من تكبد الخسائر فقد كنت مسئولاً عن قطاع العلميات وعانيت معه المشاكل فى هذا القطـاع لأن الأهداف عمومًا من أجل عمليات هجومية كانت تتم بواسطة

مجلــس عســكرى عين من قبل وكان عملى يبدأ من هذه المرحلة إلى ما بعدها.

وأول خطــوة هــو الكشف والبحث عن الهدف من قريب، وكنت أنا شخصــيًا أشارك فى أكثرها وكان العمل صعبًا ومحفوفًا بالمخاطر، وكانت العملــيات السرية لها مساحة آخرى لأن كل خطوة كانت كأنها الألغام على طريقــنا وكانــت كــل هــذه الأعمــال لو تتم يكون إنجازها جيدًا، ولكن الصــعوبات كانت تظهر أمام مسعود وقت رسم الخطط والبرامج لأنه كان بمجــرد أن يشعر أن احتلال نقطة سيكون مصحوبًا بالخسائر، كان يقول: اصــرفوا الــنظر عن هذه الخطة، أو يعطى الأمر بأن يتم دراسة ومطالعة الهدف مرة ثانية، ويبحث عن طرق وخطط تتم دون خسائر، فهل تظن أن عملــيات مسعود وخططه كانت تتم دون خسائر أو أنه لا يعلم أن الحرب دون خسائر تكون نادرة؟

لا، هــو يعلم جيدًا ولكنه كان يريد أن تكون خسائر القوات التى تحت إمرته قليلة إلى أقصى حد ممكن وكان موفقًا، لقد أعطى الأوامر بالانسحاب عــدة مــرات ليمنع الخسائر فى البشر والمعدات ونجح فى الحفاظ عليها. وكان أحد التميز العسكرى لمسعود فى الحرب أنه كان وقت الهزيمة يرسم شــكل الانسحاب ويقلل من الآثار النفسية السيئة على قواته، ومن خصاله الحمــيدة الأخــرى أنه كان يتقبل الهزيمة، وهذا علامة على سلامة العقل واعــتدال النفس وكانت هذه الرؤية الواقعية سببًا فى أن يتعلم من الصواب ومن الخطأ.

أهداف مسعود الأربعة

١. الإسلام.

٢. أفغانستان.

٣. الشعب.

٤. الحرية.

١- الإسلام

كان مسعود مسلمًا صاحب تقوى وورع، ولد فى أسرة مسلمة وكانت تربيته تربية إسلامية، وتمت هذه التربية على طريقة ما يعرف وما يروج بين الجميع فى أفغانستان، وفى الخطوة الأولى من خطوات تعليمه درس بدايات الدين لدى مدرسى الدين، ولاهتمام الوالدين بالتعليم والتربية استخدموا المدرسين وقد مر الحديث عن ذلك، وطبعًا كان التعليم الدينى يبدأ فى فترة الطفولة، ولأن الطفل ليست لديه القدرة على فهم هذا الدين العظيم فإن هذه المرحلة كانت تجعله معدًّا حتى يعرفه ويلم به فى السنوات الأكبر كما شرحنا قبل ذلك.

وكان مسعود فى الصف الحادى عشر فى المدرسة، حيث عرف بين الشباب القريب والبعيد وفى محيط الأسرة وفى محيط أقاربه بأنه شاب مسلم.

يقول شقيقه يحيى عن ذكريات هذه الفترة فى حياته:

"ذات يوم جاء للضيافة فى منزلنا عدد من أقربائنا وكان البعض منهم شيوعيين، وكان دستگير پنجشيرى وهو أحد أعضاء الحزب الديمقراطى

خلق موجودًا أيضًا، وأثناء إعداد المائدة قال أحد الأقارب الشيوعيين بتهكم وبصوت عال: لا تضعوا أمام أحمد شاه شوكة وملعقة لأنه مسلم ويأكل بيديه، فنظر مسعود إليه ولم يقل شيئًا، وكنت قلقًا حتى لا يقوم مسعود برد فعل وكانت هذه أول مرة يظل فيها صامتًا أمام إهانة توجه لاعتقاداته، وحتمًا تملكه هذا الصبر لأنهم كانوا ضيوفنا وبعد تناول الغذاء اتجه مباشرة إلى الشخص الذى وجه الإهانة إليه وهو دستگير پنجشيرى وقال: "ليس للشيوعية فضائل يتعلمها الشاب فلا تضللوهم".

أول أساتذة مسعود:

كان بالقرب من منزل أحمد شاه مسعود مسجد يسمى مسجد مير أحمد وهذا المسجد موجود حتى الآن، وإمام هذا المسجد كان السيد يعقوب الهاشمى وكان حيًّا يرزق حتى كتابة هذه السطور، وقد تعلم مسعود أول الدروس الإسلامية فى هذا المسجد، وكان بمعية السيد يعقوب الهاشمى عدد آخر من العلماء المشهورين فى ذلك الوقت فى كابل. كانت إمامة هؤلاء العلماء وتدريسهم مجانًا وفى سبيل الله وكان كل العلماء الذين كانوا يدرسون فى هذا المسجد لهم وظائف أخرى، وأعرفهم كما يلى:

- مولانا السيد يعقوب الهاشمى رئيس دار الحفاظ فى كابل، كان إمامًا للمسجد وأستاذ التجويد وقراءة القرآن.
- مولوى عبد الرحمن وكيل مجلس الشورى وأستاذ التفسير.
- مولوى بشار معاون رئاسة الأوقاف وأستاذ التفسير.
- مولوى شهاب مدير الدعوة الإسلامية فى وزارة الثقافة والإرشاد وأستاذ التفسير.

وهؤلاء هم أوائل أساتذة مسعود.

يقول مولانا هاشمى: كان مسعود ذكيًا ذا استعداد ولياقة، كان ينصت لـــدروس التفسير بدقة ويسأل أسئلة دقيقة، وقد اهتم به مولوى عبد الرحمن لاســتعداده ولياقته. وقد سمعت عدة مرات من مسعود عن المكانة العلمية لمولوى عبد الرحمن فى علم التفسير.

وقـــد توفـــى مولوى عبد الرحمن بعد ذلك أثناء أداء مناسك الحج فى مكـــة المكـــرمة على أثر حادثة مرورية. (وتوفى مولانا هاشمى كذلك بعد أسبوع من رؤيتى له فى يوليو ٢٠٠٣م فليرحمه الله).

العلوم التى كان يعرفها مسعود:

الصـــرف والـــنحو: فى عام ١٩٨١م وأظن أنها كانت الحملة الثالثة للـــروس على أفغانستان وكانت تجرى هناك حرب ضروس جذب اهتمامى أن مســـعودًا كان يتناقش مع الأستاذ خليل الرحمن حنانى وهو الآن سفير أفغانستان فى السودان حول موضوع فى الصرف، وبعد ذلك فهمت أنه بدأ علـــى يديـــه فى تعلم الصرف والنحو، وقد تعلم هذين العلمين جيدًا وكان يستفيد بهما فى المباحثات الدينية.

الـــتجويد: تعلم التجويد فى سن السادسة عشر عند مولانا سيد يعقوب هاشـــمى. واستمر بعد ذلك فى دراسته وفى فترة الجهاد درس لدى مولوى غلام نبى المشهور بمولوى قارى، وكان مسعود يقرأ القرآن دائمًا ويراعى القواعـــد الصـــحيحة للقراءة، وكان نادرًا ما يترك تلاوة القرآن بعد صلاة الفجر وكان يجود القرآن جهرًا.

التفســـير: كما قلنا آنفًا أنه تعلم التفسير لدى أساتذة هم مولوى بشار، وشـــهاب، وعـــبد الرحمـــن. وداوم على الدراسة فى الباكستان فى أعوام ١٩٧٤ – ١٩٧٨م وعلـــى حد قوله: استفدت كثيرًا فى الباكستان من حلقة

التفسير التى كان يدرس فيها علماء مشهورون فى شهر رمضان المبارك. وفى فترة الجهاد استمر مسعود فى التحصيل فى مادة التفسير لدى علماء، ثـم كان يداوم على القراءة والاطلاع مع نفسه وسوف أتحدث بعد ذلك عن حرص مسعود على التعليم وأريد هنا أن أشير إلى مسألتين:

المسـألة الأولـى: من بين العلوم الإسلامية كان لمسعود تعلق شديد بالتفسـير والسيرة، وكان يعرفهما جيدًا وكان يستمد أكثر إلهامه من هذين المنبعيـن، وكـان يـنقل عن السـيرة أكثر الأقوال. وبخصوص سيرة الرسول ﷺ كان يقول السيرة هى الإسلام العملى.

المسـألة الثانـية: وهى من الجائز أن تثير سؤالاً لدى القارئ وهو كـيف وفـى ظل ظروف الحرب كان يجد فرصة للاطلاع فى العلوم بل وللاطـلاع فـى كل شيء؟ فيجب هنا أن أجيب وأقول: حتى الآن لا توجد قـدرة تسـتطيع أن تستمر فى الحرب عدة أعوام ليلاً ونهارًا دون توقف، وإلـى الحـد الـذى أعرف فيه الإنسان وضعفه فإن هذا العمل فوق طاقة البشر.

فحيـنما كانت تشتد الحرب كانت هناك وقفات لانجاز أعمال أخرى، وكمـا مـرَّ ففى فترة الجهاد كانت المناطق الواقعة تحت سيطرتنا غالبًا ما تغطى بالثلوج فى الشتاء، وفى ذلك الوقت كانت الحرب تقل بشكل طبيعى، وكـان مسعود لا يستفيد من هذه الفرصة وحده فقد كان يهتم بنا أكثر، لقد وقـع علـى عاتقى ولأعوام طويلة مسئولية التدريس للمجاهدين تحت إمرة مسـعود، ولا أذكر شتاءً قط لم أكن فيه مشغولاً بالتعليم، فبعد التربية يكون التعليم إجباريًا وتكون التربية من أربع نقاط رئيسية هى:

١- المداومة على الجهاد فى سبيل الله.

٢- الوفاء للهيئة مادام فى الخدمة.

٣- الطاعة للرئيس.

٤- تجنب النواهى.

الفقــه: تعلــم هذا العلم فى أفغانستان يعتبر مشكلة للجميع مثل البلاد الإسلامية الأخرى، وكل مسلم لابد أن يعرف من هذا العلم القليل أو الكثير لأن الجــزء الأساسى من هذا العلم يرتبط بالعبادات ولا مفر للمسلمين من معرفــتها. وقــد درس مسعود علم الفقه لدى مختلف الأساتذة، وطبعًا كان مولــوى قــارى أكثرهم لأنه كان يرافقه فى الحل والسفر. وتعلم علم الفقه يكــون عملــيًا أكثر لأن القسمين الأساسيين فيه يعنى العبادات والمعاملات تــتعلق بالعــبادات والمعاملات اليومية فى الحياة لكل مسلم. وكان مسعود شديد النشاط لا يكل من العمل، ممتلئًا بالحيوية، مشغولاً لا يُرى دون عمل، كــان يعمــل من ستة عشر إلى ثمانية عشر ساعة يوميًا وفى مدة الواحد وعشــرين عامًــا التى عملت فيها معه لم أره ينام قبل الساعة الثانية عشر مساءً ومع وجود أعماله وأعبائه الكثيرة فإنه قال لأستاذه فى العلوم الدينية مولــوى قارى: حينما يحين وقت الدرس فإنه يدخل مهما كان الأمر ويبدأ الــدرس ونفذ أستاذه هذه الوصية دون زيادة أو نقصان إلى الحد الذى كان فيه سببًا فى عصبيتنا. وذات مرة قررنا أن نهجو مولوى فى قصيدة بترتيب أن يقول كل شخص بيتًا ونُظِمَتْ القصيدة، وقررنا ألا يعرفها مسعود ولكنه عــرفها وغضب عند سماعها ولام الناظمين لها وكان يعاتبهم حينما يراهم (وكنــت أنــا شــريكًا فى الجرم ببيت واحد) وظل الأستاذ والتلميذ أوفياء لقرارهما واستمر الدرس.

سيرة الرسول ﷺ : كان اطلاع مسعود فى سيرة الرسول ﷺ والخلفاء

الراشدين لا ينتهى وكان يعتقد أن السيرة هى الإسلام العملى وكان يستشهد بهـا فـى كثير من المواضع، ولقد قرأ الكتب القديمة والجديدة فى التاريخ الإسلامى، وعلى حد قوله أنه كان كلما يقرأ فى سيرة الرسول ﷺ كان يجد شيئًا جديدًا، وكان يحثنا أن نقرأ السيرة مرات ومرات.

الأصول: لا أعرف إلى أى حد كانت علاقة مسعود فى هذه الظروف بمـا نـتعلمه مـن هذا العلم، فمنذ مدة طويلة كان يتعلم هذا العلم ففى عام ١٩٨٨م كنا فى ولاية طخار وكانت هى قاعدتنا المهمة فى الشمال، وذات مـرة قـال سيد ناصر وهو أحد أساتذتنا: لقد أشار مسعود أن نُنَظِّمَ دورة لـتدريس أصـول الفقه وأظن أن هذه الدورة دُرِّسَتْ للأعضاء الأصليين، وكـان هدف مسعود هو الارتقاء بسطح المعلومات لرؤساء الإدارات، ومع أن هـذه الـدورة لـم تستمر حتى النهاية فقد اشتركت فيها، وعرفت كيف تستخرج النصوص من الأحكام فى الإسلام.

العقيدة وعلم الكلام: لم يكن مسعود راضيًا عن أساتذته فى هذا العلم، فمـن ناحـية أن هـذا العلم له علاقة مترابطة ومتشابكة بالفلسفة ولم يكن لمسـعود شـغف بهـا، ومن ناحية أخرى كان ذكاؤه الشديد فى هذا الفرع يجعلـه يطـرح أسئلة لا يستطيع أن يجيب عليها الأساتذة فى ذلك الوقت، وكنت شاهدًا لمناظرات عدة بينه وبين العلماء أذكر أنهم سألوا مسعودًا ذات يـوم عـن نفـوذ السـلفيين فى ولاية كُنَرْ بزعامة المرحوم مولوى جميل الرحمن، وهذا هو الشخص الذى ذكرنا اسمه فى حادثة قتل المهندس جان محمـد وقلنا إن حكمت يار كان يريد أن يجعله مكان جان محمد فى ولاية كـنر، وتبوأ جميل الرحمن زعامة نهضة السلفيين فى كنر وصار حكمت يـار عـدوًا له وقامت بينه وبين حكمت يار منازعات شديدة على رئاسة

محافظة كُنَرْ ودامت لعدة أعوام.

واغتــيل فـــى النهاية جميل الرحمن بواسطة قوات حكمت يار، وفيما يبدوا أن سبب المنازعات كان الاختلاف المذهبى حتى إن عددًا من علماء الحنفية أظهروا قلقهم بخصوص الاختلافات المذهبية.

وقـــال مســـعود: إن مشـــاكل كـــنر سياسية وليست مذهبية، وطريق المجابهـــة فـــى هذا الشأن ليس الحرب بل إن أتباع الحنفية يجب أن ينقوا المذهب من الخرافات التى دخلت إليه باسم الدين، وكان مسعود شديد العداء للخرافات.

الحديث وأصول الحديث: إننى لا أعرف مقدار تقدم مسعود فى هذين الفرعين من العلوم الإسلامية، إننى أذكر فقط أنه بدأ فى تعلمهما عند مولانا أفقر ومولانا عبد الظاهر.

مسعود والتقوى:

الصـــلاة: كـــان مسعود يتوضأ ويتطهر عدة مرات فى اليوم، ولم ير شـــخص أبدًا أن مسعودًا ترك صلاته، فقد كان مداومًا على أدائها ويستطيع الإنســـان أن يدرك أن من كان مثل مسعود وأمضى ما يزيد عن العشرين عامًا من عمره فى أزمات ومشاكل إلى أى حد تكون المواظبة على الصلاة صـــعبة، ومن الأفضل أن أذكر فى هذا المجال خاطرتين من بين الخواطر والذكريات الكثيرة. ففى عام ١٩٨٧م كنا نعبر مع مسعود من جبل خاواك، ويرتفع جبل خاواك بين وادى پنجشير وشمال أفغانستان، وهذا الجبل على الرغم أنه أقل النقاط ارتفاعًا بين پنجشير وشمال أفغانستان ولكنه بارد جدًا طول الشتاء وعلى طول سنوات الجهاد كنا نفقد شخصًا واثنين بسبب برودة الهـــواء وشـــدة العواصف، أما الخسائر فى المواشى فقد كانت أكثر طبعًا،

وكـــنا نعبر من هناك فى الشتاء حيث تهب العواصف الثلجية فيه كل لحظة والمسافة بين قريتين فى طرفى الجبل خمس ساعات سيرًا على الأقدام، ولو هبـــت العواصف الثلجية فى وسط الطريق فإن إمكانية الهروب والفرار أو البقاء على قيد الحياة تكون قليلة جدًا.

ولقـــد تحركنا فى ذلك اليوم من مسافة بعيدة وحينما وصلنا إلى السفح كان الوقت قرب الغروب، وكان الهواء شديد البرودة وكنا متعبين للغاية من قطـــع مسافة الطريق طوال اليوم سيرًا على الأقدام ولم تستطع شدة الخوف من العواصف أن تزيد من سرعتنا لأن شدة البرودة والثلج كان مانعًا كبيرًا للســـرعة فـــى ســـيرنا، كانت البرودة إلى حد أن أنفاسنا كانت تتجمد على لحانـــا، وفى هذه الأثناء انفصلت إحدى قوافلنا لأداء صلاة المغرب وأمعنا الـــنظر فوجدنا أن مسعودًا حين خرج عن الطريق غاص حتى وسطه فى الثلج.

وأشـــار لـــنا أن نستمر فى السير أما نحن فلم نستطع أن نصلى ولم نســـتطع أن نـــترك مسعودًا وحده، ولم يكن هناك بد من الوقوف حتى يتم مســـعود صلاته وأخذ مسعود بطانية من تاج الدين مساعده وفرشها تحت أقدامه على الثلج لأن هذا المكان لا يستطيع أن يصلى فيه أكثر من شخص واحـــد ثم وقف للصلاة، والعاشقون لله فقط هم الذين يستطيعون أن يعبدوه فى هذه الحالة، لقد كنت أنتفض مثل أوراق الصفصاف فى الوقت الذى كنا فيه أكثر شبابًا من مسعود بحوالى عشر سنوات فليتقبل الله من مسعود هذه الصلاة الخاشعة الضارعة والتى تفيض وجدًا وعشقًا للذات العلية.

وبغير الصلوات الخمس كان مسعود يصلى النوافل والتهجد، ولما كان يعمـــل فى أكثر الأوقات حتى منتصف الليل فإنه كان يصلى صلاة التهجد

فـــي آخر أعماله ثم ينام، وأحيانًا كان ينام جزءًا من الليل ثم ينهض لصلاة التهجد، وحتى لا يقلق الآخرين كان ينام في آخر حجرة أو يكون نومه في مكان لو نهض فيه لصلاة التهجد لا يقلق أحدًا.

الذكر والتسمية:

كـــان ذكر الله تعالى هو الورد على لسان مسعود، وبعد صلاة الفجر والعشـــاء كـــان غالبًا يستغرق في ذكر طويل وفي غير هذه الساعات كان دائمًـــا يذكـــر، وكان من عادته وقت الذكر أن يخرج مسبحته ويمسكها في يده، كان يذكر بصورة خفية وكان يعتبر أن الجهر في الذكر بدعة.

ولـــم يكن ينسى التسمية في بداية كل عمل خصوصًا أثناء الكلام، ولم يكن هذا في أول المجلس وأول الحديث بل في كل مرة يبدأ فيها موضوعًا جديدًا وفجأة ينظر إلى أسفل قليلاً وكان يقول بصوت يسمع بصعوبة (بسم الله الرحمن الرحيم) كان اسم الله تعالى في كل موضوع على لسان مسعود، وكان يستخدم كلمة پروردگار أي الملك القدوس في أكثر الأحيان.

مسعود والمنهيات والمكروهات:

وضـــع مسعود في أول فرصة من جهاده الذي بدأ (١٣٥٨ هـــ ش – ١٩٧٩م) أساسًـــا إداريًا وتعليميًا، وتربويًا، وإعلاميًا، ومخابراتيًا وقبل هذا كانـــت هـــذه الإدارات تسمى لجان مثل اللجنة الثقافية ولجنة الجهاد ولجنة الدعوة واللجنة المالية ولجنة التحقيق ولجنة القضاء وعدد آخر من اللجان، وطـــبعًا هذه اللجان غير اللجان التي ترتبط بالقطاع العسكري. فأعمال هذه اللجـــان كانت ترتبط بأمور الناس وتجربة هذه اللجان التي سارت جنبًا إلى جنب مع الحرب كانت تتعلق بأمور الناس.

وكانت جديرة بالتقدير ويجب أن تكون محل الدرس والاستقصاء من

كــل النواحى لتنقل إلى الأجيال المستقبلة بعد ذلك، أو بعبارة أخرى: كانت تجــربة مديــرية بحـــران تجربة جيدة وقيمة ولا يجب أن تنسى من أجل الوصول إلى عدم المخالفات للقوانين الإسلامية، وكذلك من أجل المنع من ارتكـــاب الجـــرائم فإن اللجان التى ذكرناها آنفًا كل واحدة كانت تعمل فى القطاع الذى يخصها.

وبخصوص ارتكاب جرم أو مخالفة كان حكم القضاء فى هذه اللجان نهائيًا وخصوصًا فى موضوعات الحدود، فإن مسعودًا لم يكن يتدخل مطلقًا فى مثل هذه الحالات وكان يجتهد: أن يتعود الناس على ممارسات القانون وألا يســتخدموا كلمـــة لا قانون للحرب، ولقد وضعت لجنة القضاء أساسًا مســتقلاً، وكان مسعود دائمًا يستند على صلاحيتها، أما إذا كان المدعى أو المدعى عليه يشكون من القاضى أو من حكمه فإنه يحقق فى ذلك. وكانت لجــنة القضـــاء تعطى لمسعود وتسمح له بالقدر الذى تجيزه الشريعة حق تخفــيف الجــزاء أو الحكم باعتباره أمير الجهاد، وكان هو من حين لآخر يســتفيد بهذه الصلاحيات. ولكن أحد هذه الموضوعات كان مسعود بنفسه يجلــس فـــى مكان القضاء والحكم ويتخذ القرار، وهذه الموضوعات هى: المكافحة ضد السجائر وضد الحشيش وسائر المواد المسكرة والمخدرة فهذه الأشــياء كانت تجعله عصبيًا جدًا للغاية، كان لدى مسعود حساسية عجيبة فـــى مقـــابل الســـجائر والنسوار[١]، وفى أول الجهاد كان المسئولون عن الـــنواحى المالـــية يهيـــئون للمجاهدين السجائر والنسوار إلى جانب المواد الغذائـــية. حســـنًا أذكر حينما قدم الحاج شادولا كشف حساب المصاريف المالـــية لمســـعود تعصب من رؤية اسم السجائر والنسوار فى هذا الكشف وقـــال: بداية من هذا التاريخ لن تنظر مثل هذه النفقات. واتخذ قرارًا بمنع

---

(١) هو مادة تشبه المعسل فى مصر (المترجم).

شرائها، وكان قلَّما يرى سيجارة في يد أحد ولا يظهر رد فعله، في يوم أيام من عام ١٩٩٢م وكانت قواتنا تدخل حديثًا إلى كابل كنت أركب مع مسعود في سيارته وكنا نمر من ميدان الأنصاري في وسط المدينة، وفي وسط الميدان كانت توجد نقطة حراسة ووقف جندي والسيجارة في يده، وبمجرد أن وقعت عين مسعود عليه أمر السائق أن يقف وفتح باب السيارة وقال للجندي: اقترب وحينما وقعت عين الجندي على مسعود تقدم بسرور بالغ إليه، وطبعًا سبب سروره معروف لأن مسعودًا كان بين الناس شخصية أسطورية وبخصوص شخصيته وأعماله نسجوا قصصًا خيالية حوله، ولذلك كان من حق الجندي أن يسعد ويفرح لأنه يرى مسعودًا، وما أكثر الأشخاص الذين كانوا يتمنون أن يروه مرة في حياتهم وفي هذا الشأن بعد ذلك سوف أنقل قصصًا أكثر. وأعود إلى تكملة ما حدث: وصل الجندي بالقرب من باب العربة فصفعه مسعود فجأة صفعة قوية على وجهه، ولم يعرف الجندي جريمته فتقهقر إلى الوراء ووقف في حالة الاستعداد، ولا تزال السيجارة في يده فوجدت أنه لم يدرك جرمه حتى هذه اللحظة ودون أن يلتفت مسعود أشرت إليه أن يرمي سيجارته فتنبه الجندي ورمى السيجارة تحت أقدامه وحيا مسعود التحية العسكرية، حتمًا سوف يرد إلى ذهنك أن مسعودًا كان متناقضًا فقبل ذلك قلت أن مسعودًا أعطى أمرًا ألا يضرب أحد على وجهه ثم قام هو بهذا العمل، فيجب أن أكرر هنا أن مسعودًا كان حساسًا تجاه المنهيات وكانت تجعله يستشيط غضبًا كما سبق شرحه، كان إنسانًا له عواطف وإحساسات إنسانية وخصائص بشرية، وكان أحيانًا يغضب ولكن كان غالبًا ما يحكمه الاعتدال في سلوكه وأعماله وكان يميل إلى العفو أكثر، وقد جاء شرح ذلك في الكتاب في أماكن مختلفة ولكن مثل هذه الوقائع لا يجب أن تفسر على خشونة طبعه.

الحشيش بين المجاهدين:

كـان انتشار الحشيش انتشارًا واسعًا بين المجاهدين فى أفغانستان أحد العادات السيئة والشنيعة، ولا أستطيع فى هذا الشأن أن أظهر لهذا إحصاءً أو تعـدادًا، ولكـن لـم تسلم من هذه الآفة أكثر مناطق أفغانستان حتى التى لها زعامـة وجـبهات مـنظمة. وتعداد الذين أدمنوا الحشيش يستحق الاهتمام والدراسة، العجيب أن زعماء الجهاد لم يقوموا بأى إجراء لمكافحة هذا الفساد فأذكره أو يذكره غيرى.

فـى الوقت الذى كانوا يعلمون فيه جيدًا أن الحشيش كان يستعمل فى مقـرهم بطقـوس ومراسم خاصة، ولهذا السبب فإن زعماء الجهاد أطلق علـيهم اسم زعماء پيشاور لأنهم كانوا يأتون إلى داخل البلاد نادرًا وحينما كانوا يأتون إلى داخل البلاد كانت أحمالهم تفوق أعمالهم.

فـبدأ مسـعود النضال الشديد ضد هذا البلاء، وكانت أول خطوة هى فـتوى العلماء بخصوص تحريمه وتحذير الجميع من أى نوع يتعلق به من الزرع والبيع والانتقال والاستعمال.

الخطوة التالية: شبكة مخابرات مسعود بدأت العمل لمعرفة المخالفين.

الخطوة الثالثة: العقاب.

وكـان مسعود أحيانًا يصطدم بهذا الوضع فكان يبادر برد الفعل. ولا أذكـر أن مسـعودًا أرسل شخصًا مرتكبًا لهذا الجرم عند محقق أو قاضٍ، ولـيس معنى هذا أنه عدم اعتناء بالمحاكم لأن تأسيس الإدارات والمحاكم تعد توفيقًا رائعًا وقد مر شرح مختصر عن هذا، فقد كان تدخل مسعود هنا كأمـير للجهاد يعطيه هذه الصلاحية، بحيث كان يقوم مباشرة لمنع انتشار هـذا الـبلاء الـذى ألحق اليوم ضررًا بالغًا لشرف بلادنا ومكانتها، وكان

مســـعود يجلد متعاطى الحشيش أمام جمع عام ثم يأتى بالمخالف ويعترف أمـــام الجميع بتحريمه ثم يتوب عن تكرار ارتكاب الجريمة. كانت الحرب النفســـية والإعلامية لمسعود تسير جنبًا إلى جنب، وكان يكرر هذه الجملة دائمًـــا أمـــام المجاهدين: المجاهد الذى لا يتصف بالأخلاق الإسلامية يشبه البقرة الجامحة. وقس على هذا فى كل الأمور ويجب ألا تنسى فى كل جزء من هذا الكتاب هذه النقطة المهمة، وهى كل هذا الاهتمام بسائر الأمور كان يـــتم فى أشد حالات الحرب، وذات يوم أتوا إليه بشخص متهم بهذا الجرم فقـــال: أحضـــروا الجلـــدة، فأحضروها وطرحوه على وجهه ورفعه أربعة أشـــخاص من يديه ورجليه، وأحكم مسعود ضربتين أو ثلاثة على ظهره فـــرأى أنـــه صـــامت ولا يتأوه فسأله: كيف لا تتألم؟ فقال المجرم: سيادة الرئـــيس: إنـــك والدى وضربك دواء وليس بداء فضحك مسعود من قوله وعفا عن جرمه، وهذه واحدة من أوصاف مسعود الجميلة الشجاعة فقد كان يستطيع أن يكظم غيظه ويهدأ ويضحك.

التعفف والحذر إزاء بيت المال:

اشـــتهر مسعود بالتشدد والحذر فى صرف النقود وسائر الأشياء التى تـــتعلق ببيت المال، وفى نظرى أنه كان يفرط فى الشدة فى بعض الأمور ولم يكن يصرف مطلقًا من نقود بيت المال على نفسه أو أسرته، أحيانًا كان يشـــترى لأسرته شيئًا فيأمر بأن يسجلوا الحساب ثم يصفيه بعد ذلك، حتى إنه حينما كان يتصدق فكان يقول: اجمعوا هذه الصدقات من حسابى. وأظن أنـــه فى هذه الناحية ليس لأعدائه أى كلام، وفى الجزء الذى يتعلق بحياته الخاصة سوف أذكر أكثر توضيحًا.

كراهيته للظلم والفساد:

وجهـــة نظـــرى هنا عن الفساد هو الممنوعات الشرعية، أى أن الله وهـــب لمسعود روحًا عظيمة ومنحه حساسية مفرطة. ولم يكن هناك شيء يغـــيره أبـــدًا قـــدر رؤيته للفساد والظلم، وقد أثرت عليه هاتان الظاهرتان لدرجة أن أصبح السماع والرؤية بخصوصهما يتساويان.

فى عام ١٩٩٤م وصلت الحرب بين قواتنا وقوات حكمت يار عامها الثالـــث ووقعـــت مدينة كابل تحت وابل من الصواريخ الشديدة، وفى هذه الآونـــة الـــتقى أحـــد الأفغـــان المقيمين فى أمريكا ويدعى صفى الله ثبات بمســـعود، ومـــن بـــاب الاهتمام تحدث عن الفساد بين قوات الدولة فسأله مســـعود: هل من الممكن أن ترينى واحدًا من ذلك على سبيل المثال؟ فقال ثبات: نعم وذكر النقاط المهمة المرتبطة بمطبعة وزارة الدفاع، واستمر فى ذكـــر هـــذا المكان وذاك. ونهض مسعود من مكانه بعصبية شديدة، وأخذه حتى يريه كيف يتصدى للفساد فخرج بسرعة غير متوقعة من فندق رقم ١ فـــى وزير أكبر خان، ولم يكن معه غير القائد مسلم وشخص آخر بسلاح واحد ولم يوفق شخص آخر أن يصحبهما، ووقف مسعود أمام الموضع فى ظـــلام الليل وسط وابل من الصواريخ وتوجه مباشرة نحو جندى لم يعرفه فأصدر أمر التوقف لمسعود، ولولا أن القائد مسلم تقدم نحو الجندى بقوله: إنـــه مسعود لكان قد أطلق النار على مسعود الذى يقترب منه دون اهتمام بالأمر.

ويســـأل مســـعود الجندى كم نفر هنا؟ فقال – لأنه عرف مسعودًا –: خمســـة أفراد. وأين الآخرون ؟ فرد إنهم نائمون فى الحجرة الأخرى، فقال له: أن يظل فى مكانه وذهب هو إلى الحجرة وذهب الآخرون خلفه، ودخل

الحجرة ورأى أن شخصين نائمين، ودخل الحجرة الأخرى فوجد شخصين نائميـن كذلك، فخرج من هناك وكافأ الحارس من أجل حسن أدائه لوظيفته وعاد إلى إقامته .

ووصلت أنا إلى هناك بعد لحظات من عودة مسعود، ورأيت عصبية الحارس على ثبات وكانوا يلومونه، ووصف مسلم القائد الأحداث بالتفصيل فلم يكد يبقى إلا القليل ويقتل مسعود.

وفـي مكافحـة الفسـاد كان يتسع اهتمامه فيساوى بين الموضوعات الصـغيرة والكبيرة، وكان يوبخ المجاهدين لترك شعورهم طويلة ومنسدلة، وكـان يقـص جزءًا من الشعور الطويلة، وكان يفعل هذا فى الوقت الذى يتقدم المجاهد فيه بعذر أنه لا يجد حلاقًا .

هـناك نقطـه يجـب أن أذكرها إن شرح القصة السابقة بخصوص حساسـية وكراهية مسعود للفساد ليست بقصد أن فترة سيطرته على كابل ١٩٩٢-١٩٩٦م لـم يقـع فيها ظلم أو فساد، على العكس فقد تفشى الظلم وانتشـر الفساد حتى إن مسعودًا حينما انسحب بقواته فى مقابل طالبان من كـابل، وأطلـق العـالم كله على هذا الانسحاب أنه تكتيكى، وأطلق عليه مسعود اسم هزيمة وذكر أن سببها هو ضعف الروح المعنوية. أما لماذا لم يستطع مسعود أن يكبح جماح هذا الفساد فهذا بحث مفصل ومنفصل سوف أكتـبه فى الكتاب القادم، فقط إننى أريد أن أقول إن مسعودًا فى هذه الفترة كان يتألم كثيرًا.

مسعود وعلماء الدين:

كـان جزء أساسى من عمل مسعود الذى يرتبط بتنظيم المناطق التى كانت تحت سيطرته هو المشورة مع العلماء، ففى التشكيلات التى وضعها

مسعود من أجل المناطق :

أحدها مجلس شورى العلماء:

فمجلس شورى العلماء جنبًا إلى جنب مع مجلس شورى الشعب ومجلس شورى القادة كانوا يكونون الحجر الأساسى فى بناء إدارة مسعود، وهذه المجالس الثلاثة كانت تجتمع جميعًا فى الأمور الأساسية التى يرتبط بها مصير الجميع، فيعزمون على الأمر ويعطون المشورة وكانت هذه المجالس تدعى للاجتماع باقتراح الأعضاء، وأيضًا حسب رؤية مسعود. وفى الحقيقة وضع مسعود أساس قواعد حكومته على الطبقات المهمة فى المجتمع، وطبقًا لما نراه كان القادة الذين هم فى واقع الأمر ممثلون للمجاهدين كانوا يحضرون فى هذه المجالس وأيضًا ظهروا بعنوان طبقة جديدة فى المجتمع. وأثناء كتابة هذا الكتاب (يونيه ٢٠٠٣م) بُذِلَت مساعٍ كبيرة من مختلف الأجنحة فى الدولة ليحذفوا المجاهدين من الساحة السياسية والعسكرية فى الدولة، وهذا حساب خاطئ لأن المجاهدين فى أفغانستان طبقة اجتماعية وليست جماعة عسكرية، والشيوعيون الأفغان أخطأوا فى تعريف طبقات المجتمع فقد وضعوا ركائز حكومتهم مقلدين الاتحاد السوفييتى على وهم باسم العمال وليس لهم وجود فى بلادنا تقريبًا، وأعلنوا الحرب والنضال ضد الإقطاعيين وهى طبقة كانت تعد على أصابع اليد فى المجتمع، ومن وجهة نظرى إن أفغانستان حتى الآن لديها ست طبقات: (١) الفلاحون. (٢) الطلاب والتلاميذ. (٣) العلماء.

(٤) المثقفون. (٥) التجار. (٦) المجاهدون.

وتحاول حكومة أفغانستان أن تضع ركائزها على هذه القواعد الستة ومطالبهم المعقولة.

ولأن مسعودًا كان يولى طبقة العلماء اهتمامًا كبيرًا فقد كان لهؤلاء عمليًا إسهاماتهم الملحوظة فى تغيير الأوضاع، أما المجالس الثلاثة التى تحدثنا عنها قبل ذلك فهى تنفصل عن المواضع التى كان يدعو إليها مسعود فقد كانت لهم جلسات ترتبط بوظائفهم وأحيانًا كانوا يدعون مسعودًا ليشترك فى جلساتهم.

وكل ما قلته كان غير اهتمام مسعود وميله للجلوس والتباحث مع العلماء، إذ إنه دائمًا كان طالب علم وكان يعقد جلسات مهمة ومفيدة تجرى فيها مناظرات موسعة، حسنًا أتذكر أنه فى عام ١٩٨٠م وكنت حديث الذهاب إلى الجبهة كان مسعود قد دعا مجلس شورى العلماء وكان موضوع الجلسة حكم الشريعة بخصوص أموال الغنائم وهى الأسلحة.

وفى أواخر عام ١٩٨٠م قام السوفييت بثانى حملاتهم على پنجشير ودامت الحرب ثلاثة أسابيع، وفى هذه الحملة غنم المجاهدون كثيرًا من الأسلحة من السوفييت ومن عساكر الأفغان التابعين للحكومة. وانتظر المجاهدون طبقًا للشرع أن تقسم الغنائم وتعطى الأنصبة ولكن مسعودًا كانت له ملاحظات فى هذا الشأن من جملة هذا أن أسلحة عساكر الأفغان قبل انقلاب الشيوعيين عام ١٩٧٧م والتى اشتريت من نقود بيت المال فى وقت حكومة رئيس الجمهورية محمد داود ثم استولى عليها الشيوعيون بانقلابهم ضد الحكومة، والآن استولى عليها المجاهدون فى الحرب على أى أساس تسمى هذه غنائم؟

فانعقد مجلس الشورى وبعد البحث والدراسة فى الموضوع قرر أن أموال الغنائم مرتبطة بالجبهة، وفيما يبدو أن أدلة العلماء كانت هكذا:

إن الأموال التى ترتبط بالحكومة الشيوعية الأفغانية تم شراؤها من

نقود أفغانستان لذلك لا تعد غنيمة، والأموال التى ترتبط بعساكر السوفييت هى أموال غنائم، ولما كانت كافة تكاليف المجاهدين تتدفق من الجبهة فبناءً علـــى ذلـــك فإن أموال الغنائم تتعلق بالجبهة (ويقال إنه فى صدر الإسلام كانت أموال الغنائم تقسم ويدفع القادة أنفسهم تكاليف المجاهدين).

وعدم ارتباط أموال الغنائم بالمجاهدين كان سببًا فى ألا تقع الأسلحة فى أيديهم وتباع وكان ذلك سببًا فى تقوية جبهات المجاهدين. كذلك كان عدم ارتباط أموال الغنائم بالمجاهدين سببًا فى عدم تصرف المجاهدين فيها، ولذلك كان المجاهدون يذهبون إلى الجبهة بنية خالصة لإرضاء الله سبحانه وتعالى وليس لأخذ الغنائم. وكانت هذه الفتوى متوافقة مع ما ينشده مسعود، وفى نفس السنة بدأ فى توزيع الأسلحة على المناطق الأخرى، ففى الخطوة الأولى وزعت الأسلحة فى ولاية پروان وشمال كابل وبعد ذلك إلى شمال أفغانستان.

وكنـــت فـــى ذلـــك الوقـــت وحتى الآن متعجبًا من الفتوى التى تتغير وتتـــناقض مـــع الـــنص الصريح للقرآن الكريم التى قال فيها إن مال الغنائم طاهـــر وحـــلال، وكذلك مع سيرة الرسول ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، وفى ذات الوقت لست منكرًا لآثارها الحسنة فى تقوية الجهاد والجبهات الأخرى، وأنا أريد أن أشير إلى هذه النقطة لو قسمت أموال الغنائم كاملـــة أو أجـــزاء لمـــا استطاعت الدولة أن تستولى على هذا المورد أثناء انتصار المجاهدين فى عام ١٩٩٢م.

ويجـــب أن نقبل أن تقسيم أموال الغنائم كان يستطيع إلى حد كبير أن يملأ بطون تلك الأسر البائسة الذين ينتمون دون ذنب للمجاهدين وليس لهم أقل امتياز حتى اليوم.

المجال الثانى الذى ظهر فى عام ١٩٩٣م بخصوص تطبيق الشريعة هو:

أثـــناء قتل مجاهد لمجاهد آخر على أثر خصومة بينهما - وحكمت المحكمـــة بالقصاص وكانت أول مرة تطبق فيها الحدود - كان القاتل شابًا مجـــاهدًا فـــى الواحد والعشرين من عمره وكان نادمًا على فعلته، واجتمع أنـــاس كثـــير فـــى ميدان يدعى ميدان شاهى وكان الجميع يتقطعون حزنًا وحسرة على القاتل والمقتول.

وكـــانوا يـــتوقعون أن يعفو والد المقتول عن القاتل، وبناءً على ذلك طلـــب أشـــخاص كثيرون نيابة عن أنفسهم وعن الآخرين من والد المقتول العفو عند المقدرة. أما هو فى الوقت الذى كان يبكى وينتحب أعرض عن قـــبول رغبتهم وكان الميدان مملوءًا بالضجة والضوضاء وبالنسبة لكثيرين مـــنا كانـــت رؤيـــة قـــتل حبيب من أحبائنا صعبة، وتعلقت جميع الأنظار بمســـعود أن يفعل شيئًا ومسعود بالنسبة لكل طرف هو مسعود، توقع والد القتـــيل الدفاع عن حق ابنه البريء الذى أثبت حكم القصاص براءته وتوقع القاتل ووالده من مسعود أن يعمل شيئًا حتى لا يرى موت ابنه أمام عينيه، وتعالـــت الهمهمات بين الناس والمجاهدين أكثر وفجأة صمتت الأصوات، نعـــم مســـعود يريد أن يتكلم، وبعد الحمد والثناء اتجه إلى والد القتيل وقال كلمات مختصرة: لقد أعطى الله سبحانه وتعالى اليوم اختيار الموت والحياة فـــى يديك، فالقصاص هو حقك ولكن الله سبحانه وتعالى يحب العفو، وأنا أريـــدك أن تعمـــل عملاً يحبه الله والناس ويعود عليك ولا أحد يعرف ماذا ســـيكون. فقـــام والد القتيل فى هذه اللحظة وهو يبكى وقال: سيادة الرئيس أقســـم بالله لقد أتيت إلى هذا الميدان للانتقام لابنى، ولكننى سوف أعفو عن

القاتل وأصفح عنه تقربًا لله تعالى وحبًا لوجهك الكريم. فارتفعت أصوات الناس بالتكبير عند سماع ذلك واتجهوا إلى والد القتيل بعيون تمتلئ بالدموع وقبلوا وجهه.

العفو عند مسعود

السبب الرئيسى فى توفيق مسعود ونجاحه طوال فترة الجهاد يرجع إلى هذه النقطة : لقد امتزج فى دمائه الكرم والعظمة والشهامة والمروءة، وكان نادرًا ما ينتقم، وكانت صفاته فى العفو ترى بوضوح مع أسرى الحرب، فعسكر الدولة الذين أرسلوا إلى بنجشير كانوا يستسلمون فى أول فرصة ولا نستطيع أن نحصى عدد الذين استسلموا ولكن من الممكن أن نقول إنهم كانوا آلافًا، والعفو عن أسرى الحرب والرهائن يعد سلوكًا حميدًا.

استطاع مسعود فى عفوه عن الأسرى أن يوجد شبكة واسعة من الاستخبارات لديه لمعرفة أسرار العدو وهذا الموضوع جدير بالتعلم والمعرفة. فى عام ١٩٨٢م أحضروا أسيرًا روسيًا إليه كان شابًا فى الثامنة عشر من عمره فسأله: لماذا جئت إلى أفغانستان ؟ فقال: قالوا لنا إن الأمريكان والصينيين هنا فى أفغانستان، فرد عليه وسأله: هل رأيت حتى الآن أحد الصينيين أو الأمريكان ؟

فقال:لا. فقال: إذًا سوف أعطيك سلاحًا تقتلنى به إذا رأيت بين صفوفنا أحدًا منهم.

وبهذا الشكل أعطاه سلاحًا وهذا الجندى ظل اثنى عشر عامًا من أقرب حراسه واسمه كما مر إسلام الدين، ومن الجائز أن يندر حدوث هذا فى التاريخ العالمى المعاصر، ومرات طلبوا من مسعود أن يصرف النظر

عن هذا التوكل ويأخذ فى الاعتبار جانب الحذر.

ولكـــنه كان يقول فى كل مرة: لا تقلقوا إنه فتى ممتاز، ولم نكن نعلم مـــاذا كـــان يـــريد مسعود بتقبل مثل هذا الخطر الذى كنا نعلم أنه حتمى ومؤكد. ولكننا اليوم نعرف أنه كان يصنع التاريخ.

وقـــد تعرض مسعود للاغتيال عدة مرات، من جملة ذلك قبض على اثنيـــن من الذين حاولوا اغتياله وعفا عنهما وسوف ألقى قليلاً من الضوء على هاتين الواقعتين: أول محاولة تمت كانت بواسطة حارس السجن، وهذا الشـــخص كان فى الأربعين من عمره، ومن النواحى النفسية كان شخصًا غـــير عادى إلى حدٍّ ما، لم يتزوج ولكنه كان راغبًا أن يكون له زوجة وله أولاد. ومـــن حظه التعيس أنه لم يكن تتوفر له مقومات الزواج المتعارف علـــيها فى كثير من المناطق يعنى لم يكن يملك منزلاً ولا أموالًا ولا تعليمًا ولا هيئةً ولا منظرًا جميلاً، علاوة على ذلك إنه كان يهيم بعشق فتاة جميلة، وعـــرف جهـــاز المخابرات فى الدولة هذه الأمور فطمأنوا العاشق الولهان وطلـــبوا مـــنه الـــتزام الهدوء والصمت، وأخبروه لو قتل مسعودًا فسوف يزوجونه هذه الفتاة وما أكثر أساطير وقصص العشق والعشاق عندنا الذين فعلوا الكثير ولم يسطروا عنهم إلا القليل.

ويقولون: لا يوجد إلا اختلاف واحد بين العاشق والمجنون فالعاشق له هدف والمجنون بلا هدف، وعاشق قصتنا صمم أن يقتل مسعودًا ووقع ذلك فـــى عـــام ١٣٦٠ هـــ ش= ١٩٨٠م وأشك أن يكونوا قد علموه طريقة أو كيفية التنفيذ، ولكن ذات يوم فى الصباح كان هذا الشخص ذاهبًا إلى المخبز لـــيأتى بالخبز إلى حراس السجن فوقعت عيناه على سيارة مسعود، فاقترب منه ولم يدع الفرصة تفلت من يديه فوضع البندقية على ركبته وأطلق ثلاث

رصاصـــات تجـــاه السيارة، وأصابت رصاصتان الزجاج الأمامى للسيارة ومـــرت مـــن بين مسعود والسائق ولم تقتل شخصًا أو تجرحه، وأراد أن يهـــرب ويفـــر ولكـــن حراس مسعود أطلقوا النار عليه ولم يعطوه فرصة للفـــرار أو الهروب وقبضوا عليه، وظل هذا الشخص فترة رهن التحقيق، وبعد ذلك عفا عنه مسعود وتوفى بعد ذلك بعدة سنوات بسبب المرض.

الشخص الثانى كان شخصًا من المجاهدين وكان ضابطًا وكان يدعى ناچـــار وكان مسعود من آن لآخر يذهب إلى منزل الضابط ناچار، وكان أحـــد عـــادات مســـعود فـــى فترة الجهاد أن يختفى يومين أو ثلاثة لطرح مشـــروع أو التفكير فيه ولا يعلم أحد من رفاقه مكان اختفائه، وكان منزل الضـــابط ناچار واحدًا من الأماكن التى يختفى مسعود فيها، فكيف عرفت المخابـــرات مـــنزل الضابط ناچار ؟ وما هو الدافع لدى ناچار أن يخبرهم بهـــذا الأمـــر ؟ سيتضح بعد ذلك ومع أن مسعودًا كان عارفًا بكل مجريات الأمور فإن برنامج قتله طرح هكذا :

حيـــنما يـــأتى مسعود إلى منزل ناچار يقتل بمسدس كاتم للصوت أو يعطـــى سمًّا، وكان مسعود مطلعًا على كافة المجريات من أولها، ولكنه لم يظهـــر أى رد فعـــل طالمـــا لم يصل المسدس أو السم إلى منزل ناچار، ويسجل الكاتب الجزء الأخير من هذه الأحداث على لسان مسعود :

– حيـــنما سمعت أن السم والبندقية وصلا إلى الضابط ناچار وصلت إلـــى منزلـــه كعادتى فى السابق، وقمت بعمل بعض التمرينات الرياضية كالعادة، وبعد ذلك طلبت كوبًا من اللبن وحينما وضع الضابط ناچار الكوب أمـــامى ســـألته : ألـــم تضع فى اللبن شيئا ؟ فقال مخادعًا: إن اللبن طازج وشـــهى، فكررت عليه مرة أخرى : ألم تضع شيئا فى اللبن؟ فارتبك قليلاً

فقلت له : اذهب فأحضر البندقية والسم الذى أعطوه لك. فامتقع لونه ورمى نفسه تحت أقدامى، ويتذكر الكاتب عن مسعود أنه قال : لو أذكر كيفية إخبارى بهذه المؤامرة فإنها ستكون من الأعمال المتميزة بالنسبة للمخابرات، على كل حال لقد عفا مسعود عن هذا الشخص وهو لا يزال حيًّا حتى وقت كتابة هذه السطور.

ما أثار تعجبى هو أنه فى الذكرى الثانية لاستشهاد أحمد شاه مسعود وفى المؤتمر الذى أقامته مؤسسة الشهيد مسعود فى فندق الإنتركونتننتال فى كابل قدموا لكاتب هذه السطور كتابًا باسم "عقاب هاى پامير" كتبه الأستاذ أحمد شاه فرزان ولقد رأيت الأستاذ أحمد شاه فرزان مرة واحدة فى عام ٢٠٠٠م فى تاجيكستان أثناء كتابته لكتاب "مردى استوار"، والأستاذ فرزان من الكُتَّاب المجيدين الدؤوبين ذوى الأقدام الراسخة فى الكتابة فى بلادنا وله كتب ومؤلفات كثيرة، وهو فى كتابه "عقاب هاى پامير" فى ص ٥٠٤ وما بعدها روى الأحداث السابقة على شكل محادثة ومن أجل أن يقبض مسعود على الضابط ناچار وظف الشخصيات الآتية :

فهيم وهو الآن وزير الدفاع، وبسم الله قائد عام الجيش، ود. عبد الله عبد الله وهو وزير الخارجية وقانونى، وهو وزير المعارف وكذلك يوظف كاتب هذه السطور" ثم بعد ذلك يصف أحداث القبض على ناچار كما أوضحته قبل ذلك، الجدير بالذكر أن يدخل فى الموضوع ذكر فتاة تدعى بلقيس وعاشق لها، إننى ألجأ إلى الله وألوذ به من هذا العشق يجب أن أقول: إنه من المحتمل أن يكون بسم الله خان قد كلف للقبض على الضابط ناچار من طرف مسعود، أما اشتراك أشخاص آخرين من الذين ذكرهم صاحب كتاب (عقاب هاى پامير) فهذا بعيد عن الحقيقة تمامًا، فيا ليتهم

كانوا قد تحدثوا مع ناچار نفسه وكتبوا الحقائق التى سيسطرها الآخرون إن شاء الله، فالآن أنا حى ويكتبون هكذا فيما يخصنا الله وحده يعلم ماذا سيكون بعد وفاتنا.

الشورى :

أحد عوامل نجاح مسعود كانت الشورى، وقد تحدثت قبل ذلك عن ثلاثة مجالس للشورى: مجلس شورى الشعب، ومجلس شورى العلماء، ومجلس شورى القادة. وأعضاء المجلسين الأولين كانوا غالبًا ينتخبون بواسطة أنفسهم، أما أعضاء مجلس شورى القادة فمسعود هو الذى ينتخبهم غالبًا وكان يجتهد أن يمثل أصحاب الرأى فى هذه المجالس، ومع توسع المناطق التى كانت تحت حكمه ازداد تعداد المجالس لأنه بتحرر المحافظات وجدت مجالس المحافظات، وكانت كل هذه المجالس تدار بواسطة مجلس آخر يسمى مجلس شورى النظار، وكان مجلس شورى النظار يتكون من كبار رؤساء المناطق الذين هم تحت إمرة مسعود، ولكن منذ البداية وُجه مسعود بسوء الظن من زعيم الجمعية الإسلامية [1] وهى الهيئة التى كان مسعود ينتسب إليها، وفى الحقيقة أظن أن مسعودًا لم يتشاور بدقة مع الأستاذ برهان الدين ربانى فى تشكيل مجلس شورى النظار.

وفى اعتقادى إن تشكيل مثل هذا المجلس كان ضروريًا جدًا لأن مراكز زعامتهم جميعًا كانت خارج أفغانستان، وكان يحس بخلو الزعامة فى الداخل *إحساسًا كبيرًا ولكن اسم هذا المجلس قوى الشك بشكل طبيعى*

---

(١) يقصد الأستاذ برهان الدين ربانى رئيس الجمعية الإسلامية (المترجم).

وهو أن مسعودًا يفكر فى إيجاد هيئة جديدة، فى الوقت الذى كان الاسم المكمل لهذا المجلس هو مجلس شورى نظار جمعية أفغانستان الإسلامية.

على كل حال كانت هناك منجزات كبيرة لمجلس شورى النظار، فقد وفق المجلس أن يجعل قوات الجمعية الإسلامية فى شمال شرق وشمال كابل أكثر فاعلية وأكثر اتحادًا، وأوجد ساحة متحدة واسعة كانت ضرورية من أجل إستراتيجية مسعود.

مسعود والتصوف :

أول مرة فهمت وجهة نظر مسعود فى التصوف حينما أرسل له ابن مولانا فيضانى باقى الله المشهور بعبد الله مذهبى هيئة مكونة من شخصين فى عام ١٩٨٦م ليجذبوا انتباه مسعود إلى أنشطتهم.

ومولانا فيضانى من المجاهدين ضد الحكومة فى وقت الشاه وقبض عليه بعد ذلك واستشهد فى عهد الحكومة الشيوعية، كان صوفى المشرب وله مؤلفات وكتابات.

وبعد المجاملات المتعارف عليها سأل مسعود عن أنشطتهم فقالت الهيئة: إن لهم أنشطة فى ساحتى الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر، ولهم فى داخل أفغانستان عدد من المجاهدين مشغولون بالجهاد الأصغر ضد السوفييت، وعدد أيضًا فى بيشاور فى الباكستان فى مكان باسم مدرسة القرآن مشغولون بالجهاد الأكبر يعنى تزكية النفس والجهاد ضد الشيطان، فقال مسعود : سمعت أنه فى مدرستكم تؤدون الصلاة باللغة الفارسية فما العلة والسبب فى ذلك ؟

فقال: إن القرآن له معانى باللغة العربية لا يدركها أهل اللغة الفارسية ولن تكون لها تأثير فى تغيير نفوسهم، والدليل على ذلك أن الله سبحانه

وتعالى قال: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ (١) فما هو السبب إذًا أن يكون عندنا مسلمون يؤدون الصلاة ثم يفعلون المنكر، ثم أضاف أن المذهب الحنفى أجاز ذلك فقال مسعود: لقد أجاز المذهب الحنفى هذا بخصوص الشخص الذى دخل حديثًا للإسلام وفرضت عليه الصلاة وليس له فرصة للتعلم بالنسبة لضيق الوقت الذى لا توجد فيه الصلاة، فقال: لو تؤدون الصلاة باللغة الفارسية فهذا جائز، ولكن ليس حكما شرعيًا، وللفهم أكثر إن كل من تجب عليه الصلاة سوف يؤديها بلغته، تصور لو الصلاة تؤدى فى الإسلام بمئات اللغات المختلفة فما الذى ينفذ من تعاليم الإسلام ؟

ثــم سأله مسعود : هل تدرسون القرآن الكريم فى مدرستكم ؟ قالوا : نحــن لا ندرس القرآن الكريم ولكننا ندرس كتبًا أخذت معانيها من القرآن الكــريم وهى تعادل القرآن الكريم. فسأل مسعود : أى الكتب هذه ؟ قالوا: مثــنوى جــلال الدين الرومى(٢). كان مسعود حينما يغضب يحمر وجهه وتنتفخ شرايين جبهته، فقال لهم فى الوقت الذى أغضبه قولهم للغاية : لو لم

---

(١) العنكبوت : ٤٥.

(٢) جلال الدين الرومى: أحد شعراء الصوفية العظام، ولد فى مدينة بلخ شمال أفغانستان عام ٦٠٤هـــ ولكنه عرف بالرومى نسبة إلى بلاد الروم فى آسيا الوسطى بعد أن هاجر والـــده بهاء الدين ولد من موطنه إلى قونية لأن جحافل المغول بدأت تزحف إلى بلاده، وكانت قونيه فى ذلك الوقت عاصمة للحاكم السلجوقى علاء الدين كيقباد، وتوفى جلال الديــن الــرومى عام ٦٧٢هـــ وكتابه "المثنوى المعنوى" يشتمل على ما يزيد عن ستة وعشــرين ألف بيت من الشعر، وتعتبر من أرقى الأشعار الصوفية التى تتعلق بمختلف الموضــوعات والأغــراض، وقــد كتب أحد أصدقاء مولانا جلال الدين الرومى عن المثنوى فقال: إنه "فقه الله الأكبر، وشرع الله الأزهر، وبرهان الله الأظهر". (المترجم).

تكونوا ضيوفًا لأغلظت لكم القول، فاطلبوا المغفرة من الله سبحانه وتعالى؛ لأن القرآن الكريم هو كلام الله، والكلام صفة البارى تعالى الذى صفاته مطلقة ليس كمثله شيء. وثانيًا: ابعثوا سلامى إلى كبيركم وقولوا له: إننى فى أقرب فرصة سوف أرسل إليه شخصين من عندى ليتحدثا معه، وأوصيكم أن تتعلموا فى البداية العلوم الشرعية ثم ابدأوا الطريقة.

وبعد مدة أرسلنى أنا وحسين إلى الباكستان وقال : اسألوهم فى ثلاث قضايا :

أولاً : لماذا يصلون باللغة الفارسية ؟

ثانيًا : ما هى وجهة نظرهم بخصوص الروح ؟ والرسالة التى نشروها من هو كاتبها الذى يعرف عن الروح أكثر من الرسول ﷺ ؟

والسؤال الأخير: إن ابن مولانا يدعى أن والده هو المهدى المنتظر فما هى دلائله؟

ودعنا مسعود وفى الشتاء القارس البرد تحركنا إلى الباكستان عن طريق الجبال وبعد تحمل مشقة الطريق وصلنا إلى مدينة بيشاور، وجدير بالذكر أن حسين الذى كان رفيقى فى السفر أمضى فى هذه المدرسة حوالى سنة، ومنذ فترة وجيزة ترك هذه المدرسة لأسباب مشابهة لما ذكر.

ونظم حسين يوم اللقاء وذهبنا لتفقد مدرسة القرآن وباقى الله مرشدها فقادونا إلى غرفة يجلس فيها نفر من المريدين، فظللنا فترة ننتظر حتى دخل ابن مولانا فنهض الجميع احترامًا له وقمنا نحن أيضًا وجلس وحيانا.

كان شابًا فى حوالى الثلاثين من عمره، طويل القد يرتدى نظارة سوداء ولباسًا أسود نحيف القوام، فبدأت الكلام مباشرة وأبلغته سلام مسعود وأن مسعودًا كان يعرف والد مولانا وكلام من هذا القبيل له حكم المقدمة،

وفى عقب هذا قلت: إن مسعودًا يسألك ثلاثة أسئلة :

السؤال الأول : لماذا تؤدون هنا الصلاة باللغة الفارسية ؟

فبدأ فى الكلام والتلاميذ جميعًا ينصتون لينهلوا من فيض هذا العلم اللدنى ولكن فى الواقع لم يحتو كلامه على شيء جديد أكثر من الذى قاله مندوبوه. فطرحت السؤال الثانى : وهو أن الرسول ﷺ بنص القرآن الكريم والحديث الشريف لا يعرف بشأن الروح إلا القليل.

فكيف تعرف أنت بشأن الروح هذا القدر من الجزئيات وتكتب رسالة وتتحدث فى كل جوانب الروح وعن كيفيتها وكينونتها؟ فأجاب: كتبت عنها من العلم اللدنى الذى يهبه الله سبحانه وتعالى لعباده بلا شيء وبواسطة تزكية النفس، وأضاف أن أصحاب العلم اللدنى يعلى الله سبحانه وتعالى شأنهم على الأنبياء، وأورد قصة سيدنا موسى والخضر وأمثال ذلك، ولم أجد ما يلزم أن أضيع وقتى لسماع دلائله وبراهينه الضعيفة فسألت السؤال الثالث: أنت تدعى أن والدك هو المهدى المنتظر وسوف يظهر فى الأيام القليلة القادمة، وفى رمضان هذا العام والعام الماضى أجبرت تلاميذك أن يقفوا أمام المدرسة عدة أيام لأن أباك هو المهدى وسوف يظهر، ومبلغ علمى أن المهدى سوف يظهر آخر الزمان وهو يشبه رسول الله ﷺ واسمه محمد بن عبد الله، وهو قرشى وهاشمى ووجهه شبيه بوجه رسولنا ﷺ وسوف يظهر فى مكة، أما والدك فاسمه محمد عطاء الله فيضانى وهو من هرات ولا هو قريشى ولا هو هاشمى ولا يشبه وجهه كمال أو بياض وجه الرسول ﷺ وأنت تنتظر ظهوره الوشيك فى پيشاور بالباكستان فما هى دلائلك وبراهينك ؟

وحينما طرحت السؤال الثالث رفع تلاميذ الأستاذ رؤوسهم رويدًا

رويـــدًا وكانـــت عيونهم ورؤوسهم حتى هذه اللحظة مطأطأة إلى أسفل فى حالـــة من الاحترام والتقدير، وكنت أفكر أن سؤالى أوجد أسئلة فى أذهانهم تتنافى مع أصول المدرسة التى كانت تؤيد الإخلاص، وبدأ مرشد المدرسة فى إعطاء الجواب: بخصوص نسبنا خذ معلومات أكثر (معناها إننا سادات هاشـــميون وإلا فلماذا حولت لنا هذه الوظيفة؟ ولا أعلم لماذا لم يوضح فى حضـــور التلاميذ) وبعد ذلك قال: بخصوص الاسم لو تفطن إن اسم والدى يبدأ بمحمد، وساق دلائل وبراهين من هذا النوع لم تكن مقنعة، وتوقفت فى الحوار عند هذا الحد ثم دعونا إلى مجلس الذكر جهرًا، وبدأ الذكر فى فناء فرش بالحصير وأكوام من القاذورات بجوار الحوائط، وكانت الأعين مغلقة والأفـــواه مفـــتوحة أمـــا أنا فقد كنت على العكس منهم فمى مغلق وعيناى مفتوحـــتان وكنت أتفرج على الساحة، وأخيرًا انتهى الذكر فودعناهم فقال المرشد الذى كان متنبهًا أثناء توديعنا: إن القلب مثل المرآة يصدأ على أثر ارتكـــاب الذنـــوب ويـــتطهر بواسطة الذكر، ولكن ليس من مرة واحدة بل بالتكرار.

كـــان المرشد يدقق النظر من وراء نظارته السوداء، ثم أظهر أنه لا رغـــبة له ولا اشتياق فى بقائى، ورجعنا إلى أفغانستان وقصصنا ما حدث على مسعود فهل تعرف ماذا قال؟ قال : مولانا فيضانى من المجاهدين ضد حكومـــة الملـــك محمد ظاهر شاه وداود، وكان لديه أفكار صوفية بطريقة مشـــتتة عجيـــبة وغريبة، كان لديه مكتبة خلف مسجد پل خشتى فى كابل وكان ينشر كتبه فيها، وأحد الأعمال الجيدة التى قام بها حكمت يار أنه ذات يـــوم قال لنا جميعًا: إن أفكار وكتب مولانا فيضانى بها اختلاف كثير عن روح الإســـلام، وهـــى تضـــر المسلمين فتعالوا نعمل عملاً بأن نجمع هذه

الكتــب بأى طريقة، ووجهة نظرى أن يأخذ كل واحد من الإخوة منه عدة كتــب ولا يــردها إلــيه، فوافق الجميع وذهب كل فرد وأخذ منه عددًا من الكتب ولم يردها له كما قرروا حتى خلت مكتبته، وحينما كان يقص مسعود هــذه القصة سألت نفسي: طالما أن مسعودًا يعرف عنه كل هذه المعلومات فلمــاذا أذن لنا بهذا السفر البعيد المملوء بالمشقة؟! لم أسأله: لماذا ؟ وكان هذا من صعوبة فهم شخصية مسعود.

كــان مســعود يعرف الصوفية الأصفياء وغير الأصفياء، وكان لديه صــلة بهــم نســتطيع أن نذكر منهم صوفى دربند وصوفى پريان، وكان صــوفى دربــند أحد المريدين لصوفى مشهور يعرف باسم صوفى سوخته ومــزاره فى گلبهار فى مدخل پنجشير، وصوفى پريان (وپريان هى آخر قــرى پنجشــير) هو صوفى عابد كان عنده كوخ من الطين وسط المقابر أحــيانًا يخرج منه، وكان يرتبط بمسعود ارتباطًا دائمًا، وكانت لهما لقاءات ثنائــية. وكــان مسعود يخفى صلاته بهذا النوع من المتصوفة وكان أحيانًا ينقل عنهم أقوالهم.

ويجــب أن أذكر هنا نقطة مهمة: أن عددًا من هؤلاء المتصوفة كانوا يعتــبرون مســعودًا مرشدهم، وآمل من الأشخاص الذين يعرفون فى هذا الشأن أكثر يجردون أقلامهم ويكتبون.

التعلــيم :

كل من لا يتعلم من الأزمان الغابرة، لن يتعلم من معلم أبدًا..

كانت ساحة تعليمه وحرصه على التعليم لا تعرف الحدود أو الفواصل كانــت يتملكه حب جارف للتعليم، وحينما كان يسترسل الحديث عن العلوم الجديدة كان حبه وشغفه يظهر أضعافًا مضاعفةً، غالبًا كان الأشخاص الذين

يعيشــون خارج البلاد يحضرون للقائه وكانوا يتناقشون ويتجاذبون أطراف الحديــث ساعات طويلة، كان يطلع على التقدم الإنسانى ويستوعبه ويعطيه الأهمية القصوى.

كانــت شبكة معلوماته واسعة وكان دائمًا مستعدًا ليسمع المعلومات، وكان يقول: حينما تكون المعلومات غير صحيحة وغير كاملة سيكون حكم القاضــى ناقصًــا وغــير صحيح، كان يهتم بجزئيات الأمور وكان يعمل للوصــول إليها، وكنا نظن أنها تعرقل معرفته بأمور أساسية وكان يحدث ذلك أحيانًا.

وكــان مســعود تلمــيذاً دائمًــا فى مدرسة الحياة، أو بتعبير الشاعر الرودكى: كان تلميذاً للأزمنة الغابرة.

كــان يعــتقد أن الإنسان يؤثر فيما حوله ويتأثر به، كان يشجع على انتقال التجارب ويهتم بتجارب الآخرين، ولم يكن هذا فى الساحة العسكرية فقط بل كانت تشمل كل جوانب الحياة.

كان الاشتراك فى مجالسه تعليمى ومتنوع لأنه كان يأتى بأحاديث من كــل باب ويطرحها فى موضوعات عميقة فأذنوا لى أن أنهى هذا المبحث بذكر إحدى الذكريات: ففى عام ١٩٨٥م حتى عام ١٩٨٧م كنت قائد فرقة الأســلحة الثقــيلة، وطــبعًا حينما أتحدث عن الأسلحة الثقيلة فإننى أقصد الأســلحة الــتى كنا نستفيد بها فى حرب العصابات، وهذه الأسلحة لم تكن ثقــيلة فــى الواقع وكنا نستطيع أن نحملها على الأكتاف أو على الدواب، وأثــناء الســفريات البعيدة أو العمليات كنا ننقل الأسلحة الثقيلة حتى أقرب موضع بواسطة الحيوانات وغالبًا ما يكون الحمار، ففى عمليات فتح طالقان عاصــمة محافظة تخار التى تمت فى عام ١٩٨٨م صادفتنا مشكلة وكانت

جديـــدة بالنســـبة لى، وكانت الأحداث طبقًا لهذا الاتفاق أن أنتقل مع قافلة طويلة من الحمير محملة بالأسلحة الثقيلة وفى الليل يجب أن أكون بالقرب من مواضع العدو، وأن أنتظر حتى عصر اليوم التالى حتى تبدأ العمليات، كـــان العمـــل مليئًا بالمخاطر وأقل خطأ لا يفشى سر العمليات أو يواجهها بالفشل فقط بل كان يعرض أرواح الجميع للخطر.

كان الوقت ليلاً ومعنا قافلة من الحمير ووصل تعدادها لأكثر من مائة رأس وأســـلحتنا محملة عليها، وكلف المسئولون لكل سلاح أن يتحركوا مع أسلحتهم المحملة على الحمير معًا فى وقت واحد.

وجعلـــت إبراهيم معاونًا لى فى أول القافلة للإدارة العمومية وكنت أنا فى آخرها، وتحركت القافلة فى هدوء وأحيانًا كان يحدث توقف فى الحركة بســـبب اعوجـــاج الحمل، وهذا كثيرًا ما يحدث لارتفاع وانخفاض الطرق الجبلـــية. فإدارة قافلة طويلة فى ظلمة ليلة عادية لا يصعب كثيرًا أما وقت أن يـــتم عبورها من ساحة العدو والأهم من ذلك أن تنتقل بالقرب منه ولا يفشـــى ســـرها حـــتى وقـــت الهجوم، فإن الأمر يكون حساسًا وفى غاية الصـــعوبة، وكـــل نوع من التوقف فى جزء من القافلة يكون سببًا فى أن نوقـــف كل القافلة؛ لأن تأخر أى قسم كان يستوجب أن نوظف شخصا آخر مرشدًا إضافيًا، وأول شيء أننا لم يكن لدينا هذا العدد من المرشدين، الأمر الثانى إن إدارة مثل هذا العمل صعبة فقد كانت القافلة تتحرك تحركًا بطيئًا، ووصـــلنا إلـــى أكـــثر النقاط حساسية وهو المكان الذى يفصلنا عن العدو بحوالى ستمائة متر.

وأخطر شيء للمحاربين هو السفر البرى وقوافل المدرعات مع كافة الأغطية الجوية وغير ذلك تكون معرضة للخطر فى مثل هذه الحالات، فما الذى لحق بقافلتنا التى تتشكل من الحمير العجم دون أسلحة أو ذخيرة ودون

أى نوع من الأغطية ونحن نعبر أمام عدو تحصن فى قواعد حصينة؟

إن أقل خطأ ستكون نتائجه غير قابلة للتفاؤل، والإنسان المتزن يدرك المسئولية فى مثل هذه الحالات، واحتبست الأنفاس فى الصدور، وكنا نسمع صوت ضربات قلوبنا، وركزت كل فعالياتى ونشاطى واهتمامى فى عيونى وآذانـــى حتى لا تقع الواقعة، وفجأة سمعت صوت أقدام أحد الفتيان كانت تقترب منى بسرعة، وكان من الحمق أن أفكر أنه يحمل خبرًا سارًا بالنسبة لى، فى الوقت الذى فتحت عيناه إلى أقصى حد ممكن حينما وجدنى فقرب رأســه مــنى وقــال : يا حضرة القومندان إن حمارى كان يريد أن ينهق وبمشقة بالغة استطعت أن أمنعه.

فسألته: كيف؟

قــال: فـــى البداية أغلقت فمه بشدة ولم أستطع، فلم يكن هناك بد من ضـــربه بكعـــب البندقية. ثم سأل: إننى تصرفت مع حمارى أما إذا نهقت الحمير الأخرى ماذا نصنع؟

كنـــت مندهشًا إلى درجة أن البعض كانوا يقولون إننى لم أكن أعرف هـــذا المكان أبدًا فقلت: انصرف، انصرف وانشغل بالعمل، وشملنى حزن شـــديد مـــن تلـــك اللحظة وكنت أفكر فى كل لحظة لو أن أحد هذه الحمير الملعونـــة رفع فمه القذر فى الهواء وأخذ فى النهيق، يجب أن أقول للقراء الذيـــن ليس لديهم معلومات فى هذا الصدد إنه من عادات الحمير لو اجتمع مليونان منها فى مكان واحد ويبدأ أحدها فى النهيق سوف يتبعه الجميع فى ذلـــك، وإذا شـــذ بعـــض الحمير ولم ينهق فيجب الشك فى أنها من سلالة الحمـــير. علـــى كل حال مر الموضوع دون وقوع أى حادثة؛ لأن مجرد التفكـــير فيها كان يجعل شعرى يقف على بدنى، وبعد انتهاء العمليات جاء يـــوم حصاد النتائج ولم تتغير هذه القاعدة فى عمل مسعود فبعد كل عملية

كانت تعقد جلسة حصاد النتائج وتطرح جوانب العمليات على بساط البحث، تجــارب الانــتقال وذكر الأمور الإيجابية والسلبية، وفى جلسة النتائج بعد العملية التى ذكرتها طرح موضوع نهيق الحمير وكيفية منع حدوث ذلك.

وطــرح مســعود وجهــات النظر وأعطى نظريات مختلفة وفى هذه الأثــناء طلــب أحد أفراد فرقتى الكلمة وكان طالبًا فى مدرسة دينية ونال حديثًا عضوية الفرقة، كان ريفيًا بسيطًا وكان دائمًا يقول كلامًا ساذجًا يكون ســببًا فى ضحك الفتيان، وهاهو يرفع يده فى حضور مسعود ويأخذ الإذن بــالكلام وســمع من عدة أماكن: اجلس مكانك ولكنه وقف فتنبه مسعود له فــورًا وقال له: اطرح الموضوع وتحدث فقال : يا سيادة الرئيس لكى نمنع نهــيق الحمير يجب أن نستفيد من الحمير الإناث، واختفى كلامه الآخر مع انفجار ضحك الفتيان، فابتسم مسعود واحمر وجهه قال : اصمتوا، ثم سأله : لماذا الإناث ؟ فأجاب: سيدى إن إناث الحمير لا تنهق، ومرة أخرى ضج المجلــس بالضحك ومرة أخرى دعا مسعود المجلس إلى الصمت والسكون فــى الوقــت الذى استغرق فيه هو فى الضحك وسأله : ماذا تعنى ؟ أنثى الحمار لا تستطيع النهيق أم لا تريد النهيق ؟ فقال الطالب: إن أنثى الحمار من حيث الطبيعة لا تستطيع أن تنهق.

فالتفــت مســعود إلى الآخرين وقال : لا تستهينوا أبدًا بإنسان وليكن لديكــم الصبر للسمع لقد أعطانا درسًا مهمًا وفى الوقت الذى كان لا يزال مستغرقًا فى الضحك أخذ مذكرة بذلك.

كــان مســعود يقول الحق، ولقد أعطانا درسًا عظيمًا إن أنثى الحمار لا تنهق.

٢- مسعود وأفغانستان

كـــان مسعود لديه تصور واقعى لأفغانستان الحديثة وعلى حد قوله: أفغانســـتان القوية، المتحدة، الحرة التى لها حكومة مركزية ومنتخبة. كان مسعود يحب بلاده حبًّا جارفًا ويفكر فيها، والذين التقوا بمسعود مرة واحدة يعرفون صدق قولى، كان يعتقد أن أفغانستان من حيث الاستعداد والظروف مـــن وجهات النظر المختلفة هى بلاد محظوظة: من حيث تاريخ الشعب، والأرض، والموقـــع الجغرافى المناسب، والمنابع الطبيعية. أما الذى يجعل أفغانستان تعيش دائمًا فى معاناة فهو عدم وجود حكومة قومية عادلة، ففى نظـــر مسعود أن أفغانستان من حيث البعد الخارجى كانت ضحية لموقعها الجغـــرافى، ومن حيث البعد الداخلى كانت ضحية الحكومات غير القومية، وكان يقول : إن أفغانستان متعددة القوميات، وكل قومية يجب أن يكون لها دور يتناســـب مـــع تعدادها لتحديد مصير البلاد، وبَيَّن أن طريق الوصول لمثل هذه الحكومة يكون بالديمقراطية، ويجب أن أذكر هذه النقطة المهمة إن مســـعودًا كان يسعد بالديمقراطية التى لا تتناقض مع الإسلام لأنه كان مؤيدًا لـــنظام إسلامى معتدل، وطبعًا يوجد بين النظامين اختلاف أساسى، فالشعب فى الأنظمة الديمقراطية هو منبع التقنين أما فى النظم الإسلامية الشريعة هى منبع التقنين، فمثلاً فى النظم الديمقراطية شرب الكحوليات يخضع للاستفتاء وبناء على رأى الأغلبية يمنع أو يباح.

ولكن فى النظم الإسلامية الدولة ليس لها حق الاستفتاء فى هذا الشأن؛ لأن هـــذا القـــانون وقوانيـــن أخرى كثيرة هى تشريعات سماوية. وبعبارة أخـــرى: فى النظم الديمقراطية الإنسان هو الذى يضع القانون، وفى النظام الإســـلامى الله سبحانه وتعالى. وطبعًا يوجد فى الإسلام قوانين تتطابق مع

الديمقراطية.

كــان مســعود يؤيد الاقتصاد المبنى على سوق حرة، وكان يعتقد أن تدخــل الدولة فى السوق يحد من السعى والابتكار، وأعطى مثلاً على ذلك بالشيوعية فمسعود نفسه فى المنطقة التى كانت تحت نفوذه على الرغم من عــدم وجود نشاط اقتصادى أو تجارى بسبب الحرب لم يتدخل، ولكنه كان دائمًا يهتم أن يضعوا على مصادر العائدات واحدًا فى المائة من المحصول ولم يتشدد فى تحصيلها، فمثلاً من عائد الزمرد الموجود فى وادى پنجشير كــان يأخذ عشرة فى المائة من التى تتبقى بعد البيع، ولكن أكثر أصحاب هــذه الأحجار تركوا تسديد المحصول على شكل قرض حتى إنهم بعد ذلك لو أرادوا التسديد فإنه لا يتم، ولم يضعوا المتخلف عن التسديد تحت طائلة أى عقــاب، واللجـــنة المكلفة بتحصيل العوائد كانت تكتفى بإعطاء مذكرة. وهــؤلاء الذين يتصورون أن مسعودًا كان يحصل على تكاليف الحرب من بيع الأحجار الثمينة هذا ليس له أساس تمامًا؛ لأنه حتى عام ٢٠٠٠م كانت العوائــد علـــى النسق الذى ذكرته، حتى إننى لا أتذكر مرة واحدة أن عائد محصول الزمرد أنفق فى القطاع العسكرى.

كانوا ينفقون هذه العوائد فى القطاعات الأخرى غير العسكرية، وفى عــام ٢٠٠٠م فقــط اتفق مسعود مع شركة بولندية على بيع الزمرد، فكان الزمـــرد يشترى من الناس ثم يباع للشركة البولندية، والنفع الأكبر فى هذا المعاملة كان للناس لأنه مع سيطرة حكومة طالبان على جنوب البلاد أغلق طــريق نقل الأحجار الثمينة الذى كان يتم عن طريق الباكستان فى العقدين الأخيرين، ووفق مسعود أن يفتح طريقًا جديدًا للناس. ولكن هذه المعاملة لم تدم أكثر من عام، وانتهت إلى طريق مسدود، لأن الشركة المذكورة توقفت

عن الاستمرار فى الشراء واعتذرت لأن المثمنين أخطأوا فى تحديد السعر أثناء الشراء.

أحـد مصـادر الدخل فى أفغانستان القمح فتطبيقًا للقوانين الإسلامية صـاحب كل أرض يدفع عشرة فى المائة منه للحكومة، وفى فترة الجهاد حيـث لـم توجد سيادة للدولة كان الحكام المحليون يعطون جزءًا للقيادات المحلية، وكان هذا المحصول يرتبط بالكمية التى يملكها القائد من الأسلحة وكذلـك قدر المساحة التى يستطيع الدفاع عنها وحراستها والمطابقة لساحة نفوذ القادة، وعلى هذا فإنهم كانوا يجمعون عشر القمح وسائر الحبوب.

ومـع اسـتمرار الحـرب لحقت بالزراعة خسائر كبيرة لنظام الرى والانـتقالات والعلاقـات التجارية وهجرة الناس من مكان إلى مكان آخر وبعدهـم عـن أوطـانهم علاوة على تخريب الزراعات بواسطة السوفيت وقـوات الدولـة الشيوعية انتقاما لتعاون الفلاحين مع المجاهدين، كل هذا أنقص إنتاج القمح بشكل كبير. فى مثل هذه الأحوال غض مسعود الطرف عن جمع عشر القمح ليساعد الناس.

وعـلاوة على وجود المسئوليات الحربية بالنسبة لمسعود فقد أتم إعمار الطرق والمستشفيات والمدارس وترميم وحفر النهيرات والقنوات وغير ذلك. وكانت أعماله فى هذه القطاعات جديرة بالتقدير، وحتى الآن فإن المستشفيات والمـدارس الـتى أنشئت بأمره فى المناطق التى كانت تحت إدارته لا يزال يستفاد منها.

كان مسعود يهتم اهتمامًا فائقًا بحفظ البيئة فى ظروف وأوضاع كانت فى حالة حرب وعداء مع كل ما هو حى.

مـنع مسعود منعًا باتًا قطع الأشجار المثمرة النضيرة وأشجار الفستق

والأشجار البرية في الغابات، وصيد الأسماك باستعمال القنابل اليدوية وسائر المواد المتفجرة، وأخذ في الاعتبار وضع جزاءات بالنسبة للمخالفين، ويجب أن أؤكد أن مسعودًا في أشد حالات الحرب كان يبحث هذه الأمور وكانت شبكة معلوماته تطلعه فورًا في أقرب فرصة على المخالفين، ومن المفيد أن أذكر هذه الخاطرة في نهاية هذا المبحث : في وادي فرخار(١) بمحافظة تخار بأفغانستان، يجري نهر تجاور منابعه جبال بدخشان(٢) وپنجشير، وفي هذا النهر تعيش أسماك تعرف باسم "ماهي خال دار" أي الأسماك ذات الخال. والحقيقة أن هذه الأسماك هي ألذ وأشهى أسماك الدنيا، ومن الجائز أن كثيرًا ممن ترتبط بلادهم بالبحار والأنهار ولديهم أنواع كثيرة من الأسماك يعتبرون أن هذا الكلام ليس فيه مبالغة زائدة أو ربما يحملونه على عدم معرفتي بأنواع الأسماك، وطبعًا أنا أقبل هذا إلى حد، ولكن الكثير من ضيوفنا الأجانب الذين أكلوا من هذه الأسماك يصدقون هذا الكلام(٣). فهذا السمك صغير نسبيًا ولونه أسود وصدره أبيض، وبالنسبة للنقط المستديرة الصغيرة الحمراء على ظهره وجوانبه

---

(١) وادي فرخار : يوجد هذا الوادي في محافظة تخار شمال أفغانستان، وهي المنطقة التي ينتمي إليها الشاعر العربي بشار بن برد فحينما سأله الخليفة العباسي قائلاً له: من أي البلاد أنت؟ فقال: من طخارستان. وجدير بالذكر أنها تكتب بالطاء في المصادر العربية . (المترجم)

(٢) بدخشان : محافظة في شرق أفغانستان وتتصل بتركستان الشرقية في الصين، عاصمتها فيض آباد وبدخشان تشتهر بحجر الياقوت ويعرف بالياقوت البدخشي، وكذلك تشتهر بحجر اللازورد الأزرق النفيس. (المترجم)

(٣) إنني أصدق كلام الكاتب في هذا القول لأنني زرت هذه المنطقة وأكلت هذا السمك وهو شهي ولذيذ الطعم وجميل الشكل (المترجم).

سمى "ما هى خال دار" أى السمكة ذات الخال، ويوجد فقط فى محافظتى تخار وبدخشان بأفغانستان، وقد منع مسعود صيده مثل سائر الأسماك باستعمال القنابل اليدوية وسائر المواد المتفجرة، وكان يعتبر أن هذا قتل عام للأسماك وبناءً على هذا فإن الصيد بهذه الطريقة يعتبر ظلمًا وإثمًا كبيرًا. ومثل هذه الممنوعات تبدو غيز عادية وغير مرغوب فيها فى بلد يكون الصيد وركوب الخيل والرماية فيها جزء من تراث الشعب.

فالصيد فى بلادنا يصاحبه نوع من القسوة والخشونة، أما الرحمة بالحيوان فهى ليست معروفة حتى الآن. فالصيد فى بلادنا يبدأ من الطفولة وأكون أكثر دقة فأقول: إنه يبدأ من سن السابعة وما بعدها، ففى هذه السنوات يضربون العصافير بالنبلة ويقطعون رقبتها بحجر حاد، فإذا كبروا قليلاً فإنهم يمسكون البندقية مكان النبلة ويستخدمون السكين بدلاً من الحجر، أما صيد السمك فطبقًا لأمر مسعود كان يتم بالسنارة والشبكة والفخاخ وغير ذلك.

وسوف تفكر أنه كيف استطاع أن يبنى هذا الأسلوب المتمدن فى ظروف الحرب، ولكن مسعودًا كان لديه اهتمام جدى بهذه الأمور، ونحن نعلم اليوم أنه كان يضع الأسس للغد.

كان لدينا فى وادى فرخار مركز تعليمى، ووادى فرخار هو موطن الأسماك الشهية اللذيذة ذات الخال التى تحدثت عنها. وكانت مسئولية المركز التعليمى تقع على عاتقى، وكانت مكاتب مسعود تبعد عن المركز التعليمى بحوالى مائتين أو ثلاثمائة متر، وكانوا يسمون هذا المكان خميلة خوست، وهذا المكان يبعد عن طالقان (تالقان) عاصمة تخار حوالى سبعين كيلو مترًا، وذات يوم ذهب مسعود إلى طالقان وجاءنى عدد من المجاهدين

وقـــالوا : إن اشتهاء أكل الأسماك ذات الخال تدور برؤوسهم، وطبعًا كانوا يـــريدون أن أشاركهم فى مراسم الصيد وطبعًا كانوا يريدون أن يصطادوا السمك بتفجير القنابل اليدوية، وقالوا: إن لديهم الخبر أن مسعودًا ذهب إلى طالقـــان ولن يعود بسرعة، وبدا من هيئتهم أن لديهم تصميمًا راسخًا على الصـــيد بالطـــريقة المذكـــورة، وأخذوا على عاتقهم عدم اطلاع مسعود أو إحاطـــته بالأمر، وهاهم يريدون أن يجعلونى شريكًا فى هذا الجرم، وبأقل ضـــغط قبلـــت متحملاً العواقب وحدى لأن أصحاب الدعوة كلهم أصدقائى وليسوا أشخاصًا عاديين، وتملكتنى ثورة الشباب ومغامراته، واتجهنا ناحية مضـــيق ورســـج طـــبقا لما أطلعنا عليه الفتية لأن الأسماك تتجمع هناك، وتحركـــنا إلى هناك مع قدر من المواد المتفجرة وكان يجب أن تتم عملية الصـــيد بسرعة، وتجاربنا فى الأعمال السريعة الخاطفة ليست سيئة ومياه الـــنهر هادئـــة فى مضيق ورسج وعرض النهر هناك ليس واسعًا، وخلع الجمـــيع ملابسهم إلا أنا وانتظروا نتيجة رمى المواد المتفجرة، والقاعدة أن انفجـــار المـــواد لـــيس له صوت بل إنها تحدث أمواجًا فى مكان الانفجار علامـــته أنـــه يجـــب الانتشار فى النهر والإمساك بالسمك، وفى غير ذلك تغـــوص المياه بالأسماك إلى أسفل ويكون الإمساك بها صعبًا جدًّا وأحيانًا يكون فى منتهى الخطورة.

واقـــترب المســـئول عن التفجير من النهر رويدًا رويدًا وأطلق القنبلة اليدوية فى وسط النهر، وانتظرنا عدة لحظات حتى تصل نيران الفتيلة إلى المـــواد ومـــع ارتفاع المياه فى وسط النهر انتظر الفتيان عدة ثوان أخرى حـــتى تظهـــر أوليات الأسماك على وجه الماء لأنه يتصادف أحيانًا ألا يتم شيء ولكن هذه المرة أحكم تسديد السهم إلى الهدف بدقة، وفجأة امتلأ سطح المـــاء بالأســـماك، وفى الحقيقة كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها

الأســماك بكثرة، وبسرور بالغ انتشر الفتيان فى النهر وبدأوا فى الإمساك بالســمك، وصــار مــن المعلوم أن الأسماك التعيسة التى اطمأنت لحماية مسعود لم تضع فى وجهة نظرها أى احتمال فى أن يخالفه أتباعه ذات يوم هــذه المخالفة، ولهذا السبب كانت الأسماك مجتمعة فى مكان واحد ورمت بأنفسها فى الشرك.

كان الفتية يمسكون السمك من وسط النهر ويقذفون إلىّ على الشاطئ، وكنت أمنع الأسماك أن تعود مرة أخرى إلى النهر، وجرت الأمور بسرعة وكــادت أن تنــتهى بشكل أسرع وكانت إمكانية وصول الخبر إلى مسعود تتــناقص، ولكــن الإمكانــية فى أن يكون أحد المارة سببًا فى إفشاء السر موجودة.

وكانــت عيونى على الطريق حتى لا يرانا أحد، وكنت أدعو الله فى قلــبى أن ينــتهى الأمــر على خير، ولدىَّ الحق أن أكون قلقًا لأننى كنت المســئول عن مركز التعليم والتربية وكان يجب ألا أشترك فى مخالفة أمر لمســعود، بــل على العكس من ذلك كان يجب أن أمنعهم عن هذا العمل، ولكــن الذى حدث هو العكس فها أنا ذا أشترك معهم فيه وكان الأولاد فى حالة من الفرح والنشوة من السباحة فى النهر وصيد الأسماك، ودام الهرج والمــرج وســط المضيق فى الوادى حتى إن أصواتهم كانت تلفها الأسوار الحجــرية للجبال ثم ينعكس صداها جميلاً جذابًا. وفجأة وقعت عيناى على عــربة جيــب روســية الصنع كانت تقترب من بعيد إلى ناحيتنا ولم أكن أتصور هذا فلماذا رجع مسعود ؟ حتمًا طرأ تغيير على البرنامج وأردت أن أقنع نفسى عدة ثوانى أنه ليس مسعودًا لأن عددًا من قواد طالقان لديهم هذا الــنوع من العربة الجيب، ولكن احتمال أن يظل مسعود فى طالقان ويأتى

القادة إلى وادى فرخار احتمال ضئيل. وللتفكير والتحليل لم يكن لدى وقت كثير للاطلاع على الأمر فيجب أن أنجز عملاً وحقيقةً أن العزم والتصميم أثناء المفاجأة والمباغتة يكون صعبًا للغاية.

وبســـبب قلة الوقت وأيضًا بسبب التردد الذى يقع تحت تأثير طوفان التفكـــير استطعت بصعوبة أن أنبه الفتية باقتراب عربة جيب وواضح أنهم لـــم يتنبهوا جميعا. لأن هدير النهر وسعادتهم وصخبهم منعتهم من المعرفة مرة واحدة، ولكن على كل حال كان رد الفعل سريعًا وعظيمًا فأنا لم أفكر أن أعطـــى شخصـــًا أمـــرًا أو أقول له اختف تحت الماء، ولكن الظروف وحدها هى التى تظهر أن هذا العمل معقول وفى الحرب يكون الأمر كذلك وفى أكثر الأوقات الظروف هى التى تحكمك ماذا تفعل وليس الأمر، وفى عدة لحظات تغير المشهد عكس اللحظات السابقة غاص الفتية مكان السمك داخـــل الماء وطفت الأسماك على الماء مكان الفتيان، واتكأت أنا بظهرى إلى حجر ناحية الطريق حتى لا يرانى مسعود أثناء مرور العربة.

كـــل هذه الأمور تمت بسرعة ولكن هل كان هذا يغفل عن حدة بصر مســـعود. أحـــيانًا يقع الإنسان فى ضائقة فيربط قلبه بخيالات واهية، ومن الجائـــز أن الخيالات هى التى تهجم عليه حينما يكون قد وقع فى الضائقة وقـــد وقعـــت فى مثل هذه الحالة، ففى الوقت الذى ركنت فيه ظهرى إلى حجـــر كبـــير كان من العبث أن آمل ألا يرانى مسعود، فما الذى يمنعه ألا يرانى فإن الطريق على الشاطئ والمسافة بين الطريق والمضيق أقل، وكان توقـــف العـــربة خلفـــى ثم فتح الباب وغلقه هو علامة نزول الراكب منها فوضع النهاية لخيالاتى.

فمـــا قُدِرَ أن يكون هو الذى سوف نراه وليس الذى نحب أن نراه. إن

الاختفاء وراء حجر بعد ذلك ماذا أفاد ؟ في الوقت الذى أسمع فيه بوضوح صـوت دقات قلبى نهضت من مكانى لألتقى بمسعود، ولكن العجيب أننى التقيـت وجهًا لوجه بدلاً من مسعود مع مولوى عبد الرحيم محافظ المنطقة الـذى عين حديثًا وأُعْطِيَتْ له العربة الجيب منذ مدة قليلة. شعرت بالراحة قلـيلاً لقـد رأى من بعيد أن الفتيان يصطادون السمك وتملكته شهية لأكل السـمك، وأراد إزاء هـذا السكوت فى مقابل مخالفة أمر مسعود أن يكون شـريكًا معنا فى أكل السمك ولكنه لا يعلم ماذا حدث لنا وفى هذه اللحظات سلم علينا بوجه بشوش وسأل: هل له نصيب فى السمك أم لا؟ فقلت له: ولم لا؟ وكان الفتية الذين غاصوا تحت الماء وابتعدوا عنا قد خرجوا من الماء أيضًـا ولكـنهم كـانوا يبدون غير سعداء وغير مسرورين على الرغم أن مسـعودًا لم يقبض عليهم بل لأن أكثر الأسماك ضاعت من أيديهم، وفى هذا الوقت سأل أحدهم بصوت عال وبالكناية وكان ملتفتا لحديثنا:

ماذا يطلب سيادة الأمير؟

فقلت : سمكًا.

قال : بل سم الثعبان. ولحسن الحظ لم يسمع مولانا هذه الكلمة، فقلت: إن الفتيان يقولون: ولم لا؟! له كل ما يطلب.

٣- مسعود والشعب

الشـــعب :

كان مسعود يحب أهل بلاده حبًّا عميقًا كان يهتم بمصائرهم، وطريقة أفكـــارهم، وأحاسيســـهم، ووضـــع معيشتهم فى الحاضر والمستقبل، وكان يعطـــى لذلـــك أهمـــية كبيرة، وكانت صلابة الناس وصبرهم فى السنوات العجـــاف للحـــرب باعـــثًا على حيرته، وكان يدرك أن الشعب هو البطل الحقيقى فى الحرب لاسترداد وحفظ استقلال بلاده، وكان يقول : أى شعب هذا؟! إن الحرية تجرى فى عروقه.

لقد أدرك أهمية هذا الشعب منذ بداية الحرب، أتذكرون انقلاب ١٩٧٥ م الذى كان ضد حكومة محمد داود الذى وُوجه فيه مسعود بالهزيمة وقبض الناس على رفاقه أو قتلوهم كما ذكرت ذلك من قبل فى مكانه، كان مسعود يـــدرك أن ســـبب الهزيمة فى هذا الانقلاب هو أنهم لم يعملوا ما يلزم بين الشـــعب، وقد تعلم مسعود من هذا درسًا جيدًا من أول العمليات وظل يعمل به حتى آخر حياته.

فـــى فـــترة الجهـــاد فى شمال أفغانستان وضعت فى شمال أفغانستان ضريبة إجبارية باسم شِكَنْ[١].

وبـــدأ مســـعود حربًا شديدة ضد هذه الآفة. ووفق فى الساحات التى كانـــت تحـــت حكمـــه، وجـــرت الأحداث بأن بدأت الحرب ضد الحكومة

---

(١) فـــى أيـــام الجهـــاد فى شمال أفغانستان عرفت هناك ضريبة باسم شكن بكسر الأول وفتح الـــثانى وســـكون الثالـــث، وتعـــنى جباية ورسوم تفرض على كل فرد يملك الأرض، أو المواشى، أو الفواكه. (المترجم).

الشيوعية فى أفغانستان فى عام ١٩٧٧م ولكنها فى الأوائل لم تكن عامة فى كل مكان، ولم يكن لها أبعاد واسعة، وبمجيء الجيش الأحمر فى أفغانستان فـــى ديســـمبر عـــام ١٩٧٩م أعطى علماء الدين فتوى بالجهاد، وأصبحت الحرب شاملة وبدأ الناس الحرب بأسلحتهم اليدوية المعروفة فى أفغانستان، وكانت تكاليف كل محارب تقع على عاتقهم.

ولـــم تكن هناك فصائل معينة موجودة فى ذلك الوقت، ولم يكن للقادة وجـــود، وأخذ أكثر العلماء ورؤساء الأقوام والقرى زعامة المحاربين على عاتقهم، ولكن رويدًا رويدًا بدأت الحرب تطول، ووجدت على الساحة طبقة جديدة باسم المجاهدين ورأسهم أغلب القادة، وكان معظمهم يرتبط بأحزاب سياســية، وزعماء هذه الأحزاب كانوا يقيمون خارج البلاد فى إيران وفى الباكستان.

ظهـــر المجـــاهدون مـــن الطبقات الدنيا الفقيرة، ولكنها طبقة أساسية عريضـــة فـــى البلاد وهى طبقة الفلاحين، وخلال عقدين بدلت هذه الطبقة بطبقة جديدة هذه الطبقة مع أنها ظهرت من الفلاحين، فإنها حملت الفلاحين أعباءً ثقيلة لتنفيذ المسئولية الجسيمة للدفاع عن الوطن، وهذه الأعباء الثقيلة التى وضعوها على كاهل الفلاحين كانت سببًا فى شدة شقائهم وتعاستهم.

فـــى الحقـــيقة كانت هناك طبقة حاكمة جديدة وجدت بحكم الظروف الجديـــدة، ولـــم يكن طريقها وأسلوبها متساويًا مع الناس، كان المجاهدون يحـــتاجون إلى كل طوائف الشعب ولكن حجم هذه المساعدة التى يجب أن يدفعها الناس لم يكن لها قاعدة ثابتة وكانت تتعلق بالقائد وإلى أى حد يكون منصفًا، وكما قلت آنفًا على أثر استمرار الحرب تركت الإحساسات الأولى مكانها للواقع المؤلم، والأعباء الثقيلة للحرب أصبحت محسوسة على كاهل

الـــناس، وبعـــبارة أخرى: هذا الشعب هو الذى كان يتحمل الأعباء الثقيلة للحرب على كاهله، وكانت هجرة خمسة مليون من الشعب وهم يمثلون ثلث تعـــداد أفغانســـتان شـــاهدًا على عمق هذه المأساة التى كانت تجرى داخل الـــبلاد، فهؤلاء اللاجئون خارج البلاد عاشوا معيشة أفضل من الذين ظلوا داخل البلاد، والذى تبدل هو مظهر الآلام وشكلها وليس جوهرها، فإذا كان فـــى بيشاور فالبوليس الباكستانى موجود، وفى داخل أفغانستان (شِكَنْ) أى الجباية والضريبة، وما أكثر الأسماء التى وضعوا لها مسميات فكلمة شِكَنْ باللغة الفارسية تعنى الهزيمة وشكننده تعنى المهزوم وتعنى مقصوم الظهر.

ولكى يأتى المجاهدون بالأسلحة والذخيرة كانوا يسافرون إلى باكستان ولكى يصلوا إليها كان عليهم أن يقطعوا مسافات طويلة سيرًا على الأقدام، وكـــان لهـــذا الســـفر الطويل تكاليفه وكان القادة يأخذون هذه التكاليف من الـــناس، ولأن الـــناس مـــن المزارعيـــن فكان يجب عليهم أن يدفعوا هذه التكالـــيف وحينما وقع ثقل هذه الأعباء على كاهل الناس لم يكن فى طاقتهم أن يدفعوهـــا وكان عدد من القادة يجبرونهم على الدفع، وأظن أن من هنا أخذت المساعدة والمساندة المالية اسم (شِكَنْ) أى الضريبة أو الجباية.

حســـنًا أذكـــر أنهم حينما تحدثوا مع مسعود بشأن الضريبة والجباية احمـــر لونـــه وطأطـــأ رأسه إلى أسفل واستغرق فى التفكير وكانت روحه تتعذب من الظلم الفادح.

أذكـــر فى هذا المقام أن مسعودًا كان إذا سمع شيئًا أصبح كأنه يراه، كـــان حساسًـــا لدرجة أنه لم يستطع أن يخفى أحزان خاطره، كان يطأطئ رأســـه إلى أسفل ويستغرق فى التفكير وكانت هذه عادته دائمًا وقد عرفت مـــنذ ذلك اليوم أنه سوف يطيح بهذه الضريبة يومًا. مع وقف إطلاق النار

عام ٨٣-٨٤م التى مرت فى مبحث سابق وجد مسعود الفرصة للسفر إلى شـمال الـبلاد، وفى هذا السفر اختار خمسين من المجاهدين ليكونوا معه وهؤلاء الأشخاص الخمسين شكلوا أساس قطاعاته المنظمة باسم القطاعات المركـزية، وكـان ينظر إلى هذه الأقسام والقطاعات أنها النواة الأساسية لجيش أفغانستان فى المستقبل، وأفراد القطاعات المركزية لم تكن وظيفتهم الحرب فقط بل إن أساس مسئوليتهم هو إرساء النظام فى المنطقة، ووصف مسعود الهدف من سفره إلى الشمال بأنه للتنسيق والتنظيم، وأول إجراءات التنظـيم هو تشكيل المجالس، وقد شملت كل الطبقات المؤثرة فى المجتمع فـى ذلـك الوقـت، وانحصرت فى ثلاثة مجالس: مجلس شورى العلماء، ومجلس شورى الشعب، ومجلس شورى القادة.

مجلس شورى العلماء:

ويـتكون مـن نخبة من علماء المنطقة، والوظيفة الأساسية لهم هى الـرقابة والمشورة فى الأمور القضائية وسائر المسائل المهمة فى المنطقة. ويعين قضاة ورؤساء المحاكم بمشورتهم وينتخبون من بينهم أحيانًا.

والوظـيفة الأخـرى لهـذا المجلس هى الرقابة على تطبيق الشريعة وسـائر القوانيـن المرتـبطة بأمور الناس، ولم يكن المجلس يتدخل تدخلاً مباشـرًا فى إدارة الأمور، وكان هذا العمل يتم بواسطة منفذين أما مراقب الأوضـاع فيكتـب تقريـرًا مفصلاً إلى مسعود ويتشاور من أجل تحسين الأوضـاع. المجلـس الـثانى مجلـس شورى الشعب : وهذا المجلس هو الواسـطة الأصـلية والأساسـية بين الناس ومسعود حتى يخبروه مباشرة بأوضـاع الأهالى من الكليات حتى الجزيئات فالأعمال المرتبطة بالخدمات العامـة مـثل تأسيس المدارس والمستشفيات وتعبيد الطرق وتعيين رؤساء

المناطق والمحافظين وتعيين القادة المحليين، وكثير من المسائل الأخرى التى ترتبط بحياة الناس، كل هذه الأمور تتم بمشورة واقتراحات هذا المجلس.

المجلس الثالث : مجلس شورى القادة: وهذا المجلس لا يهتم بالأمور العسكرية فقط بل عليه مسئولية بالنسبة للشعب لأن العسكريين كانوا هم أغلب المسئولين عن الأمور المدنية، وهذا أمر طبيعى لأن الظروف الموجودة كانت عسكرية والأمور المدنية والعسكرية كانتا متفقتين تحت قهر الظروف، فمثلاً حينما تكون منطقة هدفًا لهجوم القوات الأجنبية فإن كل شخص يجب أن يهب للدفاع، فعلى سبيل المثال لا يستطيع أى محافظ لإحدى المحافظات حينما تكون محافظته هدفًا للهجوم ألا يكون لديه دور للدفاع عن محافظته ثم يدعى الوطنية أيام الرخاء إذًا فالوالى بحكم الظروف يكون عسكريًا أو يجب أن يكون.

وأجد من اللازم أن أوضح قليلاً كيفية انتخاب أعضاء هذه المجالس فمسعود فى تعيين هذه المجالس كان يعينهم من تشكيل طريف يستخدم فيه الانتخاب والتعيين، وفى نظرى يستطيع أن يكون هاديًا ومؤثرًا للأشخاص التى تريد أن تتعلم من تجارب العظماء.

أعضاء مجلس شورى العلماء :

أولاً : كان يطلب عددًا من العلماء المشهورين بالعلم والعمل فى المنطقة وبرأيهم ومشورتهم ينتخب عددًا آخر، هذا ومثاله كان عملاً يتم بالانتخاب والتعيين فانتخابهم كان باقتراح المجموعة الأولى ولكن تعيينهم فى المجلس كان بأمر مسعود، وبعد تشكيل أول جلسة للأعضاء الموجودين أنفسهم فى حالة الضرورة ينتخبون سائر الأعضاء كذلك تعيين الوظائف وتحديد المسئوليات والصلاحيات.

مجلس شورى القادة :

أعضاء مجلس القادة أكثرهم بالتعيين مع أن مسعودًا كان يستشير في تعيينهم، وكان أكثرهم يعينون بواسطته لأن مسعودًا في هذا الشأن كان أصوب الجميع رأيًا، ولكن يجب أن أوضح أمرًا أن القادة المحليين الذين كان لديهم مسئولية إدارة القواعد كانوا ينتخبون، والشعب والمجاهدون كانوا هم الذين يختارون الأماكن لهم.

مجلس شورى الشعب :

طريقة انتخاب أعضاء هذا المجلس متميزة وجديرة بالذكر، فمن الجوامع أئمتها وشخص من بين الأهالي وهذا الشخص ينتخب بواسطة الناس وغالبا ما يكون من ذوي النفوذ وذوي العزة والاحترام في قومه.

ولما كان من المحتمل ألا يشمل الانتخاب بعض ذوي النفوذ والأشخاص المؤثرين لذا كان مسعود يعين عددًا في المجلس بعد مشورة الأعضاء المنتخبين وعلى هذا النحو كان مسعود يضع الأسس في كل المجالات لعمله على أساس الشورى، وتوفيقه مرهون بالمجالس المؤثرة فأحيانًا كانوا يخططون له وأحيانًا كانوا يؤيدون ويساندون طرحه.

أرى لزامًا عليَّ أن أذكر مسألة وهي أن مسعودًا كان يؤمن بدور الطوائف والأقوام من خلال قيادته، لكنه لم يعترف بالتمييز ولم يخط خطوة في هذا الطريق، وكل مشاوراته كانت مبنية على ما قلنا ولم يُمَيِزْ أبدًا اسم فلان وعلان. ولم ينكر أبدًا اسم مندوب قوم أو قبيلة لأن هذه الرؤية تخالف معتقداته وأفكاره لكونه مسلمًا، فهو كان يعرف جيدًا أن العرقيات الكبرى في أفغانستان تعد على الأصابع لكن الأقليات والطوائف تتفرع إلى آلاف ولا يتم إحصاؤها حتى عن طريق الأجهزة الإلكترونية المتقدمة، وحتى لو

أمكـــن ذلك فإن هذه الأفرع التى يتشكل منها عدد محدود من الأسر تتباهى وتدعى افتخارات وحين تذكرها تطير من شدة الفرح.

وعلـــى رأس هذه المجالس كان يوجد مجلس أكبر يسمى مجلس شورى الـــنظار ومجلـــس شورى النظار هو الذى يتزعم قوات الجمعية الإسلامية فى داخل أفغانستان.

ويشكل الشمال والشمال الشرقى وكابل دائرة العمل فى هذا المجلس، ولقـــد تأسس مجلس شورى النظار عام ١٩٨٤م وفهم منذ البداية أنه عنوان لهيئة سياسية، وطريق لاستقلال مسعود عن الجمعية الإسلامية لأفغانستان بـــزعامة الأستاذ برهان الدين ربانى، ولكن هذا لم يكن له أى سند أو واقع وقد حله مسعود عقب الانتصار.

لقـــد كنت رئيسًا لقطاع العمليات فى هذا المجلس حتى عام ١٩٩٧م، وهـــذا المجلس كانت لديه لجان ومكاتب وإدارات مختلفة تتعلق بكل أقسام الجهـــاد: الكفـــاح والنضال وحياة الناس، وبعبارة أخرى: كان لمسعود عن طـــريق هذا المجلس قُرْبه واتصاله وروابطه مع الناس، وعلى حد تعبيره كان عليه إيجاد الماء بالنسبة للسمك ليحافظ عليه حتى آخر رمق.

أحـــد ابـــتكارات مســـعود فى الخدمات العامة هذه التجربة التى من الممكـــن أن تستخدم فى سطح أوسع وأرحب، وهى أنه يسأل الناس أنفسهم مـــا هى احتياجاتهم، وكان يلبيها بواسطة مجلس شورى الشعب، فالمجالس علاوة على أعمال إعادة البناء والتجديد وكذلك الإصلاح والترميم، كان لهم أعمال المراقبة، وكانوا يكتبون التقارير لمسعود عن كل ما يجرى، وأحداث هـــذه المجالس كانت تجرى فى جو نقى مفتوح ليس به تلوث. وكانت هذه هـــى إحـــدى نجاحـــات مســـعود فى إدراك الحقائق كان يكره المجاملات والجلســـات الرسمية المتصنعة، بل كان الجو الصحى للجلسات يساعد على

إظهــار مــا يجيش فى القلوب، كان يستمع للنقد فى كل موضوع ويعطيه أهمــية كبــيرة خصوصًا ما يتعلق به شخصيًّا، وفى أحد هذه الجلسات قام رجل عجوز أبيض الشعر وقال: إن لدى انتقاد لك!

فقال مسعود: تفضل.

فقــال الرجل : فى زماننا يعنى وقت الحكومات السابقة كان الأشخاص أصحاب المراكز الرفيعة يجلسون فى الكرسى الخلفى فى السيارة، ولكننا نراك تجلــس إلـــى جوار السائق وحتى لا يظن أعداؤنا الظنون أقترح أن تجلس فى الكرسى الخلفى فى السيارة وليس بجوار السائق، وكان مسعود يذكر ذلك وهو يضحك.

ولكن كيف انتهى مصير الجباية والضريبة ؟ لا تظن أننى نسيته، أول النتائج المحسوسة لسفر مسعود إلى الشمال وكان لها تأثير مباشر فى حياة الــناس هــو إبطــال الضريبة والجباية فقد أخذ مسعود من مجلس شورى الشــعب حكمًا بمنعها وأخذ من مجلس القادة أمرًا بالقضاء عليها. وأصدر أمرًا بعدم جمع المحصول والغلال من المناطق المتضررة وأعطى أمرًا فى القطاعــات المركــزية الخاصة به ألا يأكل الناس مجانًا بل يدفعون النقود مقابل الغذاء الذى يأكلونه.

واســتقبل الــناس والقادة إجراءات مسعود بسعادة غامرة ولم يقدموا مــنافعهم ومصالحهم على مصالح الناس، أما القواد الذين اطمأنوا للسياسة المنظمة لمسعود أذعنوا للأمر وسلموا مناطقهم.

وفقــد الحــزب الإسلامى لحكمت يار، كل مناطقه تقريبًا فى الشمال الشرقى وأدار كبار القادة وجوههم لحكمت يار، وظلوا حتى النهاية يأخذون بأسلوب مسعود فى الإدارة.

مسعود والصلح والسلام:

الصــلح والســلام أحد أحلام وآمال مسعود الكبيرة، الصلح والسلام للــناس والصــلح والســلام لبلاده، كان أحيانًا يذكر السلام فى أشد حالات الحــرب، كــان يذكر السلام مع الأمانى العميقة ولم يكن هذا نتيجة لضغط الظروف لأنه كان أمام الشدائد صبورًا وقويًا بل إن هذا كان إظهارًا لما فى نفســه، وهنا يجب سؤال: كيف اجتمع لديه حبان متضادان فمن ناحية حبه للجندية والحرب، ومن ناحية أخرى آماله من أجل السلام والصلح. نستطيع أن نجيــب على هذا بأن علاقته بالحرب كانت لها صفات دفاعية، فقد كان يحلــم بأفغانســتان قويــة تستطيع أن تصد عن نفسها العدوان والتدخلات الأجنبية، وهذا هو ضمان السلام الذى كان يحلم به مسعود للناس، وقد ألقى مســعود بنفســه فــى الخطــر عدة مرات من أجل الصلح والسلام. وهذه الأخطار كانت ثلاثة وكانت فى غاية الخطورة أول هذه الأخطار كانت فى عام ١٩٨٨م حينما كان السوفيت يجهزون مقدماتهم للخروج من أفغانستان، وعلــى أســاس هــذا البرنامج طلب الجنرال وارينكف أن يلتقى بمسعود، وكانــت أهدافهــم من هذا اللقاء أن يفسحوا المجال لخروج عساكرهم دون خســائر، وقــبل مسعود اللقاء ولكنهم ضربوا مكان المباحثات بشدة وعنف ولحســن الحظ أن مسعودًا قبل مشورة الأصدقاء ورعاية لجانب الحذر كان بعيدًا عن المكان.

وقــال الجنرال وارينكف فى السادس من أغسطس عام ٢٠٠٣م يعنى بعــد أربعة عشر عامًا حينما حضر إلى سفارة أفغانستان فى موسكو تلبية لدعوتــنا فــى هذا الشأن: حينما طرحت لأول مرة فكرة لقائى بمسعود مع سفيرنا ورانتسف قال: أنا أذهب أيضًا، فقلت: لو احتمالاً قبض مسعود على سيكون الأمر نصف مصيبة أما لو قبض على سفير الاتحاد السوفيتى كذلك

فســتكون الطامة الكبرى" ولكن السفير أصر على الذهاب وتقرر أن نذهب معًا.

طــبعًا كان يجب أن نطلع نجيبًا رئيس الجمهورية على ذلك، وحينما ذكــرنا الموضوع لنجيب أظهر أنه يرحب بهذا ولكن بدا من ملامح وجهه أنــه غير موافق، وفى تلك الأثناء ضرب مكان المباحثات بواسطة القوات الأفغانــية الــتابعة له، فأخبرته بما حدث وفى الوقت الذى أظهر فيه عدم معرفته بالموضوع وعد بتسليم الفاعلين لمجازاتهم، ولتدارك الأمر أردنا أن نلتقى مرة ثانية، وللمرة الثانية ضُرب مكان المباحثات وللمرة الثالثة أيضًا.

ومع أننى عرفت بالقصف مرة واحدة أما ثلاثة فممكن تصديقها أيضًا لأن مســعودًا رفــض عــدة مرات طلب نجيب للقاء وكان نجيب من هذه الناحية لديه عقدة من مسعود، حسنًا أذكر أنه عندما وصلت أول رسالة من نجيب إلى مسعود وهذه الرسالة موجودة حتى الآن قرأ مسعود الرسالة فى مجلــس شــورى القــادة وقال: "إن هذه الرسالة هى علامة قاطعة لزوال وانتهاء الحكومة العميلة".

أمــا المرة الثانية فكانت عام ١٩٩٢م استقبل مسعود الخطر من أجل الصلح والسلام، هذا فى الوقت الذى كانت فيه قوات مسعود قد دخلت كابل منتصــرة وبــدون إراقــة دمــاء، ولكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا قصف الصواريخ بواسطة قوات حكمت يار الذين أبعدوا بالقوة عن المدينة وكانوا يريدون الاستيلاء عليها عنوة، واسمحوا لى أن أعود قليلاً إلى الوراء وأمر علــى جانــب مــن مقدمــات الحــرب الأهلية التى مهدت السبيل للتدخل الخــارجى، ذكرنا فى مكان آخر أن خروج القوات السوفيتية عام ١٩٨٩ م فاجــأ مســعودًا لأنه كان يظن أنهم سوف يمكثون على الأقل عشر سنوات

أخـــرى لاستكمال برنامجهم، وحينما كان السوفييت يخرجون من أفغانستان لـــم يكن هناك أى استعداد لأى واحدة من أكبر جبهات أفغانستان نظامًا أن تشن عليهم هجومًا واسعًا يصل حتى العاصمة، فماذا عن الجبهات الأخرى؟ مـــن النواحى السياسية كان الزعماء السياسيون خارج البلاد متفرقين. أما علـــى الساحة العالمية فقد كان وصول المجاهدين إلى السلطة قد ينظر إليه بـــأنهم جماعـــات أصولية وكان لدى أمريكا قلق زائد إزاء هذا الموضوع. ولقـــد طلبـــت أمـــريكا أثناء الحملة الأولى على العراق عام ١٩٩١م من المجاهديـــن أن يساعدوا أمريكا فى الحرب ضد العراق، ولكن رُفِضَ هذا الطلـــب وأرسل رئيس الحكومة المؤقتة للمجاهدين صبغة الله المجددى قوة محـــدودة فقط للحفاظ على الأماكن المقدسة، ولا أعلم ممن كانت تتعرض الأماكن المقدسة للخطر؟

باكســـتان التى حصلت على أكبر المنافع من حرب أفغانستان كان لها وجهـــة نظـــر فى نوع الحكومة التى تأتى إلى كابل بعد الاتحاد السوفييتى، وبعبارة أخرى: كانت وجهات نظر الباكستان، وإيران، والاتحاد السوفييتى، والأمـــم المـــتحدة، وأمريكا وزعماء المجاهدين ومسعود بخصوص نوعية الحكومـــة فى أفغانستان بعد الاتحاد السوفييتى تختلف وتتفاوت بعضها عن البعض تمامًا. الجدير بالذكر أن كل واحدة من هذه المجموعات التى ذكرتها ســـعت واجـــتهدت على قدر تأثيرها فى القضايا وأحقيتها فى تعيين النظام الذى سيأتى بعد ذلك وقد جلب هذا أخطر العواقب.

ولـــو نـــبلور طـــريقة فكر الأجنحة المختلفة فى ذلك الوقت ستكون كما يلى:

كـــان الاتحـــاد الســـوفيتى يؤيد بقاء حكومة نجيب الله فى ائتلاف مع

مسعود وسائر أفراد الجمعية الإسلامية، ولم يكن للسوفييت أى علاقة خاصة بمسعود فقد كانوا قلقين على حدودهم الجنوبية بعد الخروج من أفغانستان وكان مسعود له تواجد هناك.

الأمريكان كانوا يؤيدون حكومة ائتلافية بين الشيوعيين غير المعروفين والجناح المعتدل من المجاهدين المشهورين بالتنظيم الثلاثى، ولم يكن لأمريكا أى ميل أو اهتمام خاص بالشيوعيين ولكن بالنسبة لهم تشكيل حكومة من الشيوعيين المهزومين والمجاهدين المعتدلين أحسن ألف مرة لأمريكا من وصول السلطة إلى الهيئة الثلاثية التى بزعمهم هى هيئة الأصوليين بزعامة الأستاذ برهان الدين ربانى والأستاذ سياف وحكمت يار.

أما هيئة الأمم المتحدة فقد كانت مؤيدة حكومة مؤقتة انتقالية تشترك فيها كل الفصائل، وفيما يبدو أن بينين سيوان أخذ موافقة أكثر الأجنحة فى آخر أيام نجيب الله، وكان أحمد شاه مسعود يطمئن الأستاذ برهان الدين ربانى لحظة بلحظة فى أن حكومة نجيب سوف تسقط.

وتطابق طرح بينين سيوان ممثل الأمم المتحدة من أجل أفغانستان مع رغبة أمريكا، ولكن بنفس التكتيك المتعارف عليه اليوم يجب أن يتصور الناس كافة أن هيئة الأمم المتحدة نفسها هى التى توصلت إلى الحل.

وكانت إيران تؤيد كل حكومة تعطى امتيازًا أكبر لتنظيمات الشيعة السبعة، أما الباكستان فقد كانت تؤيد وصول السلطة إلى حكمت يار فقط طائر الاستخبارات الباكستانية ISI الذى له تخطيط معروف لا يتغير.

أما مسعود فقط كان يؤيد حكومة تجمع كل المجاهدين.

فماذا كانت حالة حكومة نجيب؟

حيـن خروج القوات السوفييتية من أفغانستان فكر السوفييت فى مستقبل أبـنائهم من الشيوعيين الأفغان، ولم يوفق السوفييت فى القضاء على أعدائهم، وهـا هـم يـريدون أن يسلموهم لمصير غير معلوم ويرحلوا ولكن مع منح السوفييت لهم صواريخ اسكود وإيجاد جسر هوائى حقيقى، ونفخت فى آذانهم: لقد عثرتم على قوة الدفاع عن المستقبل يعنى ماذا ؟ لقد وجدوا قوة الدفاع عن المستقبل فماذا هم فاعلون؟

لقـد أخطـأ السـوفييت حتى آخر مرحلة فى أفغانستان ليس فقط فى مـرحلة الخـروج فهم بدلاً من أن يأتوا بشيوعى محايد أقل فى المآثم من نجيب، أيدوا نجيبًا وعملوا على حمايته وهو الشخص الذى له قتلى زرافات ووحدانًا حينما كان رئيسًا لجهاز المخابرات خاد، وهذا الأمر كان وسيظل فى ذاكرة كل حى.

تعذيـبه الوحشـى المخيف للأفغان سوف يدرج فى تاريخ أفغانستان ليظل شاهدًا على الفترة التى جاء فيها السوفييت، وها هم السوفييت يسلمون له صواريخ اسكود ليقوم بالدفاع منفردًا.

ومـع خـروج السـوفييت اتصـل الشيوعيون الأفغان بشكل واسع بالمجاهديـن وكـان الشـيوعيون فى الأغلب ينقسمون إلى جناحين: خلق ويـرچم، ولـم يستطع السوفييت خلال ثلاثة عقود أن يقضوا على العداوة بينهما حتى فى وقت وجودهم المباشر فى أفغانستان.

واستمر هذا العداء حتى أثناء اتصالهم بالمجاهدين، وأكثر حزب خلق كانوا على صلة بحكمت يار، وأغلب حزب برچم كانوا على صلة بمسعود، وكـان كل جناح يريد أن يسقط نظام نجيب إرضاءً للجناح الذى يتصل به، ولكـن نجيـبًا انـتظر عبثًا ليطرح مهزلته باسم المصالحة الوطنية، وكان

مشـــاوره مـــن السوڤييت هو محمود قارييف وهو السبب فى بقائه للتأمين المضـــحك على مصالح السوفييت، إننى حينما التقيت بمحمود قارييف فى عـــام ٢٠٠٣م فـــى موسكو قال: بخصوص المصالحة الوطنية لو الأجنحة المذكورة لم تخرب فكرة هذا المشروع كان أحمد شاه مسعود انضم إليهم!!!

ولـــم يستطع المستشارون الذين تقدموا بكافة طروحاتهم للإبقاء على نجيـــب الله والحكومـــة الشيوعية، بل لم يستطع نظام عالمى كبير فى ذلك الوقـــت باســـم الاتحاد السوفييتى مع ما تكبده من التعب والمشقة أن يمنع ســـقوط نجيـــب الله، وبعد اثنى عشر عامًا يفرحون بليت ولولا، وكما هو واضح أنه ليس هناك مجال لليت ولولا فى صفحات التاريخ.

وأخـــيرًا عجـــل العداء الموجود بين الأجنحة فى إسقاط نجيب والتقى رفـــيع وزير الدفاع فى ذلك الوقت مع حكمت يار وأتى بقواته من الجنوب إلـــى كابل ولكن هذه القوات احتلت من كابل الأجزاء التى كانت فى أيدى حـــزب خلـــق. أما البرچميون بزعامة عبد الوكيل وزير الخارجية أدخلوا قـــوات مسعود من الشمال إلى كابل وبدأت الحرب بين الجناحين، وفى هذه الحـــرب تلاعـــب حكمت يار وأتباع حزب خلق وابتعدوا من وسط المدينة واتخـــذوا خـــنادقهم ومعـــاقلهم فـــى الضـــواحى وبدأوا فى قصف المدينة بالصواريخ، والجدير بالذكر أن حكمت يار قال عن سبب حربه ضد الدولة هو: ائتلاف مسعود مع الشيوعيين، ويجب أن أضيف هذا الموضوع: حينما اقتربـــت قواتـــنا مـــن الشمال إلى كابل لم يدخل مسعود كابل، وطلب من زعمـــاء فصـــائل المجاهدين أن يشكلوا حكومة تسيطر على كابل، وشكل الـــزعماء فـــى الباكستان حكومة مؤقتة ولم يقبلها حكمت يار وادعى أنها حكومـــة ائتلافـــية مع الشيوعيين وبدأ الحرب ضدها، ولكى يريح ضميره

أطلق على هذا اسم الجهاد، وفى الستة أشهر الأولى لجهاد حكمت يار كان رئيس الدولة المؤقت هو صبغة الله المجددى ثم جاء بعد ذلك الأستاذ برهان الديــن ربــانى، وقُتل آلاف الناس فى كابل وتشرد عشرات الآلاف. وفى الحقيقة كان حكمت يار يسيء إلى الإسلام وإلى أفغانستان ربما يكون بعلم أو بغير علم.

كــان اللاعب الأصلى فى الحلبة هى الباكستان، فقد كان حكمت يار يضــرب الصواريخ ثم يوسط حميدگل الجنرال الباكستانى، وغير حميدگل ســعى عــدد كبير من المسلمين من الداخل والخارج لإنهاء الحرب ولكن النتــيجة كانــت سلبية، وعلى أثر هذه المساعى تقرر أن يلتقى حكمت يار ومسعود فى ضواحى كابل لتنتهى الحرب واختير مكان المباحثات بالقرب مــن تــل شــينه فى جنوب كابل، ويعتبر هذا المكان منطقة تحت سيطرة حكمت يار، هذا بالإضافة إلى جو عدم الثقة الموجود بين الطرفين كان فى أعلــى درجــة، وحيــنما تحــدث مسعود مع مستشاريه بخصوص مكان المباحــثات ردوه جميعًا ومنعوه من الذهاب إلى هناك، ولكنه اعتبر أن رد الاقتراح سوف يعتبر سببًا لاستمرار الحرب وعدم الرغبة فى الصلح فسلم نفسه للخطر ليتم الصواب.

وحــل يوم اللقاء وباءت مساعى مستشارى مسعود لمنعه من الذهاب بالفشــل، والــتقى الزعيمان بين عشرات من طاقم حراستهم المسلحين فى خيمة للمباحثات وكانت أقل حركة من أحد المسلحين من الممكن أن تجرى أنهــارًا مــن الدماء ودامت المباحثات ساعتين، وفيما يبدو تم التوافق بين الطرفيــن ورجع مسعود ولم تحدث حادثة، وفى الواقع لم تلحظ أى علامة تــدل على أن حكمت يار كان يضمر نية سيئة تجاه مسعود، وحتى لو كان

كذلك وأضمر نية سيئة له كان مسعود سيموت فداءً للصلح الذى ذهب للمباحثات من أجله ولم تعط هذه المباحثات نتائج عملية واستمر قصف المدينة بالصواريخ.

وقدم حكمت يار سببًا جديدًا وهو أنه يريد أن يعزل مسعودًا عن وزارة الدفاع، وأقيمت جلسة فى الباكستان وعزل الأستاذ ربانى رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت مسعودًا عن وزارة الدفاع دون مشورة من أحد. ولم يعترض مسعود من أجل الصلح ولكن عمليًا من الذى كان يستطيع أن يدافع عن كابل وينفذ أوامر على قوات مسعود، كان مسعود عمليًا وهو وزير الدفاع. واشتدت الحرب هذه المرة والذين اتحدوا مع مسعود ومن جملتهم الجنرال دوستم الذى كان حكمت يار قد نهض بجهاده بحجة وجوده إلى جانب مسعود قد أخذ جانب حكمت يار، ولكن لم يوجه لطمة إلى قدسية جهاده، واستمر هذا الجهاد فى شكل صواريخ عشوائية طائشة تقصف بها مدينة كابل.

وهذه المرة ابتكر الجنرال حميدگل ابتكارًا آخر للصلح وهو أن تقف قوة محايدة بين الطرفين لتمنع الحرب وقبل مسعود أيضًا من أجل الصلح، وتقرر أن نرسم الخطوط الأولى لنا على خريطة لحميدگل ليتحدث مع الجناح المقابل، ولما كنت أنا رئيس العمليات أسند إلىّ طبعًا هذا الأمر وكان ذلك فى عام ١٩٩٤م، وقد حضرت اللقاء الأول لمسعود مع حميدگل بشأن الصلح، وفى خلال الحديث سأل مسعود الجنرال حميدگل: فى رأيك ماذا يريد حكمت يار بالضبط؟

فقال حميدگل: حل جيش أفغانستان؛ لأنه يرى أن هذا الجيش شيوعى. فسأله مسعود: وما رأيك أنت؟

فقـــال: إنني أظن أن هذا الأمر معضلة على كل حال ويجب أن تحل، فقال مسعود: أولاً: لا توجد الشيوعية بمحتواها السابق.

ثانـــيًا: إن العساكر والضباط الباقين من النظام السابق درسوا بنفقات أفغانســـتان واكتسبوا خبرة، والسوفييت أثناء خروجهم وضعوا قواتهم حملاً ثقيلاً على كاهل أفغانستان فباعوا آلاف الدبابات والمدافع وسائر التجهيزات العسكرية لأفغانستان، ومن هذه الناحية أثقلت كاهل أفغانستان بديون بلغت مـــئات الملايين من الدولارات وأنا محتاج لحفظ واستعمال هذه التجهيزات لهؤلاء الأفراد المتعلمين، فإذا حللنا الجيش من أين نستطيع أن نحصل على كل هؤلاء المتخصصين؟ فقال الجنرال حميدگل: أنا أعدهم وأجهزهم لك.

ومـــن الممكـــن أن تـــدرك نـــية الباكستان من خلال كل هذا وكانت استراتيجية مسعود فى نقطة مقابلة لها، فبخصوص تأسيس جيش جديد فى أفغانســـتان لقد أخذ مسعود فى الاعتبار أن يؤسسه من مجموع المجاهدين والعناصر المطلوبة من الجيش السابق، وبناءً على تقديرنا كان يستطيع أن يشـــكل الجـــيش الجديـــد من خمسة عشر فى المائة من الضباط الدارسين الســـابقين وخمســـة وثمانين فى المائة من المجاهدين الذين تربوا بالتربية الجديدة.

على كل حال أحضروا قوة محايدة من جلال آباد ونقلوها إلى مناطق تحـــت ســـيطرتنا وليســـت مناطق ترتبط بحكمت يار، ولكن لم يؤثر هذا واستمر قصف المدينة بالصواريخ.

الجديـــر بالذكـــر أن حكمـــت يار فى كل فترات الحرب هذه كان رئيس وزراء البلاد، والمحير أنه لم يرفض منصب رئاسة الوزراء فى الحكومة التى أعلن الجهاد ضدها.

ومــع ظهــور طالبان[١] استمر جهاد حكمت يار ضد الأستاذ ربانى ومســعود وقبل ذلك أعلن من مركز صواريخه المبعثرة على بعد ٢٥ كيلو جنوب كابل أنه سوف يستمر فى هذا الجهاد خمسة وعشرين عامًا أخرى.

ولكــن لم يكن لديه خبر أن الباكستان أعطت وظيفة استمرار الجهاد إلى جماعة أخرى باسم طالبان، ولم يكونوا ضد وطنهم فقط بل إنهم أعلنوا الجهاد ضد العالم أجمع والكل يعرف بقية الأحداث. انتهى جهاد حكمت يار وجــيء بــه بكامل الاحترام والتقدير إلى كابل وجلس على كرسى رئاسة الوزراء.

ودخلــت طالــبان الساحة تحت شعار الصلح والشرعية، وأظن لا هم ولا راعيــتهم الباكســتان كانوا يتوقعون هذا التقدم السريع لهم أما كُنْه هذه المجموعــة وماهيــتها المفاجــئة فــلا يُعلــم عنها أكثر مما وصل الناس والآخرين. وكان استقبال الناس الذين أنهكتهم الحروب بالنسبة لهم سببًا فى تقدمهــم العسكرى السريع، وكان هذا مانعًا لنشر صورتهم الحقيقية، ويجب

---

(١) طالــبان: كلمــة طالــبان معناها باللغة العربية طلاب، وطالبان صيغة الجمع باللغة الفارســية مفردها طالب وتطلق على طلاب المدارس الدينية. أما عن كيفية علاقتهم بالباكســتان فقد بدأت مع دراستهم فى المدارس الدينية فى الباكستان منذ عام ١٩٧٨م حينما تدفق المهاجرون الأفغان على الباكستان على أثر دخول الروس فى أفغانستان، وانخــرط الطــلاب الأفغــان فى سلك المدارس الدينية فى بيشاور وكويتا، وخاصة مدارس مولوى فضل الرحمن زعيم حزب جمعية علماء الإسلام وكان لديه كثير من المؤيديــن فــى الباكســتان وأفغانستان، وعند ظهور حركة طالبان فى أفغانستان عام ١٩٩٤م كــان فضــل الرحمن أحد المقربين للزعماء فى الباكستان فقدم إليهم زعماء الحــركة فســاعدوهم، وقــد نشــأت حركة طالبان على أثر عدم الاتفاق بين زعماء المجاهدين على تشكيل حكومة وطنية موحدة فى أفغانستان، على أساس تخلص الناس من الظلم الذى كانوا يلاقونه على أيدى بعض المجاهدين (المترجم).

أن نعترف أن المجاهدين أخفقوا فى إضفاء الهدوء والاستقرار على البلاد، وكـــان أهم الأسباب لذلك هو الخلاف بين زعماء الجهاد وعدم كفاءتهم فى إدارة البلاد.

وسيطرت طالبان بسرعة على جنوب وغرب أفغانستان ووصلوا إلى أبــواب كـــابل، وكـــان شعارهم للوصول إلى ضواحى العاصمة هو: جمع الأســلحة، والقضـــاء على الفوضى وعدم النظام، وتطبيق الشريعة، ورفع الظلـــم عن الناس ولكنهم حينما وصلوا إلى العاصمة ادعوا القوة السياسية، وأراد مســـعود مـــرة أخرى أن يجد فرصة للصلح. وهذه المرة أيضًا كان مكـــان المباحثات تحت نفوذ طالبان، ومثل وقت اللقاء مع حكمت يار كان الجـــو الســـائد بين الطرفين هو القتل والدماء وعدم الثقة إلى ما لا نهاية، وكـــان هناك فرق آخر يختلف عن لقائه بهم ولقائه بحكمت يار فقد كان هو وحكمت يار يعرف كلاهما الآخر بكل الجزئيات والفرعيات، ولكن مسعودًا لـــم يكـــن يعـــرف أحـــدًا من طالبان، ورُفض مكان المباحثات من طرف مستشـــارى مسعود رفضًا باتًا ولكنه صمم على مجابهة الخطر، كان مكان المباحـــثات مـــيدان المدينة وأبعد ثلاثة كيلو متر فى عمق مناطق طالبان، وتحـــرك مسعود إلى مكان المباحثات وأثناء العبور من الخط الفاصل أبقوا هـــناك الدكـــتور عـــبد الله عبد الله سكرتيره (وهو الآن وزير الخارجية)، وحينما كان يعبر الخط إلى ساحة طالبان سألوا: ألا توجد بندقية مع أحد؟

ثم أخذوا البندقية من القائد مسلم وتحرك مسعود إلى ساحة المباحثات، وكان طالبان قد اجتمعوا فى ميدان وكانوا يتعجبون لأن العدو هو الذى ألقى بنفســـه فـــى الشـــباك مع نفر محدود، فبدأوا المباحثات وسألهم مسعود فى البداية: ماذا يريدون؟ فقال طالبان: نريد أربعة أشياء:

١- حكومة إسلامية.

٢- تطبيق الشريعة.

٣- تسليم الأسلحة.

٤- إمارة الملا عمر[(١)].

فقال مسعود: الحكومة الإسلامية موجودة الآن، ونحن نؤيد تطبيق الشريعة ولكننا نخالف التفسيرات الشخصية للشريعة.

ونحن نؤيد أيضًا جمع الأسلحة، ولكن الحكومة التى تجمع الأسلحة تكون حكومة منتخبة من الشعب، ولا أقبل أن يكون أمير المؤمنين شخصًا لا أعرفه. وكان طالبان يبتعدون قليلاً عن مسعود للتشاور، ولم يفكروا

---

(١) الملا محمد عمر: كلمة ملا تطلق على العالم الدينى، ومعناها الشيخ والفقيه فى اللغة العربية. والملا محمد عمر من مواليد عام ١٩٥٩م من قرية نَوْده القريبة من مدينة قندهار، من عائلة فقيرة من البشتون الغلزائيين، مات والده وهو فى أوليات شبابه، فذهب إلى قربة سنگسار ليتكسب العيش وأصبح فى هذه القرية إمام أحد المساجد، وبعد ذلك أسس هناك مدرسة دينية صغيرة ثم التحق بالحزب الإسلامى الذى يرأسه الشيخ يونس خالص، وخلال الأعوام ١٩٨٢ - ١٩٩٢م كان يحارب تحت قيادة أحد القادة المحليين ضد التواجد الروسى فى أفغانستان وجرح عدة مرات وفقد عينه اليمنى، والملا محمد عمر لديه أسرة وخمسة من الأبناء. اختير زعيمًا لحركة طالبان لأن الناس كانوا يأتون إليه بشكواهم فى قرية سنگسار، وكان أغلب هذه الشكاوى من بعض قادة المجاهدين وبعضها يتعلق بالاعتداء على الأموال والأعراض، وفى ربيع عام ١٩٩٤م قام الملا محمد عمر مع ثلاثين من أتباعه بالهجوم على أحد مقرات المجاهدين واستولوا على ما بها من الأسلحة وأخضعوا المجاهدين فى هذه المنطقة، وبعد انتشار هذا الخبر كان الناس يأتون إليه لحل مشاكلهم وإنصافهم، وأصبح بعد ذلك من الشخصيات البارزة فى منطقة قندهار وما حولها، وتقدم الأمر بطالبان بعد ذلك حتى تغلبوا على المجاهدين ودخلوا كابل عام ١٩٩٦م (المترجم).

ويدققوا فى أقواله ولكنهم كانوا يتشاورون للقبض عليه.

واتفقوا جميعًا أن يقبضوا على مسعود فلن تسنح لهم فرصة أخرى مثل هـذه وكـانوا يسـتدلون على ذلك بأنهم لو قبضوا على مسعود فإنهم سوف يفتحون كابل بسهولة وسوف تتفرق قواته. وقد فعل طالبان هذا الفعل من قبل مـع آيـة الله مـزارى وكانت النتيجة أن قبضوا على آية الله مزارى زعيم حـزب الوحـدة الإسلامية الذى بعد القبض عليه قتلوه شر قتلة، وأرادوا فى ذلك الوقت أن يكرروا نفس الفعل مع مسعود، ولكن كان من بينهم مجموعة مـن عدة أشخاص تخالف القبض على مسعود ومنهم ملا ربانى معاون الملا عمـر وهـو الذى اشتهر فيما بعد باسم زعيم الجناح المعتدل لطالبان، وهذا صحيح إلى حد بعيد كان ملا ربانى بعد ذلك على صلة بمسعود وكان يقول: إن موت أحمد شاه مسعود تم على أثر مؤامرة بواسطة طالبان.

علـى كـل حـال كان ملا ربانى ضد موضوع القبض على مسعود، وكانـت وجهـة نظره أن القبض على مسعود سيكون سببًا فى إراقة الدماء أكـثر، ولا ينبغى أن يتم ذلك ولكن الآخرين من طالبان كانوا مصرين، ولذا كـان ينـبغى أن يأخذوا الإذن على هذا من الملا عمر، فعادوا إلى مسعود واسـتمروا فيما يظهر فى المباحثات وطالت المباحثات ولم تثمر نتيجة معينة ومسعود لا يدرى شيئًا عما تنطوى عليه نياتهم، ولم يكن يريد أن يرجع إلى أهـل كـابل برسـالة الحرب التى أحنت قامتهم وأثقلت كاهلهم أربعة أعوام متواصـلة تحـت صواريخ حكمت يار. كان يريد الصلح بشدة ولكن أعين طالبان كانت مع مسعود وآذانهم كانت مع أمر الملا عمر ولم يتم التواصل.

وأخيرًا اقترح مسعود أن كلا الطرفين يحول اختياراته ووجهات نظره إلى مجلس علماء يتشكل من أربعين شخصًا ويعملون بكل ما يقرره المجلس،

ومـــرة أخرى استأذن طالبان من مسعود للمشورة فابتعدوا قليلاً ولكن لم يتم اللقـــاء مـــع المـــلا عمر، ولم يكن الملا رباني راضيًا ولم يكن هناك بد من الـــرجوع إلى مسعود والموافقة على اقتراحه، وتشكل مجلس علماء كابل من كـــل جناح عشرون عالمًا وسلم كل فرد اختياراته لهذا المجلس ليفصل فيها بحكـــم الله ورســـوله، وكل شيء سيفصلون فيه سيكون قابلاً للتنفيذ من كلا الطرفين وتقرر عقد المجلس بعد شهر. ثم تفرق الجميع كل عن الآخر ونجا مســـعود بـــروحه من مؤامرة خطيرة، وبذهاب مسعود إلى ساحة العدو وما قدمه من اقتراحات أثبت للناس ولبلاده أنه يريد الصلح.

ومـــر شهر وبدلاً من المجلس نزلت على رؤوس أهل كابل صواريخ عشوائية طائشة، وللمرة الثانية باسم الجهاد ومنفذوها مجاهدون، ويجب أن أذكـــر أن طالبان فى أول حركتهم لقبوا أنفسهم بالطلبة الكرام ولكن بسرعة أطلقـــوا علـــى أنفسهم اسم المجاهدين، ولكنهم وحكمت يار بوعى أو بغير وعـــى كانوا يؤيدون برنامجًا هو: ضرب الإسلام وأفغانستان، فهل وصلوا إلى نتيجة غير ذلك؟

بـــدأ طالـــبان الهجـــوم على كابل ودخلوها بعد عامين من الحملات المتصـــلة والقصف بالصواريخ ورجع مسعود إلى الجبال، وكانت الأعوام مـــن ٩٢ إلى ٩٦ من أقسى الأعوام فى حياة مسعود القائد الأسطورى فى الحـــرب ضـــد الاتحاد السوفييتى، لقد ارتكب مسعود أخطاء كثيرة فى هذه السنوات العجاف، فما أكثر الأعمال التى كان يستطيع أن يعملها ولم يعملها وما أكثر الأمور التى لم يكن يريدها وتمت.

أمـــا الباكســـتان فكانـــت تصل إلى الهدف يومًا بعد يوم وهو العمق الاستراتيجى والحكومة العميلة.

ولإجراء هذا العمل كانت تنفذ الحرب والدبلوماسية بجدارة فقد غَيَّروا الوسطاء الأسماء والعلامات فقط ولم يغيروا المعنى والمحتوى. بالأمس كان الجنرال حميدگل واليوم مولوى فضل الرحمن، فالهيئات أمام والعسكر فى الخلف، القرآن الكريم أمام والسيف فى الخلف، فى كل وقت كان الهجوم يصل إلى طريق مسدود كانت تصل الدبلوماسية لنجدتهم، وكل وقت يبدأ التقدم يختفى الدبلوماسيون وبعد ذلك بدأ المحبون عملية الذهاب والإياب بين الطرفين، ويطول شرح هذا ولكن نية الكثيرين منهم لم تكن صادقة، ومع كل مرة يرتفع نداء الصلح كانت لبيك الأولى تكون من مسعود ولكن مسعودًا أضاع فرصًا كثيرة.

٤ - مسعود والحرية

الحـــرية:

لقد دق مسعود بيرق الحرية على ذرى جبال الهندوكوش، وتحت أقدام هـذا البـيرق سفك دماءه فمسعود هو رمز الحرية. لقد أعطى مسعود عام ٢٠٠٢م لقب البطل القومي وفي نظري كان الأفضل أن يعطى لقب "شهيد الإسلام والحرية"، إن الأشخاص الذين عرفوا مسعودًا عن قرب يعرفون أن هذا اللقب فقط هو الذي يسعد روحه وهذه كانت آماله وأمنياته، كان مسعود مـرآة تنعكس عليها الحرية بكل معانيها، إنني أحب الحرية والتحرر كثيرًا ومـن الجائـز أن يكون لهذا أسبابه، وهو أنني ولدت يوم تحرر أفغانستان المـيمون فـي ٢٨ أسد (١٩ أغسطس) وقد أخذت تفسير ذلك من مسعود، وكـل شـخص عندما يجلس مع مسعود يدرك في شخصيته أمرين مهمين لأول وهلة هو : الآداب، الحرية.

فـروحه إزاء هذه الظاهرة كانت حساسة ولن أستطيع أن أحتوى هذا فـي كلمات، ولكن إذا حاول شخص ولو عن طريق المزاح أن يتناول هذا المحرم المقدس مغرضًا كان يظهر رد فعل عنيف في التو واللحظة، وكأن الحـرية شبيهة بغزال بري احتضنه مسعود بصعوبة، وأي إهمال لهروب هذا الكائن الطاهر الجميل في صحراء مترامية كان يسبب له مشكلة.

ومسعود من بداية أيام الجهاد بدأ يبذل الغالي والثمين في سبيل الحرية وكانت أولى المشاكل بين باكستان ومسعود في جميع فترات حياته أنه أراد عـدة مـرات أن يحـل مشكلته مع الباكستان عن طريق المباحثات، ولكن الهيـئات الاسـتخبارتية للباكستان كانت تحول دون ذلك، حتى إن زعماء الباكستان لم يوفقوا حتى الآن أن يخرجوا سياسة أفغانستان والباكستان من

أيـــدى العســـكريين، لقد سعت بى نظير بوتو ونواز شريف أثناء رئاستهما للـــوزراء فى هذا الشأن ولكن لم يحالفهما التوفيق، ففى الواقع أن جنرالات الباكســـتان وهم الإداريون الأصليون للبلاد يغلظون على كل حكومة تستقر فى إسلام آباد إذا كانت هذه الحكومات تساند قضيتى كشمير وأفغانستان.

وكـــان مسعود فى كل مرة يريد أن يحل مشاكله مع الباكستان كانت تظهر رؤوس جنرالات الباكستان، وحينما كان مسعود يبدأ فى العتاب يكون الجواب واحدًا دائمًا وهو: "إن الحق بجانبكم بالكامل فتعالوا ننسى الماضى ونفـــتح صفحة جديدة فى العلاقات" وعلى هذا الأساس يكون التوافق ولكن عمليًا يظل الحال كما هو، إننى كنت شاهدًا على هذه اللقاءات بهذا المحتوى وهذه النتيجة أربع مرات على الأقل، المضحك أنه حتى الآن يستخدم نفس التكتيك حتى نفس العبارات.

أذكـــر حيـــنما تقرر أن يكون المرحوم عبد الرحيم غفور زَىْ رئيسًا للـــوزراء فـــى عـــام ١٩٩٥م سأله مسعود: "ماذا تفكر فى ساحة السياسة الخارجـــية" فقـــال عبد الغفور: إن لدى نظريات سوف أخبرك بها، ولكنى أريـــد قبل ذلك أن أسمع منك أى الأعمال تعطى الأولوية؟ فقال مسعود: إذا أردت أن تحـــل مشـــكلتنا مـــع الباكســـتان تكـــون قد أسديت أجل خدمة لأفغانستان. فقال غفور زَىْ: لقد عاهدت الله أن أوقف حياتى لخدمة بلادى وأعـــدك أنـــنى لـــن أدخر وسعًا فى سبيل ذلك، ولكن من جانبنا هل يوجد اقتراح معين فقال مسعود: قل للباكستانيين إن حل المشكلة بيننا وبينكم من صـــلاحية هذه الدولة ولتخرج أى دولة أخرى، فقط يستطيع برلمان منتخب بواسطة شعب أفغانستان أن يحل المشاكل.

وأســـتطيع أن أعدك فأقدم هذا الطرح إلى البرلمان وأساند وأعضد أن

كـــل مشكلة مع الباكستان يجب أن تحل سلميًا، وفى نظرى أن قول مسعود مـــن الممكـــن أن يكون أساسًا استراتيجيًا لحل معضلة أفغانستان وباكستان ويكون سياسة تعتنقها الباكستان.

ولكـــن اســـتخبارات الباكستان ISI من عام ١٩٧٥م كانت تفكر فى القضـــاء على مسعود وقد مر شرح ذلك، وفى التاسع من سبتمبر ٢٠٠١م يعنى بعد خمسة وعشرين عامًا وفقت فى قتله.

من مذكراته:

" أنـــا لـــم أدع الزعامة يومًا ولن أدعيها، ولكننى أطلب سلطات فى العمل فى سبيل تطبيق أفكارى ومشروعاتى دائمًا، وأنا لا أستطيع ولا أريد أبدًا أن أعمل عملاً أعرف أنه خطأ أو غير صواب ولا أقدم على فعل أمر تكون غايته هى إسعاد أو أمر أحمد ومحمود".

فـــى هـــذا الحديث يأخذ مسعود فى الاعتبار أحمد ومحمود – ويقصد بهمـــا الباكســـتان وزعماء المجاهدين فى پيشاور – لأن باكستان وزعماء المجاهديـــن كانوا حجرة عثرة فى سبيل تحقيق أهداف مسعود لأن مسعودًا يكتب فى مكان آخر.

"مـــنذ مدة طويلة قبل ذلك كنت أريد أن أظفر بساحة من أجل العمل حتى أستطيع فيها بصورة مستقلة أن أفعل شيئًا لخير وصلاح النهضة التى أومن بها، وهذا الأمر كان غير ممكن فى نظر الزعماء".

وعلـــى طول فترة الجهاد استمرت ضغوط باكستان على مسعود، ومع أن پنجشير كانت أعنف ساحة للقتال ضد القوات السوفييتية فقد كانت تحصل علـــى أقل الأسلحة والمهمات، وفى الحقيقة كان مسعود بالنسبة للباكستانيين يقـــع تحت طائلة المحرمات، ولذلك لم يكونوا يؤيدون تقوية هذه الجبهة وإن

أطـــال الله فى عمرى ووفقنى الله سوف أكتب فى هذا الشأن كتابًا آخر. فقط أريـــد أن أقـــول هنا: إن مسعودًا طوال خمسة وعشرين عامًا من الحرب لم يوفـــق أن يعطى مرتبًا لرجاله ستة أشهر على مدار العام، وكانوا يضغطون علـــيه دائمًا بالفقر والعوز فى كل ساحة، ولكنه كان مقاومًا عنيفًا وصبورًا، وكان يدرك تمامًا أن ثمن الحرية غالٍ وعظيم.

لقـــد هب مسعود للدفاع عن بلاده فى أشد الفترات اضطرابًا فى تاريخ أفغانســـتان، ولم يحدث فى أى فترة من فترات التاريخ فى أفغانستان أن وقع عليها مثل هذا الظلم أو حدث لها مثل هذا التدخل فى شئونها، ولم يحدث فى أى فـــترة من فترات التاريخ أن يظلم الأفغانُ الأفغانَ. ألم يكن الجيش الذى كان يصاحب القوات السوفييتية ويحارب ضد الشعب من الأفغان ؟ وألم تكن أكـــثر قـــوات طالـــبان من الأفغان؟ لقد نهض طالبان باسم الصلح ورفعوا الأعلام البيضاء ولكنهم تركوا العار والشنار على جبهة تاريخ أفغانستان.

فهم باسم الجهاد جمعوا الجبناء من أقاصى العالم وأدخلوهم إلى البلاد، وقتلوا شعبهم بواسطتهم تحت هذا الاسم أو ذاك، وقالوا إن الإسلام لا يعرف الحدود؛ فهل طالب الإسلام لا يعرف حدود المنزل والبستان والفناء والأرض وتقاليد الناس؟

ولهـــذه الأســـباب قال مسعود: إذا كنت قد حاربت بالأمس دفاعًا عن البلاد ضد الجيش الأحمر، أما اليوم فأنا أحارب من أجل الدفاع عن بلادى ضد الجيش الأسود.

وفـــى أعنف معاركه ضد الجيش الأسود كان ينفض الذين حوله يومًا بعـــد يوم: العلماء، الساسة والعارفون بالسياسة وذوو النهى وأولو الألباب وعلمـــاء العـــالم الإســـلامى، والمـــنادون بالصـــلح والسلام، والوسطاء،

والمدافعـــون عـــن حقوق الإنسان، وهيئة الأمم المتحدة والهيئات الداخلية والقـــادة المشهورون المعروفون، وحتى عدد من أصدقائه المقربين تركوه وحـــده فى خندق الحرب ضد هذا الجيش الأسود، ولكنه رفع بيرق الحرية علـــى قمـــم جبال الهندوكش ليرى شعبه أن مسعودًا لن يتركه وحيدًا. وفى جملة قصيرة كان مسعود مسلمًا نصيرًا للحرية ومحبًا لها.

أخطاء مسعود:

كانـــت أحـــد الصفات الحسنة لمسعود هى الاعتراف بالخطأ فقد كان يملـــك الحد الأعلى للشجاعة فى هذا الموضوع، ولم يكن يشعر بأى خجل عن تكرار بيان الخطأ فى اجتماعاته الصغيرة والكبيرة، وعلى العكس كان يـــريد بهذا العمل أن يخيف نفسه والآخرين بأننا لن نكرر هذا الخطأ. فهذا الجـــزء من حياته جدير أن يتعلمه الكثيرون لأن الاعتراف بالخطأ بالنسبة للشـــخص الذى يريد أن يصل إلى الصواب يساعده أن يصل إلى مقصده، وعـــلاوة على أنها تمنح شخصية الإنسان الكمال فإنها تنقص من التأثيرات السلبية للمخطئ والآخرين، وتمنع من تكراره.

ففـــى هذا الجزء أشير إلى بعض أخطاء مسعود التى اعترف هو بها، والبعض الاخر الذى كان من وجهة نظرى خطأ طبعًا سوف أوضح فى كل مكان فى هذا الجزء أخطاء مسعود التى كان يعترف بها، أما باقى وجهات النظر فهى لى، وطبعًا أنا لا أدعى أنها كلها صحيحة.

ولكـــى نفهم جيدًا موضوع أخطاء مسعود فسوف أستقصى حياته فى ثـــلاث فـــترات، وفى نظرى أن الذين قسموا حياة مسعود إلى ثلاث فترات عملوا عملاً جيدًا فى موضعه.

مراحل حياة مسعود الثلاث

وهى ..

فترة النضال والجهاد (١٩٧٢ - ١٩٩١م).

فترة الانتصار (١٩٩١ - ١٩٩٦م).

فترة المقاومة (١٩٩٦ - ٢٠٠١م).

إننى أريد هنا أن أمر على مراحل حياة مسعود الثلاث، وسوف أركز فى هذا المجال على أخطائه لأنها جديرة جدًا بالتعلم لأنها تلقن دروسًا مهمة، ولما كان مقصدى من هذا الكتاب هو التعريف بشخصيته لذا سوف أتحدث حديثًا موجزًا عن سجل أعماله ليس لأنها غير مهمة ولكن لأننى سوف أسجل عنها كتابًا على حده إن شاء الله.

الفترة الأولى فى حياة مسعود:

يجب الانتباه إلى أنه فى بداية جهاد مسعود والذى كان من خلال الزعامات الموجودة فى الباكستان لم يكن فيها شيئًا مهمًا، وبناءً على هذا فإن أعقل ما يتخذه أن يفعل من أول لحظة ممكنة لعمل مستقل وينجح فى هذا الأمر.

ويكتب هو فى هذا الشأن:

"فى الأعوام الأولى للنضال كنت أحس بفراغ فى الزعامة فى الجمعية (لا يقصد الزعيم لأن الأستاذ برهان الدين ربانى كان موجودًا) كنت ألاحظ أن عظماءنا يخطئون كثيرًا، ولكن ما هو الحل لم أكن أمتلك علمًا وقدرة وسلطة بصورة كافية فى أن نوجد تغييرًا فى أسلوب العمل، ثم يكتب بعد شرح التغيرات والتقسيم فى الجمعية.

المهندس گلبدين الذى كان يريد شخصيًا أن ينفصل عن الأستاذ أسس الحزب الإسلامى بمساعدة وتشجيع الباكستانيين، وبقى مسعود كما سبق وأوضحنا ينتظر الفرصة ليبدأ عملاً مستقلاً، وجاء الانقلاب الشيوعى الأفغانى عام ١٩٧٨م فتيسرت له هذه الفرصة فودع الباكستان إلى الأبد وقدم إلى مسقط رأسه پنجشير ويكتب هو فى هذا الشأن: "لقد لطف الله سبحانه وتعالى ففى عام ١٣٥٨هـ ش = ١٩٧٨م دخلت إلى أفغانستان وبدأت العمل بشكل مستقل، ولما حسنت نيتى وخلصت هدانى الله سبحانه وتعالى ووفقنى كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ وأدركت أن أعرف الطريق من البداية فوجدت أن المشى السليم أن أسير فى طريق الجهاد المسلح، ومع إدراك عدم وجود برنامج فى الهيئة التى ينتمى إليها صمم تصميمًا معقولاً وهو أن يعمل مستقلاً ولكن يجب أن توضع هذه النقطة فى الاعتبار وهى أن العمل المستقل لمسعود لم يكن الانفصال عن الجمعية مثل حكمت يار، ولكنه كان استقلالاً فى اتخاذ القرار ويتعلق بالسير قدمًا فى الحرب وإدارة الناس.

وفى هذه الفترة لم يرتكب مسعود أخطاءً ملحوظة، ووفق فى أن يقود حربًا غير متكافئة مقابل السوفييت وخرج منها مكللاً بالنصر والفخار، ومرَّ من جميع الصعوبات العسكرية بتوفيق ومهارة، واكتسب شهرة عالمية بأنه القـــائد المظفر والمغوار، ومع بداية خروج القوات السوفييتية من أفغانستان فى ديسمبر ١٩٨٩م[1] برزت أوضاع جديدة ويكتب مسعود فى هذا الشأن:

"وأمـــا الآن فقد أتت مرحلة جديدة فالروس سيخرجون من أفغانستان وبعد ذلك سيبقى المجاهدون والشيوعيون الأفغان بمفردهم وكلاهما أفغان"،

---

(١) القوات السوفييتية خرجت من أفغانستان فى فبراير ١٩٨٩م. (المترجم)

وأحـد أطـراف القضية هى أن مسعودًا كان قلقًا من الاستمرار فى إراقة الدمـاء، وفى أعماله التى أتت بعد ذلك ما يدل أنه لم ينتقم من الشيوعيين وقـدم إلـى كـابل دون إراقة الدماء ولكن سفك الدماء استمر بشكل آخر. وعلـى الجانب الآخر للقضية كانت هناك هيئة الأمم المتحدة فهى الأخرى مـن أجـل عدم إراقة الدماء وانتقال السلطة سلميًا طرحت حكومة ائتلافية تتكون من جميع القوات الموجودة بما فيها الشيوعيين غير المعروفين، وفى هـذا الشـأن أسرع المبعوث الخاص لأمين عام هيئة الأمم المتحدة بينين سـيوان فـى عمله من أجل أفغانستان، إلى درجة أنه هدد بأن القطار فى تحـرك وكل من سيتأخر سيبقى، وطبعًا هذا الإخطار كان موجهًا للأستاذ ربـانى الذى بناءً على طلب مسعود أعطى أسماء عدة وزراء فى الوزارة وكـان يؤجلهـم اليوم أو غدًا؛ لأن مسعودًا طمأن الأستاذ ربانى بأن كابل سوف تستسلم.

فهـدأ الأسـتاذ ربـانى ولكن تحت ضغط ولم يكن تحَمُّل هذا سهلاً فالأسـتاذ ربـانى فى رسالته التى كتبت بتاريخ ١٩٩١/٧/٢٥م يعنى قبل تسـعة أشـهر مـن سقوط كابل (٢٨ إبريل ١٩٩٢م) بواسطة المجاهدين أوضح الأوضاع السياسية لمسعود كما يلى:

أخى المهندس مسعود حفظه الله ورعاه:

آمل أن تكون مع كافة الإخوة المجاهدين فى كنف الله ولطفه ورعايته فهـو نعم القدير القادر على كل شيء. أبارك لك أنت والإخوة مرة أخرى النصـر المـؤزر والفتح المبين. خلال محادثة تلفونية كنت قد تحدثت عن الوضـع السياسـى وأذكـرك مـرة أخرى أن كل البلاد الإسلامية وغير الإسلامية كما تعرفون راغبة فى إنهاء الحرب وحل القضية على أساس ما

طرحــته هيئة الأمم المتحدة؛ لأنهم يظنون أن المسألة لن تحل بطريق آخر غــير الطــريق العســكرى، فإن بقاء نجيب بعد خروج القوات الروسية، وهجــوم القــوات المأجورة على بعض الأماكن هو دليل على قوته وحتى هــؤلاء ومــنهم العسكريون فى الباكستان كانوا يؤيدون الحل العسكرى ثم يظهــرون أخيرًا هذه التساؤلات ماذا يكون بعد التغيير الجذرى فى حزب خلق إلى الاتجاه الإسلامى؟ أعطوهم الحق لتشملهم الانتخابات، أكرم زكى وزيــر خارجــية الباكســتان كــان يقول: "باكستان هى التى ظلت تحمى المجاهديــن ونحن بعد ذلك غير قادرين على الاستمرار فى هذه السياسة"، وفى نهاية الرسالة يقترح الأستاذ ربانى مبادرة سرية تبلور فكره: على كل حال وجهة نظرى فى الوقت الذى يجب أن نهتم فيه بالأعمال العسكرية لا يجب أن نترك النشاط السياسى دون اهتمام أيضًا.

وأخــيرًا استســلمت كابل ولكن نصفها لحكمت يار والنصف الآخر لمسعود وحينئذ بدأت الحرب بين القوتين، وكان خطأ مسعود فى هذا أنه لم يعــط اهــتمامًا للأمم المتحدة أو للطرح الذى تقدمت به، وحقيقة إن طرح حكومــة ائتلافــية مع الشيوعيين لم يكن عمليًا. وفى الوقت الذى كانت فيه قــوات مســعود قد وصلت إلى أبواب كابل طلب مسعود من الزعماء أن يشكلوا حكومة تسيطر على كابل، ولم يكن فى تشكيل هذه الحكومة أى دور للأمم المتحدة، وكانت النتيجة أن تضايقت الأمم المتحدة ولكنها لم تظهر هذا وكــان هــذا أول إنزواء سياسى لحكومة إسلامية وليدة، وعلى العكس كان دور الباكســتان فــى تشكيل الحكومة الجديدة أكثر من هيئة الأمم المتحدة عشر مرات.

الخطأ الثانى لمسعود والذى كان يكرر ذكره دائمًا هو عدم توقع عمق

تدخـــل الباكســـتان، وكان يقول: لم أكن أفكر أبدًا أن باكستان إلى هذا الحد تسند حكمت يار للوصول إلى السلطة.

وكـــان الخطأ الثالث لمسعود هو عدم تقسيم السلطة مع الذين اتحدوا معه، وحنيما شكلت الدولة الإسلامية عام ١٩٩٢م فضل حكمت يار الخلاف والنزاع ودخل من باب الحرب لكنه كان وحيدًا فى هذا الموقف، أو بعبارة أخـــرى: تسبب حكمت يار بهذا الموقف فى تشويه سمعة منظمته وسمعته هو، وهذا الأمر كان لصالح أحمد شاه مسعود.

وظل حكمت يار سنوات يلقى فى آذان أتباعه مفاهيم فارغة من زمن بعـــيد بـــأن الحـــزب الإسلامى فقط هو الذى يستطيع أن يشكل حكومة فى أفغانستان وانتصار حكمت يار دون شك كان يعتبر انتصارًا للمتطرفين فى أفغانستان، وهذا النوع من التفكير لا يوجد إلا عدد محدود من المروجين له فى أفغانستان.

وفـــى مـــثل هـــذه الأوضـــاع بدأ حكمت يار الحرب على الحكومة الإســـلامية الشرعية لأسباب ضعيفة واهية، وهذا الأمر كان لن ينتهى إلا بإضعافه. واشتبك مسعود مع حلفائه فى داخل مدينة كابل، ومع أن مسعودًا كـــان محقًا فى الاشتباك معهم إلى حد فيجب ألا ننسى نقطة مهمة وهى أنه لم يوجد أحد من حلفائه الذين اشتبكوا معه عاداه مثل حكمت يار.

كـــان تقسيم السلطة يزيد من هزيمة حكمت يار، وكانت هزيمته سببًا فى تقوية مسعود. ولم يسئ مسعود النية بالنسبة لحلفائه، وكانت نظريته فى إدارة الـــبلاد هـــى أن واحدًا هو الذى يجب أن يقول الكلمة الأخيرة، وبناءً علـــى هذا يجب أن تكون هيئة هى رأس الحربة ويتبعها الآخرون، بعبارة أخـــرى: إن مســـعودًا لم يكن مستبدًا ولكنه صاحب سلطة، فى الوقت الذى

كـــان النظام السلطوى يؤدى إلى التهميش والوحدة والمناوشات والصدامات فـــى جـــبهات عديدة، فهل الأوضاع آنذاك كانت تسمح بقيام أعمال كهذه؟ الأحـــداث الأخيرة تثبت عكس ذلك. وبعبارة أخرى: إن مسعودًا الذى كان يذكرنا دائمًا بوصية بسمارك رئيس وزراء ألمانيا وأن الإنسان لا يجب أن يحارب فى جبهتين ها هو الآن يحارب فى أكثر من جبهة.

ففـــى داخل أفغانستان كان يحارب الحزب الإسلامى (الزعيم حكمت يـــار) وحزب الوحدة الإسلامية (الزعيم آية الله مزارى)، والحركة القومية (الزعيم دوستم) وحركة طالبان (الزعيم الملا عمر)، على مستوى المنطقة كان ضد الباكستان وإيران وأزبكستان وتاجيسكتان، وعلى المستوى الدولى كـــان يحـــارب قبل ذلك الاتحاد السوفييتى وبعد ذلك أمريكا وطبعًا وجهة نظرى عن الاشتباك هنا فى الداخل يعنى الحرب، أما فى الخارج فلا توجد علاقـــات مباشرة خصوصًا مع الدول التى كانت مهتمة بقضية أفغانستان، مـــثلاً علاقـــات مســـعود مع إيران كانت ظاهرًا من أجل حمايتهم لحزب الوحـــدة، ومـــع أزبكستان من أجل حمايتهم لدوستم ومع تاجيسكتان بسبب حمايـــته لأعـــداء حكومـــة تاجيكســـتان، ومع روسيا لأنها وريثة الاتحاد الســـوفييتى ولم يستطع أن يسلم هذا كله للنسيان مرة واحدة، وكانت علاقته مع أمريكا على سطح عميق وبارد لأنها أسلمت قضية أفغانستان للنسيان.

والدولـــة الإســـلامية الولـــيدة الـــتى كـــان يحكم فيها مسعود بكل هذه الاشـــتباكات كانت ثلث كابل وثلث الشمال وثلث أفغانستان، ومن الجائز أن أمل الانتصار على كل هذه الجبهات كان يعتمل فى نفسه أى أنه مع كل هذه المشاكل لم يكن ييأس أبدًا.

مـــن ناحـــية المـــنطق العسكرى والسياسى. هذه الدولة محكوم عليها

بالهــزيمة ولكــن أحد الابتكارات الجديرة بمدح مسعود هى أنه كان يعطى هــزائمه فـــى أكــثر الأوقات لون الانسحاب، فيقلل من الحالات الطارئة، والتأثــيرات الســلبية علـــى نفسية رجاله وبذلك يستطيع تجديد قواهم مرة أخرى.

على كل حال كان خطأ مسعود الرابع أنه كان من النواحى العسكرية يحــارب فـــى عدة جبهات، ومع ظهور طالبان وتقدمهم السريع إلى أبواب كــابل فــإن أكــثر الدول التى ذكرناها بدأت فى حماية مسعود ولكن هذه الحمايـــة كانـــت بدون مقدمات وكانت متعجلة ولم تستطع أن تمنع سقوط كابل، وكانت النتيجة أن مسعودًا فى فترة جهاده الثانية (١٩٩٢ – ١٩٩٦م) أعطى للعلاقات الخارجية أهمية قليلة وكان هذا هو الخطأ الخامس.

هزم مسعود ودخلت كابل تحت حكم طالبان، وتجدد سفك الدماء الذى بــدأ من كابل واستمر حتى نيويورك ولا يزال مستمرًا، ولا يعرف إنسان غير الله سبحانه وتعالى إلى متى سوف يستمر.

وارتكـــب مســـعود أثناء جهاده عدة أخطاء أخرى: أحد هذه الأخطاء إلغـــاء مجلس شورى النظار، وكان مسعود يدرك أن هذا الإجراء هو أحد الأخطاء، والسبب فى ذلك أنه من بداية تأسيس مجلس شورى النظار وكان اســتقباله فـــى داخـــل الجمعية وخارجها بأنه حزب جديد بزعامة مسعود. وأطلقت هذه الدعاية داخل الجمعية بواسطة أعداء مسعود ومنافسيه، وطبعًا كان الأستاذ ربانى ينصت لهذا الكلام، ولكن عمليًا لم يظهر أى رد فعل من جانبه، وللإنصاف يجب أن نقول: إن الأستاذ تحمل كثيرًا، وفى كابل وُوجه مسعود بهذا السؤال: إذا كان سبب تأسيس مجلس شورى النظار فى زمان الجهـــاد بســـبب بُعْد الزعماء؛ الآن ما هو سبب وجوده؟ ومن ناحية أخرى

وعلـــى أثر الاشتباكات والحروب الداخلية لم يكن للمجلس ذلك الوجه الذى كـــان له أثـــناء فترة الجهاد، وبناءً على ذلك أقدم مسعود على إلغائه لحفظ الوحـــدة وإثـــبات حســـن نيته، ولكن نتيجة هذا العمل لم تكن إيجابية لأن مســـعودًا وُوجه بفقدان هيئة، أو من الأفضل أن أقول مجلسًا ولو أننى أشك أن هدف مسعود من تشكيل مجلس شورى النظار كان تأسيس هيئة سياسية. فـــى نظرى إن الخطأ الآخر لمسعود كان فى شكل الإدارة، فقد كان يطلب سلطات تضاهى سلطات رئيس الجمهورية دون أن يرغب أن يكون رئيسًا للجمهوريـــة، كان صاحب دعوى فى الأهلية والكفاءة والصلاحية للزعامة دون إرادة منه أن يكون زعيمًا كما مر آنفًا بخط يده وهذا غير ممكن.

أحـــد أخطـــاء مسعود فى هذه الفترة هو ثقة مسعود فى معاونيه دون رقابـــة. ففى هذه الفترة انحرف عدد من رفاق مسعود المقربين عن الخط الـــذى رســـمه لهـــم، وأطلق مسعود على هذا ضعف معنويات، أو بعبارة أخـــرى: بـــدأ يتشـــكل خلف جبهات القتال نوع من الأرستقراطية وطبقة الأشـــراف وهـــذا ناشئ من الناحية السيكولوجية من عقدة النقص للبعض اجتماعـــيًا واقتصـــاديًا، ولم يكن يتناسب مع أوضاعنا الحربية المضطربة بالإضـــافة إلـــى مـــا تســـبب عنه انهيار ويأس وقنوط لدى المجاهدين فى الخـــنادق. ولكـــن على كل حال وقعت هذه الأخطاء وبدلاً من أن يمنع من اتســـاعها بالأمر والفرمان والعقاب اكتفى بالتوصية وأقصى شيء التنبيه، ويجـــب أن أضـــيف هذه النقطة التى لا يلام فيها مسعود: إنه أثناء دخول قواتـــنا إلى كابل كان تعداد قواتنا المنظمة أقل من الشروط المطلوبة؛ لأن القـــوات المنظمة ذهبت إلى خطوط الحرب من أجل الحرب، ولذلك أصبح أمـــن المدينة والحفاظ على مؤسسات الدولة وغير ذلك على عاتق عدد من

المجاهدين الجدد الذين جمعوهم من الشوارع والحوارى، ونحن الذين أتينا من جبهات الحرب إلى المدينة كانوا يوقفوننا أحيانًا ويسألوننا: هل أنت مجاهد؟

فى نظرى أن ضعف المعنويات يتعلق أكثر بكل شخص، فكيف يمكن للزعيم أن يراقب كل فرد حتى لا يخطئ؟ إن مسئولية الزعيم فى نظرى هى إيجاد الجو المناسب من أجل الترشيد الأخلاقى للمجتمع والمحافظة عليه، وفى النهاية يكون العقاب القانونى للمخالفين. واختيار الطريق يرتبط بالشخص ذاته.

الفترة الثانية من حياة مسعود:

الفترة الثانية فى حياة مسعود السياسية (١٩٩١ - ١٩٩٦م) مملوءة بالأحداث الكبيرة التى تعطى الدروس والعبر، ففى هذه الفترة كان مسعود كما هى عادته يعمل بكل طاقته، ولكنه كان يعمل لكى تحل أى واحدة من هذه المشاكل:

حرب الأفغان ضد الأفغان، نهب أموال الناس والملكيات العامة، هجرة من لا مؤهلات لديهم من الناس وأكثرهم فقرًا وأقلهم بضاعة، تشكيل حكومات صغيرة على كاهل أمة جريحة، عدم أمن الطرق، الإغارة على أموال المسافرين، كساد السوق والتجارة، غلاء الأسعار، ازدياد العاطلين والمجرمين، إغلاق المدارس والمؤسسات التعليمية، التدخل الخارجى.

وأكثر أخطاء مسعود فى هذه الفترة فى نظرى هو أنه كان على خلاف ما مضى، لأنه فى القرارات المهمة لم يعمل برأى أصدقائه وزملائه بل لم يستشر أصلاً.

ويجب أن أضيف هذه النقطة المهمة وهى أنه كانت تحدث أمور كان

المجلـــس يعطى الصلاحية لمسعود ليعمل برأيه وأحيانًا كانت الظروف هى الـــتى تحكـــم أن يعمـــل مسعود برأيه وبعد ذلك يطلع المجلس، وهذا أمر طبيعى لأن الزعماء فى الواقع كما نقول بالاصطلاح هم أناس أطول رأسًا ورقـــبة من الآخرين ولذلك يصيرون زعماء هم أحيانًا يستخدمون فراستهم ولكن نقد مسعود هنا له جانب آخر وهو أن مسعودًا كان قلَّما يهتم بتنبيهات المجلس.

وهـــنا أرى أن أذكر مثالاً وسيكون كافيًا: منذ أن اتحد الذين كانوا مع مســـعود مـــثل حـــزب الوحدة والحركة الإسلامية مع حكمت يار سرت فى صـــفوف مســـعود هذه النظرية وهى أن يجاب هؤلاء إلى طلبهم فى العودة، ويعـــودون إلـــى صـــفوف الدولة مع مسعود، وواضح أنهم كانوا يلحون فى طلـــبهم. واتفق أعضاء مجلس شورى النظار الذى انحل وكان موجودًا عمليًا علـــى أن يبعدوا حزب الوحدة والحركة إلى الخلف ٣٥ كيلو متر بأى تكلفة كانت، وبذلك يبعدون كابل عن مرمى الصواريخ الطائشة التى كانت تطلقها طالـــبان بدلاً من حكمت يار، ومع ظهور الوضع الجديد صمم عدد من القادة وأعضـــاء المجلـــس أن يعقدوا جلسة وطلبوا من مسعود أن يعيد الذين كانوا متحديـــن معـــه قبل ذلك إلى صفوفه، ويجب أن أذكر أن هذا كان فى الوقت الذى وصلت فيه طالبان إلى أبواب كابل من جناحين: الغرب والجنوب.

وهزمـــت طالبان القوات الثلاثة المخالفة والمعادية لمسعود والمرتبطة بحكمت يار مزارى ودوستم فى أطراف كابل، وأصبحت تشتبك مع مسعود فقط وفى مثل هذا الجو تمت عملية الطواحين الأربعة (چهار آسياب) وهزم طالـــبان شـــر هـــزيمة، وبهزيمة طالبان صمم أعضاء المجلس والقادة أن يطلبوا من مسعود أن يصالح الذين اتحدوا سابقًا معه قبل ذلك؛ لأن أعضاء

المجلــس كــانوا على يقين أن مسعودًا لم يعطهم الموافقة على طلبهم لأن موقفــه كان ضعيفًا، أما الآن فهو وحده وبدون الذين اتحدوا معه قبل ذلك اســتطاع أن يجعل طالبان تتقهقر حتى لوگر[١] فلا يوجد إذن دليل على رد اقــتراحهم. واقــتراح المجلس على مسعود أن يعيد الذين اتحدوا معه إلى الصفوف كان مبنيًا على منطق قوى، وهو أننا لن نستطيع وحدنا أن ندافع عــن كابل، وفى هذا الموضوع كان هناك شخص واحد يخالف وكان هذا الشخص هو مسعود نفسه.

وطلــبوا مــنه فــى جلسات المجلس مرات ومرات أن يجد حلاً لهذه المشكلة ولكن من الواضح أن مسعودًا كان يسوف فى الموضوع، وفى عام ١٩٩٥م وكنــت مســئولاً عن جبهة جنوب كابل ووفقت، ولكن طالبان فى ذلــك الوقت كانت قد وصلت إلى أبواب كابل، وتقرر أن تتم جلسة فى مقر عمــل رئيس پنجشير محمود خان فى باغ بالا[٢]. وكان القرار أن يتحدث كاتب هذا الكتاب عن جانب القادة لأن كاتب هذا الكتاب كان يؤكد أكثر من الجمــيع علــى هذه النظرية، وجاء يوم الجلسة ولم أستطع الاشتراك فيها بسبب الحرب فى الجبهة غرب كابل.

ولكــن القــادة نقلــوا إلىَّ وقائع الجلسة. وبدأ مسعود الجلسة كعادته فوضح الأوضاع الداخلية والخارجية للبلاد من وجهات النظر المختلفة، ثم شــرح الــبرامج الــتى تلى ذلك، ثم ذكر المباحثات مع الحزب الإسلامى لحكمــت يــار والتى قام بها عبد العلى دانشيار وعدد آخر، أما بخصوص

---

(١) لوگر: مدينة تبعد عن كابل بحوالى سبعين كيلو مترًا (المترجم).

(٢) بــاغ بالا: ومعناها الحديقة العلوية، وهى من الأماكن ذات الطبيعة الخلابة المشهورة فى كابل. (المترجم)

المباحـــثات مع الحركة الإسلامية قال: لقد أرسل الجنرال دوستم والده إليَّ في جبل السراج ليجلس معنا جميعًا، ولكنني رفضت هذا رفضًا قاطعًا.

فقال القادة: إننا بعد توضيحاته هذه لم نجد ما يلزم في أن نُصر على اقتراحاتنا أو نؤكد عليها، وعمليًا صار الوضع هكذا: لم تتم أى صورة من القــرب مــع المتحديــن الســابقين الذين يملكون حتى الآن الساحة والقوة العســكرية، وتــم الاتفاق مع حكمت يار المهزوم ودخل إلى كابل بصفته رئيسًا لوزراء البلاد.

ولــم يمــض علــى رئاسة وزارة حكمت يار وقت طويل حتى شنت طالــبان حملة من شرق كابل، وتركت قوات حكمت يار المناطق لطالبان قدمًا بقدم وشبرًا بشبر، وتناغم مع طالبان عدد من أكثر قواته ثقة مثل القائد قلــم والقــائد چمن في سروبى (على بعد ستين كيلو شرق كابل) وطعنوا قواتنا من الخلف بالخنجر وتوفى أحد أحسن قوادنا مع كل رجاله بيد فلذات أكباد حكمت يار، أما القائد زرداد الجلاد الآخر لحكمت يار فقد عمل معنا برجولة وشجاعة واشترك في الحرب مع قواتنا ضد طالبان. وهو الآن في لندن يلاقى جزاء ما فعله سابقًا، أما عن مئات الأسئلة الموجهة إليه فأحدها: كــيف كان يرمى بالآدميين الأحياء للكلاب المتوحشة ليتقاضى من هؤلاء المساكين الأموال والنقود؟

ومــن الجائــز ألا تصــدق أن قوات طالبان حينما اقتربت من ناحية سروبى التى كانت تحت سيطرة حكمت يار طلب مسعود أماكن من حكمت يار وهو رئيس الوزراء، وطبقًا للمعلومات الموثوق بها أن عددًا من قواده عقــدوا معــاهدة تعــاون مع طالبان، ورضى حكمت يار وأمر قواده في الظاهر أن يعطوا أماكنهم لنا ولكن كان كما كانت هى عادته دائمًا.

وأذكـــر جيدًا أن قومندان نجيم خان فى مكالمة مع مسعود أخبره أنهم لم يأذنوا لنا حتى نعطيكم أماكننا، فرد مسعود: هذا اليوم طمأننى حكمت يار مرة أخرى أنه أذن لهم أن يفعلوا هذا، ودامت هذه المحادثات عدة أيام حتى استولت طالبان على سروبى كما ذكرت باختصار وفتحت بوابة كابل.

وقصدى من ذكر هذه الموضوعات هو أن مسعودًا كان يجب أن يتحد مع الحركة وحزب الوحدة فقد كان لديهم قوة عسكرية، ولا يتحد مع حكمت يار الذى صار ثقلاً على الكاهل.

الفترة الثالثة فى حياة مسعود (١٩٩٦ – ٢٠٠١م)

ومـــع احتلال كابل بواسطة طالبان عام ١٩٩٦م بدأت صفحة جديدة مـــن الجهاد والكفاح. وتعبت كثير من الدول الغربية من أوضاع أفغانستان وأغلقت القلوب إلى هذا الطريق، فإن الحديث مع حكومة واحدة متحدة ولو كانـــت ديكتاتورية أفضل بكثير من الحديث مع مئات الجماعات، فقد كانوا يـــأملون بعـــد انتصار طالبان واستقرار العلاقات معهم أن يعمل هذا على الاحـــترام المتـــبادل فى العلاقات بين الدول، وعلى هذا النحو فإن المجتمع الدولى – دون أن يجبر على التدخل المباشر فى مشكلة معقدة – كان هدفه خلـــع الســـلاح بيـــن الجماعـــات غير المتصالحة فى الحرب وأن تحظى أفغانستان بنظام مستقر وهذا النوع من التفكير يبدو منطقيًا.

فقد بذلت المساعى بواسطة الدول المختلفة وتمت تحت عناوين كثيرة، ولكـــن كل يوم كان يزيد فى صلابة رأس هذه المجموعة لقد حيرت أعمال وأفكـــار هذه المجموعة الدنيا بأسرها، ولم يعرف العلماء وعلماء الاجتماع والمتخصصـــون من أين ظهرت فجأة هذه الأفكار؟ فى الوقت الذى وجد .. ويوجـــد هـــذا الـــنوع مـــن الفكـــر فى المجتمعات المتخلفة فى أفغانستان

والباكســتان ففــي كثــير من أنحاء أفغانستان والباكستان حتى هذه اللحظة الصـــلاة بالـــرأس عارية للرجال يعادل الكفر، وفى الأماكن المتمدنة قليلاً الصـــلاة والـــرأس عارية لا تجوز، ففى الباكستان حينما تذهب للصلاة فى المســجد وتــبدأ الصلاة ورأسك عارية سينهض أحد المصلين حتمًا ويضع قــبعة علــى رأســك؛ قبعته!؟ لا إنه يوجد فى كل مسجد كثير من القبعات وضـــعت على الحصير فى ركن حتى تستطيع أن تضع أحدها على رأسك لأنك تركت ركنًا مهمًّا فى الدين.

أذكــر أنــنى ذات مــرة ذهبــت مع صديقى القائد حسن فى پيشارو بالباكستان إلى مسجد للصلاة وهو مثلى يكره وضع القبعة على الرأس فى الصـــلاة، ووقفـــنا للصلاة وبدأنا بالدعوات، وبعد أن فرغنا من ذلك فجأة وضـــعت القـــبعات على رؤوسنا وكلما خلعناها وضعت مرة أخرى على رؤوسنا.

ولو يرى شيخ المسجد هذا المشهد سيكون معلومًا لمن سيكون الثواب ولمـــن سيكون العقاب، ولو تكون هناك بندقية فى يده سترى كيف ستكون المعاملة مع المجرم. وللحوار مع أفكار طالبان كان يجب المبادرة بإصلاح المـــدارس الدينـــية فعلى الأقل كان يجب أن يجتمع أئمة المساجد كل ثلاثة أعـــوام مـــن أطـــراف وأكناف المملكة فى عاصمة إقليمهم؛ ويدعى علماء الإســـلام الكبار ليقولوا لهم ما الذى يكون لو يصلى الرجل برأسه عارية. حيـــث إن إسلام حركة طالبان يضرب بجذوره فى تخلف المجتمع وجهله، والـــنوع الـــثانى من الإسلام هو الإسلام الثورى وهو يضرب بجذوره فى عمـــق العوامـــل السياسية فى المجتمعات، أما الإسلام الواقعى الحقيقى هو واحد وليس له أنواع أخرى؛ أما التفسيرات والتعبيرات المختلفة فهى ترتبط بعوامـــل شـــتى تعطى انعكاسًا وتصورًا سلبيًا عن دين عظيم مثل الإسلام.

لـيس الإســلام الذى يواجه وحده بمثل هذه المشكلات بل الأديان السماوية الأخـرى مـثل المسيحية واليهودية تواجه أيضًا بمثل هذه المشكلات، فى نظـرى أن الـدول وعلماء الدين متحدين مع سائر المؤسسات تستطيع أن تلعب دورًا مهمًا فى درء هذه المشاكل خدمة للبشرية.

لقد تركوا مسعودًا بمفرده حتى نهض الملاوات بالبنادق فى أيديهم من أكـثر المـناطق تخلفًا فى المملكة ليفهموه، لست أنت الذى تشرح الشريعة ولست أنت الذى تقرر الجهاد.

وبـدأ القـتل وسفك الدماء بواسطة طالبان ولم يرحموا شيئًا، وحينما يطـبق مفهـوم الشـريعة والجهاد بهذا الأسلوب والنمط كيف يكون الأمل والـتوقع أن يكثر أتباع هذا الدين؟! وكيف يكون مصير الشريعة التى جاء بها الرسول ﷺ لصلاح البشرية وخيرها؟!

فى الوقت الذى كانت فيه هذه الفرقة الجاهلة تدق السيوف على رأس الإســلام علـق كرسى أفغانستان فى المؤتمر الإسلامى حتى يُنار الضوء الأخضـر لهـذه الجماعــة الإســلامية. ولم يكن جديدًا أن يجابه مسعود المتطرفيـن فقد خلص للتو من حرب حكمت يار الذى هزمته طالبان، وهو الآن ضد مجموعة أشد تطرفًا من حكمت يار.

الفـترة الثالـثة من حياة مسعود أسميها **فترة المقاومة** وقد بدأت من سـقوط كـابل عام ١٩٩٦م؛ فى هذه الفترة كانت أخطاء مسعود أقل، ومن الأفضل أن نقول إن الظروف لم تعطِ فرصة لخطأ.

وكان أصغر خطأ يساوى فقد أفغانستان تمامًا بحيث تصعب إعادتها، وكمـا قلـت فـى مقدمـة هذا الكتاب: إن الهدف من كتابة هذا الجزء هو التعريف بأفكار وأسلوب ومنهج وسلوك مسعود وليس سجل أعماله.

نعود لنقطة أن مسعودًا هو الذى وضع نظرية الدفاع عن البلاد ويجب

أن ينظر إلى فكره فى حل المعضلات بدقة، ففى هذه المرحلة وضع نظرية الدفـاع على أساس المقاومة من الداخل والضغط من الخارج. ولما كانت أهـداف حركة طالبان لها جذور فى الخارج، أو بتعبير آخر: اتحد التدخل الخارجى مع العوامل الداخلية.

وضــع مســعود نظرية دفاعه مطابقة على هذا الأساس يعنى تشكيل جــبهة مــتحدة دفاعية فى الداخل وفرض الضغط من الخارج. أو بعبارة أخــرى: مــع تأســيس مسعود لجبهة متحدة أطلقت عليها وسائل الإعلام الغربية عمدًا (اتحاد الشمال) ليحد من تقدم طالبان، ومع نظرية الضغط من الخــارج يــريد أن تكــون الباكستان هدفًا للضغط لأنها كانت تقف خلف طالــبان، ولكــن القضــية لم تكن بهذه البساطة وقد وُجه مسعود فى كلا الجبهتين بعشرات الصعوبات.

أولاً لــم يستطع أن يتحد مع الجبهة المتحدة لأنه منذ أيام قليلة كانت هــناك إراقة دماء بين كلا الطرفين تحت ضغوط ظروف معينة، ولم تكن الحســابات قــد صفيت ولذلك لم يستطيعوا أن ينسوا بهذه السرعة، ولهذا السبب وفى أول ضربة هزم المتحالفون مع مسعود أمام طالبان وبقى وحيدًا وأمضــى فى الوحدة أيامًا عسيرة مملوءة بالصعوبة والمشقة. ولكن أخيرًا وفــق أن يصلح هزيمة الجبهة وتشتتها، ولكن فى الجبهة الخارجية فقد كان مســعود يتوقع أن يأتى الضغط على طالبان ولكن القضية كانت شيئًا آخر: فالباكســتان والإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية اعترفوا رســميًا بحكومــة طالــبان، وعلق المؤتمر الإسلامى عضوية أفغانستان، وأعطــت أمــريكا وهيئة الأمم المتحدة مجالاً لممثل طالبان فى نيويورك، ونهضت تركمنستان للوساطة، والكثير سكتوا وصمتوا.

وفــى كــلام مختصــر كانت الدنيا ترى منافعها فى العلاقات الهادئة

الطويلــة الأمــد أمام هذه المجموعة، إلا أن هذه الفئة فكرت وبسرعة فى تهديد مصالحهم ، فخطر طالبان والذى كان يتحصن خلفه الإرهاب الدولى وISI كــان العالم يظن أن بلادهم فى مأمن منه للفواصل الجغرافية، ولكن أحداث سبتمبر ٢٠٠١م دلت أن الخطر أقرب مما كانوا يظنون.

فـــى هـــذه الفترة ارتكب مسعود خطأين: أحدهما أنه نصب حكمت يار رئيسًــا للوزراء ولم يأت الخير منه أبدًا، فعلى العكس من الشكر اتهم مسعود بأنـــه كان يريد اغتياله. ولم يقل ولم يذكر لماذا لم يفعل هذا وما الذى منعه أن يفعل هذا الأمر.

الخطأ الثانى: مرت فترة طويلة على سفره لأوربا وكان يجب أن يقوم بسفر آخر فى بداية مجيء طالبان.

فـــى البداية حينما سلك الطريق لأوربا منفصلاً عن أمريكا كان يجب أن يفطن أنه يجب أن يتبادل الأفكار مع القطب الجديد.

لقـــد أثبـــت مسعود فى فترة المقاومة شخصيته مرة أخرى، وأضاف صفحة جديدة على تاريخ الحرية لشعب أفغانستان.

وللأسف إن أعماله التى كان يجب أن يعملها قبل ذلك قام بها فى آخر سنة فى حياته: تأسيس جبهة متحدة فى الداخل، إلغاء النشاطات الحزبية فى أمـــر الدفاع عن الوطن، تهيئة الجو لتأسيس هيئة سياسية، التعريف بأفكاره وشخصيته فى الخارج، والاهتمام بالعلاقات الخارجية.

استشهاد مسعود:

استشهد مسعود فى التاسع من سبتمبر عام ٢٠٠١م (١٨ سنبلة ١٣٨١ هجرية شمسية). كان مقتله بيد عربيين من المغرب، وفيما يبدو أنهما كانا حاصلين على الجنسية البلجيكية.

فلقـــد أقـــدم هـــذان العربيان أثناء إجراء حديث صحفى مع أحمد شاه مســـعود على عمل انتحارى وفجرا الكاميرا بعد أن وضعا فيها قنابل، فقتل أحمـــد شـــاه مســـعود وهما معه. ولم يعلن شخص أو هيئة مسئوليته عن الحـــادث وهـــذا يسد الطريق الذى يدل على أن عددًا كبيرًا ضالع فى هذه العملـــية. وأنا لا أقصد تحت هذا العنوان أن أدرس علل وكيفية قتل مسعود لأن الحقـــائق فـــى موضوع قتل مسعود يثبتها الكلام النهائى غير المذكور وهـــو فى سبيله إلى أن يذكر، ولكنى أريد أن أقول: إن مؤامرة قتل مسعود يشترك فيها العديد من الأشخاص والهيئات والحركات.

مختصر لحياة أحمد شاه مسعود:

ولد أحمد شاه مسعود عام ١٩٥٣م فى قرية جنگلك فى وادى پنجشير ودرس فـــى مدرســـة الاستقلال فى كابل ثم التحق بكلية پلتكنيك فى كابل، ودرس فـــى الكلية حتى منتصف العام الثانى. ومع انقلاب محمد داود عام ١٩٧٣م والذى كان يعتبره انقلابًا شيوعيًا انخرط فى صفوف المجاهدين.

وبدأ بممارسة النشاط ضد حكومة داود الذى أعطى الشيوعيين مراكز كبـــيرة وقضى على المسلمين المجاهدين، وطرحت نهضة شباب المسلمين مشـــروعًا للقضاء على النظام عن طريق انقلاب ولكن أفشى سر المشروع وقبض على كثير منهم وفر البعض الآخر ومنهم مسعود.

وفـــى عام ١٩٧٤م أقدموا على عمل انقلاب مرة أخرى وحصلوا على انتصـــار محدود فى پنجشير بزعامة مسعود، ولكن النتيجة كانت الهزيمة مرة أخرى. وفى عام ١٩٧٣ - ١٩٧٨م كان مسعود يقيم فى الباكستان واستمر فى النضـــال ضـــد داود. ومع الانقلاب الشيوعى عام ١٩٧٨م أصبح القلق حقيقة واقعـــة وآلـــت السلطة مطلقًا إلى الشيوعيين، وبدأ مسعود الجهاد المسلح ضد

الحكومة الشيوعية.

وفى عام ١٩٧٩م جاءت القوات السوفييتية إلى أفغانستان وبدأ الجهاد فـــى أفغانســـتان لصد العدوان، وبدأ مسعود الحرب ضد القوات السوفييتية وجعـــل مـــن پنجشير قاعدة له، واكتسب مسعود شهرة عالمية وقت الجهاد وعرف بأنه القائد البطل الحكيم والشجاع الصنديد.

ففـــى مـــدة عشـــر سنوات وهى طول تواجد السوفييت فى أفغانستان اشتبك فى معارك ضد السوفييت من سبعة إلى أحد عشر معركة خرج منها ظافرًا منصورًا وقد وضع الأساس العلمى لحرب العصابات الذى كان هدفه الدفـــاع عـــن الـــبلاد وأثبت صدق نظريته، ودخلت قواته إلى كابل ظافرة منصورة عام ١٩٩١م.

وعين مسعود وزيرًا للدفاع مع تشكيل أول دولة إسلامية فى أفغانستان وظـــل فى هذا المنصب حتى عام ٢٠٠١م، وأقصوه اسمًا مدة قصيرة عن هذا المنصب أما عمليًا فقد ظل وزيرًا للدفاع.

ومـــن عـــام ١٩٩١م إلـــى ١٩٩٦م اشـــتبك مسعود فى الحرب مع مجموعـــات مخـــتلفة كـــانوا يحاربون من أجل أهداف مختلفة، وبداية هذه الحـــرب قادهـــا حكمـــت يار الذى اتهم الدولة الإسلامية التى تأسست بعد انتصار المجاهدين بالائتلاف مع الشيوعيين وأعلن الحرب ضدها تحت اسم الجهـــاد، وبعـــد ذلك أخذت الحرب أبعادًا أوسع بعد انضمام عدد آخر من القوات التى كانت متحدة مع أحمد شاه مسعود إلى صفوف حكمت يار.

كانت باكستان كما هى دائمًا علاقاتها السياسية جيدة مع أفغانستان فى الوقت الذى ترتبط فيه بعلاقات عقائدية مع المخالفين، ولم تستطع أن تدفع بحكمـــت يـــار إلـــى رأس السلطة ولكنها أوجدت قوة جديدة باسم طالبان،

وجعلت خلفهم احتياطيًا من المتطوعين من جميع أنحاء العالم فزادوا من قواتهم أيضًا.

وفى عام ١٩٩٤م شغل مسعود فى الحرب ضد عدة جبهات وظهرت طالبان وفى البداية سايروا الجو وانضموا مع قوات الدولة وأزاحوا أعداءها من الطريق وتقبل العالم حركة طالبان فى الداخل والخارج بأنها نوع من الحل، وظهر العالم معهم على سبيل المسايرة ومجاراة الجو.

وقدمت طالبان إلى أبواب كابل بالأعلام البيضاء، وعندئذ نشروا البيرق الأصلى الذى كتب عليه الجهل.

وبدأت حرب دامية منذ البداية وسقطت كابل فى أيدى طالبان عام ١٩٩٦م وتجنب مسعود الحرب فى داخل المدينة ورجع إلى قاعدته الأصلية فى جبال الهندوكش وبدأ فى تجديد قواته، ومرة أخرى تكررت أيام صعبة على مسعود إلى حد أن تركه الجميع وحيدًا.

وبانسحاب مسعود من كابل طرح نظرية جديدة من أجل الدفاع عن البلاد عبارة عن المقاومة فى الداخل والضغط من الخارج، ولهذا السبب كانت الفترة من ١٩٩٦م إلى ٢٠٠١ تسمى باسم فترة المقاومة.

ولإجراء الخطة الدفاعية التى هى المقاومة فى الداخل والضغط من الخارج شكل فى البداية اتحادًا من القوات الداخلية المؤثرة باسم " الجبهة المتحدة الوطنية الإسلامية لإنقاذ أفغانستان" جبهة متحد ملى وإسلامى براى نجات أفغانستان" وأعضاء هذه الجبهة هم عبارة عن القوات التى كانت تحارب بعضها بعضًا حتى الأمس القريب وتعبوا بما فيه الكفاية.

وبعبارة أخرى أقام مسعود قلعة للدفاع محكمة باسم بنجشير، أبراجها وحوائطها زلزلت وتناثرت عدة مرات ولكن مسعودًا استطاع أن يصلحها.

ويقال إن مسعودًا وفق فى التشكيل مطبقًا لنظرية جبهة المقاومة فى الداخل، وكـــان تشكيل جبهة المقاومة هو تجربة لقدرة طالبان وعرف بسرعة أنها بمفــردها غــير قادرة على هزيمة المقاومة، ولكن باكستان دخلت الميدان بقواتهـــا الاحتياطـــية التى كانت تتشكل من المتطوعين الأجانب وأتباعهم، ومـــن الجائـــز أنه فى تاريخ الدنيا حتى الآن لم يجتمع كل هؤلاء الأجانب ليحاربوا دولة.

وسوف أذكر عدة دول فانتبه لهذا:

روســيا، وتاجيكســتان، وأزبكســتان، والصين، وانجلترا، وأمريكا، والكويت، ومصر، وتونس، والجزائر، والمملكة العربية السعودية، والفلبين، والباكســتان وأعــداد أخرى. ومن كل هذه البلاد حضرت قوات لمساعدة طالبان.

الجديــر بالذكــر أنهم أطلقوا اسم الجهاد على هذه الحرب، وبسيوف هــؤلاء المجاهدين الذين اجتمعوا من العالم أجمع لم يقتل إنسان آخر غير المسلمين.

ومــن أجل تطبيق الجزء الثانى من المقاومة التى أطلق عليها مسعود اســم الضــغط مــن الخارج كانت الصعوبات كثيرة للغاية، وأفتى علماء الباكســتان (إن جــاز لنا أن نسميهم علماء) بمشروعية القتال، وفى وضح النهار كانت ترسل آلاف الأشخاص إلى أفغانستان وصمت العالم الإسلامى إزاء هذه الكارثة.

وعلــق مقعــد أفغانستان فى المؤتمر الإسلامى وقبلت الأمم المتحدة ممــثل طالبان، واعترفت دولة الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية الســعودية والباكستان رسميًا بطالبان، أما أمريكا فقد قالت لمسعود فى عام

١٩٩٦م عن طريق مندوبتها السيدة رابين روفائيل فى المرة الأولى فى مطار بگرام وفى المرة الثانية فى مدينة ستاليف: إن حربكم ضد طالبان هى مشكلتكم الداخلية، والأجانب فى صف طالبان وهم الذين ساعدوكم فى الحرب ضد الاتحاد السوفييتى، أما الباكستان فهى لا تتدخل فى شئونكم.

إذًا فالجزء الثانى من نظرية مسعود والذى كان يوصى به وهو الضغط من الخارج صار معكوسًا ووقع مسعود نفسه تحت الضغوط، ولكن مسعودًا كان لديه اعتقاد جازم بصدق الطريق الذى كان يسير فيه وأقسم أنه سوف يقاوم حتى ولو بقى معه شخص واحد.

ولقد استمرت المقاومة تحت قيادة مسعود ست سنوات، وفى الوقت الذى لم يطرأ فيه أى تغيير فى الجبهة الداخلية والخارجية لصالح مسعود أغمدت الباكستان خنجرًا مسمومًا فى قلبه، وبعد يومين من استشهاده فى التاسع من سبتمبر عام ٢٠٠١م أصبح من المعلوم أن مسعودًا كان يحسن التفكير.

بدأ أحمد شاه مسعود طريق الجهاد والنضال وهو فى التاسعة عشر من عمره واستشهد فى سن التاسعة والأربعين، وأمضى ثلاثين عامًا من عمره فى كبد ومعاناة شديدة، ولكنه لم يحن رأسه إلا لله الواحد القهار.

إن تجاربه وعقيدته وخصوصياته الفردية والاجتماعية جديرة بالدرس والتأمل ونجملها فيما يلى:

كأن مسعود يؤيد عالمًا متعدد الأقطاب وأثناء تفتت الاتحاد السوفييتى كان القادة مجتمعين عنده فقال: إن نظام القطب الواحد ليس لصالح أفغانستان وليس لصالح العالم بأسره، وكان يتوقع أن يحدث اصطدام بغاية السرعة بين أمريكا والعالم الإسلامى.

كان يصف النظام العالمى الجديد لأمريكا بأنه نوع من الغزو والسيادة وقال: إن التاريخ يشير أن الدنيا لن تبق بقطب واحد.

وكـــان يتأســـف لعدم وجود زعامة فى العالم الإسلامى ويتعجب أن أوروبـــا مـــع كـــل هـــذه الاختلافات التاريخية اتحدت على أساس المنافع المشـــتركة، أما المسلمون فلا يوجد بينهم أى وجه شبه من وجوه الاشتراك والاتفاق فيجتمعون حوله.

كـــان يؤمـــن بالعلاقات الطيبة مع الجيران فى المنطقة، وكان يؤمن بالحل السلمى للمعضلات والمشاكل مع الباكستان، وكان يؤمن أن إسرائيل دولـــة معتدية وظالمة والارتباط معها بأى نوع من العلاقات يعتبر جريمة، وكان يتمنى القوة والرفاهية لأفغانستان، وأن يكون لها نظام إسلامى معتدل ومنتخب وترتبط بروابط طيبة مع كل بلاد العالم.

كـــان مسعود من ناحية العقيدة مسلمًا حسن الإسلام مستمسكًا بتعاليم ديـــنه وكان حنفى المذهب، وكانت رؤيته ناضجة بالنسبة للمذاهب جميعها، وكـــان يســـيطر عليه شوق عارم للعبادة وكان يتعفف عن أصغر النواهى الشرعية.

كانـــت تـــربطه روابط جيدة بأصدقائه، وكان لا يتجاوز عن أى خطأ أخلاقى مهما كان بسيطًا، وكان يتعامل مع الناس بوجه بشوش، وكان قلما يظهر فى المناسبات العامة وكان يهادن العدو، ولم يكن يقتل الأسرى ولكنه لـــم يكـــن يرحم الجواسيس. كان لديه تحمل وصبر يستحقان المدح والثناء ولديه بشأنهما توصية جديرة بالتعلم كان يقول: حينما تعن لك مسألة تجعل صبرك ينفذ خوف نفسك فورًا وقل: إننى أريد أن أتذرع بالصبر وعلى هذا الـــنحو ســـوف تتمرن على الصبر والتحمل، كان شجاعًا ويحب الشجعان،

وكـــان يشـــجع الأشخاص لمواهبهم وأخلاقهم وإبداعاتهم ويهيئ لهم المناخ المساعد لذلك.

وكان يرى أن الجهل عيبًا ويحث أصدقاءه على العلم، وكان لديه حب مفــرط للحديــث مع العلماء والأدباء، ولم يكن يتعب من السؤال والسماع. كان عقلانيًا إلى درجة كبيرة ولا يقبل شيئًا ما لم يقتنع به، كان دقيقًا للغاية حاد البصيرة حساسًا، وكان يمقت المبالغة والتملق ويخجل من الذين يفعلون ذلـــك أثـــناء الحديث. كان متواضعًا مع المتواضعين ومتكبرًا مغرورًا أمام المتكبرين المغرورين المتغطرسين.

كـــان السماع والرؤية للفساد والظلم يجعله عصبيًا، ولو ووجه بمجرم علـــى هذه الحالة كان هو الذى يعاقبه بكف اليد وقبضتها وبالعصا والركل ولكـــنه كـــان يتجنب الضرب على الوجه، وأصدر إلى قواده أمرًا ليس لهم حق ضرب المجاهدين على الوجه فى حالة العقاب.

كـــان يستطيع فى شدة عصبيته أن يكظم غيظه، ويكفى أن أى إنسان يستطيع أن يتقدم إليه ويطلب منه ما يريد بجرأة .

كان مسعود صاحب هيبة ووقار بكل ما تحمله الكلمة من معنى، كان حضـــوره يحـــس به فورًا فى المجلس، وكان كثيرًا ما يقع المخاطب تحت تأثـــيره ولأنه كان يتحلى بتواضع بسيط لا تكلف فيه فقد كان ينفر من أى نوع من الرسميات.

كـــان يـــراعى الآداب فى كل مكان وفى كل الأمور، أول جلسة معه كانـــت توضح وتبين تميزه، كان لشخصيته جاذبية، وكان لها حرارة، كان كـــل شـــخص يشـــعر أنه قريب منه، وكل من يعمل معه كان يستمد منه الحـــيوية والنشاط، وكان يسعد لذلك. ومن الممكن أن تمثل شخصيته عدة

شخصيات إنسانية فهو زعيم، ووالد، ورفيق، وشقيق.

ومـــع وجود كل هذه الصفات فى شخصية مسعود فإنها كانت خليطًا من البساطة والتعقيد، كانت معرفة شخصيته بالنسبة لأى إنسان مشكلة، كان يقرأ دائمًا وكان دائمًا يحمل كتابًا.

كان غالبًا ما ينسى قبعته وساعته ومتعلقاته ولكنه لا ينسى الكتاب أبدًا وكـــان حراسه يعرفون ذلك، وكان يسأل عن هذه الأشياء الواحد تلو الآخر عدة مرات طالما لا يجدها فى مكانها.

كـــان محـــبًا للرياضـــة البدنـــية وكـــان رياضيًّا كان يتقن البوكس، والـــتايكوندو، والفوتـــبال، وفوليـــبال السباحة ورمى الجمار وهى رياضة محلية، ومع أنه كان يحب السباحة إلا أن عدم المعرفة بها تجعله يخجل من العرى ويتجنب ذلك.

كـــان وجهـــه يحمر وتنفر شرايين جبهته حينما يخجل من شيء كان يحب الطيب من الغذاء وكان يأكل قليلاً ويشبع بسرعة، وكان يحب الحساء ويســـر بالكـــباب وكان يحب الفواكه بجميع أنواعها ولكنه كان يحب التفاح والكمثرى كثيرًا.

كـــان غالـــبًا ما يحتسى الشاى الأخضر وكان يسميه شاى الشجعان، وكـــان يحـــب الشورچاى حبًا شديدًا وهو نوع من المشروبات معروف فى ولايـــات بدخشـــان وتخـــار، والشورچاى يتكون من مخلوط اللبن والشاى الأســـود والملـــح وأحيانًا يكون مع عين الجمل والقشدة التى تغلى ولوجود الملح يكون هاضمًا قويًا. كان يلبس ألوانًا مشرقة وكان يحب اللون الأصفر الفـــاتح واللون اللبنى المشرق، كان دائمًا نظيفًا ويلبس ملابس نظيفة وكان يـــراعى النظافة والطهارة، كانت له شخصية جذابة فى كل مكان وفى كل

شيء، كانت قامته متوسطة تميل إلى الطول له رأس كبيرة مع شعر مجعد وكثـيف وأنف مقوس ووجه نحيف تبرز عظامه، كان أبيض البشرة رقيق الجلد جسده مملوء بالعضلات المفتولة ليس بها سمنة، وكان يمشى بسرعة وبثبات واتزان.

ولنتعرف قليلاً على أسرته:

تـزوج أحمـد شاه مسعود عام ١٩٨٨م من ابنة مساعده تاج الدين وهو الذى نناديه جميعًا بالعم تاج الدين، وكان العم تاج الدين مصاحبًا له منذ أن قدم إلـى پنجشير وبدأ الحرب ضد الحكومة الشيوعية كان مساعد مسعود الوفى له وكـان يشـتهر بينـنا بأنه ظل مسعود وعيناه وهذا حقيقى. فمن خلال عينيه النافذتيـن كـان يثير إعجاب مسعود، وكان يتبع مسعودًا كأنه ظله وقلما كنت ترى مسعودًا يمشى بدونه.

وتمـت مراسـم عرسه فى حضور عدد محدود من زملائه ورفاقه من نفـس البلدة، وبسبب أن السوفييت والحكومة الشيوعية كانوا يتعقبون مسعودًا لهـذا السبب كان يتنقل كثيرًا، وكان يعمل أعمالاً غير روتينية حتى لا يعطى الأعـداء فرصة فيباغتونه ولو كان الأعداء يعلمون بكل تحركاته ومكان إقامة أسرته لوجدوها فرصة جيدة للهجوم عليه، ولكن السوفييت والحكومة الشيوعية لم يوفقوا أبدًا فى ذلك.

ومنذ زواجه وأسرته كانت تتحرك معه فى كل مكان كان يذهب إليه، كانـت أسـرته تكون معه مع الحفاظ على مسافة معينة بينها وبينه، وكان مسـعود يعمل انضباطًا خاصًا على أسرته: مثلاً زوجته لم تر غير محرم أبدًا كان مسعود غيورًا على شرفه وكانت لديه حساسية مفرطة إزاء ذلك. ففى منزله كان أشقاء زوجته فقط هم الذين لهم حق الذهاب والإياب وطبعًا

هـذا الحكم لا يشمل النساء، وكان الرجال حينما يذهبون إلى مسعود كانت النساء تذهب إلى أسرته ويعرضن مشاكلهن ويبثون ما يعتلج فى نفوسهن، نسـيت أن أذكـر أن مسعودًا كان يعتنى بأمور المرأة فى حياته فكان يهتم بتعلـيم البـنات فى المدارس وبعملهن فى المستشفيات، وفى عام ١٩٨٢م حيـث كانت خسائرنا غير العسكرية جسيمة كان مهتمًا بخصوص المرأة، وتحت رعايته وضع الأساس لمعهد للسيدات بواسطة سيدة فرنسية متطوعة تدعى لورانس، واهتمامه الخاص بهذا الأمر كان جديرًا بالذكر.

أثمر زواج مسعود ستة أولاد أولهم ولد والباقى بنات، أولاده مثله لهم نـباهة ونجابـة، أمـا ابنه أحمد فهو يشبه أباه من نواحٍ متعددة، ونأمل أن يستطيع أن يأخذ مكان والده ويسلك نفس طريقه.

كـان مسعود يعيش فى منزل عادى من الطين اللبن ورثه عن والده، وفى عام ٢٠٠٠م جدد منزل والده طبقًا للرسم الذى وضعه، وهذا تذكار جيد عن استعداده للهندسة التى كان يأمل أن يأتى يوم ويكمل الطريق فيها. وفى الواقـع كان مسعود فى حياته لا يملك أرضًا ولا منزلاً شخصيًا، ولم يترك ميراثًا بعده سوى ملابسه وكتبه ولم يترك شيئًا آخر. بعد استشهاده ساعدتهم الدولـة بمنزل وقطعة أرض فقط، كان كل رأس ماله مقدار قليل من النقود لنفقاته الشخصية أعطاها له عدد من أصدقائه إهداءً له، كان حذرًا ومحتاطًا فى الصرف من بيت المال بل إنه اشتهر بالبخل فى هذا الأمر.

اصطلاحات مسعود فى أحاديثه اليومية:

كانـت الكلمـات الركيكة لا ترد على لسان مسعود مطلقًا، ولا يتذكر أحـد له مـثل ذلك حتى فى زمان الحرب حيث يسيطر على الأجواء عدم الصـبر، والتعب، والخشونة والجفاف، لا نتذكر كلمات مستهجنة أو قبيحة

من مسعود.

وانتبه إلى عدد من المصطلحات التى كان يستعملها فى ساعة الغضب: بلطجى أو الاصطلاح البنچشيرى : ثكلت أولادك.

فى التنبيه الخفيف: يا بنى آدم، يا بنى آدم!

فى التعجب: سبحان الله.

لضبط النفس عن الضحك والقهقهة : لا حول ولا قوة إلا بالله .

للنقد على فعل: لست نجارًا ولكنى أعرف اعوجاج اللوح الخشبى.

فى الشكر والحث على العلم: ليعطيك الله الأجر والثواب، لقد اشتريتنا، لقد أنقذتنا، لقد أسديت لنا خيرًا.

فى العجلة: عاجل ودون أن تتأخر لحظة.

فى توضيح تنفيذ الأمر: رويدًا رويدًا وبدقة.

وأحيانًا كان يستعمل اسم التفضيل: أحسن، أفضل.

آخر أيام مسعود:

كان مسعود فى السنتين الأخيرتين يبدو متعبًا ومنهكًا، وكان يؤلمه وجع ظهره بشدة لدرجة أنه كان يفرد قامته بصعوبة. فحينما بدأ طريق النضال فى التاسعة عشرة من عمره مرت ثلاثون عامًا وفى الأيام الأولى للجهاد كان يعمل ستة عشر ساعة مع قليل من الاستراحة لرفع التعب ومنذ اليوم الذى كان يمتلئ شبابًا وحيوية إلى اليوم الذى بدأ فيه البياضُ والهرَم يتسللان إلى شعره ومحاسنه فمنذ ذلك اليوم الذى كان يحارب فيه ضد الشيوعية وهو لا يزال فى حالة حرب إلى اليوم ضد الإرهاب .

ولكن حرب اليوم أشدة ضراوة من حرب الأمس، حرب اليوم مع

الإرهاب ولكن حرب الأمس كانت مع الشيوعية؛ لأن الشيوعية لها تعريف واحد ولكن الإرهاب كل إنسان يفسره طبقًا لميله ورغبته.

حقـيقة كانت رأسه مملوءة بالأفكار والأحداث، ولكن جسده وهو فى حـدود الخمسين لم يكن قادرًا على تحمل هذا العبء فبدأ يتعب ويتألم، كان الأطـباء يجيزون له الراحة أحيانًا لمتاعب ظهره وأسنانه ولكن كانت لديه فرصة قليلة للراحة.

فى أواخر أيام حياته أقدم على عدة أشياء وكان يجب أن يقوم بها قبل ذلـك. مـثل السفر إلى أوروبا وتشكيل جبهة سياسية فى الخارج، وتشكيل جبهة عسكرية وهيئة سياسية فى الداخل، منع أنشطة الهيئات فى أمر الدفاع الاهتمام بالحلفاء الاهتمام بالعلاقات الخارجية .

ومع أنه اقترب من نهاية رسالته ولكن لم يكن غافلاً ولأول مرة يقول فـى اجـتماع مـع عـدد من الأصدقاء: لقد رأيت رؤيا منامية، لقد رأيت الشـخص الـذى أعدنى للجهاد هو الذى ينيمنى ويربط ذقنى ويلقننى كلمة المـوت. ويقـول فى منزله بعد عدة أيام: إننى سوف أموت شهيدًا ثم يتجه إلى ابنه أحمد ويقول: ادفنى فوق هذه الربوة ثم يسأله: هل تستطيع أن تأتى إلى ضريحى مسرعًا مهرولاً؟

وأثناء ارتداء ملابسه فى المنزل كان يقول: هذا آخر لباس لى فى هذا المنزل، وحقيقة لم يلبس بعد ذلك ملابس فى المنزل ولم يتكرر هذا.

شـبكة أصدقائه السرية ونقصد بهم الصوفية كانوا مضطربين وغير مرتاحيـن فى أواخر أيامه، وكانوا يخبرون بالحادثة التى لم يعلم زمانها أو كيفية حدوثها إلا الله.

وكـان سفراؤه من خارج وداخل البلاد فى حركة دائبة إلى مسعود، ومـع هذه الرسائل التى كانت تحمل الأخبار السيئة كانت قلوبنا تتفطر من

أجلــه، بعض هؤلاء السفراء وصلوا قبل استشهاده وعدد بعد ذلك ولا أريد أن اسـتفيض فــي شــرح هذا . لأن دنيا التصوف فيها أشياء أكثرها غير معقولة حتى تصدق.

لقد كنت وقت حادثة استشهاده فى تاجيكستان ووصلت بعد ساعة إلى جسده المنهك الجريح المضرج بالدماء وكانت هذه آخر رؤيتى له.

الكــلام الآن عــن تاجيكستان واسمحوا لى أن أنقل لكم ذكرياتى منذ عملى هناك لأنه يرتبط بمسعود:

لقد أقامت أسرة مسعود مدة فى تاجيكستان فى مدينة دوشنبه العاصمة واستأجرت لهم منزلاً، وكان سبب إقامتهم هناك أن أسنانه كانت تؤلمه ألمًا شـديدًا، وأوصى الطبيب أنه إذا أراد أن يعالج أسنانه علاجًا جيدًا يجب أن يمكــث فى تاجيكستان مدة طويلة. ولهذا السبب أقامت أسرته فى دوشنبه، وكل فرصة كانت تسنح لمسعود كان يحضر إلى دوشنبه فيكون أكثر راحة إلى جوار أسرته، ويكون هو المضيف لنا.

وذات يــوم كــان يريد الذهاب إلى أفغانستان، وطبقًا لما هو معروف ذهبــت معه من المنزل إلى المطار حتى أودعه، وحينما خرج مسعود من المــنزل كانت ابنته الصغيرة نسرين معه وحينما ركبنا العربة سألت: هل هى أيضًا سوف تسافر معك؟ قال: لا إنها سوف تذهب إلى المطار فقط.

وكانــت هــذه هى المرة الثانية التى أرى فيها طفلته الصغيرة وكانت المــرة الأولــى فى مدينة دوشنبه حينما كنت ذاهبًا مع مسعود لأداء صلاة الجمعة جاءت مع والدها وجلست فى السيارة حتى أدينا الصلاة.

وعدنــا إلــى الســيارة فى الوقت الذى كان مسعود ينظر إلى طفلته ويــتحدث عــنها: إنها من بين كل أبنائى التى تهتم بى اهتمامًا زائدًا، إنها تعــرف حــتى طريقة لبسى وتعرف هل أنا ذاهب إلى مكان قريب أو بعيد

وكــلام من هذا القبيل حتى وصلنا إلى المطار، وركب مسعود الهليوكبتر مباشــرة وطار إلى أفغانستان ورجعت أنا متجهًا إلى المدينة فوقعت عينى علــى ابــنة مســعود التى كانت جالسة داخل السيارة بوجه حزين منقبض مهمــوم وهى تنظر إلى الهليوكبتر، فاقتربت منها ورأيت الدموع محبوسة فى عينيها وتبحث عن طريق تنهمر وتسيل ودارت فى رأسى فكرة المرح معها فالتفت إليها وبصوت زادها همًّا وغمًّا قلت: هل ذهب والدك حبيبك؟ وقلــت كلمــة ذهــب بطــريقة مشجية فانخرطت المسكينة فى البكاء فجأة فأمسكت عن الكلام بسرعة. لماذا مازحت هذه الطفلة البريئة؟! أظن أن كل الرجال هكذا أو أغلبهم. هذه القصة قصها عليه طارق - الذى يحب المرح والفكاهــة - شــقيق زوجة مسعود، ودون خبر قدم مسعود مرة ثانية إلى دوشــنبه وحيــن رجوعه كنت أودعه حتى المطار وكانت ابنته أيضًا معه فسألنى فى الطريق: حسنًا يا ريگستانى قص علىَّ كيف أبكيت طفلتى؟ طبعًا لــم تكن بطريقة العتاب ولكن القصة كانت طريفة بالنسبة له، ففهمت فورًا أن شخصًــا نقــل إلــيه مــا حدث ولم يكن هناك مجال للإنكار أو الفرار فوصــفت له مــا حدث دون حذف أو نقصان فنظر مسعود إلى طفلته وهو يضحك ويقول: لا تضايق طفلتى الصغيرة فإنها تحبنى كثيرًا، ولكى أرقق هــذه المزحة الحمقاء قلت: سيدى الرئيس هكذا النساء يجب أن يبكين مرة كــل أسبوع على الأقل وإلا يصرخن بالحق والباطل. فضحك مسعود على هذا الكشف الفلسفى بالنسبة لى ولم يعلق.

لقد بذل أحمد شاه مسعود أكثر من نصف عمره لتحقيق أهدافه السامية وحمــل هموم أمة بمفرده ولم يندم وكان يملأه الأمل. كان يقول: كل إنسان يعيش، المهم كيف يحيى وكيف يعيش.

لقــد أوقــف مسعود مدة ثلاثين عامًا من عمره لتحقيق هذه الأهداف الأربعة: الإسلام، أفغانستان، الشعب، الحرية.

كلمات بقلم أحمد شاه مسعود تحت عنوان ذكريات الأيام العصيبة:

"هــل أخاف الآن من الموت؟ يقينًا لا، أقسم بالله العظيم لا". فى الواقع إنـــنى سعيد باستشهادى وأومن إيمانًا كاملاً أن الله سيحقق ما وعد، وسوف يتجاوز عن أخطائى ويزيد فى حسناتى، وسيكون الخلود والراحة الأبدية من نصــيبى. إن مـــا يقلقـــنى هـــو بعد وفاتى ماذا سيفعل أصدقاء جهادى؟ هذا الاضطراب لا يجب مفجعًا بالنسبة لى لأن الله سيكون معهم وهو القدير وهو أرحـــم الراحمين، وإذا أغلق بابًا فإنه يفتح مائة باب. إننى أخاف من الأسر والاعـــتقال إذا قـــبض علىَّ الشيوعيون فإنهم سوف يحقروننى ويمعنون فى إهانـــتى وسوف يعذبوننى، وربما لا أستطيع تحت ضغوطهم أن أقاوم فأفشى أسرار إخوانى الذين يقومون بأعمال لصالح الوطن فى صفوف الأعداء.

يـــا إلهـــى إن الخير بيديك، إننى أتقبل الاستشهاد مائة مرة ولا أقبل الأســـر مـــرة واحـــدة، لا تجعلنى يا إلهى أسيرًا فى يد العدو، أنت خالقى أتضرع إليك ألا تجعلنى أسيرًا فى يد الأعداء.

(فـــى نهاية أول شهر من بداية الحملة السابعة للسوفييت التى تمت بتاريخ ٢١ إبريل ١٩٨٤م وادى خيلاب وهو قاعدتنا فى شمال أفغانستان) من كتاب مذكرات مسعود.

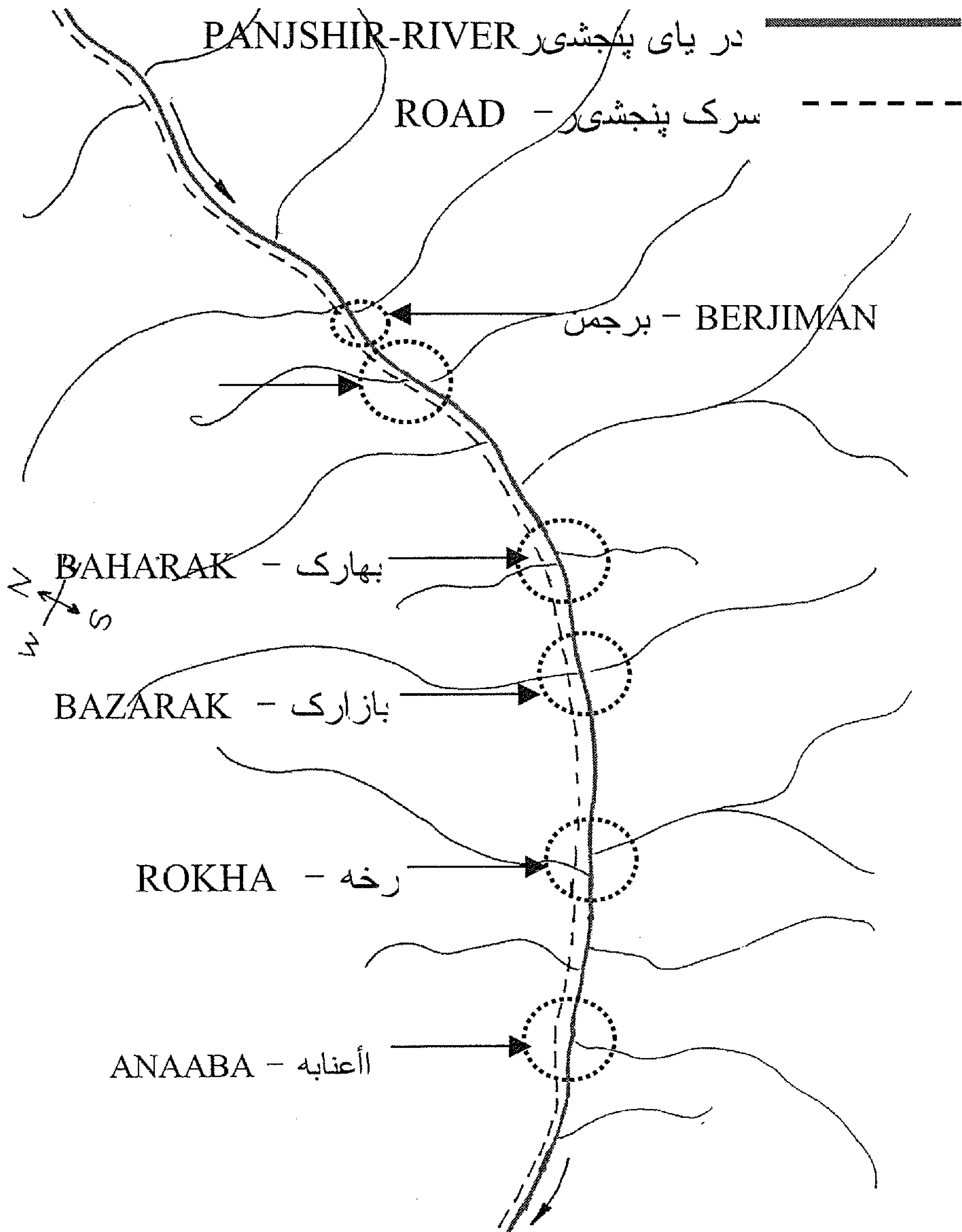
صور أحمد شاه مسعود



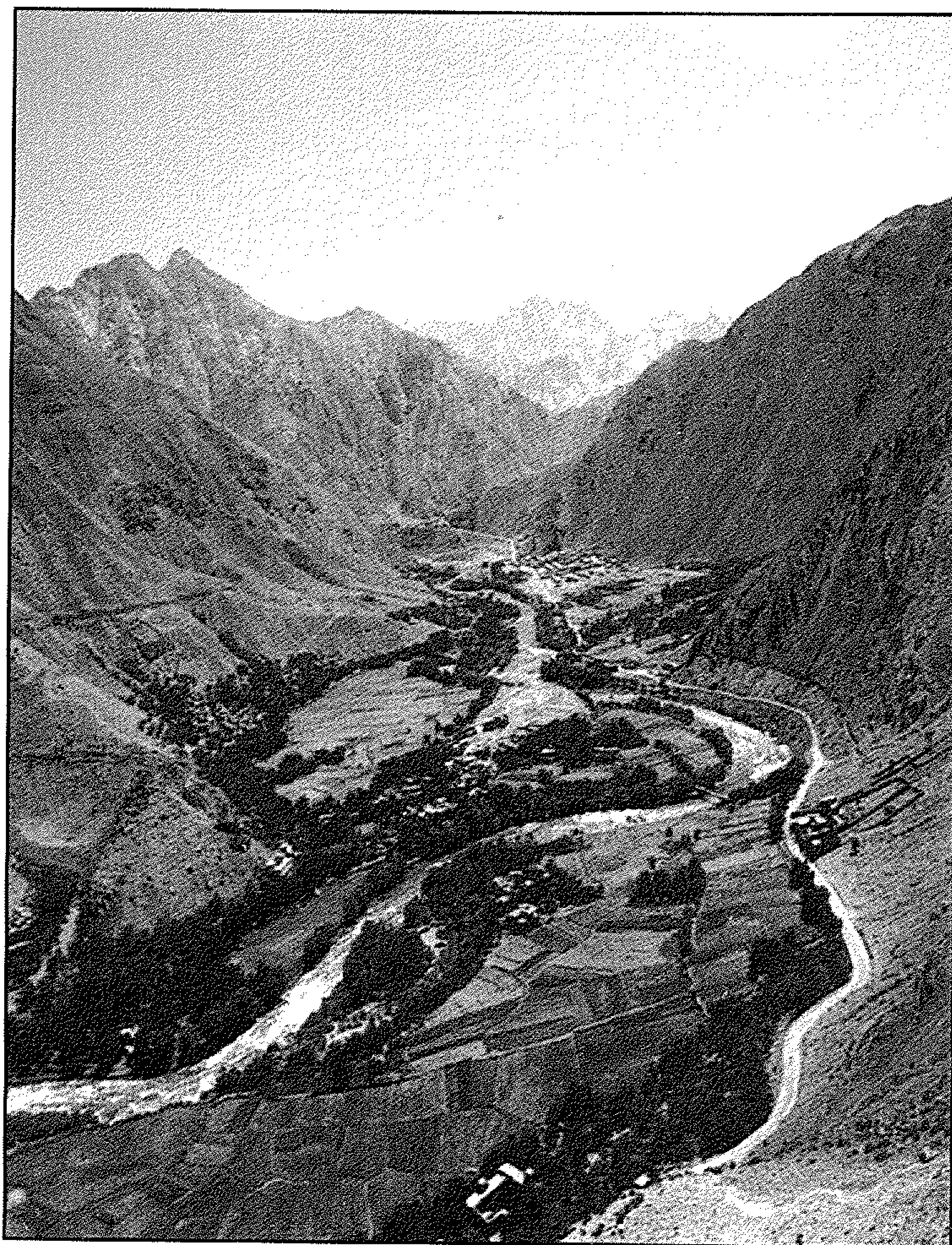
مسعود با پسرش أحمد مسعود سال ١٣٧٩ (٢٠٠٠م)

أحمد شاه مسعود مع ابنه أحمد عام ١٣٧٩هـ ش (٢٠٠٠م)

نمای از پنجشیر و دره های جانبی



خريطة لمدينة پنجشير وأوديتها الفرعية



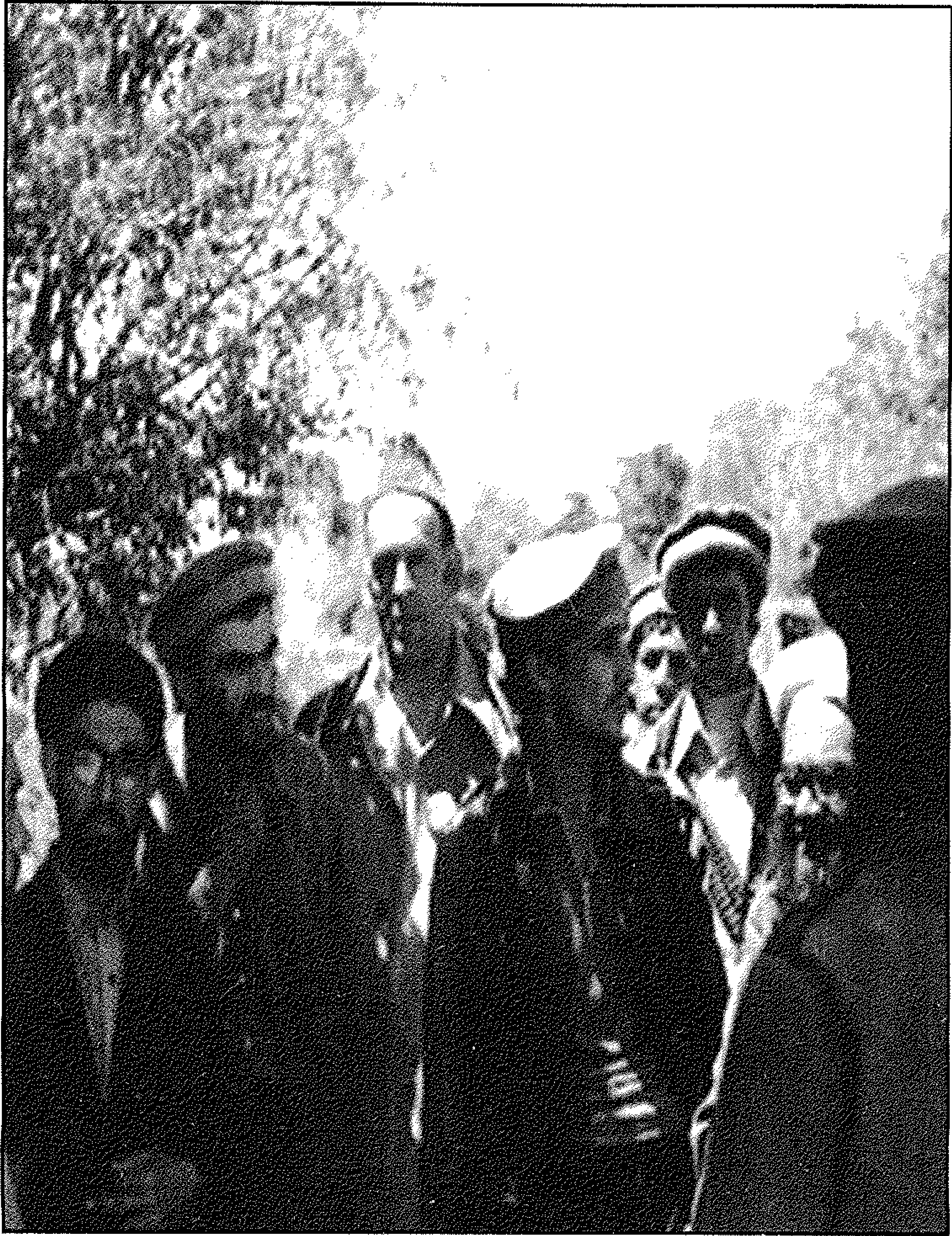
منظر عام لمدينة پنجشير



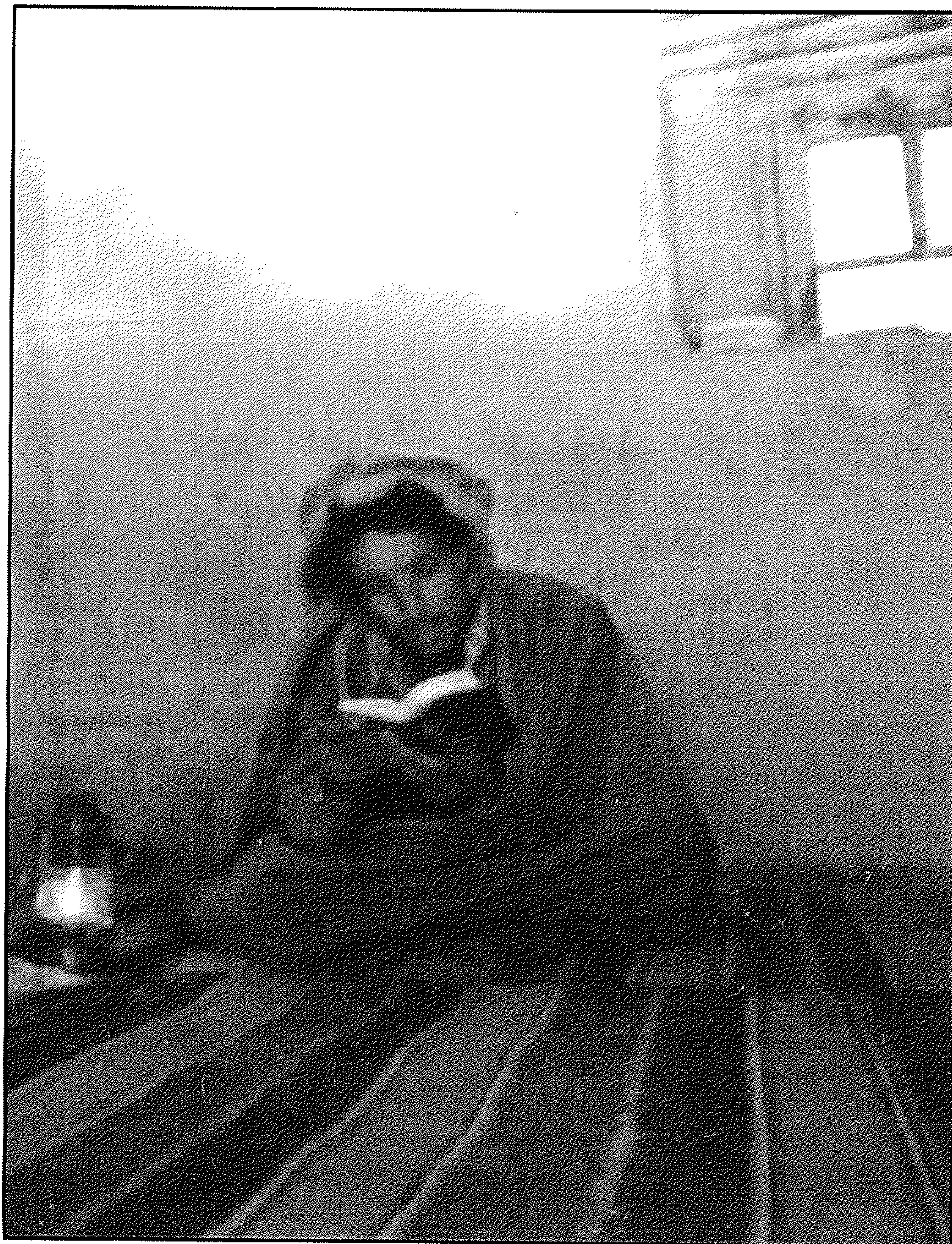
أحمد شاه مسعود مع زملائه فى مدرسة الاستقلال بمدينة كابل
فى المرحلة الثانوية



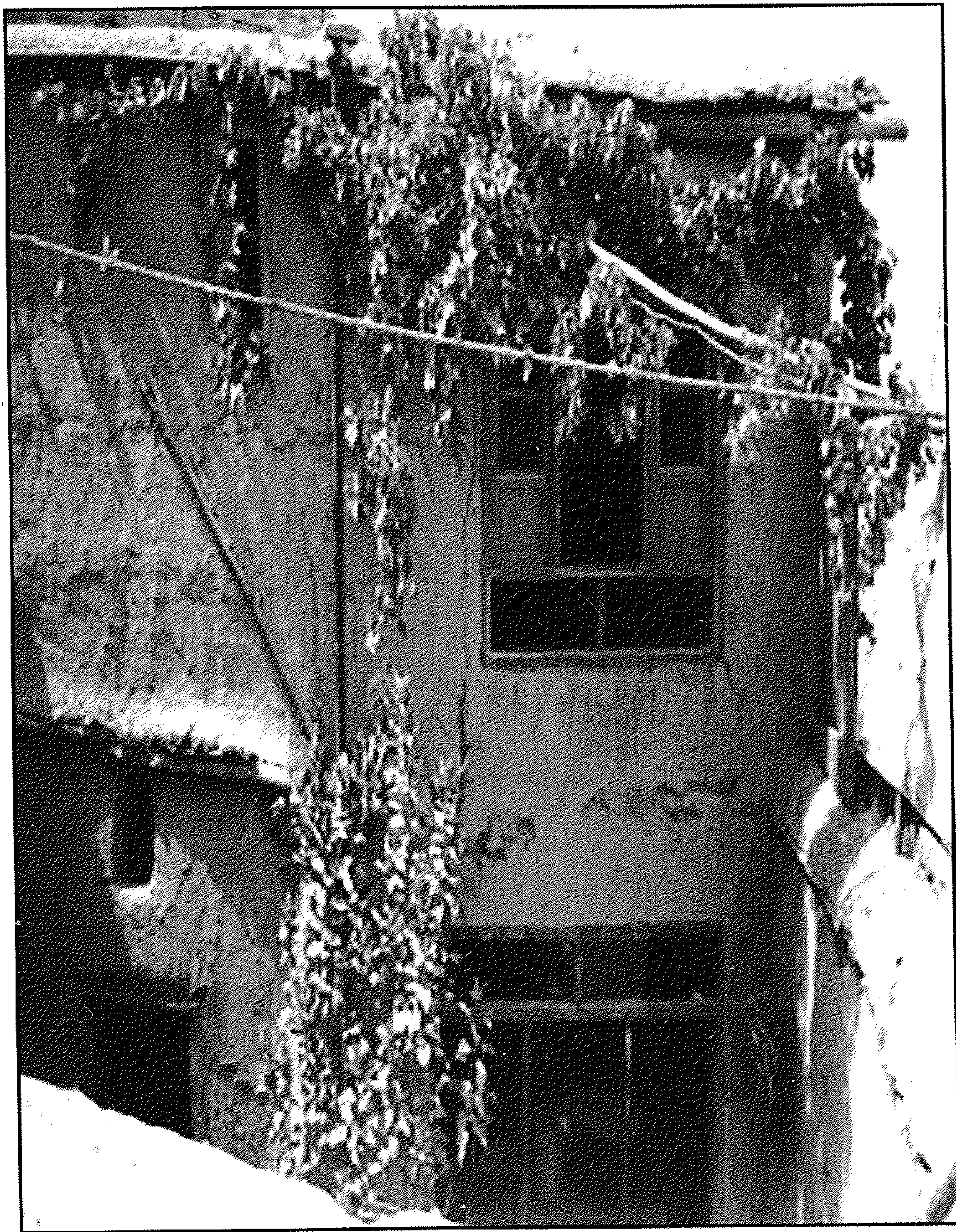
أحمد شاه مسعود فى بداية الجهاد عام ١٩٧٩م فى وادى نورستان



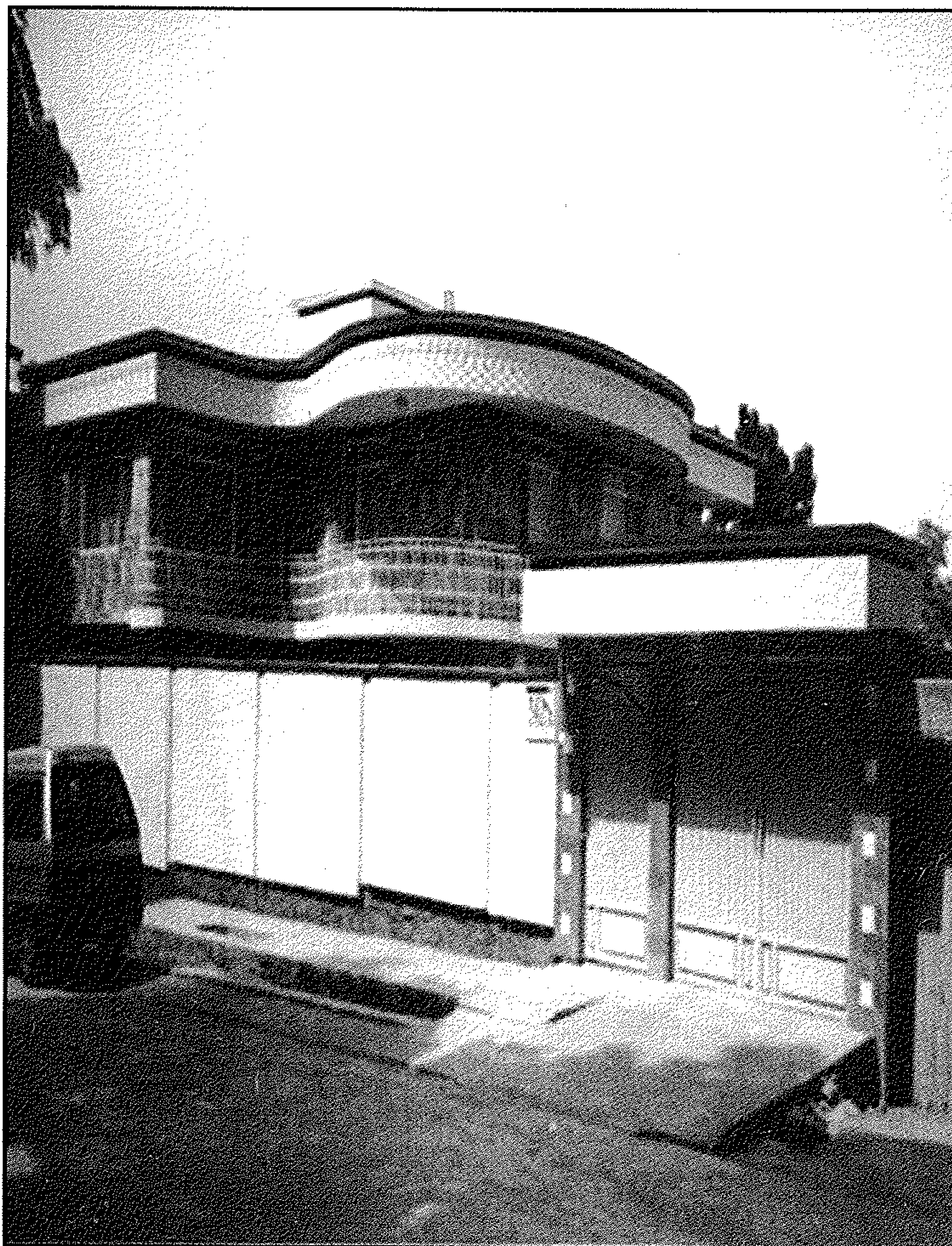
أحمد شاه مسعود فى مدينة بنجشير عام ١٩٨٠م فى قرية بازارك



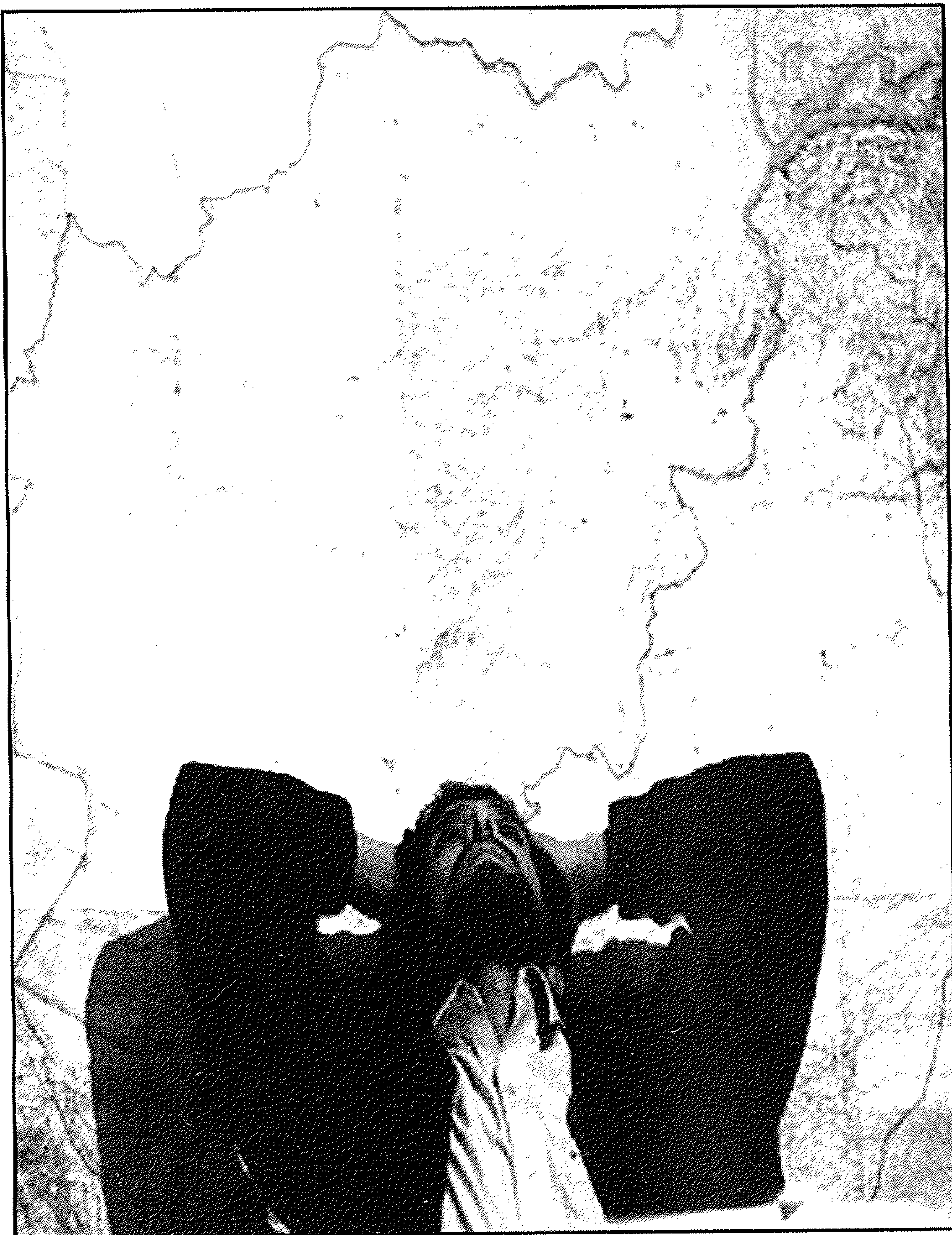
أحمد شاه مسعود وهو يقرأ القرآن الكريم عام ١٩٨١م



منزل والد أحمد شاه مسعود فى كارته پروان قبل الترميم



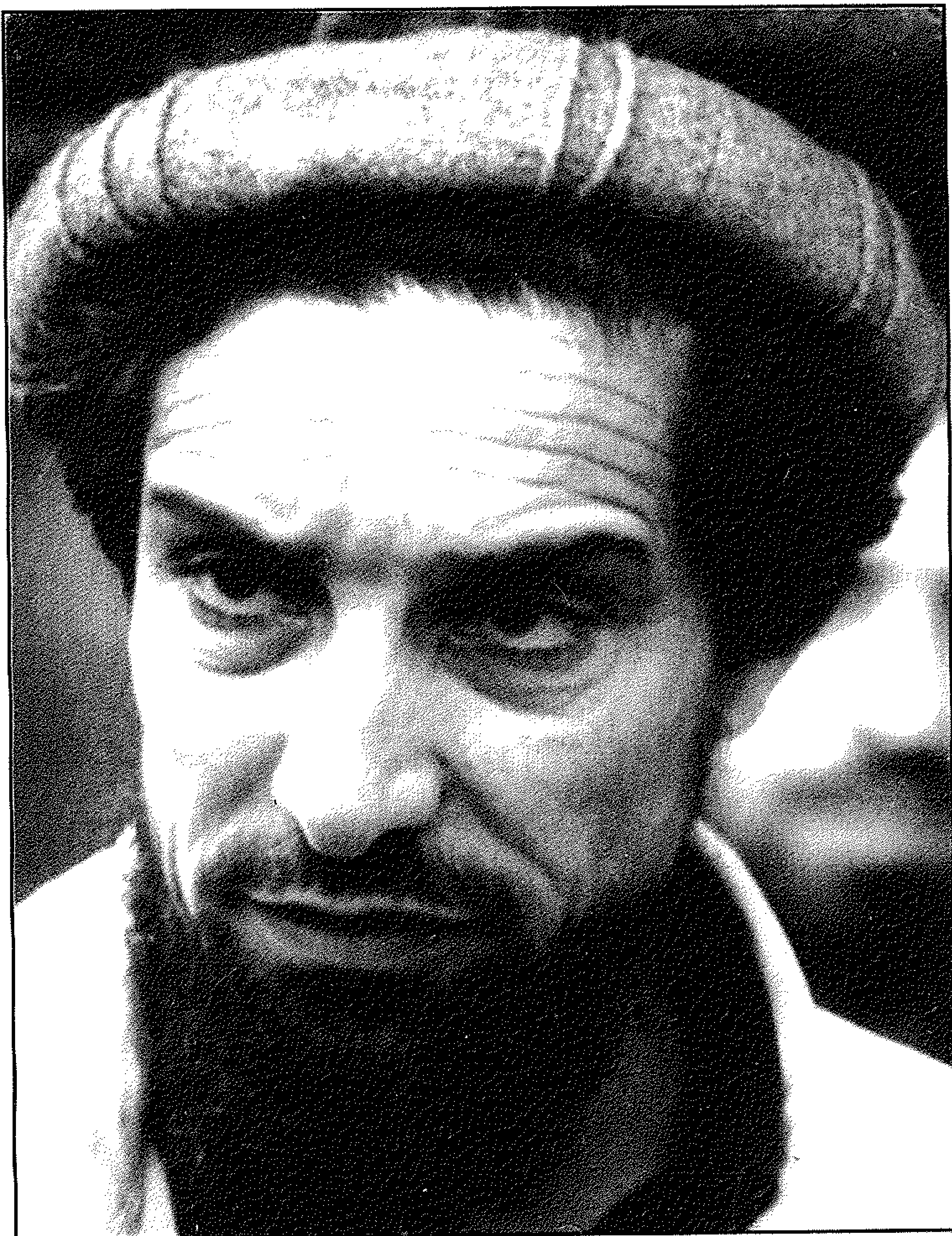
منزل والد أحمد شاه مسعود فى كارته پروان فى كابل بعد الترميم



أحمد شاه مسعود ينظر إلى خريطة أفغانستان التى علقت خلفه



مسعود يجلس بين أهل أفغانستان



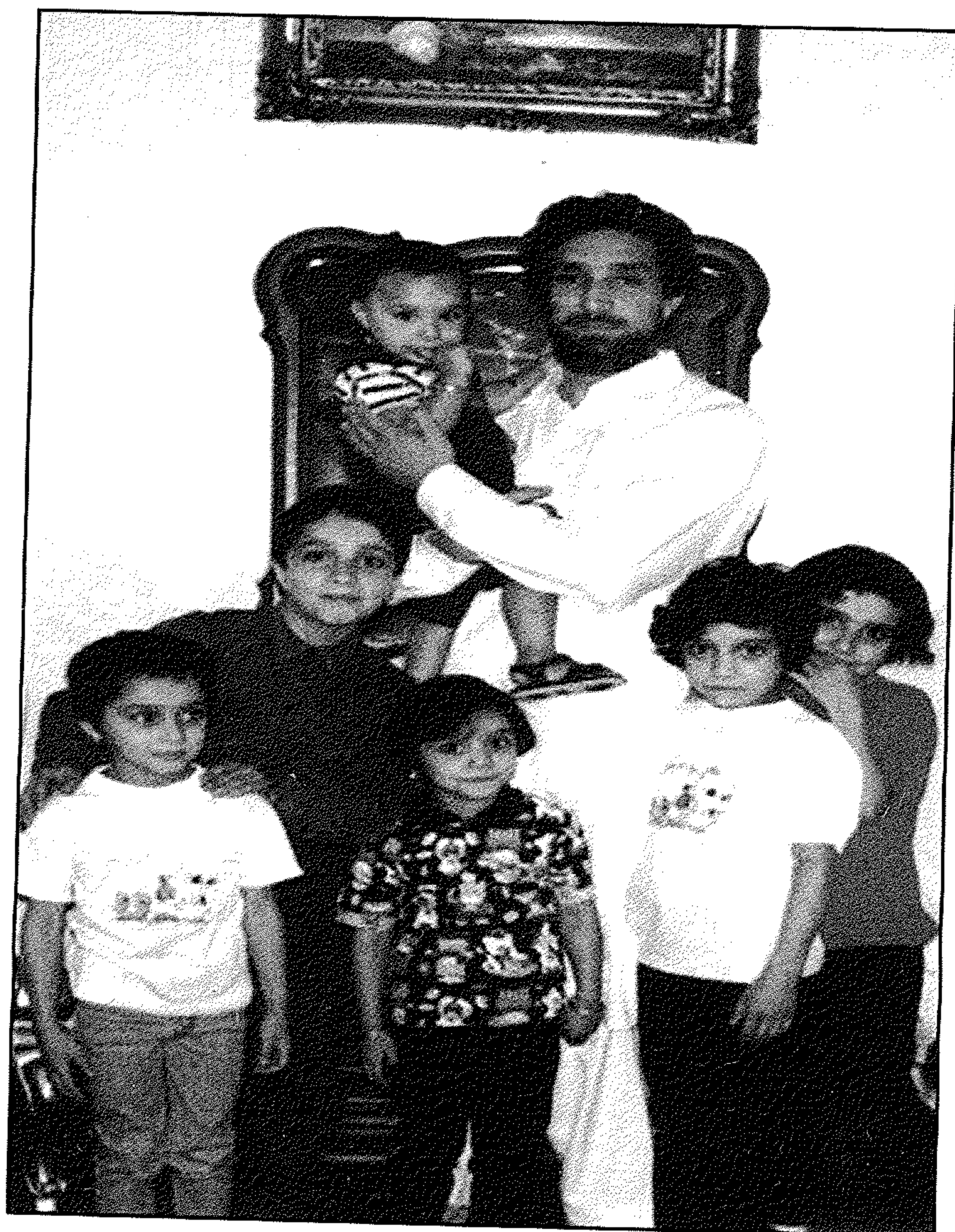
أحمد شاه مسعود عام ٢٠٠٠



أحمد شاه مسعود وصالح محمد ريگستانى عام ١٩٩٥م أثناء الحرب
ضد طالبان فى جنوب كابل



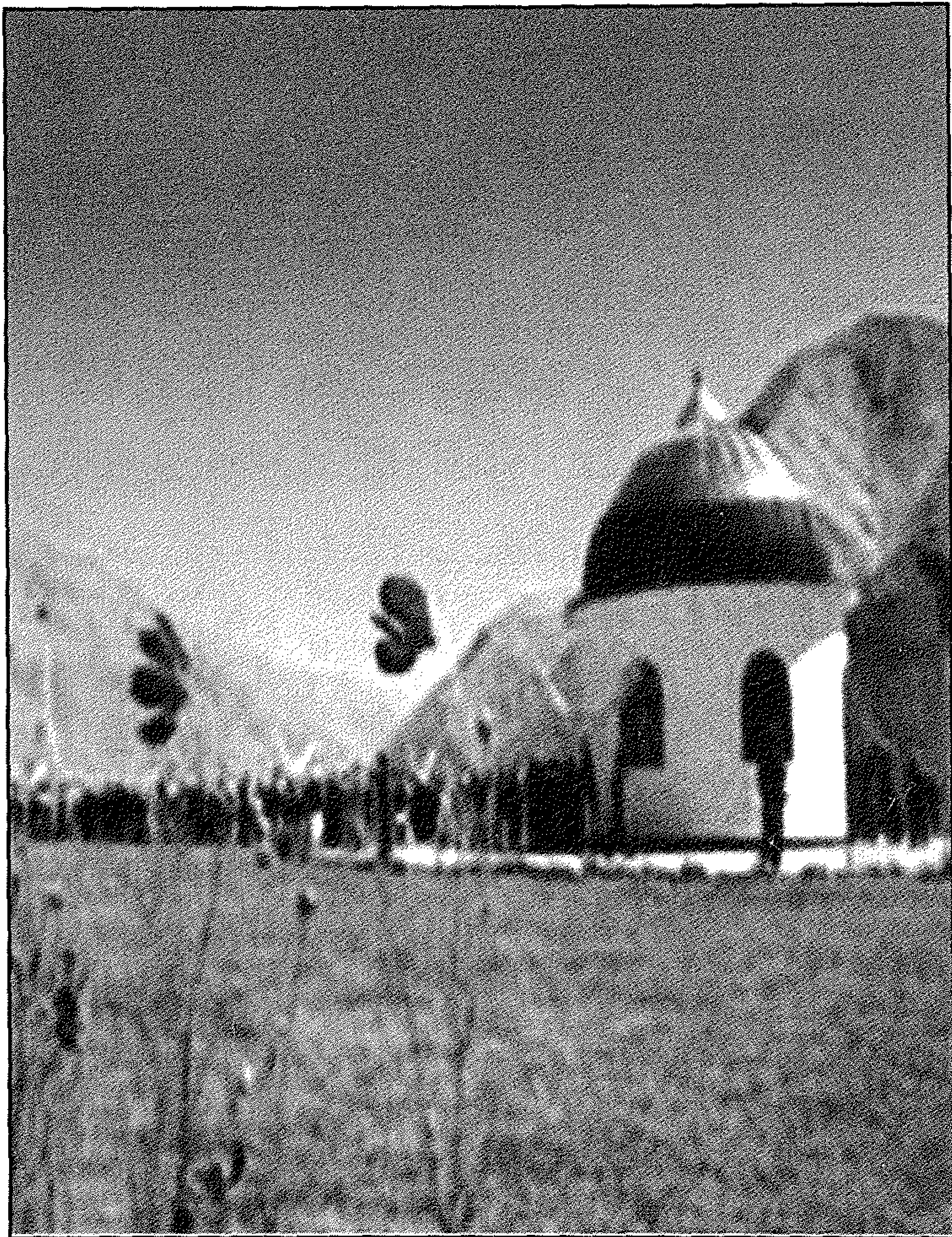
أحمد شاه مسعود يحمل هموم أفغانستان على كاهله



أحمد شاه مسعود عام ٢٠٠٠م مع ابنه أحمد وبناته الخمس



الجنرال الروسى أناتولى مع مؤلف الكتاب الأستاذ صالح محمد ريگستانى
عام ۲۰۰۳م فى موسكو



قبر الشهيد أحمد شاه مسعود فى مدينة پنجشير على ربوة سيد الشهداء

المؤلف فى سطور

الأستاذ صالح محمد ريگستانى أحد المجاهدين الذين لازموا أحمد شاه مسعود فى جبهة القتال، وظل يعمل إلى جواره حتى استشهاده عام ٢٠٠١م وكانت تجمعه به أواصر القربى، فكلاهما من مدينة پنجشير معقل القتال العتيد ضد الاتحاد السوفيتى السابق.

درس المرحلة الابتدائية فى مدرسة الاستقلال بكابل، ثم درس المرحلة الثانوية فى المدرسة الصناعية فى كابل أيضًا، والتحق بالجامعة العسكرية حيث تخرج ضابطًا، ولكنه تعلم فنون العسكرية والجندية من أحمد شاه مسعود، وتدرج فى المناصب العسكرية من مجاهد عادى حتى وصل إلى درجة معلم وقائد، ثم أسند إليه قطاع العمليات فى جيش المجاهدين بقيادة أحمد شاه مسعود.

فى عام ١٩٩٤م انتظم للدراسة فى كلية الحقوق والعلوم السياسية فى كابل، ولكنه لم يتم الدراسة فيها نظرًا لسيطرة حكومة طالبان فى ذلك الوقت.

من عام ١٩٩٧م إلى عام ٢٠٠٠م كان ممثلاً لأحمد شاه مسعود فى تاجيكستان، وعمل مستشارًا عسكريًا فى سفارة أفغانستان فى روسيا .

وهو الآن نائب عن دائرة پنجشير فى مجلس الشعب الأفغانى.

له العديد من المؤلفات عن فترة الاحتلال السوفييتى فى أفغانستان ومقاومة المجاهدين وشعب أفغانستان لهذا الاحتلال البغيض.

المترجم فى سطور

الأستاذة الدكتورة / عفاف السيد زيدان

أستاذ اللغة الفارسية وآدابها بكلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر.

أول سيدة عربية سافرت إلى أفغانستان لدراسة الدكتوراه فى الأدب الفارسى فى جامعة كابل.

۞ تولت العديد من المناصب فى جامعة الأزهر:

- رئيسة قسم اللغة الفارسية وآدابها بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
- رئيسة قسم اللغة الفارسية وآدابها بكلية الدراسات الإنسانية.
- وكيلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية.
- وكيلة كلية الدراسات الإنسانية.
- عميدة كلية الدراسات الإنسانية.

مقررة اللجنة العلمية الدائمة لترقية أساتذة اللغات الشرقية بجامعة الأزهر.

۞ لها فى مجال الترجمة العديد من الترجمات أهمها :

- **زين الأخبار للگرديزى** المتوفى عام ٤٤٣هـ. وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه الكتاب الوحيد الذى يُؤَرِّخ عن منطقة خراسان حتى تاريخ وفاة المؤلف لأن جميع الكتب التى أُلِّفت عن خراسان لم يتبق منها سوى هذا الكتاب ويقع الكتاب فى جزأين وقد طبع بالقاهرة.
- **العلاقات الأفغانية الروسية من عهد الأمير دوست محمد خان حتى ببرك من ١٨٢٦م – ١٩٨٦م تأليف الدكتور حق شناس.**

وترجع أهمية هذا الكتاب لتناوله الأحداث التى مرت على أفغانستان من منتصف القرن التاسع عشر والقرن العشرين كما يتناول تدخل الروس فى

أفغانستان ويركز على أهم الأحداث التى مرت بالمنطقة.

ولها فى مجال التأليف العديد من المؤلفات فى الأدب الفارسى منها:

(١) شاعر أفغانستان المعاصر خليل الله خليلى وقد طبع ونشر فى القاهرة.

(٢) الحب فى الشعر الفارسى وقد طبع ونشر فى القاهرة أيضا.

۞ المؤتمرات الدولية :

رأست العديد من المؤتمرات الدولية التى أقيمت بجامعة الأزهر، وأهم هذه المؤتمرات:

- **المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز:** وهو أول مؤتمر دولى يعقد عن آسيا الوسطى بعد سقوط الاتحاد السوفييتى، وطبعت أبحاث هذا المؤتمر فى ثمان مجلدات بجامعة الأزهر.
- **الدراسات الإسلامية عند غير العرب:** وقد دعى لهذا المؤتمر من العلماء على مستوى العالم، وطبعت أبحاثه فى سبع مجلدات بجامعة الأزهر.
- **الترجمة ودورها فى تفاعل الحضارات:** وهو أول مؤتمر يعقد عن الترجمة بجامعة الأزهر، ودعى له العلماء من جميع أنحاء العالم، وجاءت مطبوعاته فى ثلاث مجلدات كبيرة، كل مجلد ألف صفحة، وقد طبعت أعمال هذا المؤتمر فى جامعة الأزهر.
- **سافرت إلى إيران وأفغانستان بدعوة من حكومتيهما لتمثيل مصر فى عدد من المؤتمرات الدولية التى عقدت فى الدولتين الشقيقتين.**

المصادر والمراجع التى استخدمت فى مقدمة المترجم

۞ أولاً : المصادر والمراجع العربية

- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة – دار صادر – بيروت .
- أبو الفضل البيهقى : تاريخ البيهقى – ترجمة الدكتور يحيى الخشاب – صادق نشأت – بيروت ١٩٨٢م.
- ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية – طبعة مصر ١٩٢٣م.
- أبو العينين فهمى محمد : أفغانستان بين الأمس واليوم – القاهرة – ١٩٦٩م.
- إبراهيم أمين الشواربى : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى (مترجم).
- إحسان حقى (دكتور) : أفغانستان نشأتها وكفاحها – ٢٠٠٤م.
- أحمد عادل كمال : الطريق إلى المدائن – بيروت ١٩٨٤م .
- المقدسى المعروف بالبشارى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم – ط٣ – مكتبة مدبولى – القاهرة ١٩٩١م.
- أيمن صبرى فرج : ذكريات عربى أفغانى – القاهرة ٢٠٠٢م .
- صليب بطرس ورفائيل مسيحه: مشكلة أفغانستان – الترجمة العربية – ١٩٨٥م.
- ش . ن . حق شناس : العلاقات الأفغانية الروسية – الترجمة العربية د/ عفاف السيد زيدان – القاهرة ١٩٩١م.
- عبد الله عزام : شهر بين العمالة – باكستان – ١٩٩٦م .

- عباس محمود العقاد : عبقرية خالد – طبعة نهضة مصر .
- عدنان على رضا النحوى : ملحمة الجهاد الأفغانى – ١٩٩١م.
- عفاف السيد زيدان : شاعر أفغانستان المعاصر خليل الله خليلى – القاهرة ١٩٨٢م.
- فاروق حامد بدر : تاريخ أفغانستان من قبيل الفتح الإسلامى حتى وقتنا الحاضر – القاهرة ١٩٨٠م.
- فهمى هويدى : طالبان جند الله فى المعركة الغلط – الطبعة الأولى – ٢٠٠١م .
- محمد أمان صافى : أفغانستان النور والنار – ١٩٩٦م.
الأدب الأفغانى الإسلامى – ١٩٩٦م.
- محمد هوتك بن داود خان : الخزانة الخفية – الترجمة العربيى (محمد أمان صافى) – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة ٢٠٠٢م.
- ياقوت الحموى : معجم البلدان – م١ – دار صادر – بيروت .
- يوسف عبد الرحمن : القضية الأفغانية – الكويت – ١٩٨٩م.

ثانيًا: المصادر والمراجع الفارسية

- أحمد شاه فرزان مردى استوار – مشهد ١٣٧٨ هـ. ش.
- أحمد على كهزاد : تاريخ أفغانستان – المجلد الثانى – كابل – ١٣٢٥ هـ. ش.
- چنكيز پهلوان : أفغانستان در عصر مجاهدين وبرآمدن طالبان – إيران ١٣٧٨ هـ. ش.
- رضا زاده شفق : تاريخ أدبيات إيران – ط٢ – ١٣٥٢ هـ .ش.
- شمس الحق آريان فر : راست قامتان تاريخ – ١٣٨٠ هـ. ش.

- عبد الحفيظ منصور : پنجشير در دوران جهاد – كابل ١٣٧٩ هـ . ش.
- عبد الحى حبيبى : تاريخ مختصر أفغانستان (دو جلد) – كابل ١٣٤٦ هـ. ش.
- عبد الحى قابضانى : پنجشير ازديدگاه مؤرخين – بيشاور بدون تاريخ.
- عبد الغفار محقق : أفغانستان طالبان وسياستهاى جهانى – الترجمة الفارسية – بدون تاريخ.
- على قلى ميرزا : تاريخ وقائع وسوانح أفغانستان – ١٣٦٥ هـ . ش.
- فرخى سيستانى : ديوان حكيم فرخى سيستانى – تحقيق محمد دبير سياقى – تهران – ١٣٤٥ هـ . ش.
- فيض الرحمن وسيق وفضل الرحمن فاضل : مجاهدين در موسكو – سبتمبر ٢٠٠٢م.
- محمد إسحاق : نامه هاى از مسعود برزگ – كابل ١٣٨٢ هـ.ش.
- محمد ناصر : راهنماى كابل – ١٣٤٥ هـ . ش .
- وحيد مثرده : أفغانستان وپنج سال سلطه طالبان – ١٣٨١هـ.ش.

ثالثا: الدوريات العربية والفارسية

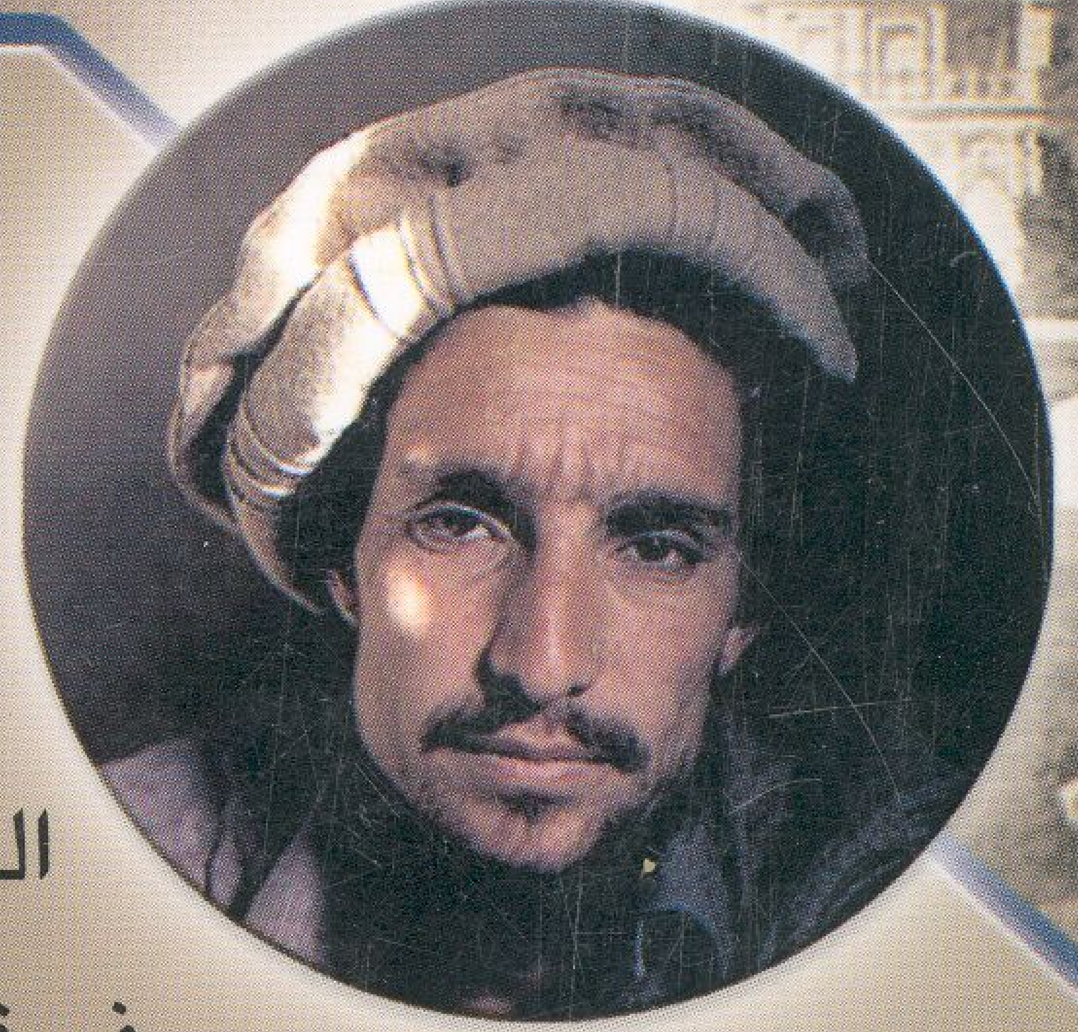
- الاتحاد الإسلامى لمجاهدى أفغانستان- مجلة التعريف بأفغانستان – پيشاور – بدون تاريخ.
- الأهرام – ٢٨ ديسمبر ٢٠٠١م.
- جريدة الحياة الصادرة بلندن – أعداد اكتوبر ونوفمبر ٢٠٠١م عن أفغانستان.

- مجلة آمو فصل نامه علمی فرهنگی – شماره (٥ – ٧) – زمستان – ١٣٨٠هـ . ش.
- سيمرغ پامير – مجموعة مقالات فارسية عن أحمد شاه مسعود طبعت فی كابل بدون تاريخ.
- ميهن – أفغانستان ٢٠٠١م – كابل .

رابعًا: النسخ الإلكترونية العربية والفارسية

- برهان الدين ربانی (بروفيسور)
شهيد راه صلح وآزادی.
- عبد رب الرسول سياف (بروفيسور)
مسعود مرد مؤمن ومعتقد.
- عزيز أحمد (بروفيسور)
أفغانستان ومقاومتهای ملی.
- علی أكبر دهخدا لغت نامه
- كودتای ثور وآغاز مرحله ی جديد مقاومت.
- الحياة – الطبعة السعودية ١٦ مارس ٢٠٠٦ حوار الدكتور موسی القرنی.

فهرس الكتاب



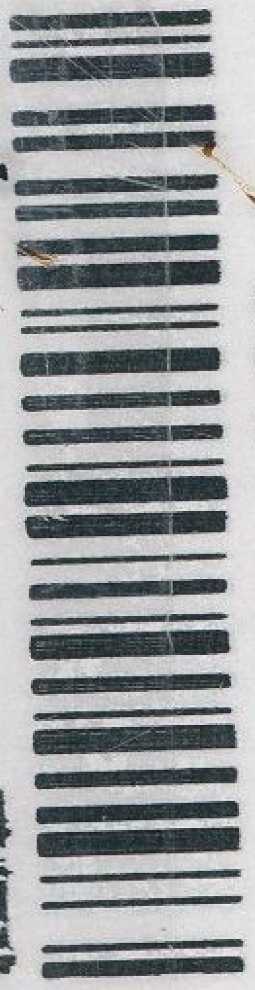
هذا الكتاب

هو أول كتاب يصدر باللغة العربية عن البطل الشهيد أحمد شاه مسعود وهو يتناول سيرة هذا البطل، ويكشف عن الوجه المشرق لجهاده من زميله ورفيقه فى الجهاد الأستاذ صالح محمد ريكستانى ويصور الفظائع والجرائم التى ارتكبها الاتحاد السوفيتى السابق فى أفغانستان وكيف روع الآمنين وأهان الشعب الأفغانى فى بلاده وشرده فى مختلف الدول المجاورة. ويلقى الكتاب أضواءً هامة على تاريخ المنطقة بأسلوب واضح يتميز بالنزاهة والحيدة.

والكتاب يتحدث عن الأحداث المهمة التى سبقت الهدنة التى أبرمت بين أحمد شاه مسعود والسوفييت عام ١٩٨٣م – ١٩٨٤م، وأوضحت الهدنة ما كان يجرى فى عقلية السوفييت بالنسبة لاحتلال أفغانستان وكيف كانوا يسعون للخلاص من هذا المستنقع البغيض الذى وضعهم فيه قادتهم حتى إنهم فى أحاديثهم الخاصة مع أحمد شاه مسعود أثناء المباحثات لم يتورعوا أن يسبوا قادتهم الذين جروهم إلى هذا النفق المظلم.

كما يلقى الكتاب الضوء على سيرة أبطال عظام قادوا الجه[...] أفغانستان إلى جانب البطل الشهيد أحمد شاه مسعود وبذلوا الغالى [...] فى سبيل الدين والوطن.

كما تحدث الكتاب عن كثير من المدن والقرى الأفغانية وأشار إلى [...] العادات والتقاليد الأفغانية مما يعد سجلاً مهماً يؤرخ للشعب الأفغ[...] واحتوى الكتاب على مقدمة للمترجم صورت فيها أهم المميزات التى أبرزت شخصية البطل الشهيد أحمد شاه مسعود وعبقريته الحربية.



سعر النسخة

ثلاثون جنيهاً مصرياً أو ما يعادلها